

د. عبد الفتاح مقلد الغنيم

الإسلام والعروبة

فكر السودان

د. عبد الفتاح مقلد الغنيم

الإسلام والعروبة في السودان

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



٦٠ شارع القمر المشرق - امام ربه الموقت - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهـداء

الى ابنى

أحمد ومحمد

أقدم لهما هذا الانتاج العلمى

لعله يضىء الطريق أمامهما لىواصلـا المسيرة العلمية ..

دكتور

عبد الفتاح مقلد الفنىمى

تصدير

السودان توأم مصر وما بينهما إنما هي روابط أزلية وليس حدودا سياسية أو مياه نهر النيل أو شمال الوادى وجنوبه ، إنما يربط السودان بمصر صلة الرحم الواحدة والأسرة الواحدة حيث القبيلة الواحدة بعضها فى السودان والبعض الآخر فى مصر ، إنها صلة دماء واحدة وأصول عرقية وتاريخية واحدة ومن هنا فإن ما جمعه الله لا يفرقه بشر ذلك الرباط المقدس الذى يجمع السودانى مع أخيه المصرى لا يمكن أن تنقسم عراه رغم كل المحاولات والدسائس ورغم كل المحاولات القديمة والحديثة انتى تحاك ضد الترابط المصرى السودانى ، فإن كل هذه المحاولات لا شك فاشلة كل الفشل لأن صلة الرحم لا تنقسمها المحاولات •

وهذا ما أشرت إليه من خلال تلك الدراسة عن الاسلام والعروبة فى السودان موضحا الدور المصرى الأخوى الثابت مع اخوة السودان منذ وطئت أنوار الاسلام ديار مصر والسودان فهل تكون تلك الدراسة تحديدا وتوضيحا لكل الذين يحاولون النيل من توأم مصر فى الجنوب ؟ ذلك لأن مصر ظلت دوما تعطى وتأخذ ، وما أعطته مصر للسودان هى الفرشة العريضة التى قامت عليها حضارة السودان وثقافته العربية الاسلامية ، فهل فى ذلك منازع فى دور مصر التى هى وما زالت قبلة العالم وصرة المعمورة المسكونة وملتقى الشرق والغرب ومجمع الشمال والجنوب فكيف لا تكون صلاتها وثيقة أبد الدهر مع السودان •

ان مصر قدر السودان ، والسودان قدر مصر فهل ما جمعه القدر يحاول أن يبعده بشر ؟ ان كل الذين يطالعون هذه الدراسة يعرفون البعد الحقيقى للروابط التوأمية بين مصر والسودان •

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

« تمهيد »

السودان جسر العروبة والاسلام محبب الى كل مصري وعربي
ومسلم لمكانته ودوره العربي الاسلامي في قلب القارة الافريقية
ولما يقوم به من دور في محاولة صبغ الحياة العربية الاسلامية فوق
ربوع أرضه ولعلاقاته بالدول الافريقية المجاورة .

ولقد كان السودان قريبا منى في دراستي الأكاديمية لدرجتي
الماجستير والدكتوراة اذ احتل السودان وعلاقاته جزءا هاما في هاتين
الرسالتين ، ولما كان وجود المادة في فحوى هاتين الرسالتين دافعا لى
لأن أقوم بتلك الدراسة الا أن الظروف لم تكن مناسبة للمضى في
تفاصيل دراسة اسلامية عن الاسلام لا سيما أن هناك العديد من
المؤلفات والأبحاث حول ذلك الموضوع ، لكن كل منها كان يعالج
الموضوع من زاوية معينة .

ولقد اطلعت على كتاب عن السودان ألفه أحد الاخوة السودانيين
وطبع عام ١٩٧٥ بالخرطوم يقول فيه بالحرف الواحد : يجب ألا ننسى
أن العروبة طارئة على السودان ، كما أن العرب قوم طارئون على
هذه الديار .

ولقد كان ذلك دافعا لان أقدم تلك الدراسة التي اثبت من خلالها
أن العروبة أصيلة كل الاصاله في السودان بل هي قديمة قدم الانسان
السوداني ، ذلك لأن الدراسات الاركيولوجية أثبتت أن العروبة في
السودان تعود الى القرن السابع قبل الميلاد وأن العروبة والاسلام
قد ازداد دورهما بظهور أنوار الاسلام وشمول السودان بتلك
الأنوار القرآنية التي لولا محاولات التبشير الاستعماري لما عانى
السودان من مشكلة الجنوب التي لا تزال تشكل عقبة في سبيل تقدم
السودان وتطوره .

ومن هنا كانت تلك الدراسة لمحة عن الاسلام والعروبة في تلك
الديار التي يقع عليها دور كبير في نشر العروبة والاسلام في
القارة الافريقية .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلالة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .. أما بعد

فتلك هي دراسة عن الاسلام والعروبة في السودان نضعها بين يدي الاخوة القراء الذين يتابعون حركة انتشار المد الاسلامي في أقطار الأرض المعمورة لكي يقفوا على العوامل التي ساعدت على ذلك الانتشار وما هي المعوقات التي حصدت ووقفت عقبة كداء في سبيل دخول ذلك التيار العربي الاسلامي الى أبعاده البعيدة .

كما أن تلك الدراسة عن السودان تقف عند الفترة التي قام فيها الوالي التركي محمد علي بفتح السودان عام ١٨٢٠م . حيث كانت السلطنات الاسلامية تمارس دورها السياسي في حكم السودان وقد قسمت تلك الدراسة الى سبعة أبواب :

تناولت في الباب الأول : دراسة معابر الاسلام الى السودان ، فتحدثت عن معبر برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء والبحر الأحمر وباب المندب ودور مصر باعتبارها نقطة انطلاق الى الجنوب وكذلك بلاد المغرب العربي حيث انطلاق القبائل العربية الى بلاد السودان .

وفي الباب الثاني تحدثت عن الهجرات العربية الى السودان فتناولت دراسة حركة الهجرة العربية الى تلك المناطق قبل الاسلام ، وكيف كان فتح مصر منطلقا لكثافة حركة الهجرة العربية ، ثم كيف جاءت مرحلة الأحلاف العربية في مصر بين القبائل العربية لتفتح المجال على مصراعيه أمام تلك الهجرات العربية .

وفي الباب الثالث : تحدثت عن الفتح الاسلامي لمصر والعلاقات المصرية السودانية وكيف ساعد ذلك على انتشار الاسلام وكثافة الهجرة العربية والدولة الطولونية والعلاقة مع السودان وكذلك الدولة الأخشيدية وأثرها في بلاد النوبة وزيادة الصلة ، والخلافة الفاطمية وموقف العلاقة مع أهل النوبة ، ثم دور الأيوبيون في بلاد النوبة ، وكذلك كان الفصل الأخير عن العصر المملوكي والنوبة الاسلامية .

وفي الباب الرابع تحدثت عن الممالك المسيحية وكيفية انتشار المسيحية ، وتحدثت عن مملكة مقره في العصر المسيحي وكيف انتشرت المسيحية بها ودور مصر في ذلك وكذلك عن سقوطها تحت الحكم الاسلامي وكذلك عن مملكة علوة وانتشار المسيحية بها والمذهب المسيحي السائد وكيف سقطت علوة وانتشر الاسلام بها .

وفي الباب الخامس ، تحدثت عن السلطنات والامارات الاسلامية التي قامت في السودان وكيف كانت الامارية العمرية (زعامة شتقير) بداية تأسيس أول اماره عربية في شمال السودان وكذلك تحدثت عن اماره بنى كنز العربية وكيف كان دور الكنوز عبر تاريخ السودان وكيف تولوا الحكم الاسلامي في دنقلة في العصر المملوكي .

كذلك تحدثت عن سلطنة الفونج ودورها في صبح الحياة الاسلامية في ذلك الجزء من السودان ، كذلك تحدثت عن مشيخة العبدلاب ودورها في مساندة الفونج وتدعيم نفوذهم وكيف ظهرت تلك المشيخات العزبية واستطاعت أن تقوض البناء السياسي لمملكة علوة ، كذلك تحدثت عن سلطنة الفور الاسلامية وكيف لعبت دورا هاما في تعريب السودان وخاصة في تلك المناطق الغربية (دارفور وكردفان) ، كذلك تحدثت عن اماره تقلى وأثرها في منطقة جبال النوبة وكردفان في اثراء الحركة الاسلامية .

وكان الفصل السادس فتحدثت عن القبائل العربية في السودان وركزت على معالجة أهم القبائل العربية التي نزلت الى تلك الديار وما قامت به من أدوار ، فتحدثت عن الجعليين وفروعهم وبطونهم

وعشائرهم وقبائلهم الصغيرة ، كذلك تحدثت عن الاشراف الطالبين
والحسينيين والحقافرة والبكرين والعمريين ، كذلك تحدثت عن قبائل
جهينة وفروعها ، والهواره وفروعهم وربيعه وفروعها ثم عن الهجرات
الحديثة فى القرن التاسع عشر مثل قبائل الرشايذة ، وعن بعض
الهجرات العربية الأخرى •

وعالجت فى الباب السابع مآثر الثقافة العربية الاسلامية ،
وتحدثت فى ذلك الباب عن الهجرات العربية ودورها فى الصبغة العربية
الاسلامية وعن الدور المصرى الاسلامى ، ودور الحجاز فى اثراء
الحركة الثقافية العربية الاسلامية ودور المغرب وبلاد غرب القارة
الافريقية فى اثراء الحركة الثقافية ودور جنوب الجزيرة ، ودور علماء
الخلافة العباسية فى بغداد وكذلك عن دور المراكز الاسلامية
السودانية كسنار والفاشر والدامر ، ودور ديار الشايقية والجعلين
ودور المؤسسات الاسلامية كالمساجد والكتاتيب والخلوى ، والمدارس
ودور رجال القضاء ورجال الدين والطرق الصوفية وانتشارها فى
السودان وكذلك الحديث عن الثقافة العربية الاسلامية وانتشارها فى
جنوب السودان وكل أنحاء البلاد ، وعن الطرق الصوفية وقلة الانتاج
العلمى الاسلامى •

وجاءت فى النهاية خاتمة ذلك البحث وقائمة المصادر والمراجع •
وانى لأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد جازيت بعض
الصواب فى معالجة ذلك الموضوع الذى اعترف أنه لا يخلو من الهفوات
والنواقص لأن الكمال لله وحده سبحانه وتعالى ولأن فوق كل ذى
علم عليم • والله ولى التوفيق ••

الملك فيصل — الهرم

٢٨ رجب ١٤٠٥ هـ — ١١ أبريل (نيسان) ١٩٨٥ م

دكتور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

معايير الاسلام الى السودان

لقد كانت جزيرة العرب دائما مستودعا بشريا ومبعثا لموجات بشرية هائلة في تيارات متتالية مدى العصور والأجيال وقد تعاقبت موجات من الهجرات العربية من شسبه الجزيرة العربية مندفة نحو الأقطار المجاورة حتى غمرت هذه الأقطار بالموجات البشرية المتلاحقة وقد كانت قارة افريقيا من الأماكن التي هاجرت اليها واستقرت بها هجرات عربية منذ أقدم العصور التاريخية ، بل وان تلك الهجرات ترجع الى عصور ما قبل التاريخ حيث وصلت بعض الهجرات العربية الى منطقة شرق افريقيا والى وادى النيل وشمال افريقيا ، ثم وصلت تلك الهجرات الى وسط القارة حيث استقرت تلك القبائل بعد أن انصهرت فى سكان تلك المنطقة أو بسطت نفوذها عليها ، بل أكثر من ذلك فانه من قديم الزمان كان العرب على صلة بوادى النيل ، وقد أنشأ العرب محطات تجارية هناك ومنهم من أقام وتزوج مع السكان المحليين •

ومن هنا فان الصلات العربية الافريقية صلات قديمة ممعنة فى القدم ، فقد بلغت هجرات العرب مداها فى عهد مملكتى معين وسبأ قبل الميلاد بسبعة قرون وكذلك نشطت حركة التجارة بين العرب وافريقيا فى زمن البطالمة والرومان وتوالت هجراتهم نحو افريقيا من جنوب شرق الجزيرة خاصة بنى حمير فى القرنين السابقين للميلاد •

وقامت دولتا الحبشة واكسوم نتاجا لتلك الهجرات وهذه النماذج واستمر العرب المهاجرون يتجهون نحو قلب القارة وتابع بعضهم نهر العطبرة أحد روافد نهر النيل الى أرض البجة •

ففى القرن الأول الميلادى كتب أحد الرومان يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقى لافريقيا ويشيد بقدرة العرب على العيش بين الأهلين حتى فى ذلك الزمان البعيد فيتزأوجون فتختلط الأنساب ولا يجد الخصام بينهم سبيلا وبين الأفارقة تجىء سفنهم من الجزيرة العربية ومن كل صوب وتقلع من الساحل الشرقى الافريقى •

وهكذا شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوبا وبطونا عربية تتطلق من قلب شبه الجزيرة العربية فى اتجاهات مختلفة ومنها أفريقيًا ، أولئك وهؤلاء كانوا شعوبا وقبائل سامية ، ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها وكلها من أصل واحد بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار • فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد الى الوجود •

ولقد نتج عن انتقال العرب من شبه الجزيرة العربية الى القارة الأفريقية على شبه أفراد وجماعات منذ عصور ما قبل التاريخ وعلى مر السنين والأجيال أن تزايدت المؤثرات العربية فى المناطق الأفريقية التى يسكنها العرب وعلى وجه الخصوص فى منطقة القرن الأفريقى ووادى النيل والشمال الأفريقى ، حتى أنه يمكن لنا أن نقول أنه عندما ظهر نور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى كانت هذه المناطق الإفريقية شبه عربية وقطعت فى طريق عروبتها منها شوطا طويلا عبر آلاف السنين وتجاوزت ما يمكن أن يطلق عليه المرحلة الاعدادية فى طريق العروبة أو ما قبل العروبة الصحيحة •

ومن هنا فان منطقة وادى النيل شماله وجنوبه كانت مناطق شبه عربية قبل ظهور نور الاسلام بعدة قرون •

ولقد سلكت هذه القبائل العربية فى طريقها الى منطقة وادى النيل وشرق القارة الإفريقية عدة معابر وطرق مختلفة فى طريقها من أوطانها حتى استطاعت أن تصل الى وادى النيل وقلب القارة حيث تهيأت لها ظروف الاستقرار فى تلك المناطق وذلك بعد أن وصلت من اتجاهات

ومناطق مختلفة ، ولكن في النهاية مهما كان الطريق الذي سلكته فانها استطاعت الوصول الى ذلك الموقع الغنى بالأعشاب والمياه حيث طاب لها المقام .

وسنعرف هنا لبعض المعابر التي سلكتها القبائل العربية في الطريق الى وادي النيل .

المعبر الأول — برزح السويس وشبه جزيرة سيناء :

لقد كان هذا الطريق معبرا يربط قارة آسيا بأفريقيا في جميع العصور والأزمنة الطويلة ، بل هو من أهم المعابر التي عبرتها الهجرات العربية الى أفريقيا وصولا الى مصر والسودان ومنها الى بقية الأجزاء في القارة الأفريقية ، ذلك لأن سيناء لم تكن حائلا بين القبائل البدوية المنتشرة في شمال شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا كانت سيناء معبرا بين جنوب غرب آسيا وأفريقيا وكانت إحدى ثلاث طرق رئيسية تأتي منها الهجرات العربية الى أفريقيا .

وتتقسم سيناء جغرافيا الى أربعة أقسام من الساحل الشمالي الرملي الذي يمتد من بورسعيد الى فلسطين والذي يتوسطه ظهر كبير عبر سبحة البردويل ، ثم باقى النطاق الثانى وهو الجزء الشمالى المتسع الذى يحتوى على قباب بيضاوية . ويليه نطاق ثالث كبير يشمل هضبة العجمة والتيه وهى هضاب جيرية قليلة المطر والعشب هذا بينما النصف الجنوبى من سيناء يمثل كتلة من الجبال النارية تقطعها الأودية العميقة وتنتهى بحافات انكسارية الى خليجى العقبة والسويس مما جعل الانتقال فيها عسيرا رغم وفرة ماؤها وعشبها لارتفاعها .

وقد اتبعت الهجرات والحملات التى عبرت سيناء الى مصر اقليم الساحل الشمالى ، ذلك لأنه أوفر مطرا ، كما استطاعت الكتيبان الرملية الاحتفاظ بماء المطر هذا ، وأن تسهل في نموها الحصول عليه على عمق بسيط ومن هنا جاء غنى منطقة الكتيبان بالماء غنى نسبيا ومعظم عذوبة هذا الماء كلما جاوزت العريش شرقا الى رفح .

ومن هنا ظل برزح السويس هو الطريق الرئيسى الذى تدفقت عبره القبائل العربية نحو وادى النيل ، غير أن دخول العرب الى السودان قبل الاسلام ترتبت عليه آثار عميقة اذ انحصر وجودهم أغلب الظن فى الجزء الشرقى ولم يضيفوا شيئاً جديداً للحياة فى تلك المنطقة لا من الناحية الثقافية ولا من حيث تغير الخصائص الانثروبولوجية والأثنية على السكان المحليين .

ولكن كان لهذا المعبر أهمية بشرية لها خطورتها باعتباره الطريق البرى الوحيد الذى يربط بين شطرى الوطن العربى الاسلامى فى آسيا وأفريقيا ومن هذا الطريق غمرت القبائل العربية مصر وسودان وادى النيل ووصلت فى زحفها عن طريق هذه الطرق والمسالك الصحراوية الى الوصول الى وسط القارة .

وعلى هذا فانه يمكن القول أن برزح السويس يعتبر أهم طريق سلكته الجماعات البشرية المتتالية كما ورد ذلك فى القرآن الكريم وسفر التكوين ، حيث سلكت هذه الموجات البشرية فى فترات متقاربة أو متباعدة تبعا للمصدر الذى ترجع اليه كل جماعة وافدة وحسب كثافتها المهاجرة أو قلتها . ولا شك أن هذه الهجرات والحركات البشرية من آسيا كان لهم أعظم الأثر فى تعمير أفريقيا .

كما أنه ليس ثمة شك أبضا فى أن الهجرات العربية السابقة على ظهور نور الاسلام قد مهدت الطريق لدخول الاسلام الى أفريقيا كما هيأت فتح العرب لمصر . والاتفاق السائد بين علماء الأجناس على أن هذه الهجرات القديمة جاءت عبر المعابر الثلاث والتي من أهمها معبر سيناء ثم استقرت فى مصر وفى السودان الشرقى ووسط القارة حيث حدثت هجرة الحميريين قبل المسيحية بحوالى قرنين من الزمان بعد انهيار سد مأرب .

المعبر الثانى - البحر الأحمر :

لم يكن البحر الأحمر يمثل عقبة أمام الاتصال بين الجزيرة العربية ووادى النيل ومنطقة شرق القارة حيث أن عبور كل جزء من أجزاءه لم يكن فى يوم من الأيام أمرا صعبا وكانت بلاد اليمن وما يليها الى الجنوب والشمال مصدرا لهجرات عديدة أثرت تأثيرا بالغا فى الهضبة الحبشية وأعلى النيل الأزرق والعطبرة وأرتيريا وسواحل السودان الشرقية وكانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبي لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من وسطه وذلك لوفرة سكان بلاد اليمن وما يليها الى الجنوب والشمال عددا •

ومن هنا كان للبحر الأحمر دور هام فى الربط بين قارتى آسيا وأفريقيا ذلك لأنه لم يكن منطقة عازلة بين القارتين ، بل كان دائما صلة وصل وحلقة اتصال عميقة منذ وجد الانسان على ظهر الأرض ، فقد خرجت الهجرات البشرية من الجزيرة العربية عابرة ذلك البحر الى أفريقيا •

وكان اقليم الحجاز على صلة قوية بالشواطىء الأفريقي الغربى المقابل قبل ظهور الاسلام ، ومن هنا فان اقليم الحجاز اتصل اتصالا مباشرا بالجانب الأفريقي المقابل ، ومن هنا فان البحر الأحمر لم يكن حاجزا يمنع بين شواطئه الآسيوية العربية وشواطئه الأفريقية ، فلم يكن من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة •

المعبر الثالث - معبر باب المندب :

لقد كان هذا المعبر ولا زال يمثل مصدر تيار هجرة بشرية منذ أقدم العصور حيث انتشر سكان الجنوب العربى على السواحل الشرقية للقارة الأفريقية ثم توجهوا شمالا وغربا بحيث استقرت منهم جماعات عربية فى بلاد الحبشة والسودان وتسربت أعداد كبيرة منهم بعد ذلك غربا وعليه فقد كان طريق باب المندب من أهم طرق الهجرة وكذلك أهم

طرق التبادل التجاري والحضارى قبل الاسلام حيث ترك عرب الجنوب في الجانب الأفريقي أثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى ذلك لأنه من المعروف تاريخيا أن عرب اليمن قد هاجروا الى الحبشة وهضبتها ونشروا فيها ثقافتهم العربية في وقت يرجع الى عهد بعيد أيضا وفي الحق لقد كان نقطة الانطلاق في تاريخ الحبشة تتصل اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية ، اذ تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارا أحيانا على جبال الحبشة المنيعه وسهولها الواسعة وطورا مع الوقت حضارة أثيوبية فأضافوا عليها من حضارتهم سمات كثيرة ، وأقدم آثارهم المخطوطة نحتا ترجع الى القرن الرابع الميلادى وان كنا نرجع العلة الى قرون عديدة قبل ذلك ، واذا كان هذا التأثير العربى قد وصل حدود السودان كما نعرفه الآن ، فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود ، وهل كان مقصورا على القبائل اليمنية ذلك لأن من الصعب أن نتصور أن هذا التأثير لم يتناول غير الحبشة أو أن اليمن وحدها هى التى كانت مصدر لتلك الهجرات ، ان سكان الحجاز في أوائل عهد الاسلام كانوا يعرفون الحبشة تمام المعرفة .

كما أن البحر الأحمر يضيق اتجهنا جنوبا حتى يكاد الشيطان أن يلتقيا ومن المعروف جيولوجيا أن منطقة باب المندب وما فيها من جزر كانت أقرب بير الجانبين مسافة عما عليه الحال في العصر الحاضر، لذا فإن قيام علاقة وصلة بين اليمن والحبشة أمر طبيعى بل ان بعض الباحثين يذكر أن كلمة حبشة ومنها الأحباش يرجع أصلها الى قبيلة حبش العربية وهى أقوى القبائل العرسية التى هاجرت من جنوب بلاد العرب في الفترة ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد واستقرت في افريقية ، ولم يأت القرن الرابع الميلادى حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على المنطقة التى استوطنت شمال الحبشة .

كما أن الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم بشأن حجم الهجرات العربية الى الحبشة ومنها الى شرق السودان فقد اتفقوا جميعا على أن هناك هجرات عربية شملت أعدادا من التجار استقروا على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر في منطقة الحبشة وبمرور الزمن ترايدت أعدادهم

وكونوا مراكز تجارية في مناطق متفرقة ، فتكونت مراكز حضارية عربية ظلت لفترة طويلة على صلة بالوطن الأم وبمرور الزمن اختلط العرب بالوطنين الأصليين • وقد أدى قيام تلك الصلات القوية الى تقوية العلاقات بجنوب الجزيرة العربية •

ولم تقتصر صلات العرب بالحبشة قبل الاسلام الى المناطق القريبة من باب المندب بل ان هذه الصلات والعلاقات امتدت الى منطقة الحجاز حيث كانت الأراضي المجاورة للحجاز غرب متجرا لقريش وقد تبادل العرب وسكان تلك المناطق الكثير من المؤثرات اللغوية والحضارية •

ومع ازدياد الهجرات العربية قبل الاسلام الى الحبشة في عهد دولتي معين وسبأ حيث توغل العرب غربا الى وادي النيل واستقر بعضهم في أجزاء مختلفة من حوض النيل ثم تبعهم عدد من أقاربهم وأهلهم ، وتشير بعض الروايات الى قيام الحميريين بحملات عسكرية في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقيا وان هذه الحملات تركت جماعات استقرت في بلاد النوبة وأراضي البجة وشمال افريقيا ويبدو أن هؤلاء الحميريين ورثوا حكم هذه البلاد نتيجة للمصاهرة التي تمت بينهم وبين الحكام فورثوا الملك طبقا لنظام التوريث بالأمومة الذي يورث ابن الأخت أو ابن البنت كما نقل الحميريون أسماء أجدادهم الى السودان مثل كوة ، دارو ، سبأ •

ويرى بعض الباحثين أن اسم سوبا عاصمة مملكة علوة تحريف لكلمة سبأ وبهذا فانه يمكن القول أن عرب الجنوب كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام •

ولهذا فأن هذا المعبر هو المدخل الذي دخلت منه أقدم الأجناس التي عمرت القارة منذ أقدم العصور ومكنت الجزر الواقعة في مدخل البحر الأحمر من اجتياز ذلك المكان بسهولة حيث اتخذت هذه الجزر مراحل للهجرة وأكبر الخن أن المسافة بين قارة آسيا وأفريقيا كما

ذكرنا كانت أكثر تقارباً بين الشاطئين مما عليه هي الآن • وقد ساعد ذلك على سهولة الانتقال ويمكن تلك القبائل من الانتشار وفي الدخول الى منطقة وسط السودان •

المعبر الرابع - المعبر المصرى الى السودان :

تشير الوثائق المصرية القديمة الى كثرة القوافل التجارية التى كانت تسير من مصر الى السودان وهى قوافل السير جنوباً وأصلت الى أيام الدولة الوسطى حتى كرمة وهناك ما يؤكد وصول مثل هذه القوافل المستمرة الى كردفان وحدود أثيوبيا وشمال منطقة السدود والعربية التى ترعرت على حوض وادى النيل الشمالى أثر كبير على فى الجنوب من ناحية أخرى •

وهكذا كانت مصر وتجارها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تتوغل بطريق النوبة اما الى غرب السودان واما الى بحر المغزال واما فى النيل حيث يعيش الأقزام كما بدأت المعرفة والاتصال بشرق افريقية وربما جنوبها وهكذا فقد كان للحضارات المصرية والعربية التى ترعرت على حوض وادى النيل الشمالى أثر كبير على الشعوب التى سكنت الجزء الشمالى من السودان ومن ثم لا نستغرب أن ملامح الحضارة الأولى فى السودان كانت مصرية ، وأن معظم التغيير الثقافى والفكرى الذى طرأ على السودان عامة وبلاد النوبة خاصة كان مصرية وأن انتشار الأفكار والمعتقدات والطقوس الجديدة لم يكن أساساً نتيجة هجرة بشرية بل نتيجة اتصال طبيعى أو حتمى مما يتأتى من الصلات التجارية والفكرية بين الجيران ، ومما تجدر الإشارة اليه خاصة بعد نهاية العهد الفرعونى أن المؤثرات الخارجية لم تكن مصرية خالصة ، بل وفدت عن طريق مصر للسودان ، وقد توغلت القوافل التجارية منذ الدولة الأولى الى الجنوب وبازدهار هذه العلاقات الخارجية توغل بعض المصريين وأثروا فى المنطقة الواقعة جنوباً تأثيراً حضارياً أكبر مما جعل بعض علماء الآثار يقررون أن حضارة كرمة أقدم حضارة سودانية نشأت عن وجود رعايا مصريين بها •

ومن هنا ارتبط السودان بمصر منذ فجر التاريخ وكان هذا الارتباط وليد عوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية وفي خلال عهدي الدولة المصرية الوسطى والحديثة صارت العلاقات بين شقي الوادي أكثر اتساعا وعمقا ، حيث أنه في عهد الدولة الحديثة أصبحت مظاهر الحياة الحديثة السمة الغالبة على مجتمع النوبة وذلك بفضل جهود المصريين في هذا السبيل .

وقد لعب البحر الأحمر دوره كحلقة وصل بين مصر والسودان وبين شبه جزيرة العرب والعالم الأفريقي أو بين افريقيا شمال الصحراء وجنوبها بصرف النظر عن القناة التي كانت تصل بين النيل وخليج السويس فانه كانت هناك عدة طرق للقوافل تبدأ من ثنية قنا حيث يقترب النيل والمعمور أكثر ما يقرب البحر فضلا عن الأدوية الجافة وهذه الأدوية ساهمت في ايجاد علاقات مع افريقيا جنوب الصحراء على غرار ما فعلت طرق سيناء في ايجاد روابط بين شمال جزيرة العرب ومصر .

أما ما اتبع السودان جنوبا من هذه الطرق فلم يكن تتبعه في الغالب يسير مع مجرى النيل فالطريق المألوف من الشمال الى الجنوب هدفه نهر النيل جنوب أسوان عبر صحراء العظمور الى أبي حمد .

كذلك كانت الاتصالات من الوادي عبر أسسيوط عن طريق الواحات متجهة الى جنوب وغرب دارفور ، وقصة درب الأربعين من أسسيوط الى السودان ضاربة في القدم ، بل ان هذا الطريق بقي من بين الكثير من المسالك التجارية التي كانت تسير عبر الصحراء الغربية الى السودان ومنها الى قلب القارة الافريقية .

ومن هنا كانت مصر من الطرق الرئيسية ، بل هي الطريق الأكثر عبورا الى السودان وادي النيل وذلك كنتيجة حتمية للصلات التي تربط بينها حيث كان وادي النيل (مصر والسودان) . . مقرا لوصول الموجات البشرية العربية المتلاحقة عن طريق برزخ السويس حيننا وعن طريق باب المندب والبحر الأحمر وشواطئ افريقيا حيننا آخر .

والواقع أن تحديد الهجرات العربية وحصرها والتي دفعت بها بلاد العرب الى مصر ثم الى السودان في العصر الفرعوني أمر يصعب دراسته في هذا المجال الا عن طريق الذين تخصصوا في ذلك المجال ، ولكن لا شك أن طريق سيناء ومصر الى السودان كان قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات العربية الى مصر ثم منها جنوبا الى السودان منذ القدم وأن هذه القنطرة تصل بين شمال بلاد العرب ووادي النيل .

وهكذا كانت هذه المعابر هي البوابات الكبيرة التي طرقتها وعبرتها القبائل العربية انطلاقا من الجزيرة العربية وصولا الى السودان وذلك في الفترات السابقة والقديمة قبل ظهور الاسلام . ولم نشأ التوسع في التاريخ لحركة الهجرات العربية الى تلك المناطق قبل ظهور الاسلام ، لأن ذلك قد يخرجنا من مجال ذلك البحث الذي هو الاسلام والعروبة في السودان ، ولكن أشرنا الى هذه المعابر على اعتبار أنها المسالك التي سلكتها القبائل العربية الى السودان وادي النيل حتى كونت ما يمكن أن نطلق عليه مجتمعات شبه عربية قبل ظهور الاسلام وانتشاره في تلك المناطق .

المعبر الخامس : الشمال الغربى

٥ - المعبر الغربى : اذا كانت الطرق الأربع أو المعابر السابقة قد ساهمت في انتشار حركة القبائل العربية الى السودان الشرقى الا أن هذا الطريق الغربى أو الشمال الغربى قد ساهم بدور كبير وفعال في اثراء حركة الهجرة العربية الى تلك المناطق من قلب القارة الافريقية ذلك لأن الطريق الشمالى الغربى أو الطريق الليبى قد وفدت منه جماعات عربية أخرى استطاعت أن تتجه عبر السهول والبرازى الواقعة بين اقليم النوبة واقليم تشاد نحو دارفور وذلك بعد أن ظهرت بمصر وبلاد المغرب العربى دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية .

ذلك لأن الكثرة العظمى من القبائل العربية نزلت الى تلك المناطق في غرب السودان الى برنو واداي واستقروا بها بعضا من الوقت

ثم تحركوا شرقا الى كردمان ودارفور بل ان بعض قبائل البقارة
التي قدمت الى السودان تؤكد أن أعدادهم جاءوا من تونس الى
الأقطار الواقعة الى الغرب من دارفور بعد أن أقاموا بها فترة من
الزمن وتشبعوا بالحضارة المنتشرة بهذا الاقليم ثم أخذوا يهاجرون
الى دارفور وكردفان *

وان هناك أعدادا كبيرة من القبائل العربية هاجرت جنوبا من
تونس والجزائر ومراكش بل وموريتانيا (شنقيط) الى أواسط أفريقيا
في القرون التي أعقبت الغزوات الهلالية لبلاد المغرب العربي ثم رحلوا
بعد ذلك الى السودان ، بل قويت أوامر الصداقة والعلاقات الطيبة
والقربى مما أدى الى ربط بلاد السودان الغربى عبر ذلك الطريق
الغربى الشمالى *

بل ان هذا الطريق كان معروفا لحجاج السودان الغربى منذ
أزمنة طويلة — وقد يكون ذلك الطريق أسهل من استخدام طريق
الساحل الشمالى طرابلس ومصر ، بل أن الرحلة عبر ذلك الطريق
والطرق الأخرى القادمة من الشمال الأفريقى ترجع الى العصور
القديمة وقد يكون لموقع دارفور وتعرض الاقليم لمختلف المؤثرات
الهلالية أثر واضح فى التكوين البشرى للاقليم ، ذلك لأن الطريق قد
سلكته أقوام استطاعت أن تخضع اقليم السودان (الغرب) للكثير
من المؤثرات التى كان لها الأثر فى دارفور ان لم يكن فى كردفان *

بل أن هناك من يقول أن دارفور ترجع فى الأصل الى العرب
الذين قدموا من بلاد غرب القارة الأفريقية ومن مراكش وتونس وليبيا
وتغلبوا على القبائل التى تسكن الصحراء ونشروا نفوذهم وان هذه
الموجات البشرية اندفعت عبر المسالك الصحراوية الى يرفو ثم
انى دارفور *

وبهذا فإنه يمكن القول أن السودان الشرقى وخاصة دارفور
وكردفان قد تكونت من أثر قدوم قبائل عبروا الطريق الشمالى

الشرقى * وهكذا بشهد ذلك الطريق منذ فجر التاريخ شعوبا وبطونا تنطلق من الساحل الشمالى فى اتجاهات مختلفة استطاع منها البعض الوصول الى منطقة كردفان ودارفور ، ومن ثم فان الصحراء الكبرى وما كانت بها من مواقع متعددة يتم من خلالها اختراق الصحراء وصولا الى السودان وادى النيل والى الاقليم السودانى الغربى وما وراءه .

ومن الواضح أيضا أن الجماعات العربية أو غيرها التى هاجرت الى السودان عبر ذلك الطريق لم تهاجر دفعة واحدة بل تم ذلك على فترات متقطعة وفى ظروف متعددة .

ومن هنا فقد ساهم ذلك المعبر الشمالى الغربى سواء أكان منطلقا من طرابلس ليبيا أو بقية بلاد المغرب العربى فى اتجاه الجنوب فى صبغ الأجزاء الغربية من السودان بالصبغة العربية كما أن ذلك الطريق ساهم فى حركة الهجرة العربية اليه حيث قدمت العديد من القبائل عبر تلك المسارب الى تلك المناطق غرب النيل الأبيض واستقرت هناك ومن هنا ظهرت امارة الفور فى دارفور وكردفان والتى ساهمت كما ساهمت غيرها من القبائل العربية فى طبع السودان بالطابع العربى الاسلامى .

ويعتبر الطريق الليبى من الطرق التى وفدت منه جماعات عربية أخرى واتجهت عبر السهوب والبرارى الواقعة بين اقليم النوبة واقليم تشاد نحو دارفور وذلك بعد أن قامت فى كل من مصر وشمال أفريقيا دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية .

كذلك كان الأمر بالقياس الى العرب الذين نزحوا من الأندلس أثر سقوط آخر الممالك الاسلامية (مملكة غرناطة عام ١٤٩٣ م) اذ اتجه بعض من هؤلاء الى شمال أفريقيا وواصل البعض الآخر هجرته جنوبا نحو اقليم تشاد ومنه الى الاقليم الغربى للسودان فى دارفور .

ومن ثم كانت النتيجة الحتمية أن هذه القبائل العربية كان ينتهى بها المطاف الى الاندماج فى حياة السكان المحليين فى مناطق دارفور وكردفان واقليم غرب السودان .

الباب الثاني

الهجرات العربية الى السودان

لقد كانت العديد من المناطق في القرن الأفريقي ووادي النيل والشمال الأفريقي مناطق شبه عربية قبل ظهور الاسلام بل ان هذه المناطق قد قطعت المراحل الكبيرة في طريق عروبتها عبر آلاف السنين ، بل انها قد تعربت لغة وجنسا ، ولكن العامل الحاسم في عروبة هذه المناطق قد بد بظهور نور الاسلام وانتشاره في أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ذلك لأنه كان لظهور الاسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة في تاريخ العرب والمسلمين ، فقد أمدت الرسالة الاسلامية السماوية الأمة العربية بسياج ديني وفكري ساعدهم على خلق وحدة عبرت عن نفسها بإنشاء خلافة عظيمة الشأن بل انه تحت لواء الاسلام وراية القرآن اندفعت الجموع العربية صوب أماكن لم تصلها الهجرات العربية التي كانت تهاجر من قبل والتي كانت تتساب عبر الحدود من وقت لآخر . ومن ثم خرجت من شبه الجزيرة العربية موجات متتابعة من العرب المسلمين تدعو الى الدين الجديد ، وكان من الطبيعي أن تتجه هذه الموجات بنشر الدين الجديد بين أبناء عموماتها واخوانها الذين سبقوا بالهجرة الى المناطق الأفريقية القريبة مثل وادي النيل على مر السنين بل ومبعض آخر كان من الطبيعي أن تسلك هذه الموجات نفس الطرق التي سلكتها الهجرات العربية السابقة للاسلام بل وأن تتجه في نفس الاتجاه الذي سبق أن سلكته الجماعات العربية .

وان كان من سمات المهاجر الباحث عن رغد العيش أن يستكين للأوضاع التي قد يجدها في مهجره الجديد فان الموجات المتتابعة التي خرجت من شبه جزيرة العرب بعد ظهور الاسلام كانت مسلحة بالعتيدة

الاسلامية والايمان القوى ومدعمة بمدد روى عظيم ، لذلك عملت هذه الموجات على تحرير المناطق الافريقية شبه العربية والتي كانت خاضعة للنفوذ الأجنبي وعلى الأخص الشمال الافريقى الذى كان خاضعا للنفوذ البيزنطى .

لذا كان ظهور نور السلام بداية لصفحة جديدة فى تاريخ الهجرات العربية الى السودان ولتاريخ العلاقات بين العرب والسودان ذلك لأن العرب المسلمين قد قاموا بالدور الايجابى فى هذه العلاقات .

ومن ثم كانت الهجرة الأولى للمسلمين عند ما تعرض المسلمون الأوائل لاىذاء قريش دافعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى التفكير فى هجرة أصحابه الى الحبشة ، وكان ان خرج جعفر بن أبى طالب وصحبه ، ثم انتشر بعض العرب الى السودان .

وفى عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تحرر الشام من الحكم البيزنطى وقبل أن يدخل عمرو بن العاص مصر تعرف عرب غسان وخذام وعامله فى شمال سيناء ، ومع ذلك نرى مدى ارتباط مصر بشبه جزيرة العرب قبل الاسلام وما نتج عن هذا الارتباط من صبغ الشعب المصرى بالصبغة العربية من ناحية السلالة وما تتبع ذلك من تأثيرات عربية فى مختلف المجالات وعلى وجه الخصوص فى اللغة المصرية القديمة التى أثرت فى لغات النوبة القديمة .

ولعل ذلك ما يفسر سرعة تجاوب الشعب العربى المصرى مع الحركة العربية الاسلامية . وذلك لأنه مع الانتشار السريع للاسلام استمرت العلاقات الودية التى ربطت مصر بالعرب حتى ان المقوقس حاكم مصر أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ردا على خطاب الرسول الى المقوقس يدعوه الى الاسلام . وكذلك أسلم بعض المصريين قبل أن ينجح عمرو بن العاص فى تحرير مصر من الحكم البيزنطى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م .

ومنذ ذلك التاريخ انتقلت مصر بخطى سريعة من مرحلة ما قبل العروبة الصريحة الى مرحلة العروبة الصريحة وبخاصة في اللغة والثقافة وبدأ تكوين كتلة عربية ثابتة على الأرض الافريقية تركت بصماتها واضحة في السودان ، ذلك لأنه بعد تحرير مصر من السيطرة البيزنطية وانتشار الاسلام بها ، وما تبع ذلك من تدفق الهجرات العربية الى مصر والشمال الافريقي فانه أصبح أمام العرب منفذا جديدا الى السودان عند طريق باب المندب والبحر الأحمر •

ولقد اندفعت القبائل العربية نحو افريقيا وأحدثت تغيرات هامة في وادي النيل وشمال افريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تلك البقاع السياسي والفكري والاجتماعي منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربي •

ومن هنا كانت مصر جسر العروبة والاسلام الى السودان بعد أن عبرتها القبائل العربية من الجزيرة العربية الى أفريقيا وأخذت تهبط أرض مصر الطيبة تحمل معها رسالتها الجديدة ولسانها العربي وتوالت وفادة القبائل العربية وتواترت هجرتهم لمصر ، بحيث أنه يمكن القول أن هذه الموجة العربية الكبرى التي جاءت مع الاسلام لم تكن كسابق الموجات العربية التي خرجت تتشدد أرضا جديدة وتستبدل بقعة بأخرى ، مدفوعة برداءة الأحوال الاقتصادية أو كثافة السكان أو هربا من خطر مقبل ولكنها كانت موجات تحمل مفاهيم وقيما وأنماطا للحياة جديدة والقرآن الكريم ينادى فيهم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » •

انها لم تكن موجات جزئية متقطعة كحال الهجرات العربية الأولى التي كانت تقتصر على جزء معين من وادي النيل أو ما بين النهرين أو على أطراف العراق والشام ولذلك كان أثرها عظيما على كل ما يسمى الآن بالوطن العربي حيث أضحت وحدة كاملة ، لقد قضت الموجات العربية العارمة على الحضارات السابقة والتي كانت تسود في تلك

المنطقة وصهرتها في بوتقة واحدة مما أدى الى انحسار ثم اندثار اللغات القديمة تباعا والتي كان يتكلمها السكان هناك وأصبحت اللغة العربية لغة البلاد .

ولقد كانت الهجرات العربية مع ظهور الاسلام تختلف عن سابقتها قبل ظهور الدعوة الاسلامية ذلك لأن الباحثين يربطون بين العلاقات العربية والمناطق العربية في العصور القديمة بالأحوال السياسية والطبيعية ، ذلك لأنه في الفترات السخية بأمطارها في شمال شبه جزيرة العرب تستقر الأحوال وتتنظم التجارة معها ، أما في فترات الجفاف حين تضطرب الأحوال تصبح التجارة معها مستحيلة وفي كثير من الأحوال ارتبط الجفاف باغراء البدو على غزو مصر وخاصة من شماليها ، وكذلك عبور البحر الأحمر والانتشار في أقاليم شرق السودان وكذلك فان العلاقات كانت تشهد بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر سواء في جنوب شبه جزيرة العرب أو شمالها ويبدو أن أزمة المناخ التي شهدتها شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بلغت ذروتها في القرن السادس قبل الميلاد . على أن هذا ليس معناه أن التوسع العربي في العصور الأولى للإسلام يرجع الى الجفاف المناخى لأن الانتشار هنا مختلف عن انتشار الكنعانيين والآراميين وغيرهما من الشعوب السامية . ولكن كانت هجرات القبائل في ذلك الوقت انطلاقا لمبدأ نشر العقيدة الاسلامية وتحرير الأراضى المحتلة من قبل البيزنطيين والانسياح جنوبا الى أرض السودان .

ولقد كان ظهور نور الاسلام هو الذى أعطى تلك القبائل العربية المهاجرة السند الروحى الفكرى حيث تدفق العرب في أعداد كبيرة حتى وقفوا على أبواب النوبة والبجة ، وفي يسر وبسط وسهولة دام بعضه قرون انفتح المهاجرون العرب على المجموعات الوطنية من بجة ونوبة فعاشوها واختلطوا بها مصاهرة واستغلوا نظام الوراثة عن طريق الأم حتى مكنوا لأنفسهم وتبوا أبناءهم الوظائف القيادية في مجتمعهم وعلى هذا فان السودان وادى النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر أثرا كبيرا اذ دخلت المؤثرات الاسلامية من مصر عبر بلاد النوبة

وتركت بصماتها واضحة جليلة في تاريخ السودان وتطور ثقافته
الاسلامية أثرا واضحا .

وثمة تشابه آخر هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثرا
واضحا في انتشار الاسلام في كليهما ولقد لعبت الهجرات العربية في
سودان وادي النيل دورا كبيرا مماثلا للدور الذي لعبه الطوارق في
اسلام غرب افريقيا . ذلك لأن هذه الهجرات هي التي حملت الاسلام
الى بلاد السودان وحملت الثقافة العربية وطبعت البلاد بالطابع العربي
الاسلامى الذى لا يزال مستمرا حتى اليوم .

ودخلت هذه الهجرات الى السودان من بابين . الباب الأول
هو الباب الشمالى الذى يفضى الى مجرى النيل متابعا للنهر من جنوب
أسوان الى كرسكو ثم مخترقا صحراء العتومر مباشرة الى أبى حمد ثم
متابعا للنهر مرة أخرى منتهيا الى الجنوب .

والباب الثانى الشرقى المنحدر من ساحل البحر الأحمر عبرته
الهجرات صوب الغرب الى السودان الأوسط .

ومن هنا كانت مصر المنفذ الرئيسى الذى دخل منه الاسلام الى
السودان ، ذلك لأنه ما ان انتشر الاسلام في مصر حتى أخذ يتسرب
الى السودان حتى غدا السودان الشمالى فيما بعد أمة اسلامية ترتبط
بمصر بأعظم علاقة روحية وهذه العلاقة الروحية تختلف من حيث
العمق والحيوية عن الوشائج الروحية التى ربطت البلدين في سالف
العصور . ذلك لأن نجاح الاسلام في التسرب صوب الجنوب كان وقفا
على حركة التيار الاسلامى الدافق ، وما يفسح المجال أمام الهجرات
وما تحمله من ثقافات .

ومن هنا ذهبت جموع العرب والمسلمين من جنوب مصر الى
السودان ، لأن بلاد السودان لم تكن بلادا مجهولة لهم ، حيث كان
نهر النيل هو الطريق التجارى للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من

أن العرب المهاجرين لم يكن كلهم تجار • بل كان فيهم المتنقل سعيًا وراء المراعى الخصبة والماء والكأ والدعوة للإسلام ، ومن هنا وجدوا في فجاج السودان المترامية الأطراف ما ينشرونه وهم في ربوعه حيث وجدوا أمامهم كل متسع ، كما أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم في كل شيء وليس البحر الأحمر سوى كسر التوائى في أرض واحدة شطر ما شطرين هما السودان ، وبلاد العرب ولذلك تشابهها جـوا وهضاب وفجاجا •

فمن المعلوم أن هناك جماعات من السبئيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد قد نزحوا من جنوب بلاد العرب الى السواحل الغربية للبحر الأحمر واستقروا في بادية الأمر في جزر هذا البحر في سوقطرة ودهلك وغيرهما من الجزر ثم انتشروا على نطاق واسع على امتداد الشواطىء الشرقية للقارة الأفريقية ، ومن هنا أنشأوا طرق تتحرك عليها القوافل لكي يتمكنوا من تيسير الابل الى المناطق الداخلية ، وربما قد يكون هدفهم في ذلك الوقت هدفا مزدوجا وهو توسيع دائرة نشاطهم التجارى بالاضافة الى محاولة التخلص من مناخ الساحل القاسى ولا تزال الى الآن أسماء بعض الأمكنة التى تقع بجوار مصوع وعصب ، شاهدة على تقدم السبئية نحو تلك المناطق الأفريقية الداخلية •

بالاضافة الى أنه يقال أن هناك قبائل عربية من بلى قد نزحت الى بلاد البجة قبل انتشار الاسلام وظهوره بفترة طويلة ، كما أن القرن السادس الميلادى قد شهد هجرة عربية واسعة الى أرض البجة قام بها بعض الحضارمة الى أرض البجة وقد امتزج هؤلاء الحضارمة وتصاهروا مع من سيقوم من قبائل بلى الى تلك المناطق •

ولقد كان هؤلاء الحضارمة والبللى زمن المسعودى من القبائل التى اعتنقت الاسلام بسرعة دون سائر البجاه ولا يزال حتى الوقت الحاضر يذكر البجاه اللغة العربية بقولهم « بلويث » أى أن اللغة العربية هى اللغة البلوية وذلك نسبة الى قبيلة بلى التى حملت اليهم العربية

فتمثلتها لغة البجاه وهي لغة حامية ومن ثم لم تستطع اللغة العربية أن تتغلب على اللغة البجوية نظرا لقلّة النازحين من العرب والحضارمة في تلك الفترة الى تلك الديار وذلك بالقياس الى القبائل البجوية الكثيرة المتشعبة والتي كانت تمثل النسبة الغالبة في تلك المنطقة .

وبلى هذه قبيلة عظيمة عربية فيها بطون كثيرة ، وكما دخلوا السودان قبل الاسلام فانهم دخلوا أيضا مصر قبل الاسلام واستوطنوا جنوب صعيد مصر في المنطقة الواقعة فيما بين القصير وقنا وكان دورهم يتركز في الاعتماد عليهم في نقل التجارة الهندية .

ومهما يكن من أمر الهجرة العربية الى السودان فانه يمكن القول بأن العنصر السبئي وأعقابهم الذين جاءوا من بعدهم كانوا هم العنصر الغالب والأكبر من العرب في السودان في العصور الجاهلية وقبل انطلاق حركة الهجرة العربية على نطاق واسع .

ذاك لا سيما اذا عرفنا أن صلة الربط بين ساحلى البحر الأحمر وبلاد شرق القارة وبالذات مناطق البجاه حيث هجرات قبائل بلى والحضارمة لم تكن صعبة في أى يوم من الأيام ، بل أن العبور من الساحل الى الساحل ولا سيما عن طريق باب المندب كان أمراً ميسوراً وأكثر سهولة .

ومن هنا فلا بد أن ندرك تمام الادراك أن مضيق باب المندب كان أكثر ضيقاً وعبوراً مما عليه حالياً نظراً لأن تلك المسافة بين الساحلين كانت قريبة وكانت الجزر الواقعة بين الساحلين تزيد من سهولة حركة التنقل والترحال ، ومن هنا كان ذلك المضيق يتعبر المعبر الرئيسى والأساسى الذى عبرته القبائل السبائية الى بلاد السودان في تلك العصور الجاهلية ، ذلك لأن المضيق كان متاخماً لبلادهم في اليمن وكانت بلادهم حينئذ مكتظة بأهلها ، يلم شتاتهم دول ذات نفوذ وقوة وازدهار، وهي دولة سبأ العظمى ثم جاءت بعدها حمير لتواصل المسيرة .

ولكن عندما انهار سد مأرب و زال نفوذ تلك الدول ، فمن هنا اتجه السبئيون وأعقابهم الى شمال بلاد العرب في حركة هجرة واسعة ، ومن ثم بعد ذلك جاءت الفتوح الاسلامية ، فنقلت جماعات كبيرة منهم الى أخصب بقاع الأرض في مصر والشام والمغرب والأندلس والعراق وفارس وغيرها من البلاد الاسلامية •

ومن ثم فانه بعد انتشار الاسلام وانتشار حركة الهجرة السبائية شمالا الى الجزيرة العربية فانه يمكن القول أن طريق باب المندب قد يمكن اعتباره معبرا ثانويا بالنسبة لحركة الهجرة العربية الى بلاد السودان ، ذلك لأنه بانتشار الاسلام قد تفتحت معابر ومنافذ أخرى أمام الهجرة العربية الواسعة الى السودان حيث كان طريق وادي النيل من مصر هو المنفذ الأساسي لانتشار القبائل العربية الى السودان وادي النيل •

وعلى الرغم من اعتبار معبر وادي النيل هو المعبر الأساسي في حركة الهجرة العربية الى السودان الا أن هناك روايات سودانية لا تزال تردد أن كثيرا من القبائل العربية في حركتها الانتشارية أو أن هناك أعداد كبيرة من تلك القبائل التي رحلت الى السودان قد نزحت اليه من شبه جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر مباشرة الى الساحل المواجه للحجاز مباشرة في عصر الاسلام (طريق الحجاز) •

ولعل تلك الروايات السودانية انما أرادت بذلك أن تعبر عن نقاوة الأصول العربية التي هاجرت الى السودان مباشرة ومن هنا جاءت الى السودان من مهدها الأول مباشرة •

ولا يوجد أدنى خلاف في حركة انتشار القبائل والهجرة العربية التي ملأت الأقطار العربية على اتساع رقعتها انما انبعثت في حركتها من مهدها الأول وهو شبه الجزيرة العربية سواء أكان من جنوب الجزيرة أو من شمالها أو من وسط الجزيرة العربية •

وإذا كان الرأي الذى يركز على طريق البحر الأحمر يركز على الحجاز ومدنه وموانئه المقابلة للساحل السودانى فإن ذلك لا ينكر أنه طريقا للهجرة العربية الى السودان الا أنه لم يكن الطريق الرئيسى الذى سلكته الهجرة العربية الواسعة الى السودان .

لكن كل تلك الهجرات قد حدثت من شبه الجزيرة العربية وقد تكون سلكت عدة طرق للهجرة الى السودان وقد أشرت الى طرق الهجرات الرئيسية الاسلامية الى السودان ، ولكن نؤكد أن طريق البحر الأحمر لم يشهد هجرات عربية على نطاق واسع مثل الطرق الأخرى التى شاركت فى حركة الهجرة الى السودان .

ولقد استخدم وادى النيل كمعبر أساسى لحركة الهجرة للسودان منذ تلك الغزوة التى قام بها عبد الله بن سعد بن أبى سرج الى بلاد النوبة وبلغ دنقلة عام ٣١ هـ / ٦٥١ م وكتب عهد أهل النوبة اشترط فيه عليهم حماية المسجد القديم الذى بناه المسلمون فى دنقلة وربما كان قد تم بناءه قبل هذه الغزوة بوقت كافى ، كذلك اشترط عليهم حماية التجار المسلمين وغيرهم من المسلمين الذين يتحركون فى حركة الهجرة الجماعية أو الفردية والذين يظرقون بلادهم .

وبذلك فقد وضع عبد الله بن سعد بن أبى سرج الأساس القوى الذى مهد الطريق سهلا وفسيجا لكى يحدث ما حدث من تغلغل العرب المسلمين فى حركة هجرة واسعة الى هذه البلاد .

كذلك فإنه منذ عهد بنى أمية أخذ العرب الساكنون فى أسوان وفى الجنوب يقومون بشراء بعض الأراضى والضيايع من أهل النوبة ثم أخذوا يقومون باستثمار هذه الأراضى حتى تملكوا ضياعا كثيرة داخل أراضى النوبة فى المنطقة التى تسمى بمنطقة بلاد المريس والتى تنتهى عند الشلال الثانى تقريبا .

كذلك فإنه عند ما زحف العباسيون على مصر للقضاء على حكم بنى أمية فيها ، وقد التقى جيش العباسيين الزاحف بجيش الأمويين

بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية عند قرية أبو صير في الصعيد الأدنى بالقرب من الجيزة وأسفرت المعركة عن مقتل مروان وهروب أبنائه عبد الله وعبيد الله في جماعة من أتباعهما تقدرها المصادر بما يقرب من أربعة إلى خمسة آلاف فرد إلى بلاد النوبة ، ثم لحقهما بعد ذلك جماعة من أصحاب مروان بن محمد ، ومن ثم نزلت تلك الجماعات في أرض المقررة حيث أول مملكة صادفتهم بعد أن فارقوا حدود مصر الجنوبية .

ولكن بنى أمية ومن معهم من الروانين بعد عبورهم إلى النوبة اتجهوا شرقا حتى وصلوا إلى أراضي البجة قرب سواحل البحر الأحمر بعد أن اضطروا إلى ترك بلاد النوبة ولكنهم لاقوا مقاومة شديدة من البجة فتوقفوا يريدون الساحل ولقوا عنتا شديدا وضل بعضهم الطريق وبلغ بعضهم ميناء الياضع بعد جهد وعناء . ومن المحتمل أن يكون بعضا منهم قد عبر إلى بلاد الحجاز .

وقد يكون بعضا منهم قد حاول عبور البحر مرة أخرى بعد فترة قصيرة إلى الساحل الغربي . وقد شاهد بعض الباحثين مقابر جماعية من الأمويين وعليها شواهد قبور على طول الطريق الذي سلكوه متجهين إلى الياضع وفي هذا الطريق في منطقة خورنيب ويقع الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا غربى سواكن ، وان تلك الشواهد يعود تاريخها إلى ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م .

ولقد تكاثر الوجود العربى من ربيعة ومضر وأعقاب سبأ في أرض المعدن بالنوبة ولا سيما منذ عهد المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) .

ثم بدأت مرحلة خطيرة في حركة الهجرة العربية الواسعة إلى بلاد السودان اثر ظهور مرحلة الأحلاف العربية بين القبائل في مصر ، اذ أدى ذلك إلى ظهور فترة واضحة في تاريخ الهجرات العربية إلى جنوب وادى النيل وان تلك الأحلاف العربية التى لجأت إلى السودان

كانت هي حركة العمود الفقري الأساسي الذي التفت حوله المجموعات العربية التي بذرت بذور العروبة والاسلام في السودان وادي النيل •

ولقد ظلت تلك الأحلاف العربية التي تألفت في مصر كما هي في أحلافها بعد هجرتها الى السودان محتفظة دائما بشكلها وتنظيمها التي كانت عليها ، ذلك لأن الجماعات التي أتيح لها أن تهاجر الى السودان في فترة من فترات السلم والهدوء فلم يصبهم من قسوة الممارك ما أصاب غيرهم من قبل بل لم يكن هناك ظروف تستدعيهم الى الفرع الى مهاجر جديدة ، فقد ظل هؤلاء يحتفظون في السودان فترة من الزمن على تنظيمهم الذي كانوا عليه في مصر • وهكذا كون هؤلاء القوم جماعات مستقرة ثابتة في بلاد المريس وفي أرض المعدن ببلاد البجة منذ بداية المرحلة أو قبلها بقليل ، ذلك لأنه لم يطرأ عليها من عوامل التشتت والتفرق أي جديد •

كذلك فان القبائل العربية لم تستطع أن تقاوم الوجود التركي في مصر منذ عهد الخليفة المستنصر الذي أسقط العطاء عنهم ، فسن هنا فانهم ولوا وجهتهم للهجرة الجماعية الى السودان مولين وجوههم هربا في كل سبيل حتى استطاعوا أن يبلغوا أرض السودان ، وقد استطاعوا الوصول الى أرض السودان على دفعات كبيرة غالبا ومن ثم تفرقوا في أنحاء السودان الواسعة واندمجوا مع اخوانهم العرب ، ولكن تلك الأحلاف لم تكن جيدة التنظيم والترابط والتعاون مثلما كانت عليه في مصر •

ذلك لأن الجماعات العربية الكثيفة المهاجرة الى السودان قد لاقت العديد من العوائق الطبيعية والاجتماعية مما اضطرهم في احيان كثيرة الى التفرقة في بقاع كثيرة وشتى في اراضي السودان الواسعة •

ولعل حركة الهجرة العربية من الباب الشمالي الى السودان قد استمدت القوة والحيوية من تيار العروبة المندفعة من ينابيعه الدافقة في مصر وهو ذلك التيار الذي اختلفت قوته بحسب ما كانت تواجهه

العروبة من ظروف في مصر ، على أنها — مهما تختلف الظروف وتباین فان تيار العروبة والاسلام لم ينقطع عن السودان بل ان حركة الدفع العربى استمرت تتغلغل في السودان حتى أصبح جزء كبير منه عربيا جنسا ولغة ، ولقد كان المنفذ الشمالى له الدور الكبير في اكتشاف السودان لعروبه واسلامه ، ذلك لأن هذا المعبر قد تدفقت منه أغلبية القبائل العربية التى استوطنت السودان ذلك لأن المعبر الشمالى اكتسب أهميته من موقع مصر الجغرافى ذلك الموقع الذى يجعلها وثيقة الصلة بالعناصر العربية ، ولقد يسر هذا الدور والاتصال لعبته شبه جزيرة سيناء في هذا الصدد .

ذلك لأن سيناء لم تكن مجرد معبر أو باب نفذت منه الهجرات العربية الى وادى النيل ، بل انها كانت في الواقع جزء متمما لوادى النيل وقنطرة تربط بين آسيا وافريقيا ولعبت دورا هاما منذ بداية التاريخ المصرى اذ كانت أحد الطريقين الرئيسيين اللذين أتت منها الهجرات العربية الى وادى النيل .

ذلك لأن صحراء سيناء لم تكن تقف حائلا بين القبائل العربية البدوية وبين تدفقها الى وادى النيل لا سيما تلك القبائل العربية المنتشرة في شمال الجزيرة العربية وفلسطين والأردن وبين هجراتها الى وادى النيل ، بل قلما توجد قبيلة عربية من قبائل بدو سيناء ليس لها قرابة وشيجة بقبيلة أو أكثر من قبائل تلك البلاد .

وكان ان أخذت القبائل العربية خلال العصور الاسلامية الأولى تعبر سيناء بشكل لم تعهده في فترات التاريخ السابقة ومن سيناء اختارت معظم هذه القبائل أن تدخل أرض مصر ، ومن هذا يتضح أن المدخل الشمالى طرقته القبائل العربية منذ القدم وازاء هذا الفيض العربى في مصر الاسلامية ونتيجة لذلك أصبح طريق وادى النيل الشمالى من أهم المعابر والشرابين التى سرى فيها الدم العربى والثقافة العربية الاسلامية لسودان وادى النيل ، اذا استثنينا تلك الهجرات العربية القليلة التى وصلت الى السودان رأسا عبر البحر الأحمر.

سواء أكان ذلك قبل الاسلام أو في زمن التوسع الاسلامى ، أم كانت هجرات عربية حديثة العهد — في العصور الاسلامية المتأخرة فان تعريب السودان قد تم بصورة رئيسية عن طريق مصر ذلك لأن المنفذ الرئيسى لحركة الهجرة العربية في تلك الهجرات المكثفة كان هو وادى النيل •

ذلك لأن من الثابت تاريخيا أن وصول هذه القبائل الى السودان قد تم عن طريق مصر ثم كان نجاحها في الاستيطان بتلك المهاجر السودانية الجديدة والواسعة والخصبة ، قد ساعد على جذب مجموعات عربية أخرى قد جاءت عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، غير أن هذه المجموعات الأخيرة التى قدمت عبر الساحل الشرقى للبحر الأحمر لم تكن بالكثرة والكثافة على تلك الصورة التى تصورها أصحاب تلك الروايات التى تعتبر البحر الأحمر معبرا رئيسيا للهجرات العربية الى السودان •

ذلك لأن استخدام العبور الأرضى أسهل كثيرا من العبور البحرى لا سيما أن العبور البحرى في تلك العصور كانت تكتنفه الكثير من الصعوبات حيث كانت حركة النقلة أكثر صعوبة ذلك لأن العربى في حركته الانتشارية كان يتحرك من خلال تحرك قبلى مع قبيلته وكان يحمل معه أسرته ومثاقه وأبله وأغنামه ، ان ذلك لم يكن ميسورا في العبور مباشرة من ساحل البحر الأحمر الشرقى الى الساحل الغربى حيث اقليم السودان •

وقد يكون العبور عبر باب المندب أكثر قبولا وموضوعية في حركة التنقل والانتشار الى بلاد السودان أكثر من قبول فكرة البحر الأحمر لكن لا يعنى ذلك أن البحر الأحمر لم يكن له دور في حركة الهجرة الى السودان لكن دوره لم يكن رئيسيا أو أساسيا في حركة الانتشار العربى والتعريب في السودان •

كذلك فان المسلمين الذين جازوا شبه جزيرة سيناء الى مصر للمرة الأولى كونوا المادة الأساسية أو العمود الفقرى الأساسى الذى

صاغ ذلك المجتمع العربى سواء أكان فى مصر أو السودان بعد ذلك ،
ولعل تدفق حركة هذه القبائل على مصر لا يقل شأننا عن أى تطور
سياسى أو اجتماعى هام وقد انعكست تلك الآثار على المجتمع
السودانى •

وقد تسربت الجماعات العربية نحو السودان بصفة عامة وبيئاته
البدوية بصفة خاصة من طرق شتى وأبواب متعددة فوفدت جماعات
عربية من الباب الشرقى الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة من شبه
الجزيرة العربية الى السواحل الغربية (رأى أبناء السودان) حيث
كانت الصلة بين السودان وشبه الجزيرة العربية عبر هذا المعبر
متيسرة منذ أزمان بعيدة وبعد الفتوح الاسلامية ومن ذلك هجرة
جماعات كبيرة من بنى كاهك (الكواهلة) الذين دخلوا السودان عن هذا
الطريق بادئين حياتهم باحتلال الاقليم الساحلى أو جزء عظيم منه من
سواكن الى غيداب حيث اختلطوا بالبجة وصاهروهم وقد استمر هذا
الباب منفذا هاما لتدفق الجماعات العربية مباشرة من شبه الجزيرة
العربية الى السودان حتى العصر الحديث •

حيث تحدثنا المراجع عن هجرة عربية حديثة لقبيلة الرشايدة عن
طريق البحر الأحمر الى بلاد البجة وهؤلاء الرشايدة (سنشير اليهم
فى الباب السادس عند الحديث عن القبائل العربية فى السودان) يمثلون
احدى الهجرات العربية من الساحل الشرقى للبحر الأحمر (الجزيرة
العربية) الى الساحل الغربى (السودان) والراجع أن هجرتهم
الواسعة الى السودان ترجع الى أبعد من القرن التاسع عشر الميلادى
وقد نزلو من اقليم طوكر الى حدود أريتريا ثم انتقل البعض منهم
فى الاتجاه الغربى الى السودان الى اقليم عطبرة •

الباب الثالث

الفتح الاسلامى لمصر والعلاقات مع السودان

فتح المسلمون مصر فى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وانه لم يلبث أن انتشر الاسلام والمسلمون فى هذه البلاد حتى بلغ أقصى اقليم أسوان جنوبا ، ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه الاسلام فى قلوب المصريين الى ما لقيه هؤلاء القوم من ترحيب الأهالى الذين كرهوا الحكم البيزنطى الذى حرره منهم أبناء عمومته الذين كانوا شبه عرب نظرا للهجرات العربية القديمة .

ومن هنا فان فتح مصر قد شهد تدفق العديد من القبائل العربية التى أحدثت أثرا بالغاً فى وادى النيل ، ذلك لأنه فى عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهرى الى بلاد النوبة على رأس جيش من المسلمين ، حيث كان يعرف شمال السودان فى العصور الوسطى بالنوبة ، حيث كان تيسير تلك الحملة بقيادة عقبة بن نافع بن الفهرى جنوبا لغزو بلاد شمال السودان (النوبة) وفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية .

ومن هنا فانه قبل أن نمضى فى مناقشة العوامل التى ساعدت على هجرة العرب الى السودان يحسن أن نعرض للأحوال والحالة للبلاد التى تقع جنوب أسوان والتى نسميها مجازا : السودان الشمالى ، وكان اكتمال عقد القرن السادس الميلادى قد شهد توغل المسيحية بين سكان مملكتى النوبة وعلوة التى كانت عاصمتها سوبا وبين قليل من البجة ممن كانوا يسكنون الأطراف فلما بدأت الفتوحات الاسلامية

لمصر وغيرها من بلاد الوطن العربي ، كانت المسيحية قد ضربت بجذورها وصارت من مقومات النوبة الأساسية .

ولعل هذا يفسر لنا شيئا من الأسباب التي أدت الى الصدام بين النوبة والمسلمين فاتحى مصر بقيادة عمرو بن العاص فقد اغتاز النوبة ربما في فكرهم مما لحق باخواتهم في الدين من هزيمة على يد المسلمين وأخذوا يتحرشون بالحدود المصرية ، ويبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلا مزعجا مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يأمر عمرو بن العاص واليه على مصر بغزو بلاد النوبة .

ولقد كان للوجود العربى أثره في بلاد السودان بحيث يمكن القول أن عرب جنوب الجزيرة العربية كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام . وكان قد تمثل أول اتصال للعرب المسلمين في مصر بشمال السودان مملكة المقهره في فرقة الفرسان التي أرسلها عمرو بن العاص لتأمين طرق التجارة بين البلدين ومن ثم كان ذكر بلاد النوبة لأول مرة في وثيقة عربية اسلامية في عهد الأمان انذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل النوبة فجاء فيه « ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة غله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، وجاء فيه وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعيشوا بكذا وكذا رأسا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمتعوا من تجارة صادرة ولا واردة » .

وذلك بعد أن كان قد التقى عقبة بالنوبة في معركة ضارية أبدى فيها النوبيون مهارة فائقة في رمى النبل ، ولم يتمكن عقبة نتيجة لذلك من فتح النوبة كما يبدو أن عمرو بن العاص رفض أن يصلحهم وأن ينهى الحرب معهم ، بعد أن كان العرب قد اتخذوا من مصر قاعدة لمزيد من الفتوحات والتوسع جنوبا وغربا ، حيث كانت الجيوش الاسلامية تخرج منها لتأمين حدودها وطرق تجارتها ، مثل تلك الحملة السابق الاشارة اليها التي خرجت لفتح النوبة جنوبا .

ومن هنا كانت هذه الحملة بقيادة عقبة بن نافع الفهري عام ٢١ هـ — ٦٤٢م هي بداية أول اتصال السودان وادى النيل بالفاتحين العرب عبر الباب الأول حيث بدأ الاتصال بالنوبة كما يذكر ابن عبد الحكم صاحب

كتاب فتوح مصر وأخبارها وكانت حكومة الفسطاط قد منحت النوبيين عهداً بالأمان ، ولكن ما أن غادر عمرو بن العاص مصر وخلفه عبد الله ابن سعد بن أبي سرج في حكم مصر ، فإن النوبيون قد نقضوا العهد بالأمان الذي أعطاه لهم عمرو بن العاص فما كان من عبد الله بن سعد ابن أبي سرج إلا أن قام بغزو مملكة المقرة عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م حيث عاود العرب الكرة ثانية على بلاد النوبة ويبدو أن العرب قد استفادوا من سلبيات الحملة السابقة ومن الاخفاق الذي صادفته في عهد عمرو بن العاص فأعد حملته أتم اعداد ، ومن هنا فانه يبدو أن ممالك النسوبة المسيحية لم تعد تملك القدرة على الوقوف في وجه التيار الاسلامي الذي بدأ يتدفق من مصر عبر النوبة ويبدو أن هذا الباب قد بدأ ينفتح على مصراعيه لتدفق التيارات الاسلامية طليقة من كل قيد بعد أن كان المسلمون قد عرفوا أرض النوبة أو المقرة في الشمال وأرض علوة في الجنوب وكانوا يغشون بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين وعلى هذا عرف العرب تلك البلاد معرفة اجتياز ومرور ، وكان هذا الاجتياز والمرور لأغراض تجارية ، كذلك عرف العرب أرض البجة أو البجاء وكانوا يقيمون على مقربة من غيداب على البحر الأحمر كما انتشروا في بلاد النوبة وغيرها ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر في الأراضي الممتدة من أسوان ودنقلة تقريبا ..

وكانت حملة عبد الله بن أبي سرج قد أوغلت في بلاد النوبة جنوباً ومضت في زحفها حتى وصلت الى مدينة دنقلة عاصمة البلاد وحاضرتها حصاراً عنيفاً ، حيث ضربت قلاعهم بالمنجنيق والذي لم يكن قد عرفه النوبيون من قبل ومن ثم دخل الرعب في قلوبهم مما اضطر ملكهم « قليديوث » الى طلب الصلح ، ومن ثم توقف الزحف الاسلامي الى هذا الحد واقتنع المسلمون بالمصالحة ثم عادوا أدراجهم ، بعد أن أملى المسلمون شروطهم على الملك وعقد معهم صلحاً عرف باسم « البقط » ولربما يكون المسلمون قد ماثوا الى قبول طلب الصلح الذي اقترحه ملك المقرة حيث كانوا بعيدون عن ديارهم وان كان ذلك لا ينفي أن المسلمين تحركوا بعيداً عن دنقلة حتى أماكن أخرى وأنه ربما رأى أن المسلمين لم يقصدوا فتح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حد

لنقضهم الصلح الذى أبرم سابقا ومن هنا فان تلك الغزوة الثانية لم تقضى على سلطانهم قضاء تاما .

ومن هنا كانت هذه المعاهدة عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم اعتداء بتعابير العصر الحديث ، يلتزم بها الطرفان وتقوم على تبادل المنافع المشتركة والتجارية بين المسلمين والنوبيين ، ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية باسم البقظ التى تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات .

ومن هنا فان هذا الصلح النهائى الذى أبرمه عبد الله بن أبى سرج قد سبقه نوع من الاتفاق وليس صلحا ، لأن المسعودى يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما فتح عمرو بن العاص مصر ، كتب اليه لمحاربة النوبة فغزاهم المسلمون وأبى عمرو بن العاص أن يصلحهم حتى صرف عن مصر وولها عبد الله بن سعد بن أبى سرج ، ومن هذا يتضح أن عمرو بن العاص لم يجر صلحا مع النوبة وأن الذى أجرى الصلح هو عبد الله بن أبى سرج .

والذى اشترط عليهم الأمان وألا يحاربهم المسلمون وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل ببلادهم من المسلمين ، وهذا يعنى أن الاسلام قد تسرب منذ فتح مصر الى تلك الأرجاء وغيرها من البنود الأخرى ، والتى منها أن يحفظ النوبيون المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه واسراجه وتكريمه وهذا يعطى الدليل القوى أن الاسلام قد تسرب طوال العشرة سنوات التى مرت من ٢١ هـ الى ٣١ هـ - ٦٤٢ م / ٦٥٢ م وكذلك حماية التجار وغيرهم من المسلمين الذين يطوفون بلادهم .

ولعله يذكر أن مملكتى مقرة وعلوة قد كانتا من العقبات التى وقفت فى سبيل الفتح العربى الاسلامى للسودان حيث أن هاتين المملكتين قد نظمتا المقاومة العنيدة التى صادفتها حملة عقبة بن نافع من قبل عمرو بن العاص والتى صادفتها حملة عبد الله بن أبى سرج

رغم حصارها دنقلة ، ان الملوك السودانيون قد نظموا المقاومة وأوقعوا بالعرب من حصونهم ومعقلهم الجبلية وكبدوهم خسائر فادحة واضطروهم الى الكف عن التقدم جنوبا لضم هذه الممالك الى ديار الاسلام .

ولعل عنف المقاومة هذا كان نابعا من طبيعة البلاد وأحوالها الجغرافية فكانت تضاريسها تتيح للملوك ولعناصر المقاومة أن تعتصم بمواقع حصينة وأن تختفى حيناً وتعاود الظهور أحيانا من حيث لا يتوقع المهاجمون ظهورها ولعل هذا يفسر اخفاق التجريدات العسكرية التي كانت مصر تسيرها صوب الجنوب ثم ان أحوالها المناخية أضافت بعدا آخر ذلك لأن هذه الأحوال المناخية لا تكاد تختلف عن أحوالها التضاريسية ومظهرها العام الشدة والقحط وحاجة المهاجمين الى الزاد والمؤنة وما قاسوه في سبيل ذلك من ألوان الشدة والبأس لذلك كانت الحملات المصرية سريعة خاطفة لم تستطع أن تمتد طويلا ولو طال مكوثها لحققت كل ما كانت تهدف الى تحقيقه من أهداف .

ومن هنا لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفا جادا نحو بلاد النوبة ، فعمر بن العاص لم يكن يطمح في أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية ، وتعقب بعض الفارين من الجنود أو القواد البيزنطيين ولعلها كانت حملة استكشافية تريد أن تستطلع الأحوال في أقاصي الصعيد .

وكانت حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرج مجرد رد على عدوان مسلح قام به أهل النوبة على حدود مصر الجنوبية ومن هنا فلا يستبعد أن يكون البيزنطيون وراء هذه الأحداث من الاعتداء النوبى على حدود مصر الجنوبية بعد أن حاولوا استرداد الاسكندرية عام ٢٥ هـ ولعلهم دفعوا ملوك النوبة الى مهاجمة مصر من الجنوب لشغل المسلمين عن مدافعة البيزنطيين عن الاسكندرية شمالا .

ومن هنا كان النوبيين بدورهم ليسوا أقل من العرب رغبة في الاتفاق ، فقد كانت الكنيسة الأم لهم في مصر في قبضة العرب وكذلك

مسارب التجارة ومسالكها ومن ثم تبلورت كل هذه الرغبات المتبادلة في معاهدة البقط الشهيرة السابق الإشارة إليها مع ملك مقرة النوبى •

وقد كان تعهد النوبيون بالمحافظة على المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقلة لا يهدموه ، ولكن على الجانب الآخر فانه فى مقابل حماية النوبيون للمسجد فقد ورد نص ينظم التعاون الدينى بين كنيسة النوبة وكنيسة الاسكندرية ووفود البطارقة والكهنة الى مصر أو رحيلهم الى النوبة لأن المعاهدة أخذ وعطاء وأنه ليس من المعقول أن يعطى أهل النوبة ولا يأخذون •

ولم تكن المعاهدة معاهدة تبعية يفرضها غالب على مغلوب ، فالروايات التاريخية تجمع على أن البقط ليس بجزية ولا خراج ، الا أنها معاهدة مصالح مشتركة ، تأمين للنواحى الاقتصادية والدينية والتجارية وتشجيع التبادل التجارى وتنظيم طبيعى للعلاقات وقرار للسلام على الحدود المشتركة ، وهى نابعة من مصالح متبادلة ، لذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة وهى تحدد لنا انتشار الاسلام فى السودان الشمالى « النوبة » فلن يكون فتحاً ، انما اذا قدر له أن يتسرب فليتسرب سليماً فى بظء ومن غير عنف •

انتشار الاسلام : لقد كانت هذه المعاهدة بمثابة فتح الباب أمام المؤثرات الاسلامية لتنفذ الى البلاد فى هدوء وسلام وطمأنينة وكيف لا وقد نفذ الاسلام فى أقل من عشرة سنوات منذ الحملة الأولى عام ٢١ هـ ثم الى معاهدة البقط عام ٣١ هـ بدليل بناء المسلمين لمسجد لهم فى عاصمة شمال السودان « دنقلة » ولقد كان توقيع هذه المعاهدة بمثابة فتح جميع الأبواب أمام التيار الاسلامى ليعمر بلاد النوبة وليغير مصيرها الاجتماعى والدينى ويؤذن بنهاية المسيحية ونهاية مملكة مقرة منها •

ولقد كانت تلك المعاهدة بمثابة وضع الأسس لبناء المجتمع العربى الاسلامى فى المستقبل فى النوبة ، ذلك أنها ألزمت النوبيين بفتح بلادهم لكل وافد من المسلمين على ألا يقيم وكان ذلك ايذاناً لانطلاق رجال

الدعوة الإسلامية للدعوة لدينهم بين النوبيين أثناء مرورهم بالنوبة وقد اتضح فيما بعد أن بعض المجموعات الإسلامية لم تتقيد بهذا الشرط . ذلك لأن نتائج الحفر الأثرى الذى تم حديثا فى منطقة النوبة على أثر مشروع بناء السد انعالى عام ١٩٦١ م تشير الى وجود قباب وقبور اسلامية ترجع الى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى وعثر على بعضها فى منطقة كلابشة وهى مؤرخة بتاريخ ٥٢٢ هـ كما عثر على البعض الآخر فى الدر وهى مؤرخة بعام ١٠٢٦ م هذا فضلا عن آلاف القبور العربية التى عثر عليها أيضا فى منطقة حلفا والشلال الثانى ، وترجع الى بداية القرن العاشر ومنتصف القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا يدل على وجود جماعات مسلمة فى ذلك المجتمع المسيحى منذ فترة مبكرة من دخول الاسلام الى افريقيا ، وأن هذه الجماعات قامت بدور الدعوة للإسلام فى هذه البلاد . كذلك فقد ذكر المسعودى أن بعض مسلمى أسوان اشتروا ضياعا كثيرة داخل أرض النوبة، ومن هنا فإن الأمر لم يعد فى حاجة الى احتلالها أو ضمها للاراضى الإسلامية .

أما من ناحية البجة أو البجاوية فإن المسلمين قد أبدوا عدم أكثرات بأمرهم على أثر غزوهم بلاد النوبة عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرج . بينما كان اهتمام المسلمين بالنوبة بالغ الأهمية ، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم « فتجمع له فى انصرافه على شاطئ النيل البجة فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفسذ وتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبد الله بن الحبحاب .

على أن عدم الاكتراث بهؤلاء القوم ، لم يكن من مصلحة العرب فبعد فترة من الزمن لا تتعدى ثلاثة وسبعين عاما وجد هؤلاء القوم فى أنفسهم الكفاءة ، مما دفعهم الى القيام بغارة على مصر عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م وعندئذ تنبه العرب الى خطورتهم ، اذ تذكر لنا المصادر لأول مرة عن غارة قام بها هؤلاء البجة وهم سكان الصحراء

ما بين النيل والبحر الاحمر على صعيد مصر ، والظاهر أن المسلمين ردوا هذا الهجوم وصدوه ولكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل ، ذلك لان عبد الله بن الحبحاب السلولى قد هزمهم وعقد معهم أول معاهدة ظلت قائمة زهاء قرن من الزمان ، وكان من بين نصوصها ألا يقتلوا مسلما ولا ذميا ممن نزل ببلادهم وألا يأذوا عبيد المسلمين وأن يردوا من يقع في أيديهم من هؤلاء العبيد ، وعلى أن يبقى وكيلهم بريف مصر رهينة في أيدي المسلمين .

ومن الواضح أن هذه المعاهدة استهدفت تأمين صعيد مصر من غارات البجة ، كذلك فإن هذا الصلح قد فتح الباب على مصراعيه مثلما فعل مع النوبة لتغلغل النفوذ الاسلامى في بلاد البجة نتيجة لالزامهم بعدم التعرض لأى مسلم يجتاز بلادهم ، كذلك فإن هذه المعاهدة تحمل نفس الروح التى سادت جو تنظيم العلاقات بين مصر والسودان في سالف العصور ، هذا وان كانت اتفاقيات المسلمين مع النوبة والبجة اتصفت بوجود شرط جديد هو الزام أهل الجنوب باحترام المشاعر الدينية ، والسبب في ذلك أن أهل الجنوب في ذلك الوقت كانوا يدينون بالمسيحية .

ويبدو أن اتفاقية ابن الحبحاب لم توقف غارات البجة وتعديهم على صعيد مصر ، اذ تشير المراجع الى تعدى البجة على بعض الحجاج من قفط ، وقد تطور هذا الحادث الى حرب متبادلة بين البجة وأهل قفط المصرية ، ويبدو أن هذه المعاهدة أصبحت لا قيمة لها بالنسبة للبجة بمرور الزمن ، وبمعنى آخر أصبحت هذه المعاهدة في طي النسيان ، فبعد قرن من الزمان تقريبا عاود البجة الاغارة على أسوان عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م بعد اغارتهم على مدينة قفط وذلك بعد أن ظلت العلاقات ودية طوال قرن من الزمان حتى اذ كنا في عهد المأمون العباسى جدد البجة غاراتهم على أسوان ، وعند سماع الخليفة بالخبر أمر بتجريد حملة عليهم وعقد لوائها لعبد الله بن الجهم عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م ونتيجة لذلك أملى عليهم عقدا جديدا جعل بموجبه بلاد البجة من حدود أسوان الى ما بين مصوع وباضع ملكا للخليفة وأن يكون كنون

ابن عبد العزيز رئيسهم هو وأهل بلده خاضعين للأمير المؤمنين وأن يحترم البجة الاسلام ولا يعينوا أحدا على المسلمين وألا يقتلوا مسلما أو ذميا أو عبدا في أرض البجة أو في مصر أو النوبة وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة أو الإقامة ، وإذا ما دخل البجة صعيد مصر مجائزين أو تجار فلا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى ولا يهدموا المساجد التي أنشأها المسلمون وأن يدخل عمال أمين المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة .

ويتضح من هذا العهد أن الاسلام شق طريقه الى أرض البجة كما شقها الى بلاد النوبة قبل هذا العهد لأن وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم دليل واضح على انتشار الاسلام على نطاق واسع سواء أكانوا عرب من الذين أقاموا هناك أو من البجة الذين اعتنقوا الدين الاسلامي نتيجة اختلاطهم بالعرب .

وقد كثرت أملاك المسلمين في بلاد النوبة والبجة في عهد دولة بنى أمية وبنى العباس وكان ملك النوبة قد استتجد بالخليفة المأمون حين دخل مصر عام (١٢٦ هـ - ٨٣١ م) على هؤلاء القوم المسلمين بأن أوفد وفدا الى الفسطاط ذكر عنه أن أناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعة والقوم عبيد له ولا أملاك لهم وكان أن أحال المأمون هذه الشكوى الى حاكم أسوان ليبت فيها ولقد فصل في الدعوى باقرار البيع لعدم اقرار البائسين بالرق ومن ثم توارث المسلمون الضياع ويشير ابن سليم الاسواني (٩٧٠ م) الى أن المنطقة الممتدة من أسوان الى الشلال الثانى هي الجهة التي يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك .

ولقد استمرت العلاقات الطيبة بين ممالك النوبة والدولة الاسلامية في مصر وان كان يحدث من وقت لآخر ما يثير التواتر والاحتكاك بسبب امتناع النوبة عن دفع البقط المقرر ، كذلك حدث أن تعدلت هذه المعاهدة في عهد الخليفة العباس المعتصم ، ذلك أن ملك النوبة

آنذاك — زكريا بن بحنس — قد أوفد ابنه لبغداد ليرفع عن والده عجزه عن دفع البقط سنويا، وكان ان سحب ابن الملك هذا معه في هذه الرحلة ملك البجة أيضا وعند وصولها لقر الخليفة أكرم وفادتها وقرر المعتصم أن يكون دفع البقط كل ثلاث سنوات بدلا من كل سنة على أن يستمر المسلمون في الوفاء بالتزاماتهم نحو النوبة وذلك بمنحهم الحبوب والثياب .

ولقد دفع الخليفة المعتصم الى ذلك للتخفيف عليهم كذلك لكون بلاد البجة كمعبر للحجاج المصريين ومن ثم حرص المسلمون على حماية سلامة الحجاج وأمنهم ، كذلك فانه يوجد ثمة شاهد على تغلغل النور الاسلامي في هذه البلاد ومن ذلك ما ذكره ابن سليم الأسواني قوله عن قيام اثنين من العرب بترجمة هذه المعاهدة الى لغة البجة ، ومعنى ذلك أن بعض المجموعات العربية المسلمة قد استقرت في هذه البلاد لفترة طويلة واختلطت بأهلها الى درجة أنها ألت بلغة التخاطب .

وكذلك فقد توطدت أركان العروبة والاسلام في بلاد النوبة فبعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية في بوصير بمصر اتجه أبناءه عبد الله وعبيد الله ومعهما ألفا وربما أربعة آلاف من أتباعهما الى بلاد النوبة بقصد الإقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبى ، ويبدو أن ملك النوبة الذى استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية الى بنى العباس فلم يتردد في أن يطلب منهم الخروج من دياره ، ومن ثم قررا الذهاب الى الجزيرة بعد أن سلكوا طريقهم في بلاد البجة ، وبالرغم من أن هؤلاء الهاربين السياسيين لم يستطيعوا البقاء في بلاد النوبة الا أن الطريق الذى سلكوه شهد هجرات كثيرة في القرون اللاحقة ، ومنذ العهد المبكر للاسلام أخذ العرب يتدفقون نحو السودان بأعداد كبيرة .

ومن هنا فان بلاد السودان قد شهدت اللاجئين السياسيين من العرب كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين الى بلاد النوبة أو السودان واستقروا بأرض الجزيرة بعد سقوط الدولة الأموية

(٣٢٠ هـ - ٧٥٠ م) • ويظهر أن العرب قد اتصلوا اتصالا وثيقا بالبجة في القرن الثامن الميلادي عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق وادي النيل وخاصة اقليم أسوان ، فوصلوا اليهم تجار واجتازوا من مصر الى بلادهم حاجين وهاجروا الى مفاوز الذهب والزمرد كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم • فهذه كلها ظروف ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب الاختلاط ببلاد النوبة والبجة وكانت من العوامل التي ساعدت على تعريب هاتين المنطقتين وكان للزواج بين العرب والنوبيين له أثره في اسلام الآخرين •

ومن هنا خضع البجة في شرق السودان في العهد العباسي للحكم الاسلامي أي بعد ثلاثمائة سنة من غزو عبد بن أبي السرج للنوبة وأصبحت بذلك الأراضي الواقعة من جنوب أسوان الى جنوب دمل ودهلك ومضوع جزء من الدولة الاسلامية •

لقد دخلت بلاد النوبة بعض جماعات من العرب من قبائل بلي وجهنيه لغرض التجارة أو جذبتهم معادن الذهب أو المراعى عقب الفتح الاسلامي لمصر وبديهي أن يدخل البجة أو بعضا منهم دين الاسلام نتيجة اختلاطهم بهم كما أن فريقا من عرب هوازن عبرو البحر الأحمر والذين عرفوا فيما بعد بالحلانقة • وأقاموا في بلاد البجة ثم رحلوا لاقليم التاكة وكسلا • كما أن بعضا من بنى أمية قد استقروا في ميناء باضع ودلت الأبحاث الأثرية على وجود شواهد قبور اسلامية وعلى وجود مسجد في « سنكات » يتضح أنها طريق الفارين من الأمويين •

وهناك بعض الروايات تقول ببقاء بعض أفراد ممن كانوا في غزوة « ان الجهم » في أرض البجة وربما نزحت بعض القبائل من صعيد مصر وتوغلت في الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية أخرى • اذن فإن بلاد البجة قد أصبحت مجالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها ذهب يدعو للاسلام وللجهاد في سبيل الله وبعضهم ذهب للتجارة وبعضهم جذبهم معدن الذهب وبعضا منهم نزح تحت ضغط قبائل أخرى وبعضهم تخلف بعد نجاح حملات تأديبية وبعضها عبر البحر

الأحمر واستقر على الساحل الغربى وبعضها تتبعت موارد المياه والعشب وبعضها توغل في الصحراء ولجأ الى البجة خوفا من سيف العباسيين .

ولقد كان الاستقرار العربى الاسلامى وفقا للانتشار جنوبا في السودان الأوسط أو ما يعرف باسم مملكة علوة ومن هنا أصبح الباب مفتوحا للإسلام والثقافة العربية للتوغل في وسط السودان وحتى حدود الحبشة دون انتظار لسقوط مملكة المقررة المسيحية في شمال السودان ، ومن هنا تدفقت الهجرات العربية الى السودان وادى النيل طوال العصور الوسطى ومن ذلك استقرت أعداد كبيرة من العرب في تلك المناطق ، ثم كانت الحملات الحربية التي وجهها ولاية مصر الى أوطان البجة فرصة ليتعرف العرب على خصائص البيئة ولذا أثر بعض الذين اشتركوا في هذه الحملات البقاء في منطقة العلاقى بعد أن عاينوا التبر وآثار العمل فيه . ولقد كانت شهرة وادى العلاقى بالذهب والزمرد سببا في جذب جماعات من ربيعة وجهنية عام ٢٣٨ هـ - ٨٣٧ م .

ثم كان الضغط السياسى والاقتصادى على العرب بمصر على أثر قيام الدولة العباسية بتعين رلاة من الأتراك ، ثم اسقاط العرب من ديوان الجند وقطع العطاء عنهم ، كان لهذا الضغط أثره في هجرة الكثير من الجماعات العربية الى الجنوب ، وحانت الفرصة لهم عندما أعلن أحمد بن طولون عن اعداد حملة الى بلاد البجة فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة ويبدو أن هدف هذه الحملة كان الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب في أوطان البجة والبحث عن أماكن ومهاجر جديدة تتسع لأولئك العرب الذين أرادوا أن يكونوا جاليات عربية في النوبة السفلى « مملكة مقرة » .

وقد ظلت علاقة الدول الاسلامية بمصر ببلاد النوبة يغلب عليها طابع المساومة وبذلك فقد أصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدول الاسلامية في مصر سوقا كبيرا أو منطقة نفوذ اسلامية وكانت العلاقة تنجح الى الهدوء والمساومة كما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية ومد مضر بما تحتاجه .

وقد كان نقص هذه الاتفاقية في الغالب يرجع من ملوك النوبة الذين كانوا أحيانا يمتنعون عن الوفاء بهذه الشروط وكانت الدول الإسلامية في مصر تضطر الى ارسال الحملات التأديبية واجبارهم على الوفاء بالعقد.

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصالا مكان ومرور وانتقال جنوبا مما أتاح الفرصة أمام المسلمين للانطلاق جنوبا حتى الى مملكة علوة وما يقترب من مكان مدينة الخرطوم حاليا حيث العاصمة سوبا . ومن هنا فان الرحالة الفاطمي ابن سليم الأسواني الذي زار المنطقة عام ٩٦٩م وجد أن كثيرا من العرب قد اختلطوا بالنوبة الى درجة أن عددا كبيرا منهم قد نشروا اللسان العربي ، ولم ينسوا اللسان العربي كما ذكر ذلك السودانى يوسف فضل حسن الذى حاول في كتاباته أن يقلل من شأن العرب والعروبة والإسلام والمسلمين في السودان في تلك العصور .

ولكن المعاهدات والالتزامات التى كانت قد عقدت بين المسلمين والنوبة والبجة لم تجعلهم يكفون عن إثارة المتاعب على حدود مصر الجنوبية ولم تنتهى الفتن التى يقوم بها البجة ولذا لم تمضى عليهم بضع سنوات بعد عودتهم من بغداد . وجعل البقط كل ثلاث سنوات بدلا من جعله يدفع سنويا ، ومع ذلك فقد امتنعوا عن دفع التزاماتهم من الخراج كنص المعاهدة وقاموا بثورة عارمة وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين العاملين بأرض المعدن ، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا على صعيد مصر كمعادتهم ، فما كان من الخليفة العباسى المتوكل الا أن يأمر بتجريد حملة عليهم بقيادة محمد بن عبد الله القمى عام ٢٤١ هـ - ٨٥٤ م ، كما أمر المتوكل الوالى عنبسه بن اسحاق الضبى أن يمدد بالرجال والمؤن ومن هنا فقد سار اليهم القمى بقوات يزيد عدداه عن ٢٠ ألف جندى (عشرين ألف جندى) وهناك في أرض المعدن انضم اليهم العرب من ربيعة ومصر واليمن ، كما وافقه المراكب بالمؤن عن طريق البحر الأحمر من ساحل القلزم الى ساحل عيذاب ، واستطاعت الحملة المصرية الإسلامية أن تهزم البجة وطلب ملكهم « على بابا » الصلح على أن يدفع الخراج عن المدة السابقة وهى أربع سنوات فصالحهم « القمى »

على أنه اشترط عليه أن يكأ بساط الخليفة العباسي في مدينة « سري من راي » ففعل على بابا وذهب الى هناك حيث كرمه الخليفة وقـد تضمن هذا الصلح تأكيد حق المسلمين في العمل بمعادن الذهب .

ولقد نقل (على بابا) الى قومه ما شاهده من عظمة وقوة المسلمين في عاصمتهم وأدركوا أنه لا قبل لهم بمعاداتهم ومقابلتهم ومن هنا تدفق مزيد من العرب على معادن الذهب واكتشفت مواطن أخرى من المنطقة وترك لهم أمر استغلال المناجم لأن البجه على ما يبدو لم تكن لهم خبرة بأمرها واكتفوا بمساكنة ومجاورة ومصاهرة العرب وربما زاد عدد من اعتنق الاسلام وبسطت الدولة الاسلامية نفوذها على المنطقة ومما زاد في هجرة أعراب البادية في مصر نحو أراضي البجه سياسة الخليفة المعتصم نحو تجنيد الأتراك في جيشه .

وذلك بعد أن ظل العرب طوال عهد الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والحقب الأول من الدولة العباسية يكونون الطبقة المصطفاه والطبقة المقاتلة والاستقرائية الحاكمة ، وكانوا يتسلمون رواتب سخية ويدفعون ضرائب بسيطة ويحافظون على مقدرتهم الحربية فانه حرم عليهم اقتناء الأراضي والاستغلال بالفلاحة ومن ثم ظلوا يسكنون المدن ولكن في أواخر الدولة الأموية بدأت الجماعات منهم تحترف الزراعة وتختلط بالمصريين ، ومن هنا كان ذلك بداية للاستقرار وانتشار الاسلام .

وقد استمر استمرار وفود العرب الى مصر لأسباب مختلفة منها كثرة تغير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم يشدوا من أزرهم في وظائفهم الجديدة وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ سبعة آلاف أو عشرة آلاف أو عشرين ألفا . فاذا عرفنا أن ثلاثة وثمانين واليا تعاقبوا على حكم مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسه بن اسحاق الضبي آخر وائي عربي حكم مصر تبين لنا العدد الكبير من القبائل العربية التي استقرت في مصر طوال تلك الفترة التي بدأت من ٢٠ هـ - ٦٤٠ م الى ٢٤١ هـ - ٨٥٤ هـ بالاضافة الى أن الأمويون شجعوا هجرة القبائل القيسية ليقبلوا من نفوذ القبائل اليمينية ، وقد استقرت جماعات من هؤلاء في مصر حيث مارسست الزراعة .

ومن ثم ساعد الانتشار الواسع والعديد للقبائل العربية سواء منها القيسية ، والسبائية الى النزوح جنوبا الى السودان حتى الوصول الى منطقة أرض الجزيرة •

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأييد الموالي من الفرس وبعض العرب ، وقد اعتمدت الدولة العباسية على الجند الخرساني وهم فرع من الفرس والعرب ومن ثم قل اعتمادها على العرب وبذلك حرم العرب من كثير من امتيازاتهم وهؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجيا ومن ثم في عهد الخليفة المعتصم احتلها جنود الأتراك ، ومن ثم فان ذلك لم يعجب العرب وبدأت حركة الهجرة الواسعة الى أطراف الدولة الاسلامية حيث تحرك العرب بأعداد كبيرة صوب الجنوب حيث أرض البجة والنوبة وحيث السودان الأوسط ولقد كان قرار الخليفة العباسي المعتصم بالكتاب الى واليه بمصر يأمره بأن يسقط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك • ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة في تاريخ العرب في مصر وتاريخ هجرتهم الى الجنوب فصهر تلك الناطق بالعنصر العربي ومن هنا كان قرار المعتصم بتجنيد الترك السبب المباشر بل العامل الأساسي الذي شجع الهجرة العربية الواسعة الى السودان ذلك لأنه كلما زادت هيمنة الأتراك على الحكومة والجيش في مصر اضطر العرب الى الهجرة جنوبا نحو السودان ، بل أن تلك السياسة أدت الى هجرة بعضهم جنوبا في الصحراء حيث استقرت قبائل قبلهم من أبناء عموماتهم واخوانهم • ولقد كان أسلوب العنف والشدة الذي أظهره الولاة الأتراك قبيل القبائل العربية وسجن الزعماء وفرض الغرامات من الأسباب الجوهرية التي دفعت بالأعداد الكبيرة بالانسياح نحو الجنوب والغرب مبتعدين عن هذا الجو المعادي للعروبة وكيف لا وهم أبناء الصحراء الذين اعتادوا على جو النقلة والترحال من الهجرة الى الافاق البعيدة حيث تبعهم البها بعض الأهل والعشيرة والذين استقروا هناك منذ فترة طويلة سابقة للإسلام •

وبذلك فقد شهد القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى هجرات عربية واسعة للسودان دفعتهم للدخول الى تلك السهول الواسعة من الشمال حيث اجتازوا مناطق النوبة الشمالية نزولا الى النوبة السفلى حيث مملكة علوة وانتشارا فى المناطق الشرقية من السودان بالقرب من معادن الذهب وسواحل البحر الأحمر . وقد شجعهم الى تلك الهجرات تلك الأخبار التى سمعوها من التجار عن المراعى الشاسعة التى تقع جنوب النوبة .

ولقد كانت المعاهدة التى عقدت بين « عبد الله بن الجهم » ورئيس البجة «كنون بن عبد العزيز» وهى فاتحة الباب لوصول القبائل العربية الى منطقة الجزيرة حيث التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض وتلك الأراضى الواسعة الشاسعة حيث استحدثت هذه المعاهدة السماح لتجول المسلمين واستقرارهم فى حرية تامة فى تلك المناطق وصولا الى أقصى المناطق الجنوبية ، كما أن الإشارة الى وجود المساجد فى تلك المناطق يدل دلالة قاطعة على عروبة تلك المناطق منذ فترة طويلة وانتشار الاسلام بين أهل السودان نظرا لوجود أعداد كبيرة من العرب فيهم . ومن هنا ساعدت على نشر الاسلام ، ثم أن اسم كنون بن عبد العزيز رئيس البجة دليل قوى على أن الرئيس هذا عربى أو أنه يحمل اسما عربيا ، كما أن قيام عربيان أحدهما من جدة والآخر من قریش بترجمة تلك المعاهدة الى اللغة البجاوية دليل حيوى على أن العرب عاشوا فى تلك الديار فترة طويلة قد تصل الى أكثر من ثلاثة أجيال حتى تمكنهم من تعلم واقتان اللغة البجاوية ، كذلك تدفق العرب بأعداد كبيرة بعد أن أسقط الخليفة المعتصم الرواتب للعرب من العوامل التى شجعت العرب للبحث جنوبا عن مناطق وجود الذهب والزمرد فى أرض البجاه اضافة الى نشر الاسلام والدعوة له بين سكان تلك المناطق الواقعة بين البحر الأحمر والنيل .

كثافة الهجرة العربية وانتشار الاسلام : لقد شهد القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى حركة هجرة اسلامية واسعة المناطق فى اتجاه الجنوب ، ذلك لأن سياسة الدولة فى مصر لم تكن تغرى الكثير

من العرب بالبقاء في مصر لا سيما بعد أن أبطل الراتب ومن هنا كانت هناك بعض الأسباب السياسية والاقتصادية هي الدافع لكثير من العرب ورعاياهم للتوغل في السودان وكذلك للعمل في مناجم التعدين في الصحراء الشرقية والدعوة للإسلام والاشتغال بالتجارة الهندية والقيام بنقل الحجاج عبر الصحراء إلى ميناء عيذاب بعد أن تطور ذلك الميناء وغيره من الموانئ المطلة على البحر الأحمر .

ولقد كان عامل الدعوة للإسلام ونشر تلك الرسالة التي خرج العرب من شبه الجزيرة العربية لنشرها من الأسباب القوية للتحرك إلى الجنوب إضافة إلى العامل التجاري حيث كان العرب أهل تجارة « رحلة الشتاء والصيف » من الأسباب القوية للتوغل جنوباً عبر أرض المفرة وعلوة اللتين كانتا لا تزالان دولتان مسيحيتان ، وذلك خلال القرون الأولى للدعوة الإسلامية حيث كانوا يقومون بالأعمال التجارية إضافة إلى الدعوة لدين الله الخالد ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والعاج والماشية حيث كانت هذه النشاطات تمثل جزءاً من هذا النشاط التجاري حيث ترايد الطلب في العالم الإسلامي على منتجات تلك المناطق ، لا سيما أن العامل التجاري كان يشد من أزر التسرب الإسلامي نحو الجنوب حيث كان التبادل التجاري من المواد التي تنظمها معاهدة البقط التي عقدت في عام ٣١ هـ / ٦٥١ م بين صاحب دنقلة ووالى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرج ووضعت هذه المعاهدة القواعد والأصول ، فقد اعترفت هذه المعاهدة بحرية المرور التجاري بين القطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه » وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين وعليكم حفظ من نزل ببلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم »

ومعنى هذا أن تجار المسلمين ورجال الدعوة الإسلامية كانوا باستطاعتهم أن ينفذوا إلى بلاد النوبة وأن يقيموا فيها متاجرين غير مستقرين وأن تؤمن أموالهم وأنفسهم ، وأن كان بعض العرب لم يلتزم بنصوص هذه الاتفاقية واستقر استقرار دائم بعد أن ينتقل من بلد إلى آخر .

ويبدو أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدعوا يدخلون النوبة ربما قبل إبرام المعاهدة فان هذه المعاهدة لم تكن تشريع للمستقبل بقدر ما تقرر حقيقة واقعة ، يدل على ذلك نصها على صيانة مساجد المسلمين والمحافظة عليها ومعنى هذا أن التجار المسلمين كان يسمح لهم بمزاولة شعائهم الدينية في حرية كاملة .

وكان هؤلاء التجار يخالطون أهل البلاد ويتحدثون اليهم ولا ننسى أن التجار المسلمين كانوا عادة من خير الدعاة الى الاسلام ومن هنا كان الهدف الدينى من أسباب التحرك والانتشار جنوبا ، ومن هنا كانت أعداد التجار الوافدين على بلاد النوبة تتزايد ويتزايد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العلاقات وتطورت بين البلدين ، هذه العلاقات التى تطورت وبلغت الغاية من النمو فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى .

بالاضافة الى أن كثافة انتشار الاسلام بين أهل النوبة ، أن التجار النوبيون الذين كانوا يفدون من بلادهم الى مصر كانوا يشاهدون مظاهر الحضارة وحسن المعاملة من التجار المسلمين ومن هنا فانهم عند عودتهم كانوا يتحدثون عن أحوال تلك البلاد الحضارية والثقافية والدينية والمعمارية ويتأثرون بما يشاهدون من معالم الحضارة والرقى ، بل ان العديد من هؤلاء التجار كان يعود الى النوبة بعد أن يكون قد أعلن اسلامه فى مصر وأصبح داعية للدين الخالد بين قومه عند عودته .

الدولة الطولونية والعلاقات مع السودان : عند ما تسلم زمام السلطة فى مصر أحمد بن طولون فان فترة عصر الدولة الطولونية (٢٥٤ هـ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) قد شهدت قيام الدولة الطولونية بتجهيز حملة حربية الى بلاد النوبة والبجة ، ذلك لأن حاجة مصر الى الرقيق كانت ماسة وبعد أن اشتد طلب مصر على الرقيق منذ أن درج الولاة على تجنيدهم فى جيش مصر الاسلامية بعد أن تم الاستغناء عن القوات العربية فى عصر الخليفة المعتصم ، بعد أن أضحت الحاجة ماسة الى الجنود النوبيون والذين عين أربعين ألف جندي منهم فى جيشه .

وكان البجة قد قاموا بغارة مفاجئة على مصر بقيادة رجل أعور باغتوا المسلمين وهم يؤدون صلاة العيد ، فأنزلوا فيهم مقتلة عظيمة ونهبوا ما استطاعوا نهبه من المسلمين وعادوا الى بلادهم ، ويبدو من رواية أبلوى ، أن تلك الحملة التي خرجت في عهد أحمد بن طولون والتي قام بها « أبى عبد الرحمن العمرى » قد أعدها بمجهوده الشخصى وبدافع من نفسه ، حيث يقول أبلوى « فخرج هذا العمرى غضبا لله عز وجل وللمسلمين فكمن لهم في طريقهم حتى أقبلوا ، كعادتهم فكبسهم وقتل رئيسهم الأعور نفسه ، كما أن رواية العمرى يبدو منها أن أحمد ابن طولون هو الذى أرسله ، حيث يقول انى لم أخرج أبغى فسادا في الأرض ، والدليل على ذلك قوله انى لم أوذ مسلما ولا معاهدا وانما خرجت في طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم » .

ولقد كان اتجاه العمرى الى اقليم شنقير جنوب العلقى حيث خرجت اليه القبائل العربية النوافذة من الشام ومن بينها قبيلة سعد العشيرة وقيس وعيلان ، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة في منطقة مريس ، اضافة الى اشتراك قبائل ربيعة وجهينة ، وقد قامت هذه الحملة بنشاط كبير في بلاد النوبة .

ولحملة العمرى هذه عدة أغراض متعددة فلم يكن المقصود بهذه الحملة الصحراء الشرقية حيث البجاة فحسب ، بل انها شملت المناطق النيلية والتي كانت حملة واسعة النطاق ، لم يكن الغرض منها كشف مناطق المعادن الجديدة كما حاول أن يؤكد ذلك بعض المؤرخين ، الا أن ما ذكره العمرى عن نفسه انما خرجت في طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم ، كما أننا لا نبغى فسادا في الأرض . ان اكتشاف معادن جديدة للذهب والمعادن كان من خطة الغزوة في نجاحها كذلك كبح جماح البجاة وتأديب أهالى تلك البلاد . وردا على غاراتهم المتكررة على مصر ومضايقتهم المستمرة للعرب النازحين والمقيمين في تلك البلاد طلبا للمعادن ونشرا للدعوة الاسلامية ، ولذلك فاننا نجد أن العمرى بعد أن قضى على قوة البجاة وكسر شوكتهم ، اتجه غربا الى النيل في « اقليم مريس » حيث طرد صاحب مريس ودمر مدنه وأسر الكثير من

سكان النوبة ثم تقدم جنوبا وراء وادى العلاقى حتى وصل إقليم شنقير عند أعطاف النيل غربا قرب مملكة الأبواب حيث اكتشف مواقع جديدة لمعدن الذهب وفطن أن تلك المنطقة هى منطقة الرياطاب والمناصير « حيث أقام قواعد جديدة للحصول على المياه للاستقرار بعد الاهتداء الى مواقع جديدة للتبر وتغلب على قوات « جورج الأول » ملك النوبة ثم تحرك شمالا عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه بعد أن أقاموا فى منطقة « ادندان » بالاتفاق مع النوبيين واتسعت منطقة نفوذه حتى منطقة عيذاب شرقا وحدودها الشمالية أسوان وخشى ابن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمرى وأرسل جيشا لمحاربته فانهزمت جيوش ابن طولون أمام العمرى وتحرك شمالا حتى أدفو ، الا أنه رأى الرجوع الى منطقة نفوذه فى المناجم وانشقت عليه قبيلة ربعة وحاربته غير أنه هزمها ، ولقد كان العمرى يهدف الى اقامة امارة مستقلة عن ابن طولون فى تلك المنطقة الواسعة من جنوب أسوان ، بعد أن استقر فى منطقة بالقرب من معدن لقبيلة مضر ، ثم فارقهم أثر خلاف على معدن الشنكة الذى يظن أنه بالقرب من أم نباردى أو وادى حمد قليب ، ولكن العمرى لم يجد ماء كافيا لعمليات التعدين فى ذلك المعدن فورد النيل ومنعة أهله منه شكا فى نواياه ، ولكن العمرى هاجم سكان شنقير وهى المنطقة الواقعة بين أبى حمد وبربر وسبا منهم أعدادا كثيرة باعهم فى أسواق مصر فكثرت ماله وزاد سلطانه وأخذت القوافل ترد الى معسكره محملة بالغذاء ولكن زعامته لم تدم طويلا ، اذ دخل فى حروب طويلة مع النوبة .

فقد اتهمه سعد العشيرة بممالة عيلان وأخيرا اضطر العمرى ليلتجه شمالا وأن يعسكر بالقرب من أسوان وان كان ذلك بعد أن كان قد بسط نفوذه على قبائل جهينه وربيعه وسعد العشيرة فعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفاء عدا العير التى كانت تأتى من عيذاب . وكان ابن طولون قد فكر فى الانتقام من العمرى ولكنه آثر السلامة بعد هزيمته الأولى أمام قوات العمرى .

ومن حسن حظ الطولونيون أن الحلف العربى الذى أنشأه العمرى فى أرض المعدن لم يدم طويلا نتيجة اختلاف تم بين الحلفاء والقبائل العربية ، والسبب المباشر لذلك أن « ابراهيم المخزومى » أخو العمرى من أمه قتلته جماعة من البجة فطلب من حلفائهم ربيعة أن تقتص حقه فرفضت وآثرت مضر الحياة بما عاداه بنو هلال وبنو تميم وأخيرا تمكن العمرى فى جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنه لم يعيش طويلا اذ اغتاله غلامان مضربان •

ولا نبالغ اذا قلنا أن العمرى قد قارب النجاح عند ما أنشأ أول اماره عربية فى شمال السودان وضرب بنجاحه هذا مثلا للكثير من العرب والراغبين فى الهجرة ليحذو حذوه • وقد ذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان أنه بعد موت العمرى بعشرين عاما ازداد النشاط العربى والاسلامى فى أرض المعدن وقد شمل هذا النشاط التعديدين والدعوة الاسلامية والتجارة ونقل المؤن وبعد موت العمرى كان هناك خلف كثير من ربيعة وجهينه خاصة حول أسوان وتنازعوا على امتلاك معادن الذهب بالعلاقى غير أن الغلبة كانت لفريق من ربيعة شمال البجة حيث تزوجوا من بنات رؤسائهم •

وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، الذى سمي بالعمرى سنة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث يقال انه من نسله ولد بالمدينة المنورة وجاء الى الفسطاط حيث عمل بتدريس الحديث ، ثم انتقل الى القيروان حيث وصلتته أنباء اعتداء البجة على مسلمى مصر وقت صلاة العيد فخرج غاضبا لله عز وجل والمسلمين يريد الانتقام من الذين أغاروا على ديار الاسلام كما أن أنباء الذهب والتجارة فى مناجم النوبة الغنية جذبتهم فعاد الى مصر مسرعا واتجه الى وادى العلاقى حيث تحول من فقيه الى تاجر واجتمع اليه عدد كبير من العرب فقويت شوكته فصال وجال فى بلاد البجة والنوبة واتجهت اليه أنظار العرب وبذلك يكون العمرى رائدا من رواد الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البلاد • فالعمرى اذن هو شخصية دينية فذة نشر بغزواته هذه فى أرض البجة والنوبة الاسلام والثقافة العربية الاسلامية

وازداد استقرار العرب في المنطقتين وبالتالي زاد من فرصة الاختلاط بين سكان البلاد الأصليين والعرب الوافدين ومن هنا اختلطت عرب ربيعة بالبجة ولا سيما « بالحداربة » ولا بد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم فحرص رؤساء العرب على التزوج من بنات البجة مما أدى إلى انتقال الرئاسة في أوطان البجة إلى أيدي العرب ، واستطاع عرب ربيعة في وادي العلاقي وضع نواة أول إمارة إسلامية في العلاقي بزعامة ابن مروان بشر بن اسحاق ، وهي الإمارة التي انتقل مقرها فيما بعد إلى أسوان حيث يقيم فرع آخر لبني ربيعة وكان بنو ربيعة في أسوان قد اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا هم أيضا من بنات رؤساء النوبة واستفادوا كذلك من نظام الوراثة بالأمومة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها النوبيين من أهل مريس « النوبة الشمالية » ♦

فالمسعودي حين زار مصر في عام ٥١٦ هـ / ٩٤٠ م نجد أنه يحدثنا عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة في منطقة المناجم وباتحاد الفريقين فغلبوا على من ناوَاهم سواء كانوا في النوبة أو غيرهم من السكان ، ويذكر أن أميرهم « أبا مروان بشر بن اسحاق بن ربيعة » يتحكم في جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفهم من العرب وثلاثين ألف من الحداربة ولعل أصلهم من حضرموت على الأبل ، ويتضح لنا من هذا الوصف أن دولة عربية صغيرة قامت في تلك البلاد ويذكر لنا المسعودي وصول الإسلام إلى جزيرة سداكن حيث تقيم جماعة اعتنقت الإسلام تعرف « بالخاسة » وفي بلاد النوبة السفلى الموالية لأسوان يحدثنا المسعودي عن جماعات من قبائل قطحان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوبا حيث اشترى أراضي من النوبة ♦

ومن كل هذا يتضح لنا أن هذه الهجرات العربية إلى أسوان قد تمت في ظروف مختلفة ، لم يكن طابعها العام يتسم بالعمل السريع والمنظم ، مما ينتج عنه انقلاب فكري واجتماعي ، بل أهم ما يميزها أنها كانت تنسرب سلميا واجتماعيا فرضته دوافع اجتماعية كالزواج والمصاهرة والاندماج ودوافع سياسية نظرا لتغير الأوضاع السياسية

في البلاد العربية ودوافع اقتصادية بحثا عن معادن الذهب والتجارة في منتجات تلك الأقاليم وقد تم ذلك في ببطء وسهولة وعلى مدى أجيال متعاقبة .

ولا بد أن هذه الهجرات كان ينتهي بها الأمر في نهاية المطاف الى الاندماج في حياة السكان المحليين الذين كانوا ينتمون الى عناصر متعددة كالحامية والزنجية ومثل هذا ينطبق على تلك الثقافة التي حملوها معهم الى مهاجرهم الجديدة فهي قد صارت مجموعة من الثقافات التي كانت منتشرة في البيئات المحلية .

ولقد اتسعت أعمال العمرى حتى شملت دولته معظم أراضي النوبة السفلى من شنقيير جنوبا الى أسوان شمالا ومن نهر النيل غربا حتى البحر الأحمر شرقا ومن هنا فقد أقام العمرى اماره عربية اسلامية في بلاد النوبة تحت زعامته في السودان .

ومما يدل على حسن نية العمرى وخروجه للدعوة الاسلامية ونشر ثقافة الاسلام في تلك الربوع من الشمال أننا نجد أن الغلامان اللذان قتلوا العمرى ، جاءا الى أحمد بن طولون والى مصر وزعما أنهما من غلمان العمرى في أرض المعدن يحملان اليه رأس العمرى ، وذلك طلبا للحظوة اليه ، دعا أحمد بن طولون جماعة من أهل صعيد مصر ممن يعرفون العمرى معرفة جيدة للتحقق من أنها رأس العمرى فتبين بعد معاينتها أنها رأسه ، وعندئذ أحضر ابن طولون الغلامين وسألهما بقوله : كان صاحبكما مسيئا اليكما قالا لا ، قال فكان يمنعكما رزقكما ، قالا : لا ، قال فركب بحضرتكما اثما استحللتما به قتله ، قالا : لا قال فلما قتلتماه ، قالا : لأنا أردنا بذلك الحظوة عند الأمير والقرب منه فقال . ذاك والله أبعد لكما منى من الله عز وجل ، ثم أمر أحمد بن طولون بضرب عنقهما وصلب جثتيهما ، ثم أمر بغسل رأس العمرى وتطبيبها ووضعها في كفن ودفنها .

وهنا كانت حملة العمرى هي بداية الحملات العربية الواسعة والمتكررة على أوطان البجة واثاخرة الفرصة للعرب كي يتعرفوا على

تلك البلاد وخصائص البيئية فيها فتدفقوا عيها بعد تلك الحملة ، حيث كانت حملة العمرى هى الاشارة الكبرى الواسعة لكى تفتح أبواب النوبة على مصراعيها أمام القبائل العربية الضاربة فى مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجاً مما كانت تلاقبه من صعوبات فى مصر بعد أن انتشرت القبائل العربية على نطاق واسع فى شمال السودان وخاصة قبائل ربيعة وجهينه حيث تم وضع نواة أول اماره عربية اسلامية .

العلاقات فى عهد الأخشيدين : فى أواخر عهد الأخشيدين عندما بدأت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا (المغرب العربى) ترنو ببصرها نحو مصر وحين شعر النوبيون باضطراب الأحوال فى مصر وعدم استقرارها نشطوا فى غاراتهم فبدأوا بالواحة الخارجة عام ٥٣٧ هـ / ٩٥٢ م وأعقبوها بغارة أخرى على أسوان عام ٥٤٢ هـ / ٩٥٦ م وكان على الدولة الأخشيدية أن ترد هذا العدوان فبعث أنور جورين الأخشيد محمد بن عبد الله الخازن بجيش عام ٥٤٣ هـ / ٩٥٧ م ولاقى النوبيين فى معركة فهزمهم فيها وتقدم نحو ابريم وسبى وغنم ورجع الى مصر ، وفى عهد كافور غزى النوبيون صعيد مصر مبتعدين شمالاً حتى دارفور ونتيجة ذلك أن مصر لم تفى بتعهداتها بشأن ما ورد فى معاهدة البقط من امداد النوبة بالثياب والحبوب اللازمة .

ولقد كان الدافع الى تحرك القوات المصرية الاسلامية الى بلاد النوبة شدة الحاجة الى النوبيين لتجنيدهم فى جيش الأخشيدين بعد أن وضحت الحاجة اليهم لا سيما فى عهد كافور الأخشيدى الذى ضاعف من أعدادهم فى الجيش المصرى ، ولقد كان هؤلاء الجنود يعتنقون الاسلام بمجرد تجنيدهم فى القوات المصرية وقد كان بعضهم يفضل الإقامة الدائمة فى مصر بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية ولكن كان هناك كثيرون منهم يفضلون العودة الى بلادهم وأوطانهم لانفاق ما جمعوا من ثروات من جراء خدماتهم العسكرية ، يعودون وهم مسلمون متحضرون ، ذلك لأن أحسن ما كان يفعله الاسلام بالنوبى هو الارتفاع بمكانته الاجتماعية والاقتصادية ومن ثم فانه لا يستبعد أن يكون هؤلاء الجنود العائدون الى السودان الشمالى من أحسن الدعاة الى الاسلام

بين ذويهم حيث يكونوا قد تنسبعوا بروح الاسلام سلوكا وعملا وقيما بعد مكوثهم في مصر ولا سيما أن بعضهم كان يقوم بأداء فريضة الحج أثناء الخدمة أو عند الانتهاء منها ومن هنا يكون قد حسن اسلامه وسلوكه وأنهم كانوا يحثون بنى جلدتهم ومواطنيهم على استبدال السكنى بأرض النوبة الجرداء والترحيل الى مصر حيث وادى النيل والخصب والرحيل الى القاهرة للقيام بالأعمال العسكرية والسياسية .

وفي المقابل كانت هجرة بعض الأفراد والجماعات الفارة والهاربة من مصر لتغير الولاة والحكام وقد كان هؤلاء لا يجدون المأمن والمقر والأمان في أرض النوبة الصعبة التي تحميها الجبال حيث كانوا يقيمون ويتزوجون من أهلها ومن ثم ينصهرون في بيئتها المحلية .

إذا كان سقوط الدولة الأموية ثم سقوط الدولة العباسية في مصر قد شهد فرار الكثيرين من بنى أمية وبنى العباس الا أن الهجرات لا شك قد تتابعت بعد ذلك أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين حيث كان هؤلاء اللاجئين من صفوفة القوم والأمراء والحكام الذين يشكلون عنصرا هاما من عناصر نشر الاسلام بين أهل تلك البلاد . ومن ثم بدأت الهجرات العربية تطرق أبواب النوبة وصولا الى السودان الأوسط ثم الانتشار فيه والتحرك جنوبا بعد حملة العمري وتكوين امارة بنى ربيعة من بعده لا سيما أن العديد من القبائل العربية كانت تتحرك جنوب الصعيد متجهة نحو أسوان ، ذلك لأن منطقة أسوان وبلاد النوبة وشمال السودان بلاد تشبه الى حد كبير بلاد العرب في ظروفها المناخية والطبيعية بعكس بيئة القطر المصري التي لا تلائم طبيعة العربي البدوي . وانه مما لا شك فيه أن العديد من البطون العربية قد استهوتها المناطق الجنوبية من مصر في القرنين الأول والثاني الهجري مما جذبها للتحرك جنوبا حيث وصلت الى أطراف صعيد مصر ومن ثم نفذت الى القسم اشمالي والأوسط من بلاد السودان .

ومن ثم فان هذا التيار العربي قد ازداد اتجاهها صوب الجنوب كما أصبحت أحوال مصر والعالم الاسلامي لا تشجع العرب على

الاقامة في ظل الظروف والحكم المعادي لهم • لا سيما بعد أن تم إسقاط العطاء والاستعانة بعناصر من الفرس والأتراك والسودانيين في الجيش ، وبعد أن رأت الدولة في مصر العنصر العربي عنصرا لا تليق له قناة لاحتفاظه بمقوماته العسكرية حيث هو عنصر صعب العريكة لا تليق بسهولة وهو أميل للعصيان والتمرد •

ومن هنا كان القرن السادس الهجري هو عصر ظهور العناصر العربية حيث أصبحت منطقة النوبة الشمالية (المريس) تكاد تكون عربية خالصة بعد أن تكاثرت أعداد الجاليات العربية •

ولقد كانت صلة مصر خلال عهد الأخشيدين بممالك النوبة المسيحية صلات حسنة بصفة عامة رغم بعض الاغارات التي كانت تعكر هذا الصفاء من حين لآخر ، وكمثال لهذه الاغارات ما حدث أواخر أيام الدولة الأخشيديّة حين شن أهل النوبة ثلاث غارات على مصر في الفترة من ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م ، ولقد كانت الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي واجهتها مصر في هذه الفترة وعانت منها الكثير هي الأمر الذي شجع أهل الجنوب على الاغارة عليها كما أن هذه الصعوبات هي التي كررت هجومات الفاطميين على الدولة الأخشيديّة هذا فضلا عما عانته مصر من مجاعات بسبب انخفاض الفيضان في تلك الآونة •

ولكن مصر لم تقف مكتوفة الأيدي رغم الصعوبات التي تواجهها أمام هذه الاغارات من جنوب الوادي ، اذ تشير بعض المصادر الى أن جيشا مصرية توجه الى النوبة بقيادة محمد بن عبد الله الخازن وأجلى النوبيين من أسوان وأبعدهم الى (أبريم) ثم تمكن هذا الجيش من فتح مدينة أبريم واستولى عليها عام ٣٤٥ هـ / ٩٢٧ م • غير أن هذه الهزيمة لم تضع حدا لخطر النوبة اذ تجددت الاغارات مرة أخرى عام ٣٤٩ هـ / ٩٣١ م حينما هاجموا مدينة اخميم جنوب مصر ، وفي السنوات القليلة التي سبقت فتح مصر على يد الفاطميين لم تذكر المراجع شيئا ذي بال فيما يختص بعلاقة مصر بالنوبة •

وبمرور الزمن بدأ انتاج المناجم يقل شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ، بعد أن غطتها الرمال ولعل السبب في تدهورها يرجع أولاً لخوف أصحابها من هجمات البجة والأعراب ، كذلك فإن الانتاج لم يكن يغطي النفقات ، ثم أخذ العاملون في أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر متجهين الى الداخل جنوباً .

ومن هنا فإن الهجرة العربية الى بلاد النوبة على أرض المعدن يتوقف على هذه المناطق الشمالية من النوبة بل توغلت جنوباً الى عاصمة مملكة (علوة) في مدينة (نسوبا) بل أكثر جنوباً . وقد وجدت آثار مدينة سكنية ربية عاشت لأكثر من قرن في الفترة من (٨٢٥ - ٩٤١ م) في (خور نبت) على بعد سبعين ميلاً شمال شرق محطة (هبا) ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الابل والاتجار فيها ، ولقد لعبت هذه الابل دوراً هاماً في نقل الحجاج والبضائع بين الصعيد وموانئ البحر الأحمر وفي أرض المعدن كما عثر في بعض الأماكن في النوبة السفلى والعليا ، على كثير من الكتابات العربية ، ويرجع تاريخ أقدمها الى تاريخ القرن الثالث الهجري ، كما عثر على شواهد قبور تحمل أسماء عربية بتاريخ ٢١٧ هـ / ٨١٣ م وفي منطقة كلابشة عام ٣٢٦ هـ / ٩٢٧ م .

هذه العناصر العربية التي هاجرت الى تلك المناطق ثم أقامت على هذا النحو سرعان ما تركت أثراً واضحاً في تاريخ البلاد وحيياة السكان. وقد انصهرت مع أهل البلاد الأصليين واختلطت بهم وعاشرتهم وقد ترك هذا الاختلاط أكبر الأثر في الوافدين وأهل البلاد على السواء ، فأننا نجد الوافدين تسربت فيهم الدماء النوبية وغلبت عليهم السمرة وعلى سلالتهم ، كذلك فإن أهل البلاد المحليين خالطتهم الدماء العربية واعتنقوا الإسلام وتعلموا اللغة العربية .

هذا التطور من الاختلاط والذي له عظيم الأثر في تاريخ البلاد ، تنهض الأبحاث الأثرية لتثبتته إثباتاً لا يدع مجالاً للشك .

الخلافة الفاطمية والعلاقة مع النوبة

عند ما تم للفاطميين الاستيلاء على مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م لم يتوان القائد جوهر الصقلي عن فتح باب العلاقات مع بلاد النوبة وذلك لأن الفاطميون كانوا يعمنون على أن يتحقق لمصر الإسلامية سيطرة سياسية على النوبة المسيحية ، وذلك رغم دخول العرب عاصمتها (دنقله) ، كما أن طموح النوبيين وغزواتهم المستمرة لمصر لم تنقطع وخاصة أن النوبيين كانوا قد توقفوا عن ارسال (البقط) المقرر منتهزين فترة الضعف التي انتابت مصر قبل الفتح الفاطمي لها ، ومن هنا أدرك الفاطميون منذ فتحهم لمصر أهمية العلاقة بين مصر والنوبة وضرورة المبادرة بانظهاار قوتهم وبفطنتهم للوك النوبة الذين دأبوا على مهاجمة مصر قبيل مجيئهم اليها ، ومن هنا جاء الفاطميون ولم تعجبهم السياسة التقليدية التي سار عليها ولا مصر من قبل العباسيين ومن سبقوهم من الولاة المسلمين تجاه النوبة ، ومن هنا كان لزاما عليهم أن يتخذوا موقفا ايجابيا تجاه هذه البلاد ، وان كان من عاداتهم عدم التفكير في الحرب الا في حالة الضرورة القصوى .

وقد بدأ جوهر الصقلي وهو القائد الفاطمي الذي تم على يده فتح مصر ، العلاقات مع بلاد النوبة بارسال مبعوث الى الملك جورج الثانى (٣٥٨ - ٣٩٣ هـ / ٩٦٩ - ١٠٠٠ م) ملك النوبة حينئذ ، ومن حسن سياسة جوهر الصقلي وحنكته أن اختار مبعوثه من بين النوبيين المسلمين الذين كانوا على قدر كبير من المعرفة بأحوال بلاد النوبة بحكم اتصاله المباشر ، فضلا عن معرفته باللغة النوبية ، ذلك المبعوث هو (عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى) الذى كان يتكلم اللغة النوبية بطلاقة الى جانب اللغة العربية ، ويعتبر أبى سليم الأسوانى أول شخصية إسلامية مستتيرة تدخل بلاد النوبة على رأس بعثة سياسية دينية وينظر أحد ملوكها من قبل أحد حكام مصر والذى يطالبه بدفع البقط الذى توقف دفعه منذ فترة ، كما تضمنت الرسالة التى حملها دعوة الملك جورج الثانى للدخول فى الاسلام ، وكانت أهمية هذه الرسالة دعوة حكام مصر لنشر الاسلام فى تلك البلاد المسيحية .

وقد أسفرت رحلة ابن سليم الأسوانى عن تحقيق بعض المهام التى بعث من أجلها ، اذ قبل ملك النوبة استئناف دفع البقط ، أما من ناحية دخوله الاسلام فقد رفض الملك الدخول فى دين الله الخالد ، واستمرت الكنيسة النوبية فى علاقتها بالكنيسة المصرية .

وقد اتسمت علاقة الفاطميين بالنوبة المسيحية بصورة عامة ، بالمسالمة وحسن الجوار ، اضافة الى أن ابن سليم الأسوانى بعد أن قضى فترة طويلة توغل جنوبا فى النوبة العليا (سوبا) عاصمة مملكة (علوه) ووجد بها رباطا خاصا به جماعة من المسلمين فاطمأن عليهم كما فعل فى النوبة السفلى ، ويبدو أن الفاطميين قد كلفوه بمهمته الى ملك النوبة السفلى ، ولم يكن يدرى علمهم أن النوبة تشتمل على بلاد النوبة السفلى والعليا — مقره ، وعلوه — وهذا ما كان شائعا بالفعل فى العصور الوسطى .

ومن المعالم البارزة فى علاقة الفاطميين بالنوبة ، قيام اماره عربية اسلامية قوية اتخذت من أسوان مركزا لها وكان لها دور هام فى علاقة مصر بالنوبة وقد اعترفت الخلافة الفاطمية بالقاهرة بالامارة العربية فى أسوان . وقد خلع الحاكم بأمر الله على أمير (ربيعة) لقب كنز الدولة فعرف بنى ربيعة فى أسوان والنوبة ببنى كنز ، وذلك حين استعاثت الخليفة الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة على أبو ركوة الذى هو الوليد بن هشام بن عبد الملك من بنى أمية وسمى أبو ركوة لأنه كان يحمل ركوة لوضوئه وكان أبو ركوة قد لجأ الى القيروان ثم قصد مصر ونزل فى طريقه ببرقة ، وحرّض الناس على الثورة ضد ظلم الحاكم وقد تمكن الحاكم من هزيمته فاضطر أبو ركوة للفرار الى النوبة وقد أفلح أبو المكارم بن ربيعة فى القبض على أبو ركوة فى بداية القرن العاشر الميلادى ، ولذا كوفىء أبو المكارم بلقب كنز الدولة وتوارث أولاده هذا اللقب فعرفوا ببنى كنز .

واذا كانت بعض المصادر قد رددت أنباء احتكاكات طفيفة بين البلدين فى العصر الفاطمى ، فإن معظمها أو كلها يرجع الى ما كان يقع

من خلافات في بعض الأمور أو نتيجة سوء الفهم في بعض الأحيان عندما يدخل ملوك النوبة صعيد مصر لزيارة بعض الكنائس القبطية ويقوم ولاية الصعيد بالتصدي لهذه الزيارة ، ولكن عندما كان يفهم الغرض من هذه المراكب والزيارة كان الولاة الفاطميون يرحبون بهؤلاء الملوك كما حدث ذلك مرة دح أحد هؤلاء الملوك .

ويعتبر عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) عصر ود ومصالحة مع بلاد النوبة بصفة عامة سارت خلاله العلاقات مع البلدين على نحو طيب ، غير أن (النويرى) في كتابه (نهاية الارب في فنون العرب) يشير الى غزوة مصرية لبلاد النوبة قام بها ناصر الدولة الحسين بن حمدان في عصر الخليفة المستنصر بالله في عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م ولكن يبدو أن النويرى يقصد بقوله مطاردة ناصر الدين للنوبيين أثناء الفتنة التي احتدمت بين طوائف الجند الفاطميين فقد طاردهم ناصر الدولة الى صعيد مصر وذلك على أثر فرارهم بعد هزيمتهم على يد جند الأتراك .

ولكن في عهد الخليفة المستنصر استغل الوزير الفاطمى بدر الدين الجمالى هذه العلاقات الطيبة في العلاقات الدبلوماسية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية حين فر الأمير كنز الدولة محمد أمير بنى كنز في أسوان الى دنقلة عاصمة النوبة السفلى عام ٤٧٤هـ / ١٠٨١م . وذلك أثر حملة بدر الدين الجمالى على صعيد مصر ، فأرسل الى ملك النوبة باسم الخليفة أسقفا (رجل دين مسيحى) يصحبه الشريف الرفيع الملقب سيف الدولة ومعهما كتاب موصى عليه من البطريك القبطى يطلب فيه تسليم كنز الدولة الفار الى عاصمته فأجاب ملك النوبة طلبه وأرسل كنز الدولة الى القاهرة يصحبه الرسولين .

ونتيجة لهذه العلاقات الطيبة طلب أمراء بنى كنز وساطة ملك النوبة لدى الخليفة المستنصر بالله ووزيره بدر الجمالى فقام ملك النوبة بالوساطة وأرسل هذا الملك معهم رسولا الى القاهرة الفاطمية استجابة لطلب هؤلاء الأمراء . فقبل بدر الدين الجمالى هذه الوساطة من ملك النوبة وسمح لهم بعودة نفوذهم بأسوان .

ولقد ساءت العلاقات من جديد بين الفاطميين والنوبة نتيجة ازدياد نفوذ الوزراء في عهد الخليفة العاضد ، ولذا استغل ملوك النوبة الفرصة في اقتناص فرصة ضعف مصر والاغارة عليها طالما لم يعد لخلفائها من السلطة الا ظلها وكان أن جمع الملك النوبى جيشا مكونا من عشرة آلاف فارس وهاجم مدينة أسوان حيث أفنى كثيرا من المسلمين وكان ذلك في عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١م . ولم يرد في المصادر عما تم من الاجراءات العسكرية من جانب الفاطميين حيال هذا الهجوم النوبى الغادر وكيف كان موقف الفاطميين منه .

ولقد أصبحت بلاد النوبة في أواخر العصر الفاطمى ملجأ وملاد لكبار رجال الدولة الفاطمية فرارا اليها من الأخطار التى تتهددهم .

وفي عصر العلاقات الفاطمية الطيبة مع النوبة سيطر الفاطميون على التجارة الشرقية وكان ميناء القلزم (السويس) هو الميناء الذى ترسل منه الحبوب الى الحجاز ولكنهم وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض حيث أنهم وجدوا في ميناء (عيذاب) ضالتهم حيث أنه أقرب الى الحجاز كذلك فهو أقرب الى اليمن من القلزم اضافة الى وجود حاكم قوى في مدينة (قوص) يسهل حركة المرور والانتقال الى ميناء (عيذاب) ومن ثم قصر طول الرحلة بحريا التى كانت محفوفة بالمخاطر وفوق ذلك كان ميناء عيذاب لا يبعد كثيرا عن ميناء جدة .

ولقد كان انتقال الحجاج الى طريق عيذاب في أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٣٠٥ - ١٠٩٤ م) الذى طال حكمه فرصة طيبة لانتشار الاسلام جنوبا حيث كان بعض الحجيج يفضل الإقامة في عيذاب عند عودته ومن ثم يتجه جنوبا الى أرض البجاه أو النوبة ، ولقد ظل طريق عيذاب هو طريق الحجاج الرئيسى لفترة تزيد عن قرنين انتهت في عام (٦٤١ هـ / ١٢٦٨م) وفي نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أصبحت عيذاب من أهم الموانئ في العالم الاسلامى وكانت ملتقى السفن التجارية من الهند واليمن وشرق أفريقيا وجدة ومنها تخرج القوافل تحت اشراف القبائل العربية ، والتى منها

قبائل تميم وبلى ، وقد ساعد استخدام ذلك الميناء على انتشار الاسلام في السودان الشمالى وتسهيل حركة الانتقال في تلك الأقاليم السودانية .

ولقد تأثرت الجماعات النوبية التى أسلمت بالتقاليد العربية وان كانت قد احتفظت ببعض تقاليدھا القديمة وأضافت اليھا بعض التأثيرات الجديدة ، فإذا مضى الوقت واشتد اسلامها تخلصت من التقاليد القديمة نهائيا متخذة تقاليد اسلامية صرفة ، ولقد اشتد تيار الهجرة العربية على نطاق واسع وسريع في العصر الفاطمى نظرا لحسن العلاقات الطيبة بين القاهرة وبلاد النوبة . ولقد شهد عهد المستنصر بالله الفاطمى على وجه الخصوص هذا العداء المتبادل والعتيق بين حكومة مصر وبين البطون والعشائر الى بلاد النوبة يدفعها في ذلك النجاح الذى حققه القبائل العربية البدوية النازحة الى الصعيد فادى ذلك الى اندفاع بعض المهاجرين الأولين وتحفزها أنباء النجاح والاستقرار الذى أحرزه اخوانهم في الماضى وانطالقهم بعيدا عن تضيق سلطات مصر واستبدادها ، مما كان دافعا لاشتداد تيار الهجرة الى النوبة ووضح نفوذهم في صورة أقوى . ولقد ذكر ابن سليم الأسوانى الذى زار النوبة عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م أن المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث يتصرف فيها المسلمون لا كتصرف المهاجرين الغرباء اللاجئين ، انما يتصرفون فيها تصرف الملاك وأصحاب الأراضى لا سيما وأنهم قد اشتروا بعض الضياع والأطيان منذ فترة طويلة .

كذلك فان اضطراب الأحوال السياسية في بعض فترات العصر الفاطمى بين مضر والنوبة لم يكن ليوقف حائلا دون انطلاق هذه الهجرات ذلك لأن تلك الهجرات لم تكن لتتأثر بالخلافات السياسية حيث كانت هذه هجرات قبائل وحركة سكان ، بل أكثر من ذلك فان ابن سليم الأسوانى رأى المسلمين متمتعين بكامل استقلالهم في هذه المنطقة وقد اندمجوا في حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا عاداتهم وتقاليدهم .

ومن ذلك ما أشار اليه ابن سليم الأسوانى من أنه أثناء وجوده في النوبة موفدا من قبل القائد جوهر الصقلى أن كان وجوده يوافق عيد

الأضحى المبارك عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م فقسام بمشاركة المسلمين في الاحتفال بهذا العيد الاسلامى الكبير وطاف مع المسلمين في مدينة دنقلة بعد أن أدوا صلاة العيد في الخلاء وذلك في حرية تامة وكأنهم من أهل البلد وكانوا أثناء طوافهم بالمدينة رافعين أعلاما فاطمية تحمل اسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وهم يضربون الطبول والبوقات وهذا خير دليل على أن المسلمين كانوا يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقيدتهم فاطمأن عليهم ابن سليم الأسوانى وتيقن أنهم نواة طيبة لنشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في أقاليم النوبة .

كذلك فان العصر الفاطمى شهد قيام الامارات العربية النوبية التى اتخذت من أسوان مركزا لها وامتد نفوذها جنوبا حتى أرض مريس والراجح أن هذه الامارة العربية الاسلامية كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى ملك النوبة المسيحى لا سيما بعد أن أصبح معظم رعيته من المسلمين .

وقد توارث أنباء بنى ربيعة لقب كثر الدولة الذى عرفوا به والذى منحه لهم الخليفة الفاطمى . وقد قصدهم الشعراء والكتاب ومدحوهم . ولقد كان أحد زعماء هذه الامارة من الرؤس المدبرة للمؤامرة التى قصد بها اعادة الخليفة الفاطمى الأمير داود بن العاضد كخليفة لمصر واعادة الخلافة الفاطمية وهى المؤامرة التى استطاع صلاح الدين الأيوبى قمعها وقتل زعيمها من بنى كثر وآلاف من أتباعه عام ١١٧٦ م .

ومع ذلك استعاد بنو كثر نفوذهم ومدوا سلطانهم على القسم الشمالى من بلاد النوبة وعملوا على اشاعة النفوذ الاسلامى ونشر العقيدة الاسلامية في البلاد بل وتشجيع التيار الاسلامى واستمر نفوذهم في العصر المملوكى . وهذه الامارة العربية الاسلامية النوبية صورة واضحة للحياة العربية الاسلامية التى كان المهاجرون العرب يحبونها في مهجرهم الجديد .

والحقيقة فان المهاجرين العرب لم يكن جلهم من ربيعة وحدها ولكن شاركت معها بعض القبائل العربية كما ذكرنا عند تحرك عبد الله العمرى في حملته الى بلاد النوبة ومن هنا شاركتها العديد من القبائل التى سوف نشير اليها عند الحديث عن القبائل العربية بالسودان •

ولقد كانت هذه الهجرات العربية تدخل بلاد النوبة دون أن يشعر الملوك أدنى خطر منهم كما أن معاودة البقظ كانت تعطى لهم حق المرور والعبور ومن هنا كانت هجراتهم هجرات مسالمة لا تعدو جماعات بريئة تتلمس الاذن بالمقام وتخالط السكان ولا تسبى اليهم ولا تقلق بال حاكمين ، بل انهم كانوا يتركونها وشأنها تمارس الرعى والاستقرار ولا يتعرضون لها بسوء وتتابع حياتها اليومية في حرية تامة وهدوء واستقرار وطمأنينة •

وكانت بلاد النوبة متسع كبير تمتص هذه العناصر الاسلامية الزائدة وتشتربها ولا يظهر نفوذ العرب أو تعلو كلمتهم الا حين تكثر أعدادهم وتضعف رقابة السلطة الحاكمة وتعجز عن كبح جماحهم •

« الأيوبيون وبلاد النوبة »

لم ترد أدنى اشارة الى العلاقات مع النوبة في السنوات القليلة التى سبقت قيام الدولة الأيوبية ذلك لأنه ربما أن الأمور كانت تسير على الوضع السائد من قبل ولهذا كانت العلاقات بين بنى كثر وامارتهم في أسوان والدولة الفاطمية هي المظهر السائد لعلاقات مصر مع الجنوب ، ذلك لأن العلاقات الطيبة والحالة الهادئة لم تدم طويلا في عصر الدولة الأيوبية ذلك لأنه من عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م قامت مجموعتان من النوبيين بالهجوم على جنوب أسوان وقد قام بهذا الهجوم مجموعة من فلول الجيش الفاطمى من فرق السودان الذين فروا من القاهرة في وجه صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الدولة الفاطمية كذلك الجماعة الثانية فهم جماعة من النوبة ساعدوا فلول جيش الفاطميين في السودان وساعدوهم وساروا سويا نحو صعيد مصر

وهاجما مدينة أسوان بعد حصارها مما اضطر كثر الدولة الى طلب
العون من القاهرة •

وبناء على طلب كثر الدولة جهز صلاح الدين حملة سارت الى
أسوان ولكنها وجدت أن أهل النوبة والسودان قد غادروا المدينة
فبشرت الحملة في أثرهم والتي كانت بقيادة « الشجاع البعلبكي » بعد
أن انضمت اليه قوات من بنى كثر حيث التقى بالنوبة والسودان في
معركة حامية الوطيس قتل فيها عدد كبير من الجانبين ولكن ظل أهل
النوبة مصدر خطر كبير على حدود مصر الجنوبية في عصر الدولة
الأيوبية •

وكان ذلك مما اضطر صلاح الدين أن يرسل حملة بقيادة أخاه
« شمس الدين ثوران شاه » وسار هذا الى قلعة ابريم وحاصرها ثلاثة
أيام ثم افتتحها وغنم جميع ما فيها وخلص جماعة من الأسر وكتب
الى السلطان بذلك بعد أن رجع الى أسوان وقد حاولت الدولة الأيوبية
احتلال بعض المواقع الاستراتيجية والهامة في بلاد النوبة مثل قلعة
ابريم ، بل ان ثوران شاه أقطع هذه القلعة لأحد رجاله « ابراهيم
الكردي » وأرسل معه جماعة من الأكراد ظلوا يشنون الغارات على
بلاد النوبة •

ويبدو أن محاولة صلاح الدين بسط نفوذ مصر السياسى على
النوبة لم تقف على الناحية العسكرية بل تعدتها أيضا الى الناحية
الاقتصادية التى تدعمها القوة الحربية ، ويبدو أن ملك النوبة قد
أرهبته حملة ثوران شاه وما حدث بعدها من احتلال أجزاء من أراضيه
فلم يبقى أمامه سوى طلب الصلح وقد أرسل ذلك الملك رسولا خاصا
الى شمس الدولة ثوران شاه الذى كان موجودا بقوص وحمل اليه هذا
الرسول طلب الصلح ولكن شقيق صلاح الدين صمم على تأديب ملك
النوبة وارهابه حتى يكف عن عدوانه على حدود مصر وانه أعطى رسول
ملك النوبة نشابا وقال له ما لك عندي جواب الا هذا •

ومهما يكن من أمر فان حملة صلاح الدين على النوبة لم تخرج
عن أسبابها التقليدية لحرب النوبة وهى الرغبة فى تأمين حدود مصر

الجنوبية وأيضا في صد غارات النوبة وافساح المجال للهجرات العربية حتى يتم طبع هذه البلاد بالطابع العربي الاسلامي ، ولقد كان احتلال شمس الدين توران شاه قلعة ابريم خير دليل على حسن خطة الدولة الأيوبية في كسر حدة النوبة وتفضيلها المسالمة .

ولقد كانت الهجرات العربية متصلة الى النوبة غير متقطعة بل انها كانت تزداد في فترات الأزمات بينهم وبين الحكام لا سيما عند ما يظهر هؤلاء عداوتهم الظاهرة للعرب فقد تسلم الأيوبيون لمقاليد الحكم في مصر وظلت الصلة بين العرب والحكام كما كان عليها الحال السابق صلة فاترة بل شبه مقطوعة ، ذلك لأن العرب وقبائلهم وبطونهم لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار في ابعادهم عن السلطة والجيش ، فقد اعتمد الأيوبيون كغيرهم من حكام مصر السابقين على غير العناصر العربية اعتمدوا على الأكراد والديلم والأتراك ولم يستفيدوا من العرب الا نادرا ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخيا وضعفا ظاهرا في الدولة وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها في الصعيد .

• اضافة الى دولة بنى كثر التى اتخذت مقرها أسوان قد ساعدت صلاح الدين في حربه ضد الجند السودانيين ، الا أن صلاح الدين من جانبه كان يتهم بنى كثر بتشجيعهم للعلويين الفاطميين ، ومعنى هذا أنهم تعاونوا روحيا مع الفاطميين . بل أكثر من ذلك أن صلاح الدين عمل على ضرب بنى كثر فأقطع ذلك الاقليم لأحد أعوانه وهو ابراهيم الكردي وهذه دلالة واضحة بأنه لا يود لكثرة الدولة السيطرة على ذلك الاقليم ، ولكن كثر الدولة ثار عليه وهجم بجيشه على والى صلاح الدين وقتله بل انه كانت هناك في القاهرة حركة تدمر لاعادة الدولة الفاطمية . ويبدو أن كثر الدولة كان يعصدها ويساندها بل يساعدها بالأموال والرجال . ولكن قضاء صلاح الدين على تلك الحركة قد مكنته من أن يرسل أخاه شمس الدين توران شاه ، ثم بعد ذلك يرسل أخاه العادل بجيش الى أسوان فهزم كثر الدولة وقتله وانكسر نفوذ الكنوز بعد هزيمتهم مما اضطرهم الى أن ينقلوا مركز

نشاطهم وحكمهم الى الجنوب حيث بلاد النوبة وذلك عام ٧٥٠ هـ / ١١٧٤ م وتم اندماجهم مع سكانها ومن هنا كان اندماج بنى كنز في النوبة مقدمة للانتشار الاسلامى السريع ، بل أكثر من ذلك فانهم شاركوا في احداث مملكة النوبة المسيحية ثم مكنوا لأنفسهم فيمينا بمصاهرة البيت المالک النوبى فى دنقلة وادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى ملك النوبة عن طريق الوراثة للأُم .

كذلك فان استغناء صلاح الدين عن جند النوبة واستبدالهم بعناصر موالية له من الأكراد والأتراك والديلم قد أدى الى نزوح هذه القوات السودانية التى خدمت فى الجيش المصرى طوال العصر الطولونى والأخشيدي والفاطمى الى بلادهم فى النوبة مما ترك أثره الواضح والقوى والفعال فى انتشار الاسلام والعروبة على نطاق واسع حيث كانت تلك الأعداد من الكثرة بحيث أثرت فى كل المجتمع حتى امتد تأثيرها الى وسط السودان والى ما يعرف حاليا بمنطقة الجزيرة حيث مدينة سوبا .

كذلك كانت سيطرة الفاطميين كما سبق أن ذكرنا على ميناء غيداب واتخاذ الميناء الأفضل بدلا من ميناء قلزم السويس أن جعل الدولة النوبية المسيحية فى دنقلة بدون منافذ مائية تطل منها على العالم الخارجى مما جعل الدولة الاسلامية تسد عليها الطريق وخاصة الى الأماكن المسيحية المقدسة فى الشام (فلسطين) وكذلك التجارة مع العالم الخارجى مما جعلها تقع تحت رحمة مصر والمسلمين ، فميناء السودان الوحيد « غيداب » تحت سيطرة المسلمين ، وكذلك فان تلك السيطرة الاسلامية جعلت العرب ينتشرون فى الصحراء الشرقية ، ومن هنا أحكم المسلمون الحصار عليهم وعزلهم عن العالم الخارجى فى عصر الدولة الأيوبية لا سيما بعد انحسار ظل الصليبيين عن فلسطين فى عهد صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره عليهم فى معركة حطين .

ولو أنه لم تظهر المصادر المعروفة فى ذلك الوقت كابن شامة والنوبرى وابن خلدون وغيرهم من المصادر وجود أية علاقات بين

الصلبيين في فلسطين ودولة النوبة المسيحية في السودان الا أنه يظن أن النوبيين كانوا على علم بالنزاع بين المسلمين والصلبيين خاصة تلك المحاولة التي قام بها أرناط في البحر الأحمر • لكن عزلتهم في ذلك النطاق الضيق وكثافة الوجود الاسلامي في بلادهم قد حالت دون اتصالهم بالصلبيين في الشام •

ولقد كان لتشجيع ولاية أسوان لزعماء القبائل العربية المهاجرة الى بلاد النوبة بالهجرة الى تلك البلاد أن كثرت هذه الهجرات اليها وازدادت كثافة في العصر الأيوبي • حتى أصبح لها آثار بعيدة المدى لا على أسوان فحسب بل على اقليم مريس الذي أصبح منذ ذلك الحين منطقة نفوذ عربية اسلامية ، ويشير ابن سليم الأسواني الى أن العرب قد كثروا في مهجرهم الجديد بعد رحلة العمرى وحملته الى تلك الأقاليم حيث لقيت دعوته للانتشار العربى الاسلامى قبولا لدى العديد من القبائل العربية والتجار العرب الذين يتركزون في أسوان ، ومما يذكر أنه خرج اليه رجل يدعى عثمان بن جنجلة التميمي في ألف راحلة. ومنذ ذلك الحين كثرت عمارة تلك المنطقة إذ سرعان ما اكتسب العرب وضعاً اجتماعياً رفيعاً بعد أن كونوا طبقة أرستقراطية حاكمة خضع لها النوبيين سكان النوبة السفلى ولا سيما بعد أن تجول معظمهم الى الاسلام •

على أن العصر الأيوبي قد شهد رغم القضاء على نفوذ الدولة الكنزية أن أسوان قد ظلت مصدراً قلقاً للأيوبيين بصورة تفوق تلك الغصور التي سبقت هذا العهد • وأن القلق من جانب النوبة قد شهد بعداً جديداً بقيام بنى كثر بمعاداة الدولة الأيوبية ، كذلك مما ضاعف من حدة التوتر في أسوان تلك السياسة التي انتهجها الأيوبيون لابعاد العنصر السودانى من الجيش والتي أدت بدورها الى تركيز هذه المجموعات من السودانيين في النوبة وصعيد مصر الأعلى تفادياً للاضطهاد ولم يلبث أن صار هؤلاء السودانيين منذ دولة بنى كثر حتى بعد سقوطها كبرعون وسند لهذه الدولة ضد الأيوبيين •

ولقد كان بنى كنز غير متعصبين أو مؤيدين لحكومة اسلامية معينة أو مذهب ديني أو سياسي بل كانت علاقتهم بأى دولة فى مصر تتحدد حسب نظرة كل دولة لسيادة بنى كنز على اقليم السودان ولكن تحرك بنى كنز الى الجنوب كان لصالح الوجود العربى الاسلامى ولانتشار الدعوة الاسلامية والثقافة العربية الاسلامية والذين أخذوا يبسطون سيادتهم على اقليم الرئيس تدريجيا وفى نفس الوقت ظلوا يكررون المحاولات لاستعادة مكانتهم فى أسوان حتى استطاعوا أن يستردوها فيما بعد فى أعوام ٧٩٠ هـ / ١٣٨١ م ولكن حتى نهاية الدولة الأيوبية لم يقيم بنى كنز بأى نشاط ذى أهمية داخل الأراضى المصرية ويبدو أنهم خلال اقامتهم فى الرئيس استقادوا من وجود المجموعات التى دخلت فى الاسلام من القبائل النوبية ومن اخوانهم العرب الذين سبقوهم فى الهجرة الى تلك المناطق وهى المجموعات التى دلت الأبحاث الأثرية على وجود أعداد كبيرة منهم كانت تقيم فى اقليم الرئيس • ومن ثم ازداد نفوذ بنى كنز •

وعند ما انتهت الدولة الأيوبية مصر فانه وضح كل الوضوح أن علاقة مصر ببلاد النوبة لم يطرأ عليها أدنى تغيير جذري ، ذلك لأن بنى كنز سيطروا على الجهة الجنوبية من حدود مصر الى النوبة •

ولكن يمكن القول بكل وضوح وجلاء أنه رغم النزاع الذى قام بين بنى كنز والدولة الأيوبية الا أن الأيوبيين فى مصر عملوا من جانبهم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر على تقوية النفوذ الاسلامى فى بلاد النوبة بل تدعيمه بكل الوسائل سواء أكان ظاهريا عن طريق تشجيع هجرة القبائل العربية أو تقديم المساعدات لبعض القبائل العربية المهاجرة •

بل ان النشاط الاسلامى قد ازداد فى خلال فترة الحكم الأيوبى لمصر وانتشر الاسلام وصبغت المنطقة بالصبغة الاسلامية البحتة ولعل أبلغ دليل على انتشار الاسلام أنه عند ما أرسل السلطان المملوكى بيبرس حملته الى بلاد النوبة عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فإن صاحب الجبل الذى هو حاكم اقليم الرئيس كان يحمل اسما عربيا إسلاميا

هو اسم « قمر الدولة » وهذا دليل واضح على أن نور الاسلام قد غير معالم كل هذه المنطقة الممتدة من جنوب السودان حتى حدود النوبة العليا التي كانت عاصمتها سوبا وبذلك فان كل السياسات الحكومية في القاهرة سواء أرادت بطريق مباشر أو غير مباشر كانت تخدم قضية نشر الاسلام والعروبة في أقاليم النوبة سواء بهروب الولاة أو فرار المضطهدين أو نزوح القبائل العربية أو احكام الحصار على النوبة المسيحية بحيث أصبحت النوبة دارا اسلامية تشع بنور الاسلام وترهو بصوت القرآن الكريم .

العصر المملوكى والنوبة الاسلامية

في عام ٦٢٩ هـ / ١٢٥٠ م شهدت مصر ميلاد عهد جديد ، ذلك عند ما بدأت دولة المماليك في حكم مصر ولذا كان هذا العهد بالغ الأهمية ليس فقط بالنسبة لمصر فحسب ولكن للشرق الاسلامى كله فضلا عن أهميته للعالم ككل في العصور الوسطى . لكن بالنسبة لسودان وادى النيل فقد شهد ذلك العصر تطورات كبيرة في علاقة مصر بتلك البلاد وهذا أمر طبيعى لأن السودان وادى النيل يتأثر بكل تطور سياسى أو اجتماعى يحدث في المجتمع المصرى .

وقد بدأت تلك الصلات السودانية الشمالية مع مصر في ذلك العصر المملوكى بوفد أرسله ملك النوبة « داود الأول » في عام ٦٦٧ هـ — ١٢٦٨ م الى السلطان الظاهر بيبرس في مصر وحمل الوفد رسالة من داود يؤكد فيها أنه تولى عرش النوبة بعد أن أسقط عنه خاله المسلم « أبو العزم مرتشكار » الذى أصبح كفيفا ويبدو أن من مهام الوفد معرفة السياسة الجديدة التى تسير عليها دولة الممالك ازاء النوبة وكان رد السلطان بيبرس أنه يطالب بدفع البقظ الذى توقف دفعه لمدة طويلة وان كان السلطان بيبرس مهتم في ذلك الوقت بمحاربة الصليبيين والتتار والأرمن وقد كانت هذه الاستعدادات فرصة لداود الذى لم يكن راضيا عن دفع البقظ لكى يشن هجوما على السودان وثرغ عيذاب في

عام ٦٧٥ هـ / ١٢٧٢ م اذ أغار وجيشه النوبى على هاتين المدينتين ونهب المتاجر وقتلوا عددا من سكانها بما فيهم القاضى والوالى وخربوا السواقى وأسروا عددا من سكانها وعند ما وصلوا بهم الى عاصمتهم دنقلة سخرورهم فى بناء كنيسة ومن ذلك العدوان بدأت سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وارسال الحملات بين النوبة والممالك فى مصر .

ولقد كانت الحملة الصليبية التى كانت تهدف احتلال الأراضى المقدسة الاسلامية فى الحجاز ونجاحها فى تحطيم ما وجدته من سفن فى ميناء عيذاب ، قد جعلت حكام المسلمين فى مصر يوجهون اهتمامهم لسلامة البحر الأحمر من خط الصليبيين وزيادة فى تأمين ميناء عيذاب اهتموا بميناء سواكن وهو مخرج تجارة ممالك النوبة المسيحية فى السودان وقد تعدى الاهتمام بسواكن الى الاتجاه جنوبا الى موقع مصوع وتعرض حاكم سواكن وحاكم جزر دهلك قبالة مصوع لأموال من توفى فى بلادهم من المصريين وأهمـل صاحب سواكن احتجاج السلطان الظاهر بيبرس فما كان منه إلا أن بعث بحملة تأديبية على سواكن فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٥ م وكانت النتيجة أن فر صاحب سواكن واحتلتها الجيوش المصرية واستقرت بها حامية دائمة هناك وبهذا أصبح المنفذ البحرى الثانى بعد اعتذاب لأقاليم النوبة المسيحية تحت سيطرة الدولة الاسلامية فى مصر .

ومن هنا فان بعض المؤرخين يرى الأسباب الاقتصادية التى دفعت بالنوبة وملكها بالاعتداء على ميناء عيذاب وأسوان وذلك بعد سقوط سواكن فى يد مصر مما أدى الى احكام الحلقة والسيطرة الاسلامية على البحر الأحمر وزيادة عزلة الممالك المسيحية عن العالم الخارجى ومما لا شك فيه أن سيطرة الحكام المصريين على مينائى عيذاب وسواكن قد جعل هؤلاء الحكام النوبيين المسيحيين يحسون بتهديد مصالحهم الاقتصادية فى البحر الأحمر ذلك المعبر التجارى الحيوى .

ومن ناحية أخرى فإن هناك بعض المؤرخين يرى أن أسباب هذه الحملة النوبية التي قام بها الملك « داود » تعود الى أسباب دينية بحقة وفي نظرهم أن داود شن هذه الغارة العنيفة تضافرا مع الصليبيين في الشام . وأن ذلك الهجوم العنيف على عيذاب وأسوان كان بغرض التنسفى من المسلمين ولعل ما يلقي الضوء على اهتمام النوبة المسيحية بالأراضى المقدسة ما تذكره بعض المصادر من أن هؤلاء المسيحيين كانوا يحجون الى بيت المقدس ويترددون على المدينة المقدسة .

ومهما يكن من أمر الحملة التي قادها داود على الأراضى المصرية فإن السلطان بيبرس قد أولى الأمر اهتماما كبيرا إذ أنه بادر بإرسال حملة بقيادة والى قوص عام ٦٧٦ هـ / ١٢٧٣ م الذي واصل تقدمه عبر الأراضى النوبية حتى وصل الى دنقلة عاصمة النوبة السفلى ، غير أنه لم يستطع أن يلقى القبض على داود لكنه عاد للقاهرة بعدد من الأسرى فيهم صاحب الجبل .

وكان « داود » قد تقهقر جنوبا داخل أراضى مملكة علوة حتى لا تتأله يد القوات المصرية .

أضافة الى أن عرب مصر قدروا أن تغير النظام الأيوبنى الى المملوكى قد كان بداية لصراع عنيف بين أغلبية العرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البدو والحضر ، فقد اعتاد هؤلاء كلما وانتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة انتقاما من ظلم الحكام لهم واسقاط العطاء عنهم ، بل أن حنقهم قد ازداد بما رواه هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على مقاليد الأمور فى مصر ويضيقون الخناق عليهم وقد صدق حدس الأعراب فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة النى لم تتعاطف مع أهالى البلاد كثيرا بل ظل كثيرا منهم يجهلون العربية ، ومن هنا فانبأ نجد أنه مع بداية العصر المملوكى وبالتحديد عام ٦٥٥ هـ / ٢٥٣ م قد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج وأعلن قائد الثورة الشريف حصن الدين ثعلب بن نجم الدين الجعفرى « نحن أصحاب البلاد ونحن

أحق بالملك من الممالك وتوافد مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثني عشر ألف فارس وتجاوزت غدة الآخرين الاحضاء • واستطاع السلطان «أييك» أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثوار العرب وأسر حصن الدين ومن هنا فإن العرب بعد أن أصابتهم الهزيمة لم يجدوا أمامهم إلا أن يسلكوا الطريق الذي سلكه من سبقهم من أخوانهم العرب إلى الاتجاه جنوبا حيث أرض السودان الخضراء في مملكة علوة جنوب مملكة المقررة وأن ذلك الصراع قد ظل فترة طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، وقد زاد ذلك من حركة الهجرة في اتجاه الجنوب ومحاولة صبح البلاد بالصبغة الإسلامية ونشر الثقافة العربية الإسلامية •

أما الهجرات العربية إلى بلاد النوبة السفلى ومملكة المقررة المسيحية ، فكانت تحكمها نصوص معاهدة البقط التي سمحت للعرب المسلمين باجتيازها دون الإقامة بها ورغم ذلك فقد تقدمت بعض القبائل والبطون والجماعات العربية من عرب قحطان وربيعة وقريش الذين سكنوا أسوان ، تقدموا جنوبا من أسوان إلى المنطقة الشمالية من مملكة المقررة المعروفة باسم المريس حيث اشترى أراضي من الذوبيين استغلوها لصالحهم • ومن ثم تزايدت أعداد العرب بها مما يدل على ذلك نجاح العرب في تأييد كثر الدولة في تولى الحكم وتحديثهم للسلطنة المملوكية في مصر •

بذلك فإنه منذ أوائل القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي لم يغد الشلال الثاني حدا لا يتعداه العرب إلى الجنوب فقد اشتركت كثيرا من الجماعات العربية في مصر في الحملات التي أرسلها سلاطين الممالك إلى النوبة على مدى نصف قرن من الزمان ، وفضلت بعض هذه الجماعات العربية البقاء في بلاد النوبة عقب انسحاب القنوات المملوكية ومن هذه الجماعات بنى بكر ، وبنى عمر ، وبنى شيبان ، وبنى هلال وغيرهم الكثير من القبائل العربية • وقد كان تسرب العناصر الغربية هذه إلى بلاد النوبة سببا مباشرا في انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهلها •

ذلك لأن قيام هذه الدولة المملوكية كان ايذاناً بتغيير السياسة السلبية القديمة المهادنة للنوبة ، وبداية لعهد جديد من الاهتمام الايجابى بشئون النوبة ومن ثم بدأت العلاقات بين البلدين تتخذ المظهر العسكرى العنيف . وقد كان هذا المظهر العسكرى اىذاء ملوك النوبة الاهتمام بالحروب الصليبية بل انهم انغمسوا فى تلك المعركة الصليبية التى تشهد الممالك فى مصر بقاياها فى بلاد الشام .

وقد كان اشتراك النوبيين فى هذه المعركة عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية فى طريقها الى مينائى عيذاب وسواكن هذه التجارة التى نمت وازدهرت فى العصر المملوكى .

وقد كان ذلك التحدى بالنسبة للممالك من جانب النوبيين تحدياً خطيراً أو اعترافاً بما أصبح للتجارة الدولية من مكانة فى الحياة الاقتصادية لمصر فى العصر المملوكى كما أن هذه العلاقات اتخذت طابعاً صليبياً .

ولقد أدرك الممالك فى مصر ذلك الخطر الصليبي الكامن فى الجنوب حيث النوبة ، وأدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف وفى الظهر . وهى منصرفه الى ذلك ما تبقى من فلول بقايا الصليبيين فى الشام .

ولذا نجد أن الحملات المصرية المملوكية تتتابع فى عنف الى النوبة ، نجد أن السلطان بيبرس يقوم باستغلال الصراع الدائر فى البيت الملك النوبى على تولى عرش البلاد حين قدم الى القاهرة الأمير شكندره على بلاط السلطان بيبرس فى هذا الوقت وهو أحد المطالبين بعرش مقرة وذلك بعد أن لجأ ذلك الشخص الى السلطان بيبرس ينشد بمساعدته وعونه وتأييده فى العودة لعرش النوبة وقد كان ذلك تطوراً هاماً فى تاريخ العلاقات النوبية المصرية ، ذلك لأن هذا اللجوء السياسى الى مصر قد فتح الباب أمام حكام مصر لكى يتدخلوا فى شئون النوبة السياسية ، كذلك فانه من ناحية أخرى فان الصراع على العرش النوبى قد كفل لسلطان الممالك وجود عناصر محلية يعتمدون عليها فى مد نفوذهم السياسى الى تلك البلاد . وذلك بعد أن ادعى شكندره أن خاله

قد اغتصب الملك منه فجهز السلطان الظاهر بيبرس جيشا في عام ٦٧٤ هـ — ١٢٧٦ م وسار مع هذا الجيش الأمير شكندة وقد انضمت الى الجيش الاسلامي بعض قوات القبائل العربية في صعيد مصر واتخذت الحملة طريقها الى الجنوب وان كان قدلقى بعض المقاومة عند مدينة الدر لكن الجيش المصري المملوكي تمكن من اخضاع هذه المقاومة الصغيرة الاولى وتابع الجيش مسيرته واخترق قبائل الشلال الثاني وسلم الأراضي التي اخضعها الجيش الاسلامي الى شكندة ليحكمها ، وعند ما اقتربت الحملة من دنقلة خرج اليها داود وعشيرته غير أن النتيجة كانت هزيمة داود وجاء شكندة الى دنقلة وتم بتتويجه ملكا للنوبة بنفوذ وسلطة الجيش المصري المملوكي وقد كانت هذه بداية الحماية المملوكية الاسلامية المصرية على مملكة مقرة . اذ لم يحاول الممالك ضم البلاد الى املاكهم بل اكتفوا بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم بعد أن يرتبط معهم على عهد يقطعه على نفسه وعلى شعبه وانتهى الأمر بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين البلدين . ولقد أصبح شكندة مرتبطا بيمين الطاعة والولاء لسلطان الممالك ونائبا عنه في حكم مملكة المقرة وأن يرسل نصف ما يجمعه من المملكة للسلطان ومعه بعض الهدايا وأن تسلم ممتلكات الملك داود ومن تبعه من أفراد للسلطان وأن يمنع شكندة الأعراب من الاستقرار في بلاد النوبة وقد يكون ذلك الشرط سببا في تسرب الأعراب الى الجنوب حيث منطقة الجزيرة ومملكة علوة ، وأن يطلع شكندة السلطان على كل الأحوال .

وانه عند عودة الحملة المصرية الى مصر أخذت معها عددا من أمراء النوبة كضمان لوفاء النوبيين لهذه الشروط والظاهر أن أثر هذه الحملة المملوكية على مملكة مقرة المسيحية في دنقلة كان لها صداها في الجزء الشمالي من مملكة علوة والذي يعرف بالأبواب في منطقة شندي أو شمالها فقد لجأ داود الى هذه المملكة المسيحية ولكن ملك الأبواب أبي أن يدخل في صراع مع دولة الممالك في مصر بسبب دأبه في قبض عليه وأرسله مقيدا الى القاهرة حيث اغتقل الى أن مات كذا أن ملك الأبواب قد فتح الباب أمام الهجرات العربية في وسط السودان .

كذلك فإن اشتراط المعاهدة مع شكنده على عدم السماح للعرب بالاستقرار في بلاده بين لنا أن سياسة الممالك تجاه العرب جعلتهم لا يتركون فرصة أمامهم الا الهروب الى بلاد النوبة بل الى جنوب علوة حيث منطقة الأبواب ، كذلك فإن المجاعات المتكررة وموجة الطاعون التي لازمت العهد المملوكي الأول شجعت كثيرا من العرب بالهروب الى بلاد النوبة خوفا من الهلاك وقد حدثت عدة هجرات بسبب انتشار الأمراض وقد كان لهذا الوباء والمجاعات أثر سيئ على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة في الضرائب لمواجهة زحف المغول ، ثم ان كثيرا من الأراضي الزراعية اقتطعت للممالك فأصبح من يفلحها أسوأ حالا مما كان عليه من قبل وكل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة الى السودان كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التي غزت بلاد النوبة كما سبق أن ذكرنا .

والحقيقة التاريخية أن الحملة المملوكية التي صاحبت الأمير شكنده قد حققت في فتح بلاد النوبة فتحا حقيقيا وأن بلاد النوبة منذ تلك الحملة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ لم تعد بلاد مستقلة ، ومن ثم نجحت السياسة المصرية في جعل النوبة تابعة للحكم المصري ، ولقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الاسلام على نطاق واسع بل ظهرت حركة الاستغراب في كل أنحاء البلاد بصورة ظاهرة وواضحة والذي كان قد بدأ منذ فترة طويلة من الزمن في بلاد النوبة كما أن هذه المعاهدة قد ساعدت على دخول الكثير من القبائل العربية مع الجنوش العربية الفاتحة واستقروا في بلاد النوبة على غير ما أراد السلطان بيبرس وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر في أوائل القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي .

وبالرغم من العبود والمواثيق التي قطعها شكنده على نفسه بالعمل تحت راية الممالك الا أن السلطان بيبرس بعث الى دنقلة بعض طائفة الاسماعيلية لمراقبته حتى لا تحدثه نفسه بالتمرد على السلطة المملوكية في القاهرة .

لقد كانت حملة السلطان بيبرس لاعادة شكنده الى عرش النوبة ذات طابع هو نفسه طابع الفتوح الاسلامية حتى أنه يمكن القول أن فتح النوبة قد تم في تلك الحملة ، اذ نجد أن بعض المصادر تذكر أن الأمير « أمستقر الفارقاني » والأمير عز الدين الأفرم قائدا الحملة قد عرضا على النوبيين الاسلام أو القتال والجزية ، فاختاروا الجزية وبالتالي فقد أصبحوا أهل ذمة ونتيجة لفرض الجزية على النوبة أنشأ السلطان بيبرس ديوانا لخراج النوبة . اذ يشير المقرئ الى ذلك قائلا فرسم السلطان للصاحب بهاء الدين هنا أن يستخدم عمالا على ما يستخرج من النوبة من الخراج والجزية بدققة وأعمالها فعمل لذلك ديوان .

هذا بالاضافة الى حلف شكنده يمين الولاء ، فان هناك نسخة أعدت لكي يخلف عليها أهل النوبة يمين الولاء والتمروا بهذا الحلف باطاعة ملك النوبة نائب السلطان مادام كانت لسلطان مصر .

وقيل أن رجال الحملة دمروا المكان الذي كان داود قد استغل فيه أسرى عيذاب وأسوان لبنائه والذي سماه عيذاب وقد كان هذا المكان قد رسم على جدران بعض الصور التي تحكى عن قتل المسلمين وأسرههم على يد داود في عيذاب وأسوان وأن هذا كان يدل على أن داود كان مسيحيا متعصبا حاقدا على المسلمين ومهما يكن فقد أزال المسلمون كل هذه الآثار بعد الانتصار على داود بعد أن قامت الحملة بفك أسرى عيذاب وأسوان التي غادرت دنقلة عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م مصطحبة معها عشرين أميرا من أمراء النوبة أخذوا كرهائن لضمان وفاء النوبة بالتزامتهم نحو مصر ، ويبدو أن دور هؤلاء الأمراء النوبيين المبعدين لم يقتصر على كونهم رهائن فحسب بل أن بعض سلاطين المماليك فيما بعد استفاد من وجودهم بمصر في تحويل مجريات الأحوال السياسية في النوبة لمصلحة مصر والسلطة المملوكية بمعنى أن كل ما تمرر حاكم نوبى أرسلوا اليه أحد أولئك الأمراء بصحبة حملة لاقصائه وتثبيت الذي كان مع الحملة .

كذلك فان هذه الحملة قد نجحت نجاحا فائقا في ازالة ذلك التيار الكثيف والحاجز المنيع الذي أقامه ملوك النوبة المسيحيين بين

العرب المسلمين القادمين من الشمال يصبح تلك البلاد بالصيغة العربية الإسلامية فأصبح الجزء الشمالى من النوبة المسمى مقره أرضاً إسلامية خاضعة للنفوذ الإسلامى .

وهكذا نجح سلاطين الممالك نتيجة لتلك الحملة فى إبراز قوة الدولة الإسلامية وهيبتها ليس فى مملكة النوبة الشمالية فحسب بل فى مملكة علوه المسيحية التى تقع الى الجنوب . كذلك فإن المصادر تشير الى وجود إسلامى واسع النطاق فى بلاد الأبواب .

ومات شكندة قتيلاً ربما بيد بعض المتحمسين من قومه لدينهم المسيحى وقوميتهم واعتلى العرش من بعده أميرا من البيت المالك يدعى « برك » عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وهو العام الذى نسبوا فيه السلطان قلاوون عرش مصر ويبدو أن الملك النوبى برك أبرز نزعة نحو استقلال بلاده . الأمر الذى أدى بالسلطان قلاوون الذى خلف بييرس ألا يطمئن اليه فأمر بإرسال حملة بقيادة الأمير نجر المسورى المعروف بالقيادة وتمكنت هذه الحملة من القبض على الأمير برك وقتله وعتدئذ خلفه أمير نوبى آخر يدعى « سمامون » ملكا على النوبة بنفس الشروط السابقة التى وقعها شكندة .

وكان الأمير قلاوون قد أرسل حملته عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٠م ثم تكررت الحملات أيام الناصر محمد بن قلاوون أعوام ٥٠٧ هـ / ١٢٨٧م ، ٥١٦ هـ / ١٢٩٤م .

وتذكر لنا المصادر أن الملك ادورد ملك الأبواب التى هى الجزء الشمالى من علوه أرسل سفراء حاملين الهدايا للسلطان قلاوون يشكون فيها من سوء معاملة سمامون ملك دنقلة ويحكمونه فى النزاع ويظهرون الولاء والطاعة للسلطان المملوكى ولكن سمامون من جانبه عندما علم بنبأ هذه السفارة الى القاهرة التى أرسلها ملك الأبواب فإنه بادر من جانبه بإرسال سفارة وهدايا للدفاع عن وجهة نظره ولقد رأى قلاوون حين اجتمع بالسفارتين أن يبعث بمندوبه للاقليمين للتحقيق . فأرسل مبعوث لملك الأبواب والأجزاء الأخرى الصغيرة من مملكة علوه مع سفرائه

الأبواب عند طريق ميناء عيذاب خشية التعرض لهم من قبل ملك دنقلة وبعث برسول آخر للملك دنقلة ونتيجة لهذا التحقيق اقتنع قلاوون بأن سامون هو الجانب الظالم ، ولما زاد الأمر تعقيداً أن مبعوث السلطان قلاوون إلى ملك الأبواب قبض عليه جواسيس سامون عند رجوعه وأردوا قتله إلا أن حاشيته منعتهم من تنفيذ ذلك العمل خوفاً من أن يخرب السلطان ديارهم وليس هناك شك في أن المبعوث المصري المملوكي عند عودته للقاهرة أبلغ السلطان قلاوون بذلك الحادث ، وقد أظهر سامون عدم إخلاصه وولائه ويبدو أنه لم يرسل الجزية والقبض وأصبح على السلطان أن يبعث حملة تأديبية له بعد أن استبد بالأمر ورفض كل مطالب مصر فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة له عام ٥٧٠٥ هـ / ١٢٨٧ م على أن يشترك فيها وإلى قوص الأمير عز الدين أيدير ، وأخذ معه أفراد بعض القبائل العربية مثل أولاد أبي بكر ، وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنو هلال ، وسار فريق بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط بالبر الغربي وقاد عز الدين أيدير فريقاً آخر بالبر الشرقي وقد كانت خطة سامون هي أن يجعل جيش المماليك يتوغل داخل مملكته ويلاقيهم على أبواب دنقلة ومن هنا أمر صاحب الجبل بالانسحاب أمام القوات المصرية وحينما وصل أيدير بجيشه على مشارف دنقلة خرج له سامون بجيشه والتحم معه في معركة انتهت بهزيمة سامون وفراره إلى الجنوب فنتبعه أيدير إلى مسافة خمسة عشر يوماً دون أن يلحق به ووقع جريس صاحب الجبل في الأسر ، وقامت القوات بتثبيت ابن أخت سامون على العرش والإفراج عن جريس بعد أن أعلن الولاء ، ورأى السلطان قلاوون أن يبقى أيدير ضابطاً سياسياً مقيماً كمندوب سامي للسلطان وبعث بسعد الدين ابن أخت الملك داود الذي كان بالقاهرة ليكون مستشاراً لأيدير ورجع باقى الجيش لمصر .

ولكن سامون استطاع أن يسترجع عرشه من الملك الجديد حتى أن الملك الجديد فر إلى القاهرة ، ومن ثم أرسلت إليه حملة ثالثة عام ٧١٣ هـ / ١٢٨٩ م وعين ابن أخت داود ملكاً على البلاد . ولكن سامون إنسحب دون الدخول في قتال مع القوات المملوكية ، ولكنه عندما علم

بعودة القوات المصرية دخل دنقلة متخفيا وقتل الملك الجديد وتولى الحكم مرة ثالثة وكتب الى السلطان في القاهرة يطلب العفو والصفح مع تعهده بدفع كل الالتزامات وقبل السلطان تأكيدات سمamon ولم يرسل اليه قوات لأن السلطان كان سيستعد لازالة آخر معاقل الصليبين في عكا ولكن سمamon منع ارسال البقط ونقض عهده وأظهر استقلاله بعد سماعه بموت السلطان قلاوون. ولم يرسل البقط عام ٥٧١٥/١٢٩٨م ولكنه أثر الدبلوماسية اذ أرسل الى السلطان خليل بن قلاوون يعتذر عن التأخير في دفع البقط ولكن السلطان خليل بن قلاوون اشترط أن تبقى والدته وبقية أهله كرهائن في القاهرة بدار الضيافة .

وكن السلطان خليل بن قلاوون ضاق به ذرعا فأرسل حملة اليه بقيادة عز الدين الأفرم وقد توغلت الحملة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبى دنقلة لا يعرف له أى اتجاه وأرسل السلطان خليل بن قلاوون بأمير نوبى ونصبه ملكا على النوبة بعد أن أعلن ولائه للسلطان وهذه الحملات المتكررة وخاصة الأخيرة زادت من اضطراب الأحوال في بلاد النوبة .

وقد تسببت هذه الحملات المملوكية المتكررة في رضوخ النوبيين لمشيئة المماليك وفرض السيادة المملوكية الفعلية على الجزء الشمالى من البلاد وما ترتب على ذلك من امتداد السيادة المصرية على جزء كبير من بلاد النوبة امتدادا فعليا بل أن الحملات المملوكية في عهد السلطان قلاوون وولديه الناصر محمد و خليل كلها كانت للمحافظة على هذا الوضع المملوكى في بلاد النوبة ولاخضاع ملوك دنقلة واعترافهم بالسيادة المصرية في ذلك العصر .

ومن هنا كانت الحملات المصرية المتكررة لاختضاع سمamon وتأديبه، وكذلك صاحب النوبة كما جاء في كتاب مسالك الابصار ما هو الارعية من رعايا مصر يخطب في بلاده لخليفة العصر وصاحب مصر وبذلك فقد شابهت هذه الحملات المملوكية العديدة وعن طريق التدخل في شئون دنقلة في اضعاف هذه المملكة النوبية . وأنه اذا كان المماليك قد تساهموا في اضعاف مملكة النوبة على هذا النحو بعد أن بسطوا سيطرتهم عليها

فانهم أسهموا أيضا في دفع القبائل العربية الى الهجرة صوب الجنوب وعملوا على زيادة تيار الهجرة الى هذه البلاد ، ذلك لأن العرب لم يجدوا امامهم متفسا لهم الا الاندفاع الى الجنوب مهاجرين وسرعان ما وجد الممالك في العرب أعداء الأمس خير من يعينهم على اخضاع ملوك النوبة . ومن هنا كان اشتراك العديد من القبائل العربية بكثرة هي أنه يذكر أن أحد الحملات المتجهة الى النوبة قد اشترك فيها حوالي أربعين ألفا من عربان الصعيد والوجه البحري وهذا دليل حيوي على أن من اشترك من الأعراب كان كثيرا جدا ولقد كثر استخدامهم في عصر السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولاده في حملاتهم الى بلاد النوبة ، بل أكثر من ذلك فان بعض أفراد من هذه القبائل كانت لهم دراية تامة بمعرفة المسالك والدروب والمدقات الى الجنوب ، وكانوا يقدمون المؤن ووسائل المواصلات للأفراد القوات الغازية المتجه الى الجنوب بل أن هناك كثيرا من القبائل كانت تفضل البقاء في الجنوب بعد انسحاب الممالك كما فعل بنو عمر وبنى شيبان ، بل أن الممالك كان سيرهم أن يبعثوا بالعرب في غزواتهم الى بلاد النوبة وذلك تخلصا منهم بل أنهم كانوا يشجعونهم في البقاء بعد انسحاب قوات الممالك وذلك اتقاء لشركهم .

وقد وجد ملوك النوبة أنفسهم بين خطرين عدوان الممالك المستمر والدائم والخطر الذي لم ينقطع من استمرار وصول الحملات المملوكية ثم هجوم القبائل العربية من الداخل ، هذه القبائل بعد أن كثرت أعدادها وانتشرت بطونها في البلاد وانصهرت في المجتمع وبعد أن صاهرت أغلب الأمراء صاحبة النفوذ والخطوة في البلاد فانها خلعت رداء المسالمة الذي كانت عليه عند قدومها وتتمرت وبدأت تظهر نواياها في ضرورة بسط نفوذها على البلاد .

ومن ثم فانه لم يكن بمقدور وقادة هؤلاء الملوك النوبيين والممالك يقفون لهم بالمرصاد في كل حركة معادية للوجود العربي الاسلامي أو أو الخروج على الطاعة ، فانهم لم يستطيعوا أن يقهروا العرب عسكريا ويكبحوا جماحهم فاضطروا الى مصيبتهم بالمصاهرة

وننتج عن ذلك أن أصبح الأبناء هذه القبائل الحق كل الحق في وراثة عرش البلاد واعتلاه . وعن أن أصبح طريق تلك المصاهرة نسرب الاسلام الى صفوف الأسرة المائكة نفسها .

وهكذا استمر تزايد النفوذ العربى الاسلامى فى بلاد النوبة بمساعدة المماليك ، حتى أننا نجد أن ملك علوة فى عاصمته سوييا قد أصبح يدرك هذه الحقيقة الثانية ومن هنا بذل محاولات ليتقرب من بلاط السلطنة فى القاهرة بعد أن رأى بعينه النفوذ العربى الاسلامى يزداد داخل بلاده وما حدث لسامون من ارسال ثلاث حملات متواصلة ضده .

وتذكر المصادر أن ملك الأبواب بعث فى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م بوفد الى سلطان مصر وحمل هذا الوفد هدايا للسلطان معبرا له عن ولاء ملك الأبواب (أحيانا تسمى علوة) له وخضوعه لمصر .

ولقد وضحت الحقائق التاريخية حقيقة هامة هى أن سلاطين المماليك قد بدأوا يمدون مناطق نفوذهم تجاه مملكة علوة وذلك بالاتجاه صوب حوض النيل وبذلك فإن سلاطين المماليك قد أخذوا يمارسون نشاطهم السياسى والحربى فى بلاد النوبة الجنوبية ولكن فى مناطق تختلف عن المناطق التقليدية لنشاط حكام مصر السابقين فى النوبة ذلك أن بعض الحملات قد أخذت تتوغل جنوب دنقلة عاصمة مقرة لمدة تزيد عن ثلاثة وثلاثين يوما حتى جاوزت علوة بمملكة الأبواب .

ومن هنا فانه رغم التطورات الداخلية فى بلاد النوبة ظلت على ولائها لسلاطين المماليك فى مصر حتى أثناء الظروف العسيرة التى واجهتها مصر أثناء حرب المغول والتتار والصليبيين .

وتاريخ العلاقات المصرية النوبية فى العصر المملوكى تاريخ طويل قد لا يتسع له المجال للغرض الطويل فى ذلك البحث ، ذلك لأن دور المماليك فى بلاد النوبة يحتاج الى عدة دراسات ، ولكن نكتفى بهذا القدر ونصل الى فترة حكم السلطان الناصر محمد الذى أمر بإرسال

حملة الى بلاد النوبة عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م حيث صحبت هذه الحملة لأول مرة أميراً نوبياً مسلماً لتولى عرش البلاد هو الأمير سيف الله عبد الله برشنمبو والذي كان أحد الأمراء النوبيين الذين كانوا يقيمون في قصر الضيافة بالقاهرة والذين تربوا في البلاط السلطاني وأنه كان قد اعتنق الاسلام وحسن اسلامه كما أشار الى ذلك القلقشندي . وكان السلطان قد أمر بأن يصحب هذا الأمير الحملة لكي يتوج ملكاً على البلاد ، وان ارسال سيف الله عبد الله بهذه الصورة أصبح أمراً معتاداً في سياسة المماليك نحو النوبة اذ أصبح هؤلاء السلاطين أصحاب القول الفصل في كل ما يخص الأحوال السياسية في بلاد النوبة وقد كان هذا الأمير هو حفيد الملك داود ، ولكن الملك كرنيس الذي تولى العرش بعد مقتل الملك « ايساي » كان قد تنكر للسلطان ورفض دفع البقط والجزية المقررة مما أثار حفيظة السلطان المملوكي وأرسل الحملة وحفيد داود .

ولكن كرنيس رفض الاعتراف بذلك الملك الجديد وبادر بارسال ابن أخته « كنز الدولة نصر » حفيد بنى كنز الى الأبواب السلطانية قائلاً : اذا كان مولانا السلطان يقصد بأن يولى البلاد ملك مسلم فهذا مسلم وهو ابن أختي والملك ينقل اليه من بعدى .

ولكن السلطان رفض طلب كرنيس خوفاً من ازدياد نفوذ بنى كنز وأنصارهم وتوج الملك سيف الدولة عبد الله برشنمبو كأول ملك مسلم على بلاد النوبة المسيحية عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وكان السلطان المملوكي الناصر محمد قد أمر باعتقال كنز الدولة ومنعه من العودة الى البلاد .

وكان كرنيس قد فر الى ملك الأبواب عند ما علم بنبأ الحملة المصرية ولكن ملك الأبواب أرسله لتوه الى قائد الحملة الذي أخذه معه الى القاهرة عند انسحاب الحملة فأتى الى القاهرة عام ٧١٧ هـ / ١٣١٦ م ولقد أبرزت هذه الحملة ملامح تغير الوجه الحقيقي للأسرة الحاكمة المسيحية بأن أصبح يتربع على عرش البلاد ملكاً مسلماً يدين

بالولاء والطاعة لمصر العربية المسلمة التي دافعت عن الاسلام والعروبة واستطاعت بعد فترة طويلة من الزمن أن تغير وجه الحياة في بلاد النوبة بعد أن تربع على عرش البلاد ملكا مسلما . كذلك فإن الاسلام كان قد بدأ يثبت دعائمه وأركانه في بلاد علوة لا سيما بعد رفض ملك تلك البلاد استضافة كرئيس وأخيه وتم القبض عليهما وارسالهما الى قائد الحملة مرضاة لسلطان مصر .

ويذكر أن الملك الجديد المسلم سيف الله عبد الله برشمنبو قد رفض أن يلبس تاج الملك الذي كان يلبسه الملوك السابقين له ويقال أن التاج كان يحمل علامة الصليب مما جعل سيف الله لا يقبل أن يلبسه ولكنه استطاع أن يحدث حدثا عظيما في بلاده اذ اتخذ كنيسة دينقلة مسجدا للمسلمين بعد أن صلى به أول جمعة بعد توليه عرش البلاد .

ولكن عهد سيف الله لم يطل اذ ثار عليه النوبيين بايعاز من كنز الدولة الذي كان قد أفرج عنه السلطان وكان قد عاد الى دنقلة ، وعند ما علم أهل النوبة بعودته الى البلاد انضموا اليه ودخلوا تحت طاعته والتقى معه سيف الله عبد الله في معركة ضارية قتل فيها عبد الله برشمنبو ومن ثم آل الحكم في النوبة الى آل كنز الدولة .

ولكن السلطان المملوكي رفض الاعتراف بكنز الدولة ملكا على البلاد وقد يكون ذلك ردا لاحتساسته بعمق نفوذ كنز الدولة حتى منطقة مقرة والذي يشكل خطرا على النفوذ المملوكي في النوبة وربما كان الخطر أكثر ضررا من المناورات السياسية التي كان يقوم بها ملوك النوبة الذين كان يعينهم سلاطين الماليك .

اذ أن تولية حاكم عربي مثل كنز الدولة الذي ينحدر من قبيلة ربيعة العربية على عرش النوبة سيقوى من شوكة القبائل العربية في هذه البلاد ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية المعادية للماليك أن تمارس نشاطا معاديا لتلك السلطنة ، لهذا أصدر السلطان أمرا بالافراج عن الأمير أبرام شقيق الملك كرئيس وأرسله الى بلاد النوبة وأمره

بالقبض على كنز الدولة وارساله الى الأبواب السلطانية في القاهرة
وعند ما وصل أبرام الى دنقلة استقبله كنز الدولة وتنازل له عن الحكم
وصار في خدمته ومن ثم تمكن أبرام من القبض على كنز الدولة وعزم
على ارساله الى مصر ولكن أبرام توفي بعد القبض على كنز الدولة
بثلاثة أيام الأمر الذي أنقذ كنز الدولة وحياته من ارساله الى
القاهرة .

ومن ثم فان كنز الدولة استطاع أن يتولى حكم النوبة وذلك في
عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م بعد حروب طويلة بينه وبين المماليك وبعد أن
اجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم فملك البلاد حينئذ
ولبس تاج الملك واشتغل بالملكة وضم اليه العرب واستعان بهم على
من ناوآه من أبناء ملوك النوبة السابقين . ووفدت اليه القبائل العربية
القاطنة في هذه المنطقة .

ومن هنا فان الدور الذي أخذت تقوم به القبائل العربية في
سودان النيل ليعد ظاهرة لها خطورتها وأهميتها في حياة ذلك
الاقليم . ولعل هذا النشاط الذي قام به كنز الدولة على مسرح
السياسة المصرية النوبية قد قوبل بكثير من الاستياء والمعارضة من
جانب سلطان مصر ومن ثم أرسل السلطان الناصر محمد حملة الى
النوبة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ومعه الملك كرنبس الذي كان متحفظ
عليه بالقاهرة واستطاعت الحملة أن تنصب ذلك الملك ثم عادت الحملة
في شعبان عام ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م بعد أن أمضت تسعة أشهر بالنوبة .

وبعد عودة الحملة الى القاهرة ظهر كنز الدولة وأقصى كرنبس
عن العرش وتولى الحكم من جديد .

ويعتبر بعض المؤرخين أن هذه الحملة تعد نهاية المملكة النوبية
المسيحية وأن ملوكها منذ فترة طويلة قد أصبحوا ألعوبة في أيدي
القبائل العربية مثل جهينة وسائر القبائل العربية الأخرى التي أخذت
تتوافد على السودان وتنتشر في ربوغة وقد توغل الكثير من هذه
القبائل جنوبا حتى بلغ أجزاء من الحبشة وغرب السودان .

وهناك من يتعقد أن نهاية مملكة النوبة المسيحية تمت عام ١٣٢٣م بتولى كنز الدولة عرش البلاد أو بتولى سيف الله عبد الله برشنبو .

ومن هنا فإن الاسلام أصبح الدين الرسمي للدولة وتم اعفاء النوبة من الجزية حيث يقول القلقشندي انه بتعيين سيف الله عبد الله برشنبو انقطعت الجزية عنهم بعد أن أسلم ملوكهم وقد رأى سلاطين المماليك عدم ضرورة أخذ الجزية عن دولة أصبح حكامها مسلمين ، وخاصة بعد أن أقبل النوبيون على الاسلام بأعداد كثيرة خاصة منذ زيادة حركة الهجرة العربية إلى بلادهم ومهما يكن من أمر فإن اضعاف مملكة النوبة المسيحية تم أساسا على يد سلاطين المماليك نتيجة لحملاتهم المتكررة .

وان مملكة علوة لم تتعاون مع مملكة الرئيس بل تعاونت مع سلاطين المماليك وذلك لكسب رضا سلاطين المماليك واتقاء شرهم ، بل ان مملكة علوة كانت تشن الحروب على مملكة مقرة وكذلك كان انقطاع صلتها بالعالم المسيحي الخارجي بصورة واضحة من أسباب انهيارها . إضافة إلى كثرة الوجود العربي الاسلامي الذي غير الكثير من ملامح هذه المملكة .

وبالرغم من أن العلاقات المصرية المملوكية قد ركزت في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، إلا أن السلطنة المملوكية استطاعت أن تلعب دورا عظيما في الحياة السياسية والاجتماعية لبلاد النوبة ، إذ استطاعت مصر خلال تلك الحقبة أن تبسط سيادتها على بلاد النوبة معتمدة في ذلك على القوة العسكرية الصائبة وبفضل ذلك صارت بلاد النوبة جزء من الكيان المصري وليس أدل على ذلك من أن السلطان المنصور بن قلاوون اعتبر بلاد النوبة من الأقاليم المصرية وذلك حين قلده ولده الملك الصالح ولاية العهد وفي ذلك يقول القلقشندي يوليه سائر أقاليم الممالك وعسكرها وجندها وعربها بالديار المصرية وثغورها وأقاليمها وبلادها وما احتوت عليه مملكة النوبة وما احتوت عليه .

ولقد قصد ملوك النوبة الأبواب السلطانية في القاهرة يبتغون مرضاتها كما تقربوا اليها بالهدايا القيمة كذلك تعاونوا معها ضد خصومها وأعدائها وكان سلاطين الممالك يعاملون هؤلاء الملوك الوافدين عليهم وكذا سفاراتهم بكل احترام فيخلعون عليهم ويستجيبيون لمطالبهم واستطاعت سلطنة الممالك بهذه الروح أن تفرض زعامتها عن جدارة على هذه البلاد . ولقد حفظ لنا ديوان الانشاء ببعض الرسائل التي كانت متبادلة بين بعض سلاطين الممالك ومجموعة من ملوك النوبة وأن تلك الرسائل تعكس روح المودة والصداقة بدليل تلك الألقاب التي وردت فيها ومنها ألقاب صاحب دنقلة النائب الجليل المبجل الموقر ، الأسد الباسل .

وعند ما تولى عرش النوبة ملوك مسلمون أصبحت بعض ألقابهم كما ورد في الرسائل تدل على الصبغة الاسلامية مثل زين الأمراء والمجاهدين ، ويبدو أن ملك دنقلة كان يعتبر من الملوك الصغار وربما لموقع البلاد الاقتصادي والاجتماعي أثره في ذلك .

وهذا عن سقوط مملكة مقرة منذ بداية الصراع الطويل معها منذ الحملة التي أرسلها عمرو بن العاص بقيادة عقبة بن نافع الفهري عام ٢١ هـ / ٦٤١ م ثم توقيع معاهدة البقط بين عبد الله بن سعد بن أبي سرج عام ٣١ هـ / ٦٥١ م ومرورا بالولاة الأمويين والطنولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك حتى تم تعيين أول ملك أو سلطان مسلم على ذلك الاقليم ، الذي يدعى سيف الله عبد الله برشمبو عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . ومن هنا يتبين الدور الذي لعبه حكام مصر طوال عصورها المختلفة في نشر الاسلام والعروبة والثقافة الاسلامية جنوب مصر وفيما يعرف بالنوبة أو مملكة مقرة وكيف استطاعت القبائل العربية التي كانت تتخذ طريقها للانسياح الى الجنوب أن تساعد كل المساعدة في تغيير وجه الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية في تلك المنطقة حتى تم صبغها بالطابع الاسلامي في القرن السابع الهجري ، الرابع عشر الميلادي . وبذلك يتبين لنا بجلاء أن الاسلام والعروبة أصيلين كل الاصاله في ذلك الجزء من السودان

الشمالي بل ان تلك المناطق كانت تعتبر من الأماكن شبه العربية قبل انتشار الاسلام وخروج الهجرات العربية على نطاق واسع الى تلك الأقاليم .

ومن ذلك فان معاهدة البقط التي تم توقيعها بعد فتح مصر باحدى عشرة سنة تبين لنا بجلاء انتشار الاسلام في تلك الأقاليم بدليل ورود نص بهذه الاتفاقية يدل على السماح للمسلمين بممارسة شعائهم الدينية والابقاء على المسجد الذي تم بناؤه في العاصمة دنقلة وكنسه واضاعته والسهر على سلامته وهذا دليل قوى على أن الاسلام في بلاد النوبة قديم قدم الدعوة الاسلامية منذ انتشارها في الجزيرة العربية ، بل ان هناك أقوال تذكر أن الاسلام تسرب الى بلاد النوبة قبل فتح مصر بدليل أنه وجدت المساجد في النوبة وبالذات في العاصمة دنقلة قبل عام ٣١ هـ وليس في بلد من بلاد الأقاليم اذ كيف يسمح الملك النوبى المسيحى باقامة هذا المسجد في عاصمته وتعلم به الدولة الاسلامية في مصر الا بعد أن تكون هناك رعية اسلامية قوية في هذا الاقليم .

هذا عن مملكة مقرة أما مملكة علوة وسقوطها في أيدي الاسلام وتغير الوجه السياسى والدينى لتلك الدولة فهذا ما سوف نوضحه في الباب القادم عند الحديث عن الممالك المسيحية في النوبة وانتشار الاسلام بها .

الباب الرابع

« الممالك المسيحية وانتشار الاسلام »

لقد كان من جراء الغزوة التي قام بها ملك أكسوم على مملكة مروي أن فقدت مروي استقلالها ومن ثم بدأت تظهر على الساحة في تلك المنطقة الممتدة جنوب مصر ثلاث ممالك لمعت أسماؤها في حوض وادي النيل وذلك في الفترة التي ظهرت فيها رسالة الدعوة الى الاسلام في الجزيرة العربية ، فقد كانت هناك ولاية النوبا أو نوباديا ، أو أرض المريس التي تبدأ من الشلال الأول جنوب أسوان الى ما بعد الشلال الثاني وجنوب وادي حلف وقد كانت عاصمتها « ابريم » .

أما الولاية الثانية وهي تبدأ من جنوب بلدة عكاشة وتنتهي الى بلدة أبو حمد عند بلدة قرفي وهناك احتمال بأن تكون هذه الولاية الثانية التي أطلق عليها مقرة أو الماكورة ، قد امتدت الى الجنوب حتى بداية الحدود مع مملكة علوة وتربط بين الاقليمين الأول والثاني لغة واحدة .

أما الولاية الثالثة وهي ممثلة في مملكة علوة والتي تبدأ من منطقة الأبواب « الكيوشية » الى حدود بحيرة الأرواح الجنوبية وهي التي تعرف اليوم باسم أرض الجزيرة وقد امتدت سيطرة علوة نحو الشمال بل ان هناك بعض المصادر تذكر أن الأبواب كانت بداية اقليم علوة من الشمال ولقد كانت عاصمتها مدينة « سوبا » على النيل الأزرق وكانت مقسمة الى قسمين كل قسم منها على ضفة من ضفتي النيل الأزرق وكانت نهايتها الجنوبية حتى بلدة قطننة على النيل الأبيض جنوب

الخرطوم الحالية وشرقا حتى حدود الحبشة وغربا حتى دارفور
وكردفان •

وقد انضمت الولاية الأولى مع الولاية الثانية وأصبحت عاصمتها
دنقلة وذلك فيما بين عام ٦٥٠ م و ٦٥٢ م وتتألف كل من هاتين المملكتين
من عدة ممالك صغيرة على رأس كل منها حاكم أو ملك صغير يعرف باسم
نائب الملك الكبير • وقد كان أعظم هؤلاء الملوك الصغار بالنسبة لمملكة
مقرة ما سماه العرب بصاحب الجبل ، بينما يسمى أعظم هؤلاء الولاة
في مملكة علوة باسم صاحب الأبواب •

ويلاحظ أن مملكة علوة كانت أغنى من مملكة مقرة من حيث اتساع
أراضيها وخصوبة تربتها وكثرة أمطارها فضلا عن كثرة فروع نهر النيل
وتشعبه بها •

ويرى المؤرخون أن المسيحية دخلت الى بلاد النوبة بأقسامها هذه
من مصر منذ القرن الأول للميلاد وكان ذلك على يد بعض المصريين الذين
آثروا الهجرة الى الجنوب هربا من مضطهديهم ونجاة بدينهم الجديد ،
ثم أخذ تيار المسيحية يشتد بزيادة كثرة عدد المهاجرين المسيحيين من
أهل مصر الذين فروا الى بلاد النوبة معتصمين بها في موجات الاضطهاد
والارهاب والتعذيب والذي تعرضت له المسيحية في مصر والذي أدى
الى خروج جماعات كبيرة من المصريين الى جنوب الشلال الأول بعيدا
عن تناول يد الحكام الرومان • وقد نقل هؤلاء الهاربون الى جنوب
الشلال الأول تعاليم المسيحية ثم بدأت التعاليم المسيحية تنتقل مع
هؤلاء المسيحيين المصريين الحاملين لرسالة المسيحية الى المنطقة الواقعة
جنوب الشلال الثانى وقد بقى انتشار المسيحية بطيئا لأن الحاكم
أو الحكام لم يعتنقوا هذه الديانة الجديدة حتى يمكن أن يتبعه الشعب

وليس هناك شك أنه في القرن الثالث الميلادى قد كان هناك بعض
الأفراد من النوبة قد اعتنقوا المسيحية ، غير أن عددهم في القرن
الثالث لم يكن كثيرا وانه حتى القرن الخامس وبالتحديد عام ٤٥٢ م

كان البجاة والنوبيون لا زالوا على الوثنية وأن النوبيين والبجاة حافظوا على صلاتهم مع مصر وظلوا على وثنييتهم يحجون الى معبد ايزيس في جزيرة فيلة كل عام حتى النصف الأول من القرن السادس الميلادى .

ولا شك أن المراكز المسيحية من أديرة وكنائس وتجمعات والتي ظهرت بالقرب من أوطان النوبيين في القرن الرابع الميلادى كان لها أثرها في دخول بعض النوبيين في المسيحية بل وعن التحاق بعضهم بالأديرة المصرية التي نشأت في بلادهم وعن تردد الرهبان والقساوسة المصريين الى النوبيين لمحاولة كسبهم للدين الجديد .

ولقد جاءت الى حوض وادى النيل جنوب الشلال الأول في أوائل القرن السادس الميلادى بعثتان رسميتان للتبشير بالمسيحية أحدهما يعقوبية أرسلتها الامبراطورة تودورا والثانية ملكانية أرسلها زوجها الامبراطور جنسنيان . وقد أصدرت الامبراطورة أوامرها المشددة بضرورة دخول بعثتها الى النوبة قبل البعثة الملكانية ومن هنا دخلت بعثتها اليعقوبية الى مملكة النوبة السفلى بينما أرسلت البعثة الملكانية الى مملكة المقررة .

ومن هنا كانت مملكة المقررة التي عاصمتها دنقلة ملكانية المذهب بينما كانت المنطقة جنوب الشلال الأول يعقوبية ومن هنا فان القرن السادس الميلادى قد شهد انتصار المسيحية تماما وغلبتها على أهل النوبة شعبا وحكومة بسبب الجهود التي بذلها الامبراطور جستنيان والجهود الذي بذلها اليعاقبة .

ومن هنا جاءت المسيحية الى النوبة لكى تجد هناك مملكتين أحدهما علوة وعاصمتها سوبا في الجنوب والثانية مقررة أو مريس وعاصمتها دنقلة في الشمال .

مملكة المقررة (المريس) وعاصمتها دنقلة : دخلت المسيحية الى بلاد النوبة الشمالية في عهد الملك « سلكو » وصارت هي الدين الرسمي

للدولة ولكن كان هناك عدد كبير سواء في جنوب مصر أو في بلاد النوبة أو في الصحراء الشرقية لا زالوا على وثنياتهم مما شجع الملك سلكو بالقضاء على سلطة البجة ونشر المسيحية بينهم ومن هنا تنصر الكثير منهم وتبعوا كنيسة الاسكندرية على المذهب اليعقوبى . وقد أصبحت النوبة معقل المسيحية وخاصة بعد انتشار الاسلام في مصر وصار لكنيسة دنقلة التى عرفت بكنيسة « أسنوس » شأن عظيم في أفريقيا وبالتالي أصبحت بلاد النوبة هى الواسطة والصلة الروحية بين الكنيسة القبطية في مصر وكنيسة الحبشة .

وقد حول الملك « ابرنايم » ابن الملك سلكو معابد كلابشة ودكا ووادى السبوع وغيرها الى كنائس كما حول معبد فيلة الى كنيسة واتجه النوبيون الى انشاء الأديرة . وقد ظلت دنقلة وكنيستها آمنة لمدة تزيد عن مائة عام تقريبا منذ أن أنشأها الملك سلكو حتى الفتح الاسلامى لمصر عام ٢١ هـ / ٦٤١ م .

وهذه المملكة كما رأينا في الفصل السابق هى التى وقفت في سبيل الفتح العربى ونظمت هذه المقاومة العنيدة التى صادفتها حملة عقبة بن نافع الفهري من قبل عمرو بن العاص والتى صادمتها حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرج رغم حصارها دنقلة فقد نظم الملوك المقاومة وأوقعوا بالعرب من حصونهم ومعقلهم الجبلية وكبدوهم خسائر فادحة واضطروهم الى الكف عن التقدم والعودة من حيث جاءوا .

وهكذا فانه لم ينتهى القرن السادس الميلادى الا وكان هذا الجزء من بلاد النوبة الواقع بين الشلال الأول والثانى قد تحول للمسيحية ولقد كانت صعوبة المواصلات بين بلاد النوبة والدولة الرومانية بعد انتشار الاسلام في مصر من الأسباب التى جعلت مصر تنصر على ارسال الأساقفة والقسس ورجال الدين لهذه البلاد ، مما جعل الكنيسة القبطية في مصر ومذهبها السيادة في بلاد النوبة ورفض المذهب الخلقدونى الذى كان سائدا في مقرة من قبل .

ومن هنا فانه يمكن القول أن السودانين قد اعتنقوا المذهبين اليعقوبى والملكانى ، الا أن الغلبة صارت فيما بعد للمذهب اليعقوبى وظل النوبيون يتلقون الهدى الروحى على يد القساوسة والرهبان المصريين وقد كانت اللغة القبطية المصرية تستخدم فى الطقوس فى وقت متأخر .

ولا شك أن الحياة المستقرة فى تلك المملكة قد شـهدتها فى عصر المسيحية وما تبع ذلك من ازدهار لحياة الدين ، كل ذلك قد شجع الملوك الذين جمعوا بين السلطتين الدينية والسياسية على تحويل المعابد القديمة الى كنائس وتشييد الكتدرائيات كما حدث فى كتدرائية دنقلة ثم ملئها بالزخارف والنقوش وبعض المشاهد من الانجيل وصور القديسين والتي تعكس من خلالها هذه الرسوم سمة قبطية كما يلاحظ وجود أثر فاطمى فى الزخارف التى صنعت فى الفترة الأخيرة .

وقد انضمت كل من مملكتى النوبة المسيحيتين « المقررة وعلوة » رغم وجود الخلافات المذهبية بينها بالحدود الشمالية المجاورة لمصر دون الحدود الجنوبية ، بالإضافة الى مملكة المقررة أولت اهتماما كبيرا بولاية المريس أو صاحب الجبل وهى الأراضى المتصلة بمصر الاسلامية وتجعل لحاكمها الذى أطلق عليه مؤرخو العرب اسم صاحب الجبل ومنحته الدولة فى دنقلة سلطات واسعة لكونه حارسا للحدود الشمالية .

كذلك فان عملية التبشير بالمسيحية فى النوبة اتبعت أبسط الصور لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان .

ومن هنا فقد زاد انتشار المسيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت عامة تقريبا بسبب هجرة الأقباط من مصر لبلاد النوبة اثر الغزو الفارسى لمصر واضطهاد طائفة الملكانيين الأقباط ، ولقد أدى الانتشار الواسع والبطيء للمسيحية الى كثرة الكنائس ، وقد بقيت بعض الكنائس الجديدة فى منطقة مثل أبريم ودنقلة وفرس وبوجين وغيرها من الأماكن ولكن بنى أغلب هذه الكنائس بالطين لذا آندثر معظمها .

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن الدولة الرومانية هي التي قامت بأكبر مجهود لنشر المسيحية وذلك طوال عصر حكم الامبراطور خبسنيان ، الذي انتهز فرصة انتهاء الزمن المقرر في اتفاقية الهدنة مع النوبة ومن ثم عمل على ابطال التقاليد والعادات الوثنية التي كانت تمارس في المواسم النوبية منذ زيارته لمنطقة فيلة فأغلق المعابد وحولها الى كنائس ونقل التماثيل الى القسطنطينية وليس الملك « سلكو » ملك النوبة هو الذي حول المعابد الى كنائس أو ابنه الذي تولى الحكم بعده .

لكن سلكو قد قام بحرب البجاه والبلامين الذين كانوا يسكنون في المنطقة المتاخمة لهم من الشمال وأحرز عليهم انتصارات في كلابشة وناقه مما مكنه من نشر المسيحية .

وعلى هذا فانه ما ان ازدهرت المسيحية في بلاد النوبة وغلبت على كثير من مظاهر الثقافة السودانية بحيث صارت مظهرا من مظاهر القومية التي توحد بين تلك الشعوب وظل هذا الحال حتى أخذت النهضة العربية الاسلامية تعم بلاد الشرق الأخرى وانسابت في مقرة واطمان بصلته بداية عهد جديد في السودان وادي النيل .

كما أنه ليس هناك أدنى شك في أن المسيحية قد تسربت من مصر الى السودان وليس من الحبشة التي كانت دائما في حالة عداء مع مملكة مروي على أثر حملة عيزانا التي كانت سببا في اسقاطها بحيث كان المصريون عاملا من عوامل تسرب المسيحية الى السودان والذين رفضوا الارتداد عن دينهم .

ولقد انتشر المذهب اليعقوبي في مملكتي النوبابيا « المريس » وعلوة الجنوبية ، وأما الأرثوذكس الملكانية فقد أخذت به مملكة المقرة . وتذكر بعض المصادر أن المسيحية شملت أجزاء من بلاد السودان بعيدة عن النيل وذلك مثل اقليم دارفور حيث وجدت مؤخرا آثار لمجتمع يسمى في موضع « عين فرج بدارفور » وهذه الآثار بقايا مباني بنيت على الطراز النوبي المسيحي .

ومهما يكن من أمر فقد ارتبطت المسيحية في النوبة بالكنيسة المصرية ويشير أبو صالح الأرمني الى أن ملوك النوبة المسيحيين عندما كانوا يغيرون على مصر ، انما كانوا يهدفون في بعض هذه الغارات وليس كلها الى الانتقام للمسيحيين في مصر وما يتعرضون له من معاملة سيما في عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي والذي يقال ان نوعا من الاضطهاد قد لحق بهم أو الضرر كما تشير الى ذلك المصادر المسيحية مثل أبو صالح الأرمني ، كذلك فان أبو صالح نفسه يشير الى أن ابن ملك النوبة عند ما قدم الى مصر في طريقه من بغداد ، بعد الرحلة التي كلفه بها والده لكي يقابل الخليفة العباسي في أمر البقظ لكي يجعله يدفع كل ثلاث سنوات بدلا من كل عام ، اتصال بالقساوسة المصريين وأمر والى مصر أن يضرب له الناقوس نظرا لعلو منزلته فيجتمع أصحابه للصلاة معه ولكي يقيموا القداس كما كان يفعل في بلاده .

وعن مملكة المقرية يقول « أحمد بن سليم الأسواني » أن ولاية الرئيس لها وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل وهو من أجل ولاتهم القريبة من أرض الاسلام ولقد كانت ولاية الجبل خط دفاعها الأول ولقد اهتمت به خشية مصر الاسلامية .

ولقد كان الملك المنتخب من بين أفراد الأسرة المالكة لا يتولى العرش الا بعد اعتكاف في الدير لفترة زمنية معينة يكسب خلالها طهارة وقداسة ومن هنا كانت رعاية الدولة للمسيحية حيث استطاع المسيحيون في ظل تلك الرعاية الملكية أن يمارسوا عبادتهم في حرية بل ازداد نشاط التبشير بالدين الجديد وقامت مؤسسات دينية يرأسها رجال الكنيسة ويبدو أن الكنيسة النوبية استخدمت في مبدأ الأمر اللغة اليونانية في أداء الطقوس الدينية ثم أخذت اللغة القبطية تنتشر وتستخدم في الكنائس ثم ترجمت الطقوس الدينية فيما بعد الى اللغة النوبية .

أما عن أثر الكنيسة النوبية في تاريخ بلاد النوبة وعلاقاتها بمصر فيرجع الى العلاقة بين الكنيسة المصرية والنوبية وقد كان أساقفة النوبة يرسلون لها من مصر . ولقد كان كثيرا ما كانت الظروف الداخلية

في مصر تؤدي الى امتناع البطارقة عن ارسال مبعوثين مصريين لمدد طويلة فتظل الوظائف الدينية خالية ويظل الناس فترة طويلة لا يمارسون الطقوس الدينية ، ذلك لأن بلاد النوبة لم يتخرج من بين أهلها في هذه الفترة علماء متخصصون في اللاهوت أو الفلسفة الدينية مستمدين تجاربهم من القديسين والشهداء كما في مصر ، ومن هنا ظلت الكنيسة المصرية تعامل الكنيسة النوبية كطفل صغير وذلك لأن اعتناق النوبيين للمسيحية لم يكن عن عقيدة وفهم وتعمق ودراية •

على أنه مما يلاحظ أنه رغم اعتناق الشعب النوبي للمسيحية فقد بقيت بعض العادات والتقاليد الوثنية سائدة في المجتمع النوبي والتي كانت أيام عبادة الأوثان ومن هنا فانه لم يصح اعتناقهم للمسيحية ، مما يدل على أن العقيدة الجديدة لم تتفاعل مع مشاعر الشعب بل انها فرضت على الناس في سلوكهم فرضا ويمثل هذا اختلافا واضحا بين الظروف التي انتشرت فيها المسيحية في مصر وفي ظروف انتشارها في النوبة •

ولقد لاحظنا في الفصل السابق العلاقات بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية خلال فترة الحكم الاسلامي في مصر منذ الفتح الاسلامي في عصر عمر بن الخطاب عام ٥٢١هـ / ٦٤١م وفي تنصيب أول ملك نوبي مسلم يدعى سيف الله عبد الله ثم تولى بنو كنز شئون حكم النوبة •

ومن هنا فان فترة ازدهار المسيحية في النوبة كانت تنتشر فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر حيث شهد القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى انهيار المملكتين النوبتين مقرة وعلوة •

هذا عن مملكة المقره التى كانت عاصمتها دنقلة ويمثل اقليم الرئيس الباب الشمالى لها مع مصر أما مملكة علوة فهى متناول هذا الحديث •

مملكة علوة :

عرفت هذه الملكة باسم علوة أو النوبة العليا وقد كانت عاصمتها سوبا أو السوبا التي تقع على نحو أربعة عشر ميلا جنوب شرق الخرطوم ومرجعه الاسم القديم الذي يشير الى بحيرة الأرواح • وقد أشار الادريسي في وصفه لبلاد النوبة فذكر بلدة غلوة بالغين بدلا من العين علوة ، وأن علوة في موقعها بالقرب من الخرطوم قد انتقلت اليها ادارة الحكم بعد سقوط مملكة مروى بسبب هجوم ملك اكسوم • ونجد أن الوضع الاقليمي في منطقة الجزيرة له تأثيره الواضح في حياة السكان وفي نظامهم الاجتماعي الذي ربط بينهم وبين الأرض مما أثر بدوره في ظروفهم السياسية والدينية والاقتصادية ولقد كان ملوكها لهم كامل السلطات على رعاياهم وممتلكاتهم •

ولا يعلم بالضبط الوقت الذي دخلت فيه المسيحية هذه البلاد ويعتقد أنها دخلت في نطاق ضيق منذ ظهورها في مصر كما يعتقد أنها انتقلت مع بعض المصريين القدامى الذين كانوا قد لجأوا الى علوة وغيرها فرارا من الاضطهاد الروماني ، وانتشرت المسيحية ورسالتها على نطاق واسع حتى نهاية القرن السادس الميلادي وذلك حينما اعتنقها الملوك والزعماء • وبقيام علوة تفتي المرحلة الأولى التي بدأت بانفصال الحكم من نباتا الى مروى ثم من مروى الى علوة •

ولقد كانت مملكة علوة عبارة عن مجموعة من الزعامات والرياسات • وقد جاء في مخطوطة قلاوون أن مملكة علوة قد شملت عدة ولايات أو زعامات صغيرة •

١ — مملكة الأبواب وهي منطقة الكبوشية والواقعة بين شندى والعطبرة •

٢ — صاحب بره ويذكرها اليعقوبي باره وهي الواقعة على الشاطئ الأيسر لهذا النيل جنوب العطبرة وتعرف الآن باسم قوزيرة وقد كانت هذه أبروشية تابعة لطرائية علوة المسيحية •

٣ - التاكه وهو الاقليم المعروف الآن باسم اقليم كسلا أو كسله .

٤ - اقليم كدرو وهذا الاقليم يتبع شمال مدينة الخرطوم ويطلق هذا الاسم على محطة سكك حديدية بالقرب من هذا المكان .

٥ - اقليم دنفعمو وقد ذكره صاحب مخطوطة قلاوون ولكن موقعها غير معروف ومن المحتمل أنها كانت واقعة شمال كدرو .

٦ - آرى : وتقع هذه المنطقة فى المكان الذى ينتهى شمالا بشندى كما يحتمل أن تكون آرى هذه هى المعروفة فى الوقت الحاضر باسم « الروبان » .

٧ - بقال : وهذا الاقليم واقع شمال شندى حيث يوجد فى الوقت الحاضر وادى يعرف باسم وادى بقال .

٨ - العنج أو الأنج : وهو اقليم واقع على الجانب الأيسر لنهر النيل جنوب غرب كدرو .

٩ - اقليم كرشه : وهى مملكة علوة وهذا اللفظ أصله كوش وأضيفت اليه الراء فى اللهجة المحلية وتغير الشين الى سين .

وتذكر المصادر أن كل هذه الولايات المختلفة كانت تضم عدد من الزعامات المحلية التى كانت تدين لصاحب علوة أو سوبيا بالولاء والطاعة .

ويقول أبو صالح الأرمنى أنه كانت فى مملكة علوة أربعمائة كنيسة ودير وإبراشية على جانبى النيل الأزرق وفى البطاح وقد ظل عدد كبير من هذه الكنائس قائما حتى القرن السادس عشر والراجح أنه لم يكن فى وسع النوبيين أن ينشئوا الكثير من الكنائس الجديدة ولذا فإنهم لجأوا الى تحويل المعابد الوثنية الكثيرة الى كنائس بعد أن كتبوا عليها النصوص الدينية والكتابات المسيحية حيث لازالت الجدران الوثنية تبدو كما هى .

وفي الطريق من سواكن لكسلا توجد بقايا أحجار ومقابر ترجع للعهد المسيحي المبكر والطابع الغالب على الكنائس النوبية هو البساطة في البناء ولعل هذا يرجع الى ضعف المستوى الفني .

ويصف ابن سليم الأسوانى النوبة العليا (علوة) فيقول : أول والى في بلاد علوة قرى من الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب ولهذه الناحية والى من قبل صاحب علوة والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار ومنها نهر يأتى من ناحية الشرق كدر الماء يجف في الصيف حتى يسكن بطنه . ثم النيل الأبيض وهو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن ثم الأخضر وهو نيل يأتى من القبلة (أى الجنوب) مما يلي الشرق شديد الخضرة صافى اللون جيدا . ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلاد علوة هى على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بحرى بقليل .

وقد وصف ابن سليم الأسوانى مدينة سوبا العاصمة قائلا أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب والبساتين ومتملك أى حاكم علوة أكثر مالا من متملك مقره وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصب وأوسع . ودينهم النصرانية يعافيه وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكدرية كالنوبة السفلى . ولغتهم الرومية يفسرونها بلسانهم وهى أقل فيها من النوبة السفلى .

والنظام السياسى لمملكة علوة لم يكن يختلف في تفصيله عما في مملكة النوبة الشمالية وان كان ملك علوة يمتاز بجاه ونفوذ وأكبر جيشا وأكثر عددا لعل ذلك يرجع الى اتساع مملكته . ويظهر ثراء مملكة علوة في كثرة كنائسها وأديرتها ولا تزال بقايا هذه الكنائس والأديرة تشهد على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بما يقرب من اثنى عشر ميلا ويرجح أنها بقايا مدينة سوبا العاصمة .

ولقد كان نشاط التبشير المسيحي في بلاد السودان هو الذى عرفنا الكثير عن مملكة علوة وعاصمتها سوبا الشهيرة جنوبى الخرطوم بقليل

على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ولها منطقة شمال الخرطوم تعرف
بالأبواب •

وعندما دخل الاسلام مصر وبدأت الأحداث بين الجيوش الاسلامية
في مصر والنوبة الشمالية المعروفة بمقرة بدأ يذكر اسم الاقليم الشمالى
لعلوة المعروف باسم الأبواب • وأن علوة هؤلاء كانوا يودون المصالحة
والمسالمة مع مصر ولا يريدون الاصطدام بهذه الدولة الاسلامية في
مصر •

ويذكر ابن سليم الأسوانى الذى نقل عنه المقرئى قولاً عن تلك
المملكة وأشار الى وجود رباط بها فيه جماعة من المسلمين مما يدل على
أن الاسلام قد تسرب الى مملكة علوة وبالذات في عاصمتها سوبا التى
كانت أكثر معبر الى ناحية الجنوب من اقليم الأبواب •

وقد وصف ابن سليم أن بعضهم يعترف بوحدانية الله ويتقربون
اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم لا يعرف الخالق ويعبد الشمس
والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة مما يدل
على أنه حتى نهاية القرن العاشر الميلادى فإنه كانت لازالت الوثنية
منتشرة في المجتمع العلوى والا ما كان ابن سليم الأسوانى قد أشار
الى ذلك ، مما يدل على أن المسيحية لم تكن حتى القرن العاشر قد
ضربت جذورها في مجتمع النوبة العليا أو الجنوبية •

وكذلك فإن اتساع رقعة علوة وهطول الأمطار فيها وتوافر المراعى
والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعية مجالا حيويًا
لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال أى أن طبيعة أرض علوة
الواسعة كانت تناسبهم أكثر من أرض مقره الضيقة ، وحتى الذين
اعتنقوا المسيحية من أهل علوة لم يكن بالدرجة التى تصل الى حد
التعصب مثلما كان في مملكة مقرة ، مما جعلهم لا يقاومون الزحف العربى
الاسلامى المتدفق الذى بدأ يزحف على بلادهم بصورة واسعة لا سيما
بعد توقيع معاهدة البقط التى أجازت للقبائل العربية المرور والاجتياز

غير مقيمين عبر أراض النوبة السفلى أو أرض المريس مما يساعد على تدفع القبائل العربية الى الجنوب حيث أرض علوة الواسعة ، ومن هنا لم يشعر سكان النوبة العليا بالضيق أو المنافسة من جانب العرب الوافدين ولا سيما عرب البادية لأنهم يحتلون أماكن خالية أو شبه خالية من السكان ولكن يتوفر فيها الماء والمراعى .

وتذكر بعض المصادر أن المسيحية دخلت مملكة علوة في القرن السادس الميلادى وذلك عندما أرسل ملك علوة عام ٥٧٨ م رسولا الى ملك النوبة السفلى (دنقلة) يطلب منه السماح للأسقف لونجنيوس بالسفر الى سوبا جنوبا وذلك ليعمده هو وأهل دولته وأسرتة ، فأرسل ملك النوبة تلك الرغبة الى الأسقف لونجنيوس وكان قد سافر الى مصر للمشاركة في انتخاب البطريرك الجديد ، فاتجه لونجنيوس الى علوة مباشرة في رحلة استغرقت مائتى يوم وصل فيها الى جبال البحر الأحمر سبب المكائد التى أقامها في طريقه ملك مقرة ولكن اتفاقيات ملك النوبة مع بدو البلمين القاطنين في الصحراء الشرقية أعطته الأمان في رحلته ومكنته من الوصول الى مملكة علوة . وفى المكان جنوبى الشلال الرابع التقى لونجنيوس برسول ملك علوة الذى أركبه النهر حتى مدينة سوبا وقام لونجنيوس بمهمته في تنصير ملك سوبا ومن ذلك التاريخ أصبحت المسيحية الدين الرسمى لمملكة علوة . وان كان القرن العاشر الميلادى عند زيارة ابن سليم الأسوانى لهذه المملكة يشير الى وجود رعية كثيرة لا تزال على الوثنية وتعبد الشمس والقمر والنار والبهائم .

ولقد تعرضت مملكة علوة للعديد من الضغوط من ناحية القبائل العربية المهاجرة ، ذلك لأن مجموعة قبائل الكواهلة قد انتشرت في منطقة العظيرة والنيل الأزرق ونزلت شعبة منها حول النيل الأبيض وشعبة أخرى استوطنت كردفان ويكاد من المؤكد أن معظم قبائل الكواهلة دخلوا السودان من الشرق ووصلوا اليه من الجزيرة العربية مباشرة وبدؤا حياتهم بسكنى الاقليم الساحلى من سواكن وعيذاب ولقد كانت لهذه الهجرات الى بلاد النوبة العليا واستقرار كثيرين من القبائل العربية هذه البلاد سببا في نشر الدعوة والتجارة فان كل هذه الأمور

سهلت الطريق لضد غز البلاد بالضبعة العربية الاسلامية ولقد أدت تلك الهجرة الى ضعف سلطة ملوك النوبة وقد أصبحوا لا يستطيعون حماية رعاياهم ومن هنا لابد من أن يسعى الشعب لمن يحميهم ويجيرهم من عدوان الأعداء الخارجين عن تلك المملكة وقد كانت القبائل العربية المستقرة بتلك النواحي الراسعة يحكم عاداتها وتقاليدها خير من يجير سكان النوبة حيث كانت قد حدثت مصاهرات كثيرة بين العرب والنوبيين الذين كانوا يرحبون بهذه المصاهرات التي تضمن لهم سندا قويا وحماية في وسط عوامل الضعف والفوضى التي اجتاحت البلاد ، ومن هنا فان ملوك النوبة في ذلك الوقت لم يكن لديهم أى سبب يدعوهم لمنع هذه الهجرات العربية أو التدخل في شئونها لا سيما أنها لم تكن تثير لديهم أدنى متاعب أو أية اضطرابات في هذه المنطقة . أما الوافدين هؤلاء من القبائل العربية فقد عملوا من جانبهم على نشر الاسلام على نطاق واسع ومن هنا أدى تيار الهجرة الى بلاد النوبة الى نشر الاسلام في هذه البلاد .

وفي العصر المملوكي فاننا نلاحظ أن النفوذ الاسلامي المصري لم يقتصر على النوبة السفلى بل اننا نجد أن النفوذ الاسلامي المملوكي أصبح قويا في مملكة علوة حتى أن الملوك كانوا يتقربون للسلطان المملوكي بالهدايا . بعد أن تيقن ملك علوة من حقيقة القوة الاسلامية في مصر .

ومن هنا نجد المصادر تذكر أن (ادورد) ملك الأبواب وأحيانا تسمى علوة بعث في عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م بوفد الى السلطان قلاوون يعبر عن ولائه للسلطان المملوكي وخضوعه له كما نقل الوفد للسلطان شكوى الملك ادورد من سوء المعاملة من ملك دنقلة . ولقد بادر ملك دنقلة الملك سمamon بارسال وفد الى السلطان قلاوون لشرح وجهة نظره وهذا دليل على تعمق قوة المماليك وسيطرتهم في بلاد النوبة .

ولقد رأى السلطان قلاوون حين اجتمع بالسفارتين أن يبعث بمندوبيه للاقليمين للتحقيق في أسباب الخلاف وكان السلطان يريد الحصول على معلومات أكثر دقة ، ولم تذكر المصادر التي تطرقت لاختبار

سفارات السلطان قلاوون الى كل من مقرة وعلوة ، النتائج التى توصلت اليها هذه السفارات فيما يختص بذلك النزاع الا أن سلوك سمamon تجاه ملك علوة يدل على أنه هو المعتدى ومن هنا كان قرار السلطان بارسال حملة الى النوبة السفلى (سمamon) لتأديبه بعد أن وضح أنه مصدر الفتن والمتاعب فى هذه البلاد . وأن ارسال هذه الحملة دليل على تصميم السلطان لازالة أسباب الفتنة ، بعد أن انتشر الاسلام على نطاق واسع لا سيما أن مملكة علوة كانت ترحب باقامة المسلمين فى أرضها وتسهيل كل العقبات وتساعدهم على الاستقرار والتنقل فى أنحاء المملكة حتى وصل المد الاسلامى الى دارفور بعد أن عبروا النيل الأبيض .

كما أن انتشار القبائل العربية فى السودان الأوسط وسقوط مملكة مقرة وقيام دولة اسلامية فى مقرة عام ١٣٢٣ م قد قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية فى العاصمة سوبا وكل الكنائس المنتشرة فى بلاد علوة وبين كنيسة الاسكندرية فى مصر ، وقد كان من أثر ذلك أن أهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وبدأت تنهار مبانيها وخاصة اذ علمنا أن مظاهها كان من الطين اللبن .

ولقد تحت الرحالة البرتغالى « فرانسيسكو الفارير » ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى فيصف لنا حالة الكنيسة المسيحية فى علوة وما آلت اليه أحوال هذه الكنيسة ، يقول التقرير ان أولئك النوبيون يجهلون دينهم كل الجهل فلا هم مسيحيون ولا هم بالمسلمين أو اليهود ، ولكن يقال ان أغلبهم كان على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة . وعند ما وصلوا الى تلك الحالة من الجهل بتعاليم المسيحية وتعاليم دينهم وبعد أن انقطع الاتصال بينهم وبين مصر لم يتمكنوا من الحصول على قساوسة لهم من الاسكندرية لكى يعلموهم بتعاليم الدين المسيحى لا سيما أنه لم يتخرج من بينهم قساوسة أو رهبان فانهم بعثوا الى النجاشى بالحبشة منذ عام ١٥٢٢ م لكى يرسل لهم بعض القساوسة لكى يرشدونهم الى دينهم ولكن نجاشى الحبشة لم يتمكن من ارسال ما طلبوه ولم يحقق لهم مطالبهم حين رد على ملكهم قائلاً : أن يعتمد على بطريك فى بلاد المسلمين فى ارسال

« القس الأكبر » فكيف يعطيه من يتفضل به عليه غيره . وأضاف الفرانسكو فارير « انه منذ وفاة أسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا من يخلفه بسبب الحروب بين القبائل العربية والنوبة الشمالية . وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ومن هنا فقد أهمل الدين ولم يعد للمسيحية الا أثر ضئيل بعد أن أهملت الصلوات والترانيم » .

وبالرغم من أن مملكة علوة استمرت نحو ألف سنة حاولت خلالها الاحتفاظ بعلاقات طيبة وودية مع مصر الاسلامية لا سيما في العصر المملوكي الا أنه وجد من العوامل ما أدى الى تفككها وانحلالها وبالتالي زوال الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية فيها مما مهد السبيل لصبح هذه المملكة بصبغة عربية اسلامية ، بعد أن اندفعت القبائل العربية من مصر والجزيرة العربية عبر السودان الشرقي الى تلك الأقاليم ثم اتجهوا صوب الغرب والجنوب واستقرت القبائل العربية في مناطق متعددة بين النيل ونهر العظيرة بل وعبروا النيل الأزرق وبنى المهاجرون المسلمون المساجد في العاصمة سوبا وقوى نفوذ هذه القبائل المهاجرة تدريجيا ، لا سيما أن هذه المملكة كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف بسبب هجمات جيرانها عليها .

كذلك فاننا نجد أن « حنا السورى » الذى زار علوة في أخريات أيامها هذه يذكر أن بها حوالى مائة وخمسين كنيسة (١٥٠) قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح وغيرها من الزخارف المسيحية والتي منها السيدة العذراء ، فى حين نجد أن أبو صالح الأرمنى يذكر أنه كان بها حوالى أربعمئة كنيسة فان ذلك النقصان فى العدد الذى يصل الى حوالى مائتين وخمسين كنيسة يدل على اهمال الكنيسة وانتشار الاسلام وربما تكون هذه الكنائس قد تحولت الى مساجد أو تهدمت مما يدل دلالة قوية على انتشار النفوذ الاسلامى على نطاق واسع فى سوبا وغيرها من أقاليم مملكة علوة .

ولقد كان النزاع المستمر بين علوة وجيرانها فى دنقلة والحبشة والزغاوة من الأسباب القوية التى عجلت بانهاء هذه المملكة وانهاء

الوجود المسيحي النهائي بها ، كذلك كان للحروب القبلية التي وقعت في المناطق المحيطة بها لا سيما من ناحية الشمال أثر كبير في قطع العلاقات مع مصر ثم تضاغت الصعوبة في الصلوات بعد سقوط مملكة مقرة اذ تعرض سكان علوة الى نوع من الانفصام الدينى والروحى فأصبحوا لا هم من الاسلام أو المسيحية أو اليهودية أو الوثنية •

سقوط مملكة علوة وانتشار الاسلام : لقد عرضنا لسقوط مملكة مقرة وكيف تأسس حكم اسلامى اقليمى لا قبلى حيث اختلط العرب بالنوبة وزالت تقاليد الملك والحكم التى كانت قائمة على أساس قبلى وكان شعب المقرة قد قبل الاسلام ديناً لكنهم أبقوا على الكثير من المظاهر الحضارية ومنها البقاء على لغتهم وتآقلم العرب الذين شاركوهم الديار • وقد كان اعتناق النوبة للاسلام أن أخرجهم من العبودية للوكهم وساوى بينهم وبين اخوانهم العرب فى المركز الاجتماعى • ولقد كان لتكاثر وجود العرب والقبائل العربية فى مملكة علوة أن أصبح عددهم يتغلب عددياً على السكان الأصليين ، ذلك لأن بعضهم قد عبر النيل الى كردفان كما أن البعض الآخر تابع شاطئ النيل الغربى فوادي المقدم أو وادى الملك حتى كردفان ودرافور فلما كثر عدد المهاجرين قضوا على مملكة علوة • واعتنق شعب علوة الاسلام حيث لم يكن كل الشعب يعتنق المسيحية ومن كان على هذا الدين فقد جهله بعد أن أبطل ارسال الرهبان والقسس من مصر الى علوة بحيث صار الاسلام دين الجميع •

ولقد كانت قبيلة العبدلاب من القبائل العربية الهامة فى السودان وادى النيل والتي ساعدت على سقوط مملكة علوة والذين كانوا من عرب القواسمة الذين ينتمون الى قبيلة رفاعة العربية احدى المجموعات الجهنية • وسقوط مملكة علوة يدل على أن أعداد كبيرة من العرب وبخاصة من جهينة التى ينسب اليها العبدلاب قد استقرت فى مملكة علوة المسيحية وأدى ذلك الى الانتشار الواسع للعرب والذى تم خلال عدة قرون وأن هذه المجموعات العربية استقرت على هيئة مجموعات متنوعة تحت سلطان ملك علوة فى بادىء الأمر ، ومن ثم كثر عددهم

في منطقة السودان الأوسط وبخاصة في مملكة علوة وخاصة من عدة طرق والتي منها عبورهم من الشمال الى الجنوب من خلال مملكة مقرة الى مملكة علوة وأن انتشار العرب قد تعدى مقره الى علوة وفي ذلك يقول ابن خلدون : لقد تم انتشار اماء العرب من جهينة عن طريق مصر الى بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملئوها بغيا وفسادا ، وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ثم ساروا الى مصانعتهم بالمصاهرة فانقرض ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم ، على عادة الأعاجم في تملك الأخت أو ابن الأخت فترة ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم •

وهناك بعض الشواهد التاريخية تدل على استقرار العرب بكثرة في مملكة علوة والتي منها تأسيسهم مدينة تجارية هامة في مدينة أربجي عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٤ م على الشاطئ الغربي للنيل الأزرق قرب الحدود الجنوبية لمملكة علوة وهذا دليل قاطع على انتشار العرب في كل أنحاء مملكة علوة بدليل وصولهم الى أقصى الجنوب من المملكة فما بالناس بالمناطق الشمالية القريبة من مملكة مقرة والتي كانت أقرب الامارات الشمالية منها « اقليم الأبواب » على علاقات مع سلاطين مصر •

ومن هنا فان استقرار القبائل العربية على نطاق واسع وخاصة خلال القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي يعطى الدليل القوي على أن سقوط مملكة علوة قد تم على أيدي القبائل العربية سواء أكان عرب القواسم والتي منهم العبدلات أو بمساعدة بعض القبائل العربية الأخرى التي لا بد أنها شاركت في انهاء الوجود المسيحي للأسرة الحاكمة ومحاولة طبع هذه البلاد بالطابع العربي الاسلامي وسواء شاركت في ذلك قبائل الفونج أو غيرها •

ومن هنا فان استيلاء العرب على مملكة علوة المسيحية تم تدريجيا ، ذلك لأن مملكة علوة كما سبق أن أشرنا كانت تتكون من تسعة أقاليم كبيرة وكل اقليم يخضع لرئاسة محلية من زعماء القبائل •

وبذلك تكون القبائل العربية قد نجحت في وقت لم تحدده المصادر في تأسيس عدة ممالك ومشيخات اسلامية في حوض النيل الأوسط من الشلال الثالث حتى مدينة اربجى وما بعدها بقليل الى الجنوب .

وهكذا كان القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى بداية النهاية لمملكة علوة المسيحية ، فقد كان لقيام الممالك والمشيخات الاسلامية آثارها البعيدة في تقويض دعائم الأسرة الحاكمة المسيحية وزعامتها في البلاد لا سيما وقد بدأ مركز العاصمة سوبا يقل تدريجيا منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى وانه لم يأتى القرن السادس عشر الا وكانت هذه المدينة العاصمة قد أصبحت خرابا ولا توجد بها الا عدة مساكن من القش والخشب .

ومن هنا أصبح الحكم وراثيا في بيوت شيخ القبيلة واختفى نظام الوراثة القديم القائم على الأمومة فضلا عن انتشار الاسلام بين أهالى تلك البلاد الذين وجدوا في الاسلام ما يشبع حاجتهم الروحية بعد أن انقطعت علاقاتهم الدينية بكنيستهم المسيحية الكبرى في الاسكندرية .

وهكذا كما سقطت مملكة مقرة الشمالية على أيدي القوات المصرية الاسلامية المملوكية التى نصبت أول زعيم وملك مسلم ، هو سيف الله عبد الله برشمنو ثم جاءت ببني كنز ليتولى الحكم في دائرة الشريعة الاسلامية ، فان مملكة علوة قد لحقت بسابقتها مملكة مقرة في الدخول في العقيدة الاسلامية وانتشار الاسلام وقيام الممالك الاسلامية في شمال السودان وادى النيل بعد أن تم صبغ المنطقة الواقعة جنوب الحدود المصرية حتى خط ١٣ شمالا بالصبغة الاسلامية .

ومن هنا ضرب الاسلام والعروبة بجذورهما العميقة في التربة السودانية بحيث صار الاسلام عقيدة راسخة وقوية في قلوب السودانيين والذين كانت العقيدة الاسلامية سلاحهم في مواجهة التحديات على مر العصور .

الباب الخامس

السلطنات والامارات الاسلامية

اذا كان تكاثر تيار الهجرة العربية الى بلاد النوبة والسودان الشمالي وحالة الفوضى التي كانت عليها المنطقة وصراعات الملوك حول السلطة وغزوات سلاطين مصر قد أسقطت الدولة المسيحية في دنقلة في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي وان ذلك قد فتح الباب على مصراعيه أمام القبائل العربية لتتدفق جنوبا فانهم أخذوا يكونون بيئاتهم ومجتمعاتهم القبلية حياة مستقرة ودائمة وانتشرت أحياء العرب في النوبة واستوطنوها بعد أن عجز ملوكها عن الدفاع عن سكانها ، وهكذا سقطت مقرة في دنقلة وبقيت دولة علوة في سوبا تنتظر مصيرها المحتوم والقبائل العربية تتجما وتتوحد بعد فترة زمنية تقرب من القرنين وتقيم تحالفا وتسقط الدولة المسيحية على يد هذا التحالف عام ١٥٠٤م ومن هنا فان السودان قد أصبح سياسيا وثقافيا وروحيا دولة اسلامية ساعدت الحضارة الاسلامية على طبعه بهذه الطبعة الروحية وأضحى السودان يشهد قيادة دويلات عربية اسلامية .

الا أنه من الثابت علميا أنه قبل سقوط هاتين المملكتين فان هناك دويلات اسلامية قد ظهرت في منطقة النوبة السفلى « المريس ودنقلة » وساهمت مساهمة فعالة في اثراء الحركة الاسلامية والثقافية العربية الاسلامية ، ذلك لأن القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي قد شهد ظهور الملامح الاسلامية في أرض المريس ، من أثر تلك الهجرات العربية التي أقامت على نحو ما من السرعة اماراتها الاسلامية بعد أن بسطت نفوذها على ذلك الاقليم من أرض النوبة الشمالية .

(أ) الامارة العمرية الاسلامية « زعامة شنقىر »

القرن الثالث الهجرى (٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م)

تستمد هذه الامارة الاسلامية اسمها من المجاهد الاسلامى الكبير أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى الذى ينتهى نسبه الى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وكان اطلاق اسم العمرى نسبة الى عمر بن الخطاب . ولقد ولد بالمدينة المنورة ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ مولده ، إلا أنه قدم الى مدينة الفسطاط العاصمة المصرية عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ - ٨٥٦ م ولم يكن سنه فى ذلك الوقت قد تجاوز الثلاثين عاما ، وانه كان نابغا فى علم الحديث ومن هنا قام بتدريس الحديث فى مسجد عمرو بن العاص الذى كان يعتبر الجامعة الاسلامية فى مصر فى ذلك الوقت . وقد تحلق حوله الطلبة والعلماء يناقشونه المسائل الدينية الهامة التى كانوا يجدون ردا عليها عند العمرى .

ولكن العمرى رأى أن ينقل جهاده الاسلامى الى مدينة القبروان العاصمة الاسلامية فى المغرب الأوسط حيث رحل اليها ليواصل جهاده عن طريق العلم والتدريس ، لكنه عاد بعد فترة أدراجه الى مصر ليواصل جهاده بالفكر والعلم والقلم .

ولكن حدثت ظروف عسكرية فى مصر . ذلك أن البجاء سكان الصحراء الشرقية المجاورة للبحر الأحمر والقريبة من مصادر المعدن فى تلك المنطقة قد قاموا بهجوم مفاجئ على أهالى الصعيد حتى مدينة قوص وهم يؤدون صلاة العيد حيث كانت تلك الغارة المفاجئة بقيادة رجل بجأوى أعور وأنزلوا بالمسلمين والمصلين مقتلا عظيما تسبب فى خسائر فادحة حيث نهبوا كل ما استطاعوا نهبه من الأملاك والمتاع ثم عادوا إدراجهم الى بلادهم من حيث قدموا .

ومن هنا فقد أثارت هذه الفعلة الشنيعة بالمسلمين وهم يؤدون صلاة العيد ، العمرى ، على أن يترك الدرس والتدريس ويتحول الى

مجاهد وداعية اسلامى يستخدم السلاح للصد عن ديار الاسلام وحماية المسلمين • فكان أن قرر أن يقوم بغزو بلاد البجة والانتقام للمسلمين الذين قتلوا أو أسروا في تلك الغارة المفاجئة •

وهناك أقوال تذكر أن الشيخ العمرى قام بتلك الغزوة الاسلامية المصرية الى حدود النوبة الشمالية بدافع من غيرته الاسلامية وحرصه على الدفاع عن ديار الاسلام •

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو محمد عبد الله بن محمد البلوى : خرج العمرى غضبا لله عز وجل وللمسلمين من أثر هذه الفعلة الشنيعة فكمن للغزاة في طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم ومن ثم استطاع أن يقتل رئيسهم الأعور ومن معه من قوات غازية ، وكما يبدو ذلك من رواية العمرى عن نفسه للرسول الذى أرسله اليه أحمد بن طولون • حيث يقول : انى لم أخرج أبغى فسادا فى الأرض ، وانى لم أؤذ مسلما ولا معاهدا وانما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله شرهم •

وهناك روايات أخرى تذكر أن تلك الحملة قام بارسالها أحمد ابن طولون فى عهد أسرة حكم الطولونيين فى مصر (٢٥٤-٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) فنجد المقرئى يذكر أن أحمد بن طولون أرسل حملة حربية على النوبة والبجة بقيادة عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، ونسارت هذه الحملة فى عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م وقامت الحملة بنشاط كبير فى بلاد النوبة ، ولقد كانت الاحوال السياسية فى بلاد النوبة مشجعة الى حد كبير لهذه الغزوة العربية ، ذلك لان بعض المناطق فى بلاد النوبة لم تكن تتأثر بالنفوذ السياسى المباشر لهذه الممالك المسيحية ، ومن هذه المناطق ذلك الجزء الواقع جنوب الشلال الرابع ، والتي كون فيها الشيخ العمرى امارته العربية الاسلامية والتي غذاها بجيشين عربى اسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى •

ويطلق على ذلك الاقليم الذى يقع جنوب، الشلال الرابع اسم شنيقر وهو يطلق على المنطقة الواقعة بين جنوب شرق بلدة أبو حمد وبين شمال محطة السكك الحديدية الحالية رقم ستة . أما الحدود الشرقية والغربية فغير معروفة في صورة واضحة ويعتقد أن بلدة أبو حمد الواقعة على نهر النيل عند انحنائه نحو الغرب هي تقريبا في حوالى منتصف اقليم شنيقر .

ويرجع اسم شنيقر الى الاصل النوبى شنقر ومعناه المعدن أو العملة واللفظ شنقر ينطق بضم الشين وسكون النون وضم القاف ولفظ شنيقر تصغير للفظ النوبى المشار اليه ، وهى تعنى الذهب .

وقد كان ذلك الاقليم محط أنظار القدماء حيث عملوا فيه على استخراج الذهب والمعادن الأخرى كالزمرد ، وكانوا يرسلون الأسرى من الشمال الى هذا الاقليم للعمل في المناجم ، وما زالت الى اليوم آثار هؤلاء موجودة . وكانت تعرف المنطقة الصحراوية بين وادى حلفا وأبو حمد باسم « عاتم تر » ومنها صار الاسم الحالى عطمور .

ويبدو أن انخفاض مستوى المياه الجوفية في هذا الاقليم كان السبب الاول في ترك العمل للصعوبات التى نجمت عن عدم وجود المياه الكافية للعمل على استغلال المناجم وكانت العمليات في استغلال المناجم محدودة بسبب المياه القليلة ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات فقد اتجه انتباه العرب بعد الاسلام الى العمل في المناجم في هذا الاقليم ، وكانت المياه العامل الاول لخلق المشكلات بين العاملين في استغلال المناجم وبين النوبيين الموجودين على نهر النيل ، وبخاصة في اقليم المقررة أو دنقلة . ونجد هذه المشكلات الخاصة بالمياه من الاسباب التى أدت الى الاشتباك بين العرب والنوبة ، حيث كان يتقاتل معهم المسلمون قتالا شديدا لرفض النوبيين السماح لهم بالمرور واتخاذ مورد على النيل لأخذ الماء اللازم لعمالهم في المناجم .

ويتضح لنا ذلك من النص الذي كتبه المقرئ في كتابه المقفى عن منطقة المعدن التي اختارها المجاهد الاسلامى العربى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، منتصف التاسع الميلادى .

حيث يقول المقرئ جاء العمرى الى مصر عام ٨٢٤٢ هـ / ٨٥٥ م وكانت فيه على حد قوله أدوات من فقه وأدب وشعر ومعرفة بالنجوم والفلسفة ، وبلغه خبر المعدن فذهب اليه لاستخراج التبر، وسار الى أسوان على سبيل التجارة ونزل بها وجالس شيوخها وجادلهم فى العلم ، ثم دخل أرض المعدن ، ويبدو أن ذلك كان قبل قيامه بتلك الحملة عام ٢٥٥ هـ بوقت طويل ، وربما تكون قبل ذلك بخمس أو ست سنوات ، وقد يكون سابق سفره ومعرفته بتلك المنطقة من الدوافع القوية لقيامه بحملته على النوبة والبجة لقتل من هجموا على المصلين المسلمين فى قوص يوم العيد ، أو قد يكون رغبة من أحمد بن طولون أن يرسله على رأس تلك الحملة لمعرفة بأحوال تلك البلاد ومسالكتها ودروبها وأحوال أهلها .

ولقد كان لحملة العمرى عدة أغراض متعددة ، فلم يكن المقصود بها قبائل البجاه فى الصحراء الشرقية فقط بل انها شملت أيضا المناطق النيلية ، وان كانت بعض المصادر ترجع تلك الحملة الى محاولة اكتشاف المعادن ، وفى ذلك تحاول إبعاد الحملة عن هدفها الرئيسى وهو الدعوة للإسلام ونشره بين البجاه والنوبيين وكذلك تأديب المعتدين على الأراضي المصرية ، كما أن نشر الإسلام كان هو الهدف الأساسى ، اذ كيف يتصور داعية إسلامى نذر نفسه للتدريس فى الفسطاط والقيروان يترك العلم ويجاذف فى البحث عن المعادن فى صحراء جرداء على حين لم تذكر لنا المصادر أنه غادر الفسطاط الى القيروان بحثا عن المسال والا ما كان له أن يسافر غربا للتدريس فى مسجد القيروان .

كما أنه يمكن القول أن حركته الى الجنوب لتأسيس ولاية عربية اسلامية كانت لفتح باب الهجرة الى الجنوب أمام القبائل العربية

وكذلك تأديب العناصر الغاربة ردا على غاراتهم المتكررة على الديار المصرية ومضايقتهم المستمرة للعرب النازحين الى تلك المناطق للاستقرار والدعوة للاسلام والبحث عن المعادن .

وبعد أن قضى العمرى على البجة اتجه غربا الى النيل فى اقليم المريس حيث طرد صاحب المريس ودمر مدنه وأسر الكثيرين من النوبيين ثم تقدم جنوبا وراء وادى العلاقى حتى وصل الى اقليم شنقىر عند انعطاف النيل غربا قرب مملكة الأبواب حيث اكتشف مواقع جديدة لمعدن الذهب .

وكان قد اشترك معه فى تلك الحملة لتأسيس الولاية العربية أعداد كثيرة من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة ويبدو أن هدف هذه الحملة كان الكشف عن مهاجر جديدة تتسع لهؤلاء العرب حتى يتمكن من تأسيس امارته ، وكان قد خرج معه عدد من القبائل الوافدة من الشام ومن بينها قبيلة (سعد العشيرة) و (قيس) وعيلان بعد أن حصلوا من النوبيين بعد هزيمتهم على حق الاقامة الدائمة فى منطقة المريس ، بل ان العمرى نفسه كان يهدف الى اقامة امارة مستقلة تحت زعامته .

وكان العمرى قد نزل على جماعة من مضر وحدث خلال ذلك نزاع بين بنى مضر وبنى ربيعة سبب مقتل رجل من مضر فاجتمع الفريقان دون أن يدعى العمرى الى ذلك الاجتماع فغضب وترك موطنهم الذى فيما يبدو كان فى جبال البحر الأحمر فلحق به جماعة من القوم فامتنع عن الرجوع منهم ولم يقبل العودة الا بعد أن أعطوه عهدا بالأى يفعلوا عملا الا بأمره وأخذ العمرى على العرب من مضر وربيعة عقد بيعة فدخل بهؤلاء أرض المعدن وكانت أرض المعدن التى عمل فيها العمرى هى جنوب المنطقة المعروفة باسم (أم نبارى) الواقعة شمال شرق محطة السكة الحديدية رقم ستة الواقعة غربى طريق القوافل بين كرسكو وأبو حمد .

ونظر العمرى ذات يوم الى طير فقال هذا من طيور الشطوط
وأحسب أن النيل قريب منا ، وكانت مأخذ المياه منهم بعيدة فأرسل من
رجاله بعضا الى ذلك المكان الذى جاء منه طير الشطوط ، وعاد اليه من
يومه يقرب من المساء وطلب من النوبة السماح له بمورد على النيل
فرفضوا وقبضوا على جماعته من العرب وقتلوا وأسروا من أصحابه ،
فشق عليه ذلك فجمع رجاله وحلفوا له فأمر باحضار آله المعادن
فخربها وسار الى النوبة ونزل على موقع على الشاطئ الأيمن للنيل
فى منطقة شنقىر وقتل من النوبة مقتلة عظيمة وكثر السبى •

لكن ملك النوبة جورج الأول لم يسكت على ما صنعه العمرى
وقومه من العرب من انتصار على النوبيين ، الذى اقتحم أرضه وقتل
من قومه مقتلا عظيما وسبى العدد الأكثر فتصدى له لكن العمرى هزمه
شر هزيمة ، وبذلك تمكن العمرى من هذه الأرض وتمكن من اقامة
قواعد على النيل للحصول على المياه ، وقد اتسعت أعمال العمرى حتى
شملت معظم أراضي النوبة السفلى من شنقىر جنوبا حتى أسوان شمالا
ومن نهر النيل غربا حتى البحر الأحمر شرقا •

ولعل فى توسيع دائرة نفوذه ما يوضح رغبة العمرى فى اقامة
امارة عربية اسلامية تحت زعامته فى بلاد النوبة بعيدا عن نفوذ
أحمد بن طولون والطولونيين فى مصر •

ويشير المقرئ الى تلك الأحداث التى دارت بين جورج الأول
ملك النوبة وبين العمرى والقوات العربية من أجل بسط النفوذ العربى
الاسلامى فى تلك المناطق •

ولكن ازدياد نفوذ العمرى وتوطيد دعائم حكمه وزعامته قد جعل
أحمد بن طولون يتوجس به خيفة من الانفصال والاستقلال عن مصر
فبادر بارسال حملة الى العمرى بعد أن سمع عن عظمة سلطانه ونفوذه
وقاد هذه الحملة القائد (شعبه بن حركان البابكى) ولكن حديث

مصادمات بين العمرى والقبائل العربية في أرض المعدن ولكن
شعبة بن حركان البابكى وقواته قد هزمت مما اضطره الى العودة الى
مصر وقد قام أحمد بن طولون بتأنيبه حيث قام العمرى بالكتابة الى
الأمير أحمد بن طولون ليعلمه بأن ما يهدف اليه من بسط النفوذ العربى
على تلك المنطقة لا يضر بمصلحة مصر وأنه يعمل من أجل الاسلام
والمسلمين • ومن ثم فان ابن طولون قد نال احترام وثقة العمرى بعد
أن أرسل له هذه الرسالة •

وقد قتل العمرى على يد غلامان من أتباعه لكن عند وصولهما الى
مصر قام ابن طولون بضرب عنقيهما وصلب جثتهما ، ثم أمر بنقل رأس
العمرى الى مكان قد حملاه اليه ووضعها فى كفن ودفنها •

ومن ثم كانت حملة العمرى وقيامه بتأسيس اماره عربية اسلامية
فى منطقة شنقىر بالقرب من الشلال الرابع قد فتحت أبواب الهجرة
العربية الى بلاد النوبة على مصراعيها لكى تتخذ لها سبيلا ومخرجا كلما
ضاقت بها أرض مصر لكى تتجه الى الجنوب •

ومن هنا فان تلك الامارة العربية الاسلامية العمرية التى لم يكتب
لها الدوام طويلا ، لم يمضى على فصر عرى وحدتها بين القبائل العربية
بضع سنوات قليلة حتى وفدت جماعات عربية معظمها من قبيلتى ربيعة
وجهينة الى أرض المعدن لتتضم الى ما سبقها من القبائل العربية لكى
تضع نواة أول اماره عربية تطول فترة حكمها فى تلك المنطقة وذلك تحت
زعامة ربيعة التى أنشأها (بشر بن مروان) والتى عرفت بامارة بنى كثر
وهى ما فشل فيها العمرى من قبل بسبب معاداة القبائل العربية أو بعضها
على الأقل له •

وان كان العمرى قد بسط نفوذه على قبائل جهينه وزبيعة وسعد
العشيرة وعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل
كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان للحلفائه من القبائل عدا العير التى

كانت تأتي من ميناء عيذاب ولقد كان من حسن حظ الطولونيين في مصر أن الحلف العربي الاسلامي الذي أنشأه العمرى في أرض شنقير لم يدم طويلا نتيجة اختلاف قد دب بين الحلفاء بسبب اتهام قبيلة سعد العشيرة بمالاه قيس عيلان • وقد أثرت مضر الحيات في ذلك النزاع الذي شب بينه وبين قبيلة سعد العشيرة ولكن حلفاءه من ربيعة رفضت الوقوف معه بينما عداه بنو هلال وبنو تميم ولكن العمرى تمكن من الانتصار عليهم بمساعدة جماعة من أنصاره •

ولا نجافي الحقيقة في القول أن العمرى قد قارب النجاح في اقامة أول امارة عربية اسلامية في شمال السودان وضرب بنجاحه هذا المثل لكل القبائل العربية لكي تتحرك جنوبا ولتحتدو حذو العمرى في الهجرة ومن هنا ازداد نفوذ السيطرة العربية في أرض المعدن لكن اغتيال العمرى قد وضع حدا لقيام الامارة العربية لا سيما أن ابراهيم المخروقي أخو العمرى من أمه قد قتله جماعة من البجاة مما لم يجعل هناك من شخصية قوية تحاول أن تحل محله في قيادة وزعامة تلك القبائل العربية التي استقرت وطاب لها المقام في ذلك الاقليم من شمال السودان •

ولقد كانت هناك بعض الأحداث التي دارت على أرض النوبة الشمالية قد أقنعت العمرى بأن الوقت مناسب لامتداد النفوذ العربي في المنطقة الوسطى أو الجنوبية من بلاد المقررة ولقد كان الدافع الذي حرك العمرى لكي يهاجم النوبيين والوصول الى تلك المناطق من مملكة المقررة هو محاولة خلق امارة عربية في تلك الجهات وأن العمرى وطموحاته كانت تؤهله للتفكير في مثل هذه الامارة وأن الواقع يثبت أن نجاح العمرى الوفي في تحقيق قيام الامارة العربية قد ساعدته عليه عدة عوامل تاريخية واقتصادية وسياسية في مملكة المقررة مما جعلت تحقيق هذه الأهداف ممكنا •

وخلاصة القول أن أهداف العمرى لم تكن مجرد محاولات لوقف اعتداءات البجة والنوبة أو لاكتشاف مناجم جديدة ولكن جوهر الاهداف

هو الدعوة للإسلام وإقامة دولة عربية وفتح الباب أمام الهجرة للقبائل العربية •

لكي تطبع المناطق الشمالية من السودان بالطابع العربي الإسلامي وأن نجاح العمرى كان الحافز الأمثل للهجرات العربية الكثيرة لكي تنطلق إلى الجنوب في شكل جماعات كبيرة مهاجرة للبحث عن أوطان جديدة في أرض النوبة بعد أن أخذ تيار الهجرة المتجهة صوب الجنوب يزداد عمقا وبعدا جديدا خاصة وأن الأحوال في مصر لم تكن تشجع العرب على الاستمرار والاستقرار في تلك الأقاليم فلم يكن أمامهم سوى الاتجاه صوب الجنوب ومن ثم عملوا على زيادة تيار الهجرة العربية إلى هذه البلاد • ومن هنا فإنه يبين لنا أن الهجرات العربية هي صاحبة الفصل الأول في انتشار الإسلام والعروبة في بلاد النوبة •

ولقد كان انتشار الإسلام والعروبة ظاهرة بطيئة في تلك البيئة النوبية واستغرقت وقتا طويلا منذ حملات عمرو بن العاص بقيادة عقبة بن نافع الفهري ثم عبد الله بن سعد أبي سرج ومن بعده تلك الحملة التي قادها العمرى والتي أعقبت حملة القمى وبعدها أن استطاعت تلك الحملة العربية بقيادة العمرى أن تؤثر في إثراء الحركة العربية الانتشارية وما ترتب عليها بعد ذلك من هجرات عربية لم تكن فتحاً عسكرياً بعد أن غلب عليها طابع الهجرات العربية السلمية اللهم فيما خلا تلك الحملات التي كانت تقوم بإرسالها الدول المتعاقبة التي كانت تحكم مصر كالدولة الأموية والفاطمية والمملوكية التي كان لها الفضل كل الفضل في انتشار الإسلام على نطاق واسع في مملكة مقرة •

ومن هنا كانت رحلة العمرى واستقراره في منطقة شنقيش وقيام ما يعرف بالإمارة العربية الإسلامية هي الفاتحة لكي تحذو حذو القبائل العربية وتتحرك في اتجاه نشر الإسلام •

٢ - امارة بنى كنز العربية ٣٣٢ - ٥٧٠ هـ

لقد اشتد تيار الهجرة العربية نحو الجنوب في العصر الفاطمي ، حيث شهد عهد الخليفة المستنصر على وجه الخصوص عداء متبادل بين حكومة مصر وبين العرب البدو النازحين الى الصعيد ، فاندفعت بعض البطون الى بلاد النوبة يدفعها الحماس الدينى لنشر الاسلام بين سكان بلاد النوبة ويدفعها الطموح والنجاح الذى حققه المهاجرون الأولون وتحفزها أنباء النجلاح والاستقرار الذى أحرزه اخوانهم من أبناء القبائل العربية الذين سبقوهم للهجرة الى تلك الديار وانطلاقهم فى حرية بعيدا عن تضيق النطاق الذى فرضته عليهم سلطات الحكومة فى مصر واستبدادها بهم .

ومن ثم ازداد ضغط القبائل العربية على منطقة المسريس من بلاد النوبة الشمالية ووضح نفوذهم حتى أنه ليكن القول أن القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى قد أصبحت فيه المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث يتصرف فيها المسلمون لا كتصرف المهاجرين الغرباء اللاجئين من مصر انما يتصرف هؤلاء العربان من القبائل تصرف الملاك وأصحاب البلاد والأراضى الواسعة .

ومن هنا فان اضطراب الظروف السياسية وسوء العلاقات بين مصر والنوبة وتعدد الحملات التأديبية ضد النوبة لم تحل دون تكرار هذه الهجرات العربية الواسعة ، ومن هنا فان المسلمين أصبحوا متمتعين بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة وقد اندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا كل أمور حياتهم ومن ثم نشروا لسانهم العربى وقرآنهم الكريم وعقيدتهم الاسلامية الغراء .

ومن هنا فقد شهد العصر الفاطمى فى مصر قيام امارة عربية نوبية اتخذت من أسوان عاصمة لها وامتد نفوذها جنوبا حتى أرض المريس .

هذه الامارة أسسها عرب ربيعة بزعامة أبى مروان بشر بن اسحاق،
والذين أطلق عليهم الكنوز وهم من ربيعة بن نزار بن سعد بن عدنان ،
وكان ينزلون اليمامة وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله عام ٢٤٤هـ
في أعداد كثيرة وانتشروا في النواحي ونزلت طائفة منهم بأعلى صعيد
مصر وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها وكانت البجة
تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى خربوها .

فقامت ربيعة في منهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم
واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي فكثرت أموالهم واتسعوا في
أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واقتطعوا قرية تعرف
(بالبحامس) وحفروا بها الآبار وترأس عليهم اسحق بن بشر مدة
ثم خالف على بعض أهله وكانت عيذاب التي يونس من ربيعة وملوكها
عند قدومهم من اليمامة فجري بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها
ومضوا من عيذاب الى الحجاز ثم وقعت حروب بين بنى بشر قتل فيها
اسحاق بن بشر هذا . فأحضروا اليهم من بلبيس بمصر الشيخ
أبا عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يوسف المعروف بأبى يزيد
ابن اسحاق بن ابراهيم بن مسروق وهو ابن عم اسحاق بن بشر المقتول .
والى مسروقة هذا ينسب كنز الدولة حامى أسوان وأنشأ مكانه المعروف
بساقية سفيان ولم يزل رئيسا على ربيعة حتى مات فقام برياستهم
بعده ولده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ عبد الله على ويعرف
بالأهوج المطاع .

وهو الذى ظفر بأبى ركة وسبق الإشارة اليه . والخارج على
الحاكم بأمر الله وقبض عليه فأكرمه الحاكم اكراما عظيما ولقبه كنز
الدولة وهو أول من لقب من بنى ربيعة أو بنى مسروق بهذا اللقب منهم
ولا تزال الامارة فيهم ولكنهم يعرفون بكنز الدولة حتى كان آخرهم
كنز الدولة فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبي
في سابع صفر عام ٥٧٠هـ سبعين وخمس مائة عندما خالف على السلطان
صلاح الدين يوسف بن أيوب وجمع لحربه وقتل أخاه أبا الهيجاء

السمين وكان قتله بمدينة طود بعد حروب كثيرة هذا ما ذكره المقرئ في كتابه « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » عن بنى كنز من ربيعة والراجح أن هذه العشيرة كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيين من أهل المريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحي لا سيما بعد أن تحول معظمهم الى الاسلام وبعد أن تزوجوا من بنات رؤساء النوبة وقد اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الامارة العربية النوبية بعد أن قبضوا على أبى ركة الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوز بالفرار من مصر ناحية الجنوب ونجح أبو المكارم فى القبض على أبى ركة فكوفىء بلقب كنز الدولة •

وكانت هذه الدولة التى أنشأها عرب ربيعة أو الكنوز دولة اسلامية امتد نفوذها من أسوان وجنوبا الى بلاد النوبة ومنطقة المريس • وشرقا الصحراء والبحر الأحمر ، وكان النزاع السابق الإشارة اليه بين بطون ربيعة فى العلاقى وعيذاب قد أدى الى قتل مؤسس هذه الامارة ومن ثم ازداد ارتباط العرب بالنوبيين وبذلك تكونت طبقة حاكمة فى النوبة السفلى أزالت النفوذ المسيحي •

ولقد كان انتقال الزعامة اليهم عن طريق نظام الوراثة وعن طريق الأم ، ومن هنا استطاعت ربيعة أن تضع نواة أول امارة عربية اسلامية فى تلك البلاد • وفى ذلك يقول اليعقوبى أن زعيمهم كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة • وكان قتل الزعيم اسحاق بن بشر سببا فى نشوب القتال بين بنى بشر أنفسهم مما جعلهم أن يحتكموا لحضور ابن مسروق من بلبيس بمصر لى يتولى الزعامة خلفا لابن عمه ومن ثم انتقل مركزهم الى أسوان حيث كان يقيم فرعهم الثالث وأصبح هذا الأمير يعرف منذ ذلك الوقت باسم أمير أسوان •

وقد كانت هذه الامارة العربية الاسلامية التى شملت جزء من أعلى مصر وبلاد النوبة والبجة تنعم وتزدهر الى أن كانت الدولة

الفاطمية في مصر . ومن هنا دخلت في طورها الذهبي . ذلك لأن الفاطميين لما فتحوا مصر وجدوا هذه الامارة العربية الاسلامية المزدهرة قائمة على الحدود المصرية النوبية ، فلم يتعرضوا لها بل تركوها وشأنها واعترفوا بها فبسطت سلطانها على بعض اقاليم الصعيد الأعلى وربما بلغت حدودها جنوب مدينة قوص التي كانت عاصمة اقليم الصعيد الجنوبي منذ بداية العصر الفاطمي وظلت حتى القرن التاسع عشر الميلادي حيث كانت سوقا تجاريا هامة يرد اليها التجار من جميع الأجناس فضلا عن ورود الحجاج في موسم الحج . اضافة الى الجزء الشمالي من اقليم المريس كان يخضع لنفوذ بني كنز الذين لازالت ذرية منهم منتشرة الى اليوم في مختلف أنحاء صعيد مصر وبلاد النوبة خاصة اقليم المريس حيث لا تزال لهم تقاليدهم العربية .

العلاقات مع الخلافة الفاطمية :

لقد كان اعتراف الخلافة الفاطمية بدويلة بني كنز قبل القبض على ابي ركة تعود الى أن تلك الدويلة الاسلامية كانت امتداد للانتشار الاسلامي جنوبا ذلك لأن هذه الامارة العربية الاسلامية الواقعة على جزء كبير من مملكة النوبة المسيحية وعلى حدود مصر الجنوبية تكون بمثابة خط فاصل بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية بل أنها بمثابة خط دفاعهم الأول فانها تقيهم شر هجمات وغارات النوبيين والبجة التي لم يكن الفاطميون في غفلة عنها منذ أن وطأت أقدامهم أرض مصر وكذلك لانصراف الخلافة الفاطمية بنشر نفوذها في الشرق الاسلامي والعمل على محاربة الخلافة العباسية .

اضافة الى أن هذه الامارة العربية الاسلامية حدثت من غارات البجة على مصر منذ قيامها ، بدليل أننا لم نسمع عن غارة نوبية أو غارة بجاوية قام بها هؤلاء القوم طوال العصر الفاطمي ، كما أننا لم نسمع عن غارات أو هجمات يقودها ملوك النوبة أو رعاياهم وهي الغارات التي كانوا قد اعتادوا أن يقوموا بها كلما شعروا بضعف مصر الا في نهاية

العصر الفاطمي بعد أن تمزقت الدولة الفاطمية وأصبح شأن الخلفاء فيها ضعيفا .

وقد أطلق على هذه الامارة ، امارة أرض المعدن ، أو امارة منطقة العلاقي . حيث تحتل هذه الامارة المنطقة التي عرفت بأرض المعدن الرقعة الأرضية الواسعة التي تحدها أسوان شمالا وشرقا البحر الأحمر وغربا مجرى النيل في جنوب وادي حلفا الى أسوان أما الحد الجنوبي فغير مدون تماما بسبب أنه لم تكن له حدود ثابتة بسبب تزاخم الجماعات العربية على استغلال المعدن وهنا كاحتمال أن الخط الجنوبي الذي يحد إقليم المعدن في منطقة العلاقي يبدأ من منطقة وادي حلفا ويتجه جنوبا شرقيا الى مرسى عروس الواقعة على خط عرض ٢٠ شمالا أو الى جنوب ذلك الخط ، وشملت هذه المنطقة عدة موانئ على البحر الأحمر في مقدمتها عيذاب وصنجة وقد جاء عن طريق هذه الموانئ وغيرها عدد كبير من المجموعات العربية التي عبرت البحر الأحمر من الجزيرة العربية الى ساحل البحر الأحمر الغربي في في طريقها الى مواطن جديدة .

وتؤكد الحقائق التاريخية التي يحاول بعض الكتاب المعاصرين المعادين للعروبة والاسلام انكارها والتقليل منها أن هناك مجموعات من العرب قد جاءت الى منطقة أرض المعدن في فترات تاريخية سابقة للدعوة الاسلامية وقد كان أشد هذه الهجرة العربية تلك الهجرات التي تدفقت في القرن السادس الميلادي وقبل ظهور أنوار الدعوة الاسلامية وقد ضمت هذه المجموعات بطونا من حمير من جنوب غرب الجزيرة العربية وسكن هؤلاء في أول الأمر منطقة غتباري ويحتمل أن يكون موطنهم قد امتد بعد ذلك الى سنكات واركوبت ويعتقد أن قبائل البجة التي سكنت فيها جماعات من بني حمير قد كانت في حالة من الفوضى بسبب أنهم قد أصيبوا بهزيمة منكرة أنزلها بهم الملك النوبي (سيلكو) الذي كان أول ملك في النوبة يعتنق المسيحية والذي طردهم من حوض وادي النيل جنوبى الشلال الأول ، ودخل هؤلاء البجاة الى الصحراء وعادوا الى حياة المرعى والبداءة وتحطمت قوتهم الحربية وتحولوا الى الحروب الداخلية بين القبائل .

وقد كان دخول بنى حمير في هذه الفترة من القلاقل الداخلية فلم يتعرض لهم البجاة بسوء ، بل استطاع هؤلاء العرب الوافدون البقاء في عيش وسلام مع البجاة واستطاع هؤلاء الوافدون مصاهرة البجاة ومن هنا لا يصح رأى من ينادى بأن العروبة طارئة على السودان •

وعن هذا الطريق وصل أبناؤهم الى ولاية الحكم قبل قدوم القبائل العفرية من الشمال بعد فتح مصر عام ٦٤١/٥٢١م حيث كانت زعامة الحكم كما هو معروف تنقل الى ابن البنت أو ابن الأخت وتكونت مع الزمن طبقة أرستقراطية جديدة أبأؤهم من العرب وأمهاتهم من البجاة •

وكما سبق أن ذكرنا كانت ربيعة من أكثر المجموعات العربية التي جاءت الى مصر وهاجرت جنوبا الى النوبة في القرن الثالث الهجرى الثامن الميلادى • وانتقلت جماعاتها بين مختلف النواحي حيث استقروا وتكونت منهم مجموعات محلية سكنت في منطقتي النوبة وأسوان • وكان من الطبيعى لانتشار الدعوة للإسلام بالاضافة الى أنه من الطبيعى أن تستهويهم الرغبة في الحصول على المعدن قد خلت منهم جماعات مع مجموعات القبائل العربية القحطانية والجهنية وغيرها الى أرض البجاة •

وأنه منذ ظهور الزعامة العربية لبنى ربيعة أيام أبو مروان بشر ابن اسحاق قد اشتهد ساعدها بمصاهرة البجاة بعد أن استطاعت طرد بنى يونس أبناء أعمامهم الذين هم فرع من ربيعة أيضا من ميناء عيذاب ومن ثم اضطر بنى يونس الى العودة الى الحجاز عبر الطريق الذى جاءوا منه •

وأن قوتهم كما أشار ابن حوقل قد ازدادت بعد ذلك الانتصار وبعد المصاهرة مع البجاة ومن ثم فقد صارت لهم اليد الطولى في تلك المنطقة وعلى كل القبائل العربية والنوبية والبجاوية •

وقال ابن حوقل أن العربى بنواحي أسوان كان يلقب كثر الدولة أما أصل لفظ كثر الدولة فلا يرجع الى أصل عربى بل يرجع الى أصل مصرى قديم في اللغة المصرية القديمة « الهيروغليفية » حيث أننا نجد أن

هذا اللفظ في صورته الحقيقية هو « تاكنز » وكان يطلق على جزيرة جنوب الشلال الأول ومعنى هذا اللفظ أرض رماه الحدق ، أو بمعنى أدق حملة الأقواس . وهناك آراء تذكر أن لقب كنز الدولة له دلالة على ما تكلفته الدولة الفاطمية من نفقات كثيرة في هذه الفتنة التي حدثت من أجل القضاء على أبي ركوه ، فيقال أن الأكياس إلى خرجت مع القائد (فضل) للقاء أبي ركوه زنتها خمسة وعشرين قنطارا ، وأن جملة ما أنفق في القضاء على هذه الفتنة ألف ألف دينار ، فلما وضع حد لهذه الفتنة بالقبض على أبي ركوه وفر عليهم مبالغ طائلة . اعتبروا أبا المكارم هبة الله أنه هو الذي وفر عليهم هذه المبالغ فضلا عما كانت تحويه أمانة كنز الدولة من معادن كثيرة وثمانية مثل الذهب والزمرد امتلأت منها خزائن الفاطميين فكان لقب كنز الدولة اسم على مسمى .

وقد بقيت عشيرة كنز الدولة في منطقة أرض المعدن الشمالية وكان مركز زعامتها مدينة أسوان وكثرت بطونها وانتشرت في أرض البجاة واستمرت على هذا الحال وتطورت حياة أفرادها في مختلف المناطق التي سكنوها إلى أن تولى صلاح الدين الوزارة في مصر في أواخر العهد الفاطمي ، حيث حدثت حركة تمرد قام بها الجنود السود الذين كانوا في جيش الخليفة الفاطمي فجرد عليهم صلاح الدين حملة تحت امره (شجاع الدين البعلبكي) في عام ١١٧٢م ولجأ الجنود من المتمردين إلى صعيد مصر واشترك كنز الدولة ورجاله مع شجاع الدين في قتالهم .

ولقد كان منح اللقب كنز الدولة الذي صار ولا يزال علما على سلالة ربيعة بأقليم المريس فعرف ربيعة بنى كنز وعرفت أمارتهم بامارة بنى كنز وأصبح صاحب اللقب منذ ذلك الوقت يعرف بصاحب أسوان .

ويقول ابن سليم الأسواني لقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها وبنو بدنقلة جامع يأوى إليه الغرباء ومن ذلك يفهم أن لقب كنز الدولة سابق على عصر الحاكم بأمر الله الذي منح لأبا المكارم هبة

الله وربما تكون هذه الفقرة السابقة اضافة من المقریزی وأن معناها الأول الذى يربطها باللغة المصرية القديمة هو الأصح • وأن المقریزی لم ينقل هذا القول عن ابن سليم الأسوانى بدليل عدم ورود هذا اللقب عن بنى ربيعة فى المصادر الأخرى المعاصرة لتلك الفترة وربما قصد المقریزی بذلك سيطرة بنى كنز على النوبة منذ عام ٥٣٢٣هـ / ١٣٢٣م على أثر تقوية العلاقات أثر سقوط المملكة النوبية الشمالية على يد المملوك •

ولقد أثر القبض على أبى ركة فى تقوية أواصر العلاقات والصلة بين بنى كنز والدولة الفاطمية وازداد نفوذ بنى كنز واتسعت امارتهم حتى شملت المناطق الواقعة من قوص شمالا الى بلدة كرسكو باقليم مريس جنوبا ، شاملة بذلك وادى العلاقى بالصحراء الشرقية وزادت ثروتهم وجاههم وزودهم الفاطميون بالأسلحة اللازمة والجنود للدفاع عن ثغر أسوان •

وقد شاهد ناصر خسرو حين مر بثغر أسوان فى عصر الخليفة المنتصر بالله ، العمليات العسكرية الضخمة التى أعدت للدفاع عن المدينة فيشير الى وجود جيش دائم من أجل الحفاظ على المدينة من الهجمات النوبية بحيث يستعصى على الجيش النوبى الاغارة عليها أو اقتحامها فيقول : ومدينة أسوان محصنة جدا لا يستطيع أحد أن يقصدها من النوبة وبها جيش دائم للمحافظة عليها •

وخلال الفترة من ٥٣٩ — ٤٦٦هـ / ١٠٠٦ — ١٠٧٣م • لم تذكر المصادر شيئاً عن العلاقات بين بنى كنز والفاطمين وربما يرجع ذلك الى حسن العلاقات بين الطرفين ، كذلك فانه يبدو أن بنى كنز خلال الفترة المذكورة كانوا على وفاق تام مع مملكة النوبة المسيحية بدليل أننا لم نسمع عن أى صراع بين الطرفين ويبدو أنهم نجحوا فى ارضاء الفاطمين وأيضاً ملوك النوبة المسيحيين •

ولقد كان انشغال الفاطميين بالأحداث الداخلية في مصر مشجعا لبنى كنز لتوسيع نطاق نفوذهم في الصعيد الأعلى ففي عام ٤٤٦هـ / ١٠٧٣م انتهز أمير بنى كنز الملقب بكنز الدولة محمد ضعف الدولة الفاطمية في أعقاب الشدة المستتصية (٤٥٧ - ٤٦٤هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٣م) وأعلن استقلال أمارته عن الفاطميين ، لكن ذلك الاستقلال لم يدم طويلا إذ أن قدوم بدر الدين الجمالى في نفس العام الى القاهرة كان ايذانا بعودة الأمور الى نصابها في ممتلكات الفاطميين .

وقد استطاع بدر الدين الجمالى أن يهزم كنز الدولة في عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م حيث أسرع كنز الدولة بالفرار الى أسوان ولكن بدر الدين الجمالى تابع كنز الدولة في فراره في جنوب أسوان عند الشلال الأول . وفر كنز الدولة الى دنقلة عاصمة مملكة المقررة ولكن بدر الدين الجمالى أرسل في أثر الأمير كنز الدولة محمد اللاجئ الى ملك دنقلة باسم الخليفة المستنصر بالله رسولا هو الشريف الرفيع سيف الدولة يطلب فيه تسليم كنز الدولة محمد فأجاب الملك النوبى طلب القائد الفاطمى طبقا لنص معاهدة البقط فعاد به الى القاهرة حيث شنقه بدر الدين الجمالى .

وبذلك استطاع الفاطميون استعادة نفوذهم على صعيد مصر واخضاع مدينة أسوان عاصمة بنى كنز وربما لأول مرة تدخل فيها المدينة في حوزة الفاطميين .

على أن اعدام كنز الدولة محمد أمير بنى كنز لا يعنى انتهاء نفوذ الكنوز نهائيا في أسوان فما لبث أن تدخل ملك النوبة بما له من علاقة حسنة لدى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى لاستعادة نفوذ بنى كنز بأسوان وأجيب طلب ملك النوبة وعين سعد الدين ساروكين القاسمى شقيق كنز الدولة محمد أميرا على أسوان عام ٤٧٤هـ / ١٠٨١م . وبذلك عاد نفوذ بنى كنز على أسوان من جديد ، أقوى مما كان ومن ثم عادت العلاقات الطيبة مرة ثانية بين الفاطميين وبنى كنز بدليل اشتراك بنى

كنز في الحملة الفاطمية ضد الصليبيين عام ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩م -
١١٠٠م. وذلك في عصر الخليفة المستعلى بالله ووزيره الأفضل
ابن بدر الدين الجمالي . وقد قتل كنز الدولة نفسه في هذه المحلة .

ولقد بلغت قوة بنى كنز وثرأهم بأسوان واقليم المريس الذروة
في القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى وانتشر نفوذهم على
نطاق واسع حتى شمل معظم أقاليم الصعيد الأعلى ولقد كان انشغال
الفاطميون بما هو أهم من بنى كنز والنوبة في الجنوب كظهور الفرنج
والقوى الصليبية حيث استولى الفرنج على كثير من بلاد الشام .

ولقد كان لثقة الفاطميين في بنى كنز ما جعلهم يسيطون نفوذهم
الواسع في تلك المنطقة الواسعة لدرجة أنه عندما علم آل كنز بنبا سقوط
الدولة الفاطمية بأنهم وجدوا الثقة في أنفسهم للمشاركة في الأحداث
الأخيرة لتثبيت أركان امارته ، فقد وقف أول الأمر بجانب صلاح الدين
الأيوبي ضد الدولة الفاطمية وعاونه في القضاء على ملوك النوبيين الفارين
الى صعيد مصر على أثر هزيمتهم من صلاح الدين .

ولكنه عاد فانقلب على صلاح الدين عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م للاطاحة
بحكمه واعادة الأمير داد ابن الخليفة العاضد الملقب بالحامد بالله . ولقد
كان الدافع لاشتراك بنى كنز في معاداة صلاح الدين احساسهم بالخطر
عندما أقطع الأمير شمس الدولة توارن شاه شقيق صلاح الدين قلعة
ابريم لأحد أمرائه وهو ابراهيم الكردي ثم أقطع الصعيد الأعلى أثر
عودته من حملته كقدم الأكراد الأسدية أبى الهيجاء السمين . فقام
كنز الدولة بثورة عارمة ضد بنى أيوب وجمع جيشا ضخما من العرب
والنوبيين وكل أنصار الفاطميين وسار بهم قاصدا القاهرة لاعادة الدولة
الفاطمية واستطاع كنز الدولة هزيمة الجيش الأيوبي المرابط بصعيد
مصر وقتل شقيق الحاكم الأيوبي . وقد شارك كنز الدولة بعض الأمراء
المعادين للدولة الأيوبية .

ولكن الدولة الأيوبية لم تسكت على عدوان بنى كنز وحلفائهم
اذ أنه بعد زمن ليس بطويل حاول صلاح الدين القضاء على زعامة
بنى كنز لأنه لم يعد لديه شك في ولائهم بعد تلك الحملة فأرسل
صلاح الدين أخاه لقمع حركة كنز الدولة فهزمت جنود كنز الدولة وأسر
زعيمها وقتل .

وقد كانت النهاية لزعيم عشيرة بنى ربيعة والكنوز ، أن ترك
أهله وأتباعه موطنهم في أسوان وما حولها ودخل أنصاره الى اقليم
النوبة الواقع جنوب الشلال الثانى وهو المعروف بأرض المريس وتمكن
هؤلاء من ربط العلاقات بين النوبة وعشيرة بنى ربيعة ومن هنا اندمج
بنو كنز في النوبة وشاركوا في أحداث مملكة النوبة المسيحية واستطاعوا
أن يمكنوا لأنفسهم في هذه الديار وبسطوا نفوذهم على السكان .

وفي العهد المملوكى قام السلطان المملوكى الناصر محمد بإرسال
حملة الى بلاد النوبة عام ٨٧١٠هـ / ١٣١٥م . وصحب هذه الحملة أحد
الأمراء النوبيين الذى كان يقيم في بيت الضيافة في القاهرة . وقد
أسلم وحسن اسلامه . وكان لما ترامت أنباء الحملة الى مسامع
كرتبس الملك النوبى أصابه الذعر ولاذ بالفرار حيث لم تتجح الحملة
في القضاء عليه . وكان الملك الجديد هو سيف الله عبد الله برشمبو ،
وعندما علم كنز الدولة وهو ابن أخت الملك كرتبس الهارب طالب بأن
يجلس على عرش المملكة حيث تقاليد النوبيين بأن ينتقل الملك الى ابن
الأخت وأيده خاله كرتبس في ذلك المطلب وأوصى عليه لدى السلطان
الناصر بن قلاوون وأرسله لتوه الى القاهرة وكان كنز الدولة
هذا يسمى شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن كنز وسأله شموله
بالأنعام السلطانية في توليه الملك وجاء في رسالته أيضا أنه اذا كان يقصد
مولانا السلطان بأن يولى أمور البلاد في النوبة لمسلم فهذا هو مسلم
وابن أختى والملك ينتقل اليه من بعدى ، وبذلك فان كنز الدولة
يستوى على عبد الله برشمبو في الاسلام ويزيد عليه أنه ابن أخت
الملك وهو مسلم لا سيما وأن نية السلطان المملوكى كانت تتجه الى تعيين
ملك مسلم .

غير أن السلطان أصر على تثبيت عبد الله برشمبو • وكان كنز الدولة لما وصل إلى البلاط السلطاني بهذه الرسالة وإلى السلطان الذي لم يستجب للطلب ، ليس هذا فحسب بل أنه أمر باعتقاله ومنعه من العودة إلى بلاده النوبة ، أما خاله كرتنبس فيروى أن ملك الأبواب قبض عليه وسلمه لجنود السلطان وهكذا تربع على عرش مقرة المسيحية أول ملك مسلم هو سيف الله عبد الله برشمبو •

ولما لم يستقم الحال في البلاد لعبد الله برشمبو ولم يعترف به النوبيين وثاروا عليه ، غير أن نهايته كانت على يد كنز الدولة الذي كان السلطان قد اعتقله ثم أفرج عنه من الاعتقال في القاهرة ومن ثم عاد إلى دنقلة • والذي لم يكن راضيا على تعيين عبد الله برشمبو لأنه يرى في نفسه الأحقية حيث أنه من سلالة أمراء من المسلمين وزيادة على ذلك ابن أخت الملك كرتنبس وكان أن وصل إلى مدينة الدر ، وعندما علموا النوبيين بمقدمه رحبوا به وفرحوا بذلك وانضموا إليه ودخلوا تحت رعايته وطاعته واستقبلوه أحسن استقبال في الدر التي هي أول بلاد النوبة ثم سار إلى دنقلة والتقى بعبد الله برشمبو في معركة ضارية قتل فيها برشمبو ومن ثم آل الحكم إلى كنز الدولة حيث نادى به النوبيون ملكا على البلاد • وذلك في شوال ٥٧١٧هـ / ١٣١٧م •

وبعد أن توج كنز الدولة على البلاد امتنع عن لبس التاج والذي تقول فيه روايات أنه كان يحمل شارة الصليب ومن هنا لا يحق ولا يجوز شرعا أن يلبس ملك مسلم تاج عليه رسوم مسيحية ، وهناك آراء تقول أن خاله كرتنبس الذي كان معتقلا في القاهرة يعتبر هو صاحب الحق الشرعي في ذلك التاج ، ومع أن كنز الدولة رفض لبس التاج إلا أنه مضى في ممارسة مهام حكمه للبلاد كملك عليها •

وما كان السلطان الناصر أن يعترف بهذا الملك الذي وصل إليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية ، حيث أن السلطان رفض

الاعتراف بكنز الدولة ، الذى رأى فيه السلطان أنه يشكل خطرا على النفوذ المملوكى فى النوبة ، ذلك لأن تولية حاكم عربى مثل كنز الدولة الذى ينحدر من قبيلة ربيعة العربية على عرش النوبة سيقوى من شوكة القبائل العربية فى هذه البلاد ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية الناقمة على سلطنة المماليك فى القاهرة أن تمارس نشاطا معاديا لتلك السلطنة لا سيما أن القبائل العربية ترى فى نفسها أحقية حكم مصر بدلا من هؤلاء المماليك الأتراك ومن كل الأجناس . لهذا أصدر السلطان أمرا بالافراج عن ابرام أخو كرنبيس وخال كنز الدولة وأرسله الى النوبة وأمره بأن يقبض على كنز الدولة ابن أخته بعد أن وعده باطلاق سراح أخوه كرنبيس واعادته للعرش .

وفى دنقلة خرج كنز الدولة طائعا وتنازل له عن الحكم وصار فى خدمته وذلك لجمع شمل النوبيين وحثهم على طاعة خاله ابرام ولكن ابرام تمكن خلال هذه الجولة من القبض على ابن أخته وأرسله مقيدا الى القاهرة وقبل أن يغادر كنز الدولة بلاد النوبة بعد أن كان قد غادر دنقلة بمسافة قليلة فى طريقه للقاهرة مات ابرام وهنا التف النوبيون مرة أخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه .

ولكن ذلك لم يرضى سلاطين المماليك فى مصر حيث أنهم لازالوا يخشون سطوة الكنوز ، ذلك لأن كنز الدولة قد أصبح يستعين بالقبائل العربية القاطنة فى هذه المنطقة وملكوه عليهم واستقل بالملكة وضم اليه العرب المحيطين بالبلاد والمقيمين بداخلها واستعان بهم على كل من يقف فى طريقه ويعارضه .

ومن هنا فان ذلك الدور الذى أخذت تقوم به القبائل العربية بزعامة ربيعة والكنوز فى ذلك الاقليم من سودان وادى النيل ليعد ظاهرة لها أهميتها فى مجرى الأحداث فى تلك المنطقة ومحاولة صبغ البلاد بالصبغة العربية الاسلامية ومن هنا قوبلت تلك الوحدة العربية حول الكنوز بالاستياء والمعارضة من جانب سلطان مصر ، الذى أرسل حملة الى بلاد النوبة بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٥٧٢٢هـ / ١٣٢٣م

واستطاعت هذه الحملة أن تقوم بتنصيب الملك السابق كرنبيس مرة أخرى على عرش النوبة ثم عادت الحملة الى القاهرة في شعبان عام ١٣٢٤هـ/١٣٢٤م بعد أن أمضت تسعة أشهر بالنوبة وكان كنز الدولة قد هرب من دنقلة جنوبا . ولكن عرش النوبة كان قائما على أسس واهية ، حيث ظهر كنز الدولة من جديد واستطاع أن يعفى خاله كرنبيس عن العرش بمجرد مغادرة الحملة لمدينة دنقلة .

وبهذا تولى كنز الدولة عرش البلاد للمرة الثانية عام ١٣٢٤هـ/٢٣٢٤م . ومن ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة في المصادر العربية الا من اشارات عابرة . حيث تولى بنى كنز العرب حكم هذه البلاد . وخلاصة القول أنه بسقوط مملكة مقرة المسيحية وتولى الحكم لأسرة بنى كنز العربية من ربيعة في القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى فقد انهار السد الذى كان يحول دون دخول العرب على نطاق واسع الى السودان وادى النيل حيث اندفعت أعداد كبيرة من العرب الى الجنوب دون رقيب عن طريق الوادى واندفعت أعداد أخرى نحو الجنوب عن طريق الصحراء الشرقية حيث نشروا الاسلام واستمروا فى الزحف جنوبا حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، بل أكثر من ذلك أخذت القبائل العربية بعد استيلاء بنى ربيعة متمثلين فى أسرة الكنوز ، الذى كان كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن كنز أول السلاطين العرب الذى يحكم المنطقة من أسوان حتى حدود ملك الأبواب أو سلطان الأبواب من قبل ملك علوة تتجه الى الجنوب حيث أن كثيرا من القبائل العربية قد أخذت تتجه جنوبا حتى بلغت أجزاء من الحبشة وغرب السودان . وذلك بعد أن أصبح الدين الاسلامى هو الدين الرسمى للبلاد ومن هنا انقطعت الجزية عن النوبة وأصبح سلطان بنى كنز مستقلا عن الدولة المملوكية خاصة بعد ازدياد الهجرة العربية الى المملكة الاسلامية الجديدة فى بلاد النوبة .

ومن ثم ازداد نشاط بنى كنز فى منطقة أسوان وعيذاب والواحات وأن كنز الدولة استتجد بنى معبد من العرب الذين عاونوه فى ادارة شئون المملكة بعد أن تولى عمه مدينة الدر بتلك البلاد واتفق الاثنان على

أن يكون ذلك الملك نائبا لعمه الذى أصبح الملك المعترف به على بلاد النوبة وبعد ذلك استطاع بنى كنز الانقلاب على حلفائهم من بنى معبد الذين ساعدوهم فى أول الأمر •

وان كانت السلطة فى القاهرة قد أرسلت حملة فى عام ٥٧٦٧م / ١٣٦٦م أى بعد تدعيم أسرة الكنوز لالحكم بأكثر من أربعة وعشرين عاما • غير أن الكنوز أعلنوا ولاءهم للحملة والانضواء تحت لواء الجيش المملوكى وعند ادفو انضم اليه كل بنى كنز طائعين حيث خلع عليهم الأمير قائد الحملة وبالع فى اكرامهم واتجهت الحملة لمساعدة بنى كنز من الحصار الذى كانت تفرضه عليهم قبيلة « بنو عكرمة العربية » حيث التحمت مع بنى عكرمة المقيمين هناك فقتلت منهم عددا كبيرا •

وقد كانت هذه آخر حملة مملوكية الى النوبة عام ٥٧٦٧م / ١٣٦٦م حيث صارت القوى العربية والقبائل العربية التى هاجرت من مصر الى السودان بقيادة وزعامة بنى كنز تتحكم فى مصير تلك المنطقة •

وكان ملك بنى كنز قد قرر أن يتخذ من مدينة الدر مقرا له بدلا من دنقلة التى خربتها الحروب والخوف من عرب بنى معبد الذين كانوا يريدون الاستيلاء على عرش البلاد لو استمر فى دنقلة •

ومن هنا استطاع بنى ربيعة أن يقيموا سلطنة اسلامية عربية قامت على أكتافها منارة الاسلام والثقافة العربية الاسلامية التى أخذت تمتد الى الجنوب لتطبع السودان بالطابع العربى الاسلامى •

وبانتشار العرب فى السودان اكتسب السودان العربى النسب العربى والدم العربى واللغة العربية والثقافة الاسلامية العربية فقد كانت هذه القبائل العربية أداة لنشر الاسلام وثقافته فى أرجاء السودان وادى النيل فيما بين البحر الأحمر شرقا وبحيرة تشاد غربا ومن حدود مصر شمالا حتى خط عرض ٢٣ شمال خط الاستواء جنوبا •

٣ - سلطنة الفونج الاسلامية

٩١٠ - ١١٢٨هـ / ١٥٠٤ - ١٨٢١م

اذا كان القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى قد شهد ما يمكن أن نطلق عليه امارة العنمرى فى منطقة شنقير ومحاولات اقامة ولايات اسلامية فى السودان الشمالى ، الا أن القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى قد شهد قيام امارة بنى كنز فى المنطقة الواقعة من أسوان شمالا وربما من قوص فى صعيد مصر الأعلى فى منطقة المريس من بلاد النوبة السفلى ثم كيف استطاعوا عن طريق المصاهرة أن يستولوا على مقاليد الحكم فى النوبة وأن يقام نظام حكم عربى اسلامى ساعدت حركة القبائل العربية وانتشارها الواسع السريع بعد اسقاط العطاء للقبائل العربية على اقامته مما اضطرها الى الهجرة جنوبا وغربا بعيدا عن اضطهاد الحكام الغير عرب والذين تولوا حكم مصر منذ العصر الطولونى والاستغناء عن الجند العرب ونهاية بالعصر المملوكى .

الا أن كل هذه العوامل قد ساعدت على نشر الاسلام والعروبة فى هذه المناطق الوعرة ومن ثم كان تشجيع هجرة القبائل العربية من العوامل الهامة التى ساعدت أيضا على ظهور سلطنة اسلامية ثالثة تعرف باسم سلطنة الفونج .

ومما لا يدع مجالا للشك فى أن تزايد أعداد القبائل العربية فى مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا على مر السنين وبصفة خاصة بعد الفتح العربى الاسلامى لمصر فى منتصف القرن السابع الميلادى ٦٤١/٥٢١م وكذلك الأوضاع السياسية السائدة فى مملكة علوة . فضلا عن نظام الوراثة السائدة فى بلاد النوبة والمصاهرات التى تمت بين ملوك علوة وبين قبيلة جهينة العربية والتى كانت تحتتم طبقا لتقوريض ابن الأخت أو ابن البنت بأن ذلك كان يحتتم انتقال ملك علوة الى العرب الذين أسسوا مشيخة العبدلاب فى وقت سابق على ظهور الفونج فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى .

ولقد كان قيام الامارات العربية الاسلامية في السودان يمثل ظاهرة ازدهار للاسلام وانتشار حضارى اسلامى عربى وأن البلاد قد بدأت تتجه للحياة الاسلامية العربية بعد أن بدأ الطابع العربى بصبح البلاد بتلك الصبغة الروحية الاسلامية . ولقد كان قيام تلك الامارات الاسلامية يدل دلالة واضحة على أن النشاط الاسلامى لم يكن وقفاً على العنصر العربى الخالص انما أسهم فيه فريق من أهل البلاد الأصليين بعد أن أسلموا وحسن اسلامهم وقاموا في تاريخ الاسلام في السودان بدور لا يقل عن دور العرب ، والذي كان لاعتناقها لرسالة الاسلام أثرها في قيام تلك الامارات وتوسعها على حساب الممالك الوثنية أو المسيحية التى كانت تشهدها منطقة السودان مما أعطى جوا اسلاميا خالصا يتمثل في ظهور الحركة الاسلامية التى انبعثت من سنار والتى أدت الى ظهور امارة الفونج والتى تعتبر حدثا بارزا في تاريخ السودان في مستهل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى .

أصل أسرة الفونج :

لقد كان موضوع أصل البيت الحاكم في سنار والذي تولى الحكم في حوض النيل الأزرق في القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى مادة للنقاش الطويل والبعيد والذي تعددت فيه الآراء ولكن فيما يبدو أن هذا الحوار العلمى الذى دار حول أصول أسرة الفونج لم يستطع أن يصل الى نظرية ثابتة ومؤكدة . فبعض الآراء تعود بالأصل الأسرى للبيت السلطانى في سنار الى أصول قبيلة الشلك الزنجية والبعض الآخر يعود بهم الى أصول جاءت من الغرب من بلاد السودان الغربى حيث سلطنة برنو الاسلامية ، وهناك فريق يرى أنهم قد جاءوا أصلا من اقليم واقع بين أرتيريا وأثيوبيا دون أن يبين هل أصلهم زنجى أم حامى أم عربى .

وسوف نحاول هنا في هذه الدراسة أن نعرض للجوانب المختلفة والآراء المتعددة حول أصول ذلك البيت المسلم الفونجى . وإذا تتبعنا القول الذى يقول أن الفونج جاءوا من أرتيريا فاننا نرى أن هذا البيت

الفونجى قد أمضى فترة من انزمان يمارس سلطانه فى المنطقة الجنوبية الغربية من أرتيريا وذلك قبل انتقاله الى حوض النيل الأزرق واتخاذ من بلدة سنار عاصمة له . وهناك اعتقاد أن انتقال السلطنة الى حوض النيل الأزرق يرجع الى ضغط الحروب والقتال التى كانت سائدة فى أثيوبيا فى تلك الفترة والتى أخذت تمتد الى المنطقة الشمالية ، أى أن تلك الظروف قد هددت المنطقة التى كانت تحتلها السلطنة فى جنوب غرب أريتريا ويبدو أن السلطنة التى تولاها آل الفونجى قد قامت فى أرتيريا فى وقت يرجح أن يكون قد بدأ من القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى أو قبله بقليل . ومن هنا يرجح النسب العربى الأموى . ذلك لأن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الذى قتل فى مصر قد قام أبناؤه عبد الله و عبيد الله ومعهما ألفان وربما أربعة آلاف من الأتباع بالتحرك جنوبا الى بلاد النوبة عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م حيث أن ملك النوبة رفض استضافتهم ومن ثم فقد تحركوا الى بلاد البجاة واستطاع أحدهم واسمه عبد الله أن يعبر البحر الأحمر عائدا الى بلاد العرب ومعه أربعين أو خمسين من أتباعه ، أما عبيد الله بن مروان بن محمد وأتباعه بقية الأربعة آلاف فقد انتشروا فى المناطق الجنوبية من البجاة وقد يكون وصولهم قد تم الى أريتريا وهناك كونوا طبقة أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تتحرك غربا فى القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى بعد أن اختلطوا وتناسبوا وتصاهروا مع سكان المنطقة ومن هنا ربما جاء أحفادهم الى منطقة سنار حيث ساعدوا على إسقاط مملكة علوة المسيحية ومن المحتمل أن يكونوا قد عقدوا اتفاقا سابقا مع زعيم عرب العبدلاب الذى كان يسيطر على الطرق التجارية بين حوض وادى النيل والأقاليم المتاخمة وقد اتخذ له هذا الزعيم العربى بلدة قرى Qerri الواقعة شمال خانق السبلوقة مباشرة بين الخرطوم وشندي عاصمة له ، وبموجب هذا الاتفاق فيما يبدو أن السلطان قد بسط سيطرته على المنطقة من حوض النيل الأزرق التى تبدأ من جنوب سوبا وتضم أرض البطانة وما حوالىها وحوض النيل الأزرق الجنوبى ويفترض أن هذا قد تم الوصول اليه بعد خروج ملك علوة من هجرته نحو الغرب حيث اتخذ له من بلدة كوتشه الواغلة التى كانت محطة للقوافل عاصمة له والتى كانت تقع شمال كردفان .

واقدر عرفت العاصمة التي اتخذها آل الفونج في أريتريا باسم « لامول » أو كما تعرف محليا باسم « للم » كما وردت في بعض المصادر باسم لول وربما كان هذا المكان على حوض النيل الأزرق وأن جد الفونج قد جاء الى « لامول » التي تقع في الأريتريا حوالي القرن الرابع عشر الميلادي .

ولكن هناك من أشار الى أنهم عرب من جنوب شرق الجزيرة العربية وليسو من بنى أمية وذلك في بحث نشر عن الفونج عام ١٩٥٧م ان وصول آل الفونج قد جاء الى منطقة الساحل الأفريقي الشرقي من موطنهم الأول في وادي شامل في عمان وأخذوا يتنقلون شمالا حتى أنهم سيطروا على المنطقة الواقعة بين سواكن وبربرة كذلك فقد أشار المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف عن هروب جماعة من الأمويين الى بلاد النوبة حيث اجتمعوا بملك النوبة « دنقلة » وأن هؤلاء اللاجئين الذين جاء من نسلهم الأمويون الذين كونوا البيت الذي حكم سنار في الوقت الذي تذكر فيه المراجع أن نزول الأمويين في ساحل شرق أفريقيا في السنوات الأولى من ولايتهم للخلافة الأموية وذلك بسبب مطاردتهم لأعدائهم الذين هربوا الى تلك الجهات .

وهنا نجد هناك صلة تربط بين هذه الهجرة الأموية عن طريق النيل وبين وجود مقابر عربية في شرق السودان في منطقة تمتد من ميناء باضع وفي خونبت ، فان ذلك يرجع الى وجود جاليات عربية كبيرة العدد اشتغلت بالتجارة والمعدن وكان بينهم أمويون وهناك أيضا مقابر تمتد من الدناقل الى خور بركة وترجع للفونج والمؤكد في الكثير من المصادر عن شرق أفريقيا أن الأمويين قد جاءوا الى ساحل الزنج وأنهم اتخذوا عاصمة لهم في جزيرة لامو وأنهم قد أقاموا مدنا ساحلية عديدة للتجارة في سن الفيل والتوابل والمعدن وغير ذلك .

ويعتقد أن تحركات هذا البيت من موطنه الى الشاطئ الأفريقي الشرقي الى المناطق الأرتيرية كان لنفس الظروف التي تدفع بالهجرات العربية للرحيل الى تلك المناطق .

ويبادر الى الذهن سؤال تغير لون البشرة وميلها الى السواد الداكن هي أنه بمرور الزمن منذ سقوط الدولة الأموية الى حين قيام دولة الفونج الى نحو ٧٥٠ سنة فلا بد من زواج هؤلاء الأمراء الفارين بالأفريقيات أثر في ألوانهم وطباعهم وتقاليدهم وجعل بعض الباحثين يشكون في ذلك النسب العربي الأموي أو العربي القادم من جنوب شرق الجزيرة العربية .

ولقد كان جيمس بروس الانجليزى الأسكتلندى هو أول من نسب الفونج الى الشلك وذلك لمحاولة قتل الروح العربية والاسلامية في تلك المنطقة من القارة الأفريقية ولكنه ينافى ذلك تلك الحروب الطويلة التي كان يقوم بها الفونج مع ملوك الشلك الذين ادعى بروس أن الفونج منهم وكذلك قتالهم مع النوبة ومن هنا فان أقوال جيمس بروس لم يكن يتحرى فيها الدقة العلمية .

وهناك اعترافات سودانية تعترف أن الفونج هم جماعة من البدو السود (بعض العرب الذين اكتسبوا السواد من طوال بقائهم في السودان فترة طويلة) والذين اشتهروا بتربية البقر ، ويقول المؤرخ (يوسف فضل) من السودان أن هذه الجماعات من الفونج لا يعرف وقت نشأتها ولكن من المتواتر أنها وفدت من أعالي النيل الأزرق من ناحية أرتيريا وأقامت مملكتها في عام ٨٩١٠م / ١٥٠٤م وذلك بعد أن تعاونوا مع قبائل العبدلات العربية الذين انفردوا بالسلطة بعد أن استطاعوا اسقاط مملكة سوبا ، وبعد أن اختط الفونج سنار استطاعوا أن يتعاونوا مع العبدلات ورعاياهم من العرب والقبائل المستعربة وغيرهم من الوطنين حتى الشلال الثالث كما اتسعت رقعة مملكة الفونج حتى شملت أجزاء كبيرة من بلاد البجة وكردفان وظلت حدودهم الجنوبية حول خط عرض ٢٢ شمالا ومن ذلك الحين صار العبدلاب يحكمون من قرى الجزء الواقع شمال اربجي بمعاونة زعماء القبائل نيابة عن الفونج .

وقد حقق التحالف الذى تم بين العبدلاب والفونج عن القضاء على مملكة علوة المسيحية قضاء تاما واعلاء كلمة الاسلام فى السودان وادى النيل ، والدولة الفونجة لم تولد فجأة ولا يمكن أن تكون قد استولدها ذلك الحدث بسقوط علوة عام ١٥٠٤م . فقد كانت تلك الدولة فى ذلك الوقت قوة نامية ناضجة شاركت فى ازالة دولة علوة التى كانت ذات سلطان وشاركت العرب فى هذا الحدث البارز فى تاريخ السودان . ومن هنا فان الحقائق تؤكد أن ظهور الفونج كقوة سياسية وعسكرية قد حدث قبل ذلك التاريخ بوقت طويل .

والذى تؤكد الأحداث أن أرض سنار والنيل الأزرق لم تشهد نفوذا للفونج قبل القرن الثالث عشر الميلاد ، السابع الهجرى ، ومن ذلك أن رسول السلطان قلاوون الذى أرسل لتحري الدقة فى النزاع الذى نشب بين ملك مقرة وعلوة وزار منطقة الجزيرة فى أواخر القرن السابع الهجرى ، لم يعرض لآية قبيلة أو أية أسرة أو امارة تحمل اسم الفونج .

ومن هنا فانه يمكن القول أن ظهور الفونج قد تم بعد انتهاء القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ويرجع ظهورهم بعد الأحداث التى قضت على مملكة دنقلة وتسرب العرب الى بلاد علوة على نطاق واسع .

وعلى هذا فان مشكلة المكان الذى قدم منه هؤلاء القوم لازالت تلح علينا لمحاولة وضع حد لها وكذلك لأصولهم العرفية فالرأى بالقول أنهم من الشلوك رأى لا يجانب الصواب كما ذكر جيمس بروس ، ذلك لأن ادعاء بروس بأن الفونج من الشلوك قد أوقعه فى خطأ لغوى ذلك لأن كلمة الفنج فى لغة الشلوك معناها الوافدون الغرباء واشتقاقها من كلمة بون Bown فى لغة الشلوك أو من كلمة فون Fon فى لغة النوير أو من كلمة بونج Bony ومسألة احلال وإبدال الباء بالفاء البونج ، الفونج ، أو احلال حرف محل الآخر أمر مألوف فى كل لغات

العالم وهو أكثر شيوعاً في لغة النوبة والشلوك خصوصاً إبدالهم الباء بالفاء وعلى هذا يكون رأى جيمس بروس لم يجانبه الصواب في أرجاع أصولهم العرقية الى الشلوك لكن من حيث اشتقاقها اللغوى فهو صحيح ذلك لأن الفونج قوم غرباء وفدوا على هذه المنطقة من ناحية الشرق أو الجنوب الشرقى *

كذلك فان استخدام الفونج لعناصر من الشلك والنوير أو عناصر نيلونية أخرى في جيشهم قد يكون أمراً مألوفاً في كثير من الجيوش في الاستعانة بعناصر أخرى لا سيما بعد أن بسط الفونج نفوذهم على تلك المناطق فلماذا اذن لا يجند الفونج تلك الأقوام النيلونية لا سيما وأن تلك الأقوام قريبة من ديارهم ومواطنهم ؟

ومن هنا فان الاعتراف بأنهم بدو سود يؤكد صلة نسبهم العربى *

لكن هنا كى رأى آخر يرجح أصل الفونج الى قوم أو جنس جاءوا من الغرب من جنوب غرب بحيرة تشاد حيث سلطنة برنو الاسلامية ويقول بذلك الرأى أركل Arkel وكذلك بالمر Palmer . ومن ذلك القول أن سلطنة برنو هى الموطن الأصلى للفونج ذلك لأن سلطنة برنو كانت فى المراكز الاسلامية التى كان لها الفضل الأكبر فى سنار ودارفور ذلك لأنه لم تكن هناك عوائق تحول دون تحرك القبائل من الغرب فى الوصول الى سنار وشمال الحبشة *

وفى روايات أهالى السودان الوطنية أن سلطنة سنار التى أقامها الفونج والتى قضى عليها الأتراك عام ١٨٢١ هذه السلطنة من سلالة سلطان من سلاطين برنو هو السلطان عثمان بن قاضى الذى هرب من برنو أثناء حرب داخلية نشبت بين أمراء الأسرة الحاكمة حول ولاية العرش عام ١٤٨٦م . وعلى ذلك يمكن القول أن سلطنة الفونج تكونت على أيدي ماى عثمان بن قاضى أو أحد أفراد ذريته اذ كان أول ملوك الفونج الذى له سمعة واسعة هو عماره دونقس كما تقول الروايات السودانية

فان عماره هذا هو أحد أفراد ذرية ماي عثمان ، لا سيما واذا عرفنا أن لفظ عمارة يتردد كثيرا في أسماء ملوك برنو . وأن هناك أفواجا من البرنويين قدموا من الغرب مع الحاكم المطرود من بلاده ونزلوا أول الأمر على النيل الأبيض في مكان سكنه قوم من الشلك وأصبح لهم نفوذ بين هؤلاء القوم ومن ثم جندوهم في جيوشهم ثم حاولوا تثبيت أقدامهم بين نصارى سوبا وأسسوا مدينة سنار . ثم زحفوا بعد ذلك على مملكة علوة المسيحية بالتحالف مع العرب العبدلاب وأسروا ملكها .

كذلك فان لفظ الفونج يرتبط بلفظ فون Fune وهو أحد سلاطينهم الذين حكموا برنو ، وأن المعنى اللفظي لكلمة فون تعنى اللثام الذى يلبسه الطوارق في السودان ، وأن هذه الفئة الزاحفة من برنو على مملكة سوبا المسيحية انما جاءت من الطريق الغربى الكبير في الصحراء وأنها ربما استطاعت أن تحصل على أسلحة من تونس واستطاع ملك برنو المخلوع بهذه الأسلحة والضوضاء والدخان الذى تحدثه في أيدي القليل من جنوده أن ييسط سلطانه حيثما يريد وحيثما يبعث بهم الى المناطق التى يسيطر عليها وأن تكون لهذا السلطان الغلبة وأن يحكم هذه الديار وينشر الاسلام بين ربوعها .

وقد يكون ذلك الراى ضعيف أيضا وان كان ذلك الراى يأخذ في الروايات المحلية السودانية والتي تذكر أن السلطان البرنوى تحالف أو استعان بالشلك في صراعه مع العبدلاب ضد اربجى . كذلك تفترض تلك الآراء أن أهل برنو من أصل عربى حسبما كان يدعى ذلك أسلاف أجدادهم ممن حكموا كانم وبرنو .

ولكن رغم كل هذه الآراء أجد نفسى أميل الى الآخر بالراى القائل بأن أصولهم العرقية من أصل عربى أموى لا سيما بعد أن أثبتت الحقائق التاريخية أن أبناء مروان محمد آخر خلفاء بنى أمية والذى قتل في بوضير بصعيد مصر قد قدما الى ملك النوبة ثم تركاه بعد

فترة وأن عبد الله بن مروان قد وصل الى الحجاز ومعه أربعين أو خمسين شخصا بينما بقي أخوه عبد الله ومعه أكثر القوات *

ومن هنا ظل الفونج حكام سنار أنفسهم يطمثون الى أصلهم العربى الأموى مع الاعتراف باختلاط أسلافهم عبر القرون بالأفريقيين والذي يؤكد سواد ألوانهم وتأقلمهم بالبيئة وهذا ينطبق على غيرهم من القبائل العربية فى السودان فصلة نسبهم بالأمويين صلة صحيحة لا سيما وأن الكثير من القبائل الأفريقية التى ادعت النسب العربى كانت تحاول دائما ادعاء نسبها بآل البيت سواء العباسيين أو الهاشميين أو العلويين أو غيرهم من بنى هاشم *

دور العبدلاب فى حكم الفونج :

لقد كان لزوال مملكة علوة المسيحية أثره فى اتساع المجال أمام القبائل العربية لتنتشر جنوبا فى كثيرا من أجزاء السودان ، ذلك لأنه كما فتحت النوبة السفلى على أيدي العرب المسلمين زاد عدد المهاجرين ومنهم العرب الى بلاد النوبة العليا حتى ملؤها وكان أكثرهم من جبهة وبني العباس ومن ثم تسنى لهم انشاء حكومات عربية على النيل ومما يؤكد أن العرب واستمرارهم فى مملكة علوة كان قبل وصول الفونج بفترة طويلة ذلك لتأسيسهم مدينة تجارية هامة هى مدينة « اربجي » عام ١٤٧٤/٥٨٨٠م على الشاطئ الغربى للنيل الأزرق قرب الحدود الجنوبية لمملكة علوة وليس هناك أدنى شك فى أن العرب هم الذين أنشأوا هذه المدينة ومن ذلك فان الدلالة اللفظية التى يتكون منها اسم « اربجي » يعنى فى اللغة النوبية بلد العرب ولقد كان لتأسيس هذه المدينة أهمية خاصة وأن موقعها قرب الحدود الجنوبية لمملكة علوة يدل على أن العرب عرفوا معظم أراضي مملكة علوة وأنهم استمروا فترة فى أرض البجة وبلاد العلاقى ثم تركوها الى أرض علوة ، ولقد كانت هناك مجموعة عوامل ساعدت الى هجرة أغلبهم الى داخل السودان حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ومن هنا فان الشواهد التاريخية تدل

على استمرار العرب لفترة طويلة في أرض مملكة علوة وسواء تم سقوطها على يد عرب القواسمة الذين منهم العبدلات وحدهم أو بمعاونة الفونج فان الكيان الاسلامي قد ظهر على نطاق واسع بعد ذلك .

ذلك لأن الروايات السودانية المحلية المتداولة تذكر أنه تم تحالف ولا بد أن يكون بين طرفين من أصل واحد أو أن هناك روابط تربط بينها وهو الهدف الواحد بين عماره دونفس زعيم الفونج وعبد الله جماع زعيم العبدلاب وباتحادهما وتحالفهما القوى تم القضاء والانتصار على العنج وضربوا مدينة سوبا وقيل أن عبد الله العبدلابي أصبح وكيلا أو نائبا لعماره في الجزء الشمالي من المملكة وقيام مشيخة العبدلاب العربية ولكن يبدو أن استيلاء العرب قبل تحالفهم مع الفونج على مملكة علوة لم يتم في صورة نهائية وسريعة بل تم بشكل تدريجي ذلك لأن علوة كانت تتألف من ممالك صغيرة وتم للعرب الاستيلاء قبل اسقاط ملك سوبا على هذه الممالك الصغيرة التي انتقل سلطانها الى أبناء جهينة وغيرهم من أبناء القبائل العربية الأخرى التي استمرت في جهات متعددة من علوة .

ومن ذلك فان اتخاذ العرب لمدينة اربجي قبل سقوط سوبا وأنها كانت عاصمة العبدلاب قبل قيام مدينة « قروي » فان ذلك يعني أن يكون العرب قد نجحوا قبل القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي في تأسيس عدة ممالك ومشيخات عربية اسلامية في حوض النيل الأوسط من الشلال الثالث الى مدينة اربجي وما بعدها بقليل الى الجنوب .

ومن هنا فان الشيخ عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة قام بدور كبير في قيام مشيخة العبدلاب وسقوط علوة كما أنه ساعد على ظهور قوة الفونج كقوة أساسية في تلك المنطقة بعد تحالفه معه وكان استعانة الفونج بالشك في النزاع فيما بعد مع العبدلاب هو الذي أضعف قوة العبدلاب ورضائهم بأن يكون زعيمهم نائب عن السلطان عماره دونفس . ومن هنا كانت الروابط والصلات القوية والوشائج

المتينة التي جمعت وربطت بين عبد الله جماع والذي أخذ اسم جماع من قدرته على جمع القبائل العربية تحت زعامته وقيادته وبين عماره أو عميره دونقس ، ذلك لأن العرب من المتآلف عنهم أنهم يطمئنون الى قيام تعاون فيما بينهم ، فكيف يكون قد تم تحالف بين عماره اذ كان من الشلووى أو بين عماره اذ كان حفيد ملوك برنو البربر ؟ ، ومن هنا فلا يدع مجالا للشك فى أن الفونج قبائل عربية أموية تصاهرت مع القبائل المحلية وكان منها الجيل الذى أسقط علوة بالتعاون مع عرب القواسمة •

ومن هنا فان كل الآراء التى ذكرها أركك أو بالمر أو جيمس بروس أو غيرهم من الذين تناولوا الأصول العرقية للفونج أو من سار على نهجهم من رجال التاريخ المعاصرين لا تمت للحقيقة بصلة والموضوع لا يتسع المجال هنا لشرحه شرحا طويلا ، ذلك لأن هذا المجال قد يدخلنا فى دراسات أركولوجية وأثنريولوجية نحن بعيدين عنها فى هذا البحث ذلك لأن انحدارهم من الشرق فى المنطقة الممتدة من النيل شرقا الى البحر الأحمر غربا أمر طبيعى بحكم الصلات العميقة الجذور بين هذه المناطق النيلية وبين المناطق الشرقية القريبة من الجزيرة العربية ، ومن هنا فان الفونج انحدروا من الشرق من المنطقة التى تقوم على المداخل بين حوض النيل وأثيوبيا أو جاءوا من مصر من الشمال عقب مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هو الرأى المقبول والسليم والذي يمكن الأخذ به •

وأن هناك امارة عربية اسلامية قد قامت فى هذه المنطقة الشرقية والتى كانت عاصمتها كما ذكرت سابقا فى اقليم للم ، وأن منطقة نفوذها كانت تتسع غربا حتى تصل الى أطراف الجزيرة ومن ثم تم التحالف بين هذه الامارة العربية الاسلامية النامية وبين العرب الذين نزحوا وتكاثروا فى مملكة علوة ووصل نفوذهم فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى الى درجة بالغة من القوة • ولقد كان هذا التحالف الذى تم قبل تحالف عبد الله جماع وعماره دونقس من أجل ضرورات اسلامية فهو تحالف للجهاد فى سبيل الاسلام وفى سبيل نشر الثقافة العربية حيث

اضطرت هذه الامارات والمشيخات الى الاتجاه صوب الجنوب والاتصال بالسلطان عماره دونقس والذي كان مسيطرا على تجارة ذلك القطاع الذى كان مركز تجمع التجارة وانطلاقها صوب الشرق .

وقد تم القضاء على مملكة علوة فى عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ / ١٥٠٥ م .
ولكن ظل الأمراء فى عاصمتهم القديمة حتى ديسمبر ١٥٢١م / ٩٢٧ هـ .

ولكن عماره دونقس قد اضطر الى أن ينقل مقر حكمه الى مدينة سنار عام ١٥٣٤ م / ٣٩٤٠ هـ وهى السنة التى قتل فيها المجاهد الاسلامى أحمد القرين الذى كان يقاتل ملوك الحبشة المسيحيين بعد أن بدأ نشاط الحركة الاسلامية فى ذلك الجزء الشرقى يقل تدريجيا بتدخل البرتغاليين بجانب الأحباش المسيحيين - ولكن ليس معنى هذا أن مدينة سنار قد نشأت فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ذلك لأن نشأتها وتطورها كان قد تم قبل ذلك بوقت طويل لكن اتخاذها عاصمة قد تم فى ذلك الوقت .

ومن الثابت أن عمارة دونقس وحلفاءوه من العرب قد شاركوا مشاركة فعالة فى حركة الجهاد الاسلامى التى كانت تدور فى تلك المنطقة من القارة الأفريقية وبالذات فى المنطقة الواقعة شرق النيل الأزرق ، حين حارب قبائل البلو فى المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، ذلك لأن روايات السودانين المتواترة المحلية تذكر أنه قد حدث قتال وصراع بين الفونج بزعامة عماره دونقس وبين قبائل البلو الافريقية وذلك فى السنوات العشر الأولى من انقرن السادس عشر الميلادى . وقد خرج منها أمراء الفونج وحلفائهم من العرب منتصرين كما انتصروا من قبل على مملكة سوبا كما أن بعض الروايات تذكر أن عماره دونقس قد اتصل بالعثمانيين الذين بسطوا نفوذهم على سواكن عام ١٥١٧م وذلك قبل رحيله الى سنار عام ١٥٣٤ - ١٥٤٣م والتى كانت هناك ظروف سياسة أملت على الفونج هذا الانتقال التى منها قرب هؤلاء السلاطين من مناطق النفوذ الجديدة حيث كان سلطانهم قد امتد على وادى النيل

من الشلال الثالث وكان الوضع السائد يقتضى منهم الانتقال الى
عاصمتهم الجديدة سنار •

فى حين أن حلفاؤهم العبدلاب قد ظلوا فى مدينتهم قرى والتي
كانت تقع على بعد أربعين ميلا شمال مدينة الخرطوم الحالية حيث بلغت
قرى أوج مجدها وقوتها فى عهد الشيخ عجيب المنجلك الذى تميز عصره
بافتوحات وقد قتل الشيخ عجيب فى موقعة كركوج عام ١٦٠٤م وحملت
جثته الى مدينة قرى ودفن فيها •

وفى عام ١٧٩٠ ترك الشيخ عجيب الثالث شيخ قرى عاصمة
أجداده وانتقل جنوبا ليتخذ من مدينة حلفاية الملوك عاصمة له • وقد
ظلت حلفاية عاصمة العبدلاب حتى مجيء الترك عام ١٨٢١م • ومنذ
عهد هذا الشيخ عجيب الثانى ازداد التباعد بين العبدلاب والفونج ولم
تكن بينهم الا علاقات اسمية • وان كان الشيخ ناصر الأمين شيخ
العبدلاب قد سلم للقوات المصرية التركية عام ١٨٢١م دون مقاومة
ثم ما لبث أن مات بعد قليل وقد كانت عاصمة الفونج فى سنار ، حيث
كانت سلطنة الفونج خالصة للفونج والعرب ولا يعرف فى تاريخهم أن
الزنوج كانوا يستوطنون أى بقعة شمال النيل ، مما ينفى صلة الشلك
الفونج • واذا صح أن الشلك كانوا فى تاريخهم القديم يمتدون الى
الشمال فلا بد أن يكون ذلك قبل قيام هذه الدولة العربية الاسلامية
وأن من المشكوك فيه أنهم كانوا يمتدون شمالا حتى مكان مدينة
الخرطوم •

كذلك فانه يمكن القول أن اتخاذ الفونج لهذا الاسم قد أطلق عليهم
بعد انتصارهم عام ١٥٠٥/٩١٠م وامتداد نفوذهم على سنار
وما جاورها جنوبا وأن الشلك أطلقوا عليهم هذا الاسم باعتبارهم
وافدين فأصبح علما عليهم وذلك بعد أن حالف عرب القواسمة عرب
الفونج وأن ثمة مصاهرة تمت بين البيتين العربيين وأن تلك الصلة قد
استمرت حتى عجيب الثالث من سلالة القواسمة وبين ذرية عماره
دونقس •

وأن الفونج كانوا أرسقراطية عربية ذات نسب أموى نزلت المنطقة الشرقية ونشرت الاسلام وتآلفت حولها القلوب بحكم هذا النسب الأموى العربى ثم اختلطت هذه الأرسقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة وقد بدا دور الازدهار فى هذه السلطنة الاسلامية بعد الانتصارات المتلاحقة فى معركة الجهاد الاسلامى والانتصارات على البدو فى الشرق والانتصارات على المسيحية فى حوض النيل وانتقال العاصمة الى سنار • وقد نتج عن تحالفهم مع عبد الله جماع وعرب القواسمة أن امتد نفوذهم الاسمى حتى دنقلة فى الشمال وذلك بعد أن امتد نفوذ العبدلاب فى مشيخة القرى التى امتد سلطانها الحقيقى من اربجى فى الجنوب حتى دنقلة فى الشمال وأصبحت كل تلك القبائل العربية وغيرها من السكان المحليين يدينون بالولاء لمشايخ قرى • ويعترف هؤلاء بالسلطان الاسمى لسلطين الفونج فى سنار •

هذه التبعية الاسمية مظهرها تعاون سلاطين سنار مع شيوخ قرى من العبدلاب فى بادية الأمر واحتفاظ هؤلاء المشايخ العرب باستقلالهم وحق التصرف فى أملاكهم بما يكفل التعاون مع السلطنة السنارية •

ولقد قامت السلطنة السنارية الفونجية فى حوض النيل الأزرق فى فترة زمنية عصبية وذلك بسبب عوامل خارجية أكثر منها من عوامل داخلية ففي السنوات التى كانت فيها السلطنة تمارس سلطاتها فى جنوب غرب أرتيريا وذلك فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى وكان هناك صراع وتنافس بين المجموعات القبلية ولذلك تأثرت تلك المنطقة الشمالية الغربية بالصراع الدائر بين الامام أحمد القرين والنجاشى ومن هنا كان الرحيل الى سنار ومن ثم فقد امتد نفوذ هذه السلطنة على الزعامات التى كانت قائمة فى الشمال فى الشمال الثالث • وقد كان سلطان الفونج لا يتدخل فى شئون المشيخات الداخلية كما لا يتدخل فى علاقات الزعامات المتحالفة الا بارسال جنودها ووضع مواردها تحت امرة السلطان فى حالة الحرب •

ولقد كان اسلطان سنار وكلاء في القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل اسنا ودروا وأسوان للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل والتي كان للسلطان نصيب وافر من مالها كما كان للسلطان علاقات وصلات وثيقة بالبasha التركي في موانئ البحر الأحمر وسواكن ومصوع كما كانت له علاقات خارجية مع اليمن التي كانت يستورد منها السيوف والدروع ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور وعن الطريق المباشر بعيدا عن دارفور فيما بعد ذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار •

وقد مضى نفوذ سلطان الفونج في طريقه نحو الامتداد ، فقد مد الفونج نفوذهم الى فازوغاي على النيل الأزرق بل أخضعوا الشلك وحاربوهم ومثلوا بهم • وانفسح نفوذهم ممتدا الى جبال تقلى وجنوب كردفان واستمر توسع الدولة طيلة القرن الثامن عشر وذلك بعد أن استعانت الدولة في جيشها بالشلك والهمج وحلفائها من العرب في القضاء على أمراء المسبعات أقرباء سلاطين الفور في دارفور •

ومن ثم بدأت امبراطورية الفونج في آخر هذا القرن ممتدة على هذه الرقعة الواسعة الممتدة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غرب ومن الشلال الثالث حتى فازدغلي جنوبا وخضع لها كل سكان تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذهم •

ولكنه مما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية (الفونج) الذي وصل الينا لم يذون الا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أو قبل ذلك بقليل وكان الاعتماد على الروايات المتداولة التي كانت تنقصها الأصول التاريخية ، ومن هنا فان ما كتب عن تاريخ تلك السلطنة اقتصر فقط على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ولكن لم توضح لنا الأسس التي قامت عليها السلطنة وقلاقاتها الداخلية والخارجية ، فالسلطنة في سنواتها الأولى حكمها أبناء السلطان عماره

دونقس مؤسس البيت الفونجى فى عاصمته سنار فى حوض النيل الأزرق •
والذى ورد ذكره فى الوثيقة التى حصل عليها الرحالة الاسكتلندى جيمس
بروس من سنار عاصمة مملكة الفونج عند زيارته لها فى عام ١٧٧٢ م
وتتكون هذه الوثيقة المحفوظة حاليا بمكتبة بودليان باكسفورد من ست
صفحات وتبدأ الصفحة الأولى بالبسملة ثم تاريخ ملوك الدولة الفونجية
بمدينة سنار المحروسة المحمية بعد المملكة النوبية أو من نزل بسنار
السلطان عماره بن عدلان عام تسعة مائة وعشر سنين من هجرة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتوفى عام تسع مائة وأربعين سنة وملكه ثلاثون
عاما ثم ملك بعده ... وهو عبارة عن نبذة مختصرة عن تسلسل ملوك
الفونج ولا يعرف مؤلف هذه النبذة الموجزة عن تاريخ مملكة الفونج •

وقد عثر على نقوش من مملكة الفونج تشير هذه النقوش فى
سطريها الأول والثانى أن هذه النقارة التى وجدت فى حوزة الملك نصر
حفيد السلطان بادی الثانى حفيد عماره دونقس ، أن هذه النقارة هى
نقارة السلطان عماره ابن السلطان عدلان وهو السلطان الذى أسس
بيت الفونج فى سنار ، وذكر أن والده اسمه السلطان عدلان وهذا
يشير الى أن هذا البيت كانت له سلطنة وكان سلطانه السلطان عدلان •
وأن هذا التأسيس قد حدث فى زمن سابق لولاية السلطان عماره
المعروف بدونقس فى أرتيريا ويحتمل أن تكون ولاية عدلان هذا والد
عماره قد كانت فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى وقد يعنى أن
جدهم الكبير لم يكن سلطانا وأنه جاء من لول التى كانت عاصمتهم فى
أرتيريا بعد أن استقر بها وذلك فى زمن لا يعدو القرن الثالث عشر
الميلادى أو القرن الرابع عشر كذلك فانه بالنظر الى نقارة السلطان
عماره ابن السلطان عدلان نجد الارتباط يكاد يكون وثيقا بين هذه
الحقائق التاريخية التى تؤكد أن السلطنة انتقلت فعلا الى حوض النيل
الأزرق فى القرن السادس عشر الميلادى ، العاشر الهجرى وأنها كانت
تسيطر على منطقة النيل الأزرق منذ القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر
الميلادى •

وقد اتخذ السلطان عماره عميد البيت السنارى لنفسه لقب دونقس وان كان لا يوجد لدينا علم بأن والده عدلان قد اتخذ هذا اللقب أم لا أو اتخذه غيره من السلاطين وأن هذا اللقب اللفظى يرجع الى اللغة الأمهرية الحبشية فنجد أن دو هي تحريف لجان Dian ونقس عندهم تعنى عظيم أو كبير ولفظ نقس بكسر النون وضم القاف أصلها نجاشى Negus ومعنى هذا النجاشى العظيم • وأن اتخاذه هذا اللقب انما يعنى أنه جعل سلطاته فى مستوى أعلى من مستوى النجاشى ملك الحبشة وأن فى لقبه هذا تحديا للنجاشى •

والسلطنة فى سنواتها الأولى التى جاوزت القرنين من الزمان قد حكمها سلاطين من أبناء السلطان عماره مؤسس البيت السنارى فى عاصمته فى حوض النيل الأزرق •

وقد تولى حكم مملكة الفونج بعد وفاة عماره ثلاثة سلاطين لم تهتم المصادر بذكرهم لأنهم لم يقوموا بأية أعمال تستحق الذكر أو التتويه ، لكن عندما تربع على الملك السلطان « دكين ود نايل » عام ١٥٦٩م ذلك لأنه من المعروف أن السلطان عماره دونقس توفى عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٥ م فان المصادر ذكرته - ولذا فان الثلاثة سلاطين شغلوا الفترة من ١٥٣٥ - ١٥٦٩ م أى ٣٤ أربعة وثلاثين عاما •

ولقد كانت الأعمال التى قام بها السلطان دكين ود نايل ، يوجد منها ما يستحق الذكر فيقال عنه هو من أفخر ملوك الفونج فقد رتب الدواوين وجعل لها قوانين لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته وجعل لكل جهد من جهات مملكته رئيسا معلوما الى أن توفاه الله عام ١٩٨٥ هـ •

ثم تتابع بعده عدة سلاطين لم يسترعوا انتباه الذين أرخوا لهذه السلطنة الفونجية حتى جاء ذكر السلطان عدلان وادبى عام ١٦١١ م والذى أحدث نهضة دينية اسلامية • ولقد كانت أهم الأحداث فى عصره أن سلطنة العبدلاب فى فرى قد بلغت أوج مجدها وقوتها ذلك حيث خرج الشيخ عجيب المنجلك زعيم القواسمة على الفونج وتقاتل معهم

في طريق كركوج عام ١٦٠٤ حيث قتل الشيخ عجيب في تلك المعركة وحملت جثته الى قرى ودفن بها وتولى المشيخة بعده عدلان العجيل أكبر أبناء عجيب المنجك شيخا على قرى ولقد كان خروج عجيب من تحالفه مع الفونج دليل على المكانة العظيمة التي وصل اليها والنفوذ الذي بسطه على كل الأراضى التي تقع تحت أمرته مباشرة وهي تضم قبائل عربية تعتر بأصولها وتمتاز بوعيتها السياسى اذ قورنت ببقية أنحاء السودان .

ولكن رغم انتصار الفونج على الشيخ عجيب الا أنهم خلعوا ابنه عدلان وتولى بعده بادي سيد القوم عام ١٦١١م . واستعادوا نفوذهم وسيطرتهم على الأقاليم الشمالية التي حاول الشيخ عجيب أن يحرمهم منها حتى دنقلة لكنهم أكدوا سيادتهم على نقطة الجمارك في دنقلة وحصلوا نصيب الدولة من جمارك سواكن .

ثم تولى بعد بادي سيد القوم رباط الذى شهد عهده الحروب مع الحبشة وذلك لأن ملك الحبشة أراد أن يعامل بادي كتابع له .

ولكن جاء بادي أبو دقن عام ١٦٤٥م والذي غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالسلك وغزا هناك تقلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين ثم غزا مشارف جبال النوبة حتى بلغ قصر ملك تقلى الحصين وجعله تابعاً لمملكة سنار ورجع بسبايا جبال النوبة حيث أسكنها في قرى حول سنار شرق وغرب النيل الأزرق .

وقد احتفظ بادي جامعا بسنار وقصرا للحكومة به أبواب عديدة كل منها مخصص لدخول أحد كبار الدولة وقد عرف بادي أبو دقن بتدينه واکرامه لأهل العلم والدين ومن عادته أن بعث بهدايا الى علماء الأزهر وبعد نهاية حكم الملك أونسه عام ١٧١٩ م بقى العرش شاغرا لأكثر من عام من أبريل ١٧١٩ - يونيو ١٧٢٠م وانتقل الحكم بعد ذلك الى بيت عين شمس الذى يمت للبيت السنارى بضلة الرحم وانتزع الهمج الذين تولوا الوزارة الحكم من أولئك السلاطين .

وقد استطاع السلطان محمد أبو اللكيلك الانتصار على مناطق قريبة من سلاطين الفور في دارفور ، لكن الامبراطورية الفونجية قد شهدت في أواخر القرن الثامن عوامل الفرقة والانحلال فقد بدأت عرى التحالف الوثيق بين الفونج والقواسمة تتصدع حينما رغب شيوخ قرى في الاستقلال حيث استطاعوا الاستقلال عام ١٧٧٠م وفي عام ١٧٩٠م انتقل القواسمة الى عاصمتهم الجديدة « حلفاية الملوك » بعد تركهم لمدينة قرى . حيث ازداد استقلالهم منذ ذلك الانتقال .

بل أكثر من ذلك فقد استطاعت قبائل الشايقية أن تخرج على نفوذ العبدلاب . وذلك بأن دارت حربا طويلة بين الشايقية والشيخ الأمين ود عجيب شيخ العبدلاب وزعيم المشيخات العربية . وكان نفوذ الفور حكام دارفور قد امتد الى قبائل الشايقية والذي قويت به شوكة الشايقية ومن ثم حاولوا الانفصال عن الحلف السنارى . الأمر الذى دفع الشيخ الأمين الى انتهاز الفرصة المناسبة للاستيلاء على الشايقية للحد من نفوذ الفور واضعاف الشايقية ومن ثم زحف الشيخ الأمين ود عجيب برجاله الى دار الشايقية وعسكر على شاطئ النيل أمام جزيرة « دلقة » ولكن الشيخ عثمان سيد دار الشايقية استطاع الانتصار على العبدلاب .

وقد حدث بعد وفاة السلطان بادي أبودقن أن تولى السلطنة أونسه ابن ناصر بن رباط ، ولكن هناك روايات تؤكد أن هناك سلطانا قد حكم بعد بادي هو « عدلان بن محمد » ثم تولى بعده أونسه ابن بادي الأحمر الذى خرج الفونج عن طاعته وطالبوا بعزله وأقاموا ملكا آخر اسمه « أوكل » ونادوا بعزله ولكن بادي الأحمر تمكن من اخماد حركتهم وهناك أقوال تقول بأنه عزل عام ١٧١٩م . وفي عهده اشتد التنافس التجارى بين سنار والفور في كردفان مما جعل الفور يستطيعون أن يتحكموا في الطرق التجارية أكثر من حكام سنار .

ولم تكن للمصاهرة التى تمت في عهد السلطان رباط بن بادي سيد القوم . آثار من تحقيق حدة التوتر بين سلاطين سنار وسلاطين الفور

وان كان نظام الحكم في البلدين يهدف الى نشر الرسالة الاسلامية بين الشعوب وحكام الأقاليم فيها يدينون بالولاء الكامل للزعيم ، ومن هنا فقد تأثرت اماره تقلى التى خضعت لنفوذ سنار بحكم موقعها التجارى بالمنافسة الشديدة بين سنار والفور أو لما كان الفور حكام دارفور أشد بأسا وأقوى نفوذا من حكام سنار فان تقلى اتجهت نحو تحسين علاقاتها مع الفور الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى .

ولقد كان للعلاقات الخاصة بين الشايقية والفور أثرها في تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث استطاعوا شق عصا الطاعة على العبدلاب وكذلك الفونج حكام سنار ومن ثم دخلوا في حرب مع العبدلاب .

ولقد كان انتقال الحكم من الفونج أحفاد غماره دونقس الذى تولى عام ١٥٠٥م حتى عهد السلطان أونسه بن السلطان بادي الأحمر عام ١٧١٩م أن تولى العرش بيت عين شمس الذين كانوا وزراء للفونج وبذلك فان حكم أسرة الفونج قد استمر من ١٥٠٥م — ١٧١٩م أى أكثر من قرنين من الزمان . ثم استمر حكم بيت عين الشمس من ١٧٢٠م حتى منتصف ١٨٢١م عند قدوم القوات المصرية في عهد محمد على حاكم مصر من قبل الوالى التركى ومن هنا يطلق السودانيون على تلك الغزوة الغزوة التركية .

وقد سادت الفوضى في سنار بعد أن بدأ نفوذ دارفور في الصعود ويؤثر على مجريات الأحداث في السودان . حتى أنه ليمنح القول أن الفترة من ١٧٨٧م الى منتصف ١٨٢١م أى خلال أربعة وثلاثين عاما تولى حكم سلطنة سنار تسعة ملوك بدءا من السلطان أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر . ثم بعد أوكل تولى نوار ثم بارى ، ثم رانفى ، ثم بادي وقد حكم ثمانية وعشرين عاما من الأربعة وثلاثين عاما . ومن هذا يتبين لنا مدى ما أصاب البلاد من الانحلال والفوضى وما سادها من انحلال وتعطل لمرافق المياه وما ساد من قلق وفزع كثرت معه هجرة القبائل وبخاصة المنطقة الوسطى من السودان وهى التى تشمل أرض

الجزيرة والبطانة وقد كانت هذه الحالة فرصة سانحة لازدياد نفوذ رجال الدين والفقهاء وسيطرتهم على عامة الشعب .

وقد ظل هؤلاء الملوك ضعاف يستبد بهم وزراءهم وقوادهم من الهمج (بيت عين شمس) حتى ابتلعهم الفتح المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ذلك لأنه بينما كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ تغيرت الأحوال في مصر باختفاء الحكم المملوكي وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور مما دفع الزعماء في مختلف نواحي الحياة إلى الهجرة إلى مصر مرة ثانية ومنهم من سافر إلى الحجاز حيث التقوا بمحمد علي (خلال حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلق والحروب المحلية بعد أن توقفت الحياة الاقتصادية وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار الذي تركت بصماتها على الحياة في بلاد السودان .

ولقد كان لقيام السلطنة الفونجية في سنار وتحالفهم مع عرب القواسمة أثر بعيد المدى في النشاط الإسلامي في السودان وادي النيل ومدى تعميق نفوذهم الإسلامي ومدى دفعهم للحركة الإسلامية ومساهمتهم في تشجيع الثقافة العربية الإسلامية .

ذلك لأن قيام الأسرة الفونجية قد أدى إلى نشر الثقافة العربية في أرجاء السودان فيما بين ساحل البحر الأحمر شرقا حتى منطقة تشاد غربا ومن هنا ارتبط السودان وادي النيل كدولة كبرى إسلامية في القارة الأفريقية بالكتل العربية الأفريقية في الساحل الشرقي لأفريقيا ومصر والمغرب العربي كما ارتبط بعلاقات متنوعة مع أنحاء العالم العربي ومثل السودان حلقة الوصل بين العروبة بمعناها العام الأصل وبين باقي الدول الأفريقية سواء من النواحي الاقتصادية أم النواحي الثقافية .

واتصل السودان ببلاد الحجاز اتصالاً أملتته العلاقات الدينية والثقافية والاقتصادية والعلمية ، ثم رحل السودانيون إلى الأراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج ، كذلك وفد على السودان بعض علماء الحجاز وأقاموا بالسودان • وهكذا امتدت الكتلة العربية الثانية على الأرض الأفريقية في وادي النيل وفي قلب القارة الأفريقية لتكون معبراً روحياً وحضارياً إسلامياً للصلات والعلاقات الودية بين العرب وبين الأفارقة المجاورين سواء في النواحي الثقافية والروحية والاجتماعية ولتضع الأساس القوى الذي تحركت عليه العروبة والإسلام في السودان وادي النيل •

ولقد كان لظهور سلطنة الفونج الإسلامية وغيرها من السلطنات الإسلامية الكبرى أثره الكبير في إتاحة الفرصة للعلماء وأصحاب الدعوة الإسلامية للتوافد عليها ، إذ كانت هناك زيارات متكررة كان يقوم بها علماء مصر وبغداد والمغرب ، كما توافد كثير من السودانيون إلى الأزهر لاستكمال تعليمهم •

ومن هنا ظهرت دولة الفونج منذ فجرها الأول قبل انتقالها إلى سنار عام ١٥٣٤م في مظهر إسلامي عميق واضح فقد شهدت حياتها الأولى مساهمة في حركة الجهاد الإسلامي فكانت مشاركتهم لعرب القواسمة العبدلاب وغيرهم من القبائل العربية في القضاء على مملكة علوة المسيحية مساهمة في الجهاد وفي سبيل الإسلام ذلك لأن القضاء على مملكة علوة في سوبا كان أكبر مساهمة في سبيل الجهاد من أجل نشر الإسلام بعد أن تبعها القضاء على مملكة مقرة في دنقلة ، ذلك لأن سقوط هاتين المملكتين المسيحيتين كان بمثابة فتح الباب على مصراعيه أمام انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في قلب القارة الأفريقية •

ومن هنا فإنه يمكن القول أنه لولا وقوف القبائل العربية في صف واحد واجتماعهم على كلمة عبد الله جماع شيخ القواسمة لمساعدة

عمارة دونقس لما تحقق النصر الاسلامى الواسع ولما تمكن المسلمون من احراز هذه الانتصارات الاسلامية .

دور الفونج فى حركة الجهاد الاسلامى :

لقد سبق أن عرفنا أنه كيف ساهم أسلاف عماره بن عدلان دونقس فى حركة الجهاد الاسلامى فى شرق القارة الأفريقية وكيف جاهدوا فى عاصمتهم للمم . فى سبيل توطيد دعائم الاسلام وساهموا فى حركة الجهاد الاسلامى التى قادها المجاهد الاسلامى أحمد القرين فى جهاده ضد ملوك الحبشة المسيحيين الذين كانت المساعدات البرتغالية من الأسباب الجوهرية والأساسية فى ترجيح كفتهم على الجانب الاسلامى ذلك لأن أسرة الفونج لم تكن تقبل أن تقف بمعزل عن الأحداث الجارية على الأرض الحبشية والتى كانت تدور رحاها فى ذلك المكان من شرق القارة الأفريقية ، كما أن انتقالهم الى سنار العاصمة بعد تحالفهم مع العرب كان دفعا قويا لى يساهموا فى نشر الاسلام بين الوثنيين داخل السودان نفسه ولا سيما فى نشر الاسلام فى كثير من مناطق جبال النوبة ، كما حاربوا الشلك أنفسهم لأجل نشر الاسلام بينهم ، بل أنهم شاركوا مرة أخرى فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الأحباش فى القرن الثامن عشر كما شاركوا فيه من قبل فى القرن السادس عشر ، كما أنهم اتصلوا بالمسلمين سلاطين مصر لأجل تحقيق تلك الأهداف الاسلامية . وكان قتالهم للأحباش عام ١٧٤٤م فى عهد سلطان الفونج بادی الرابع أبو شلوخ .

وقد حقق المسلمون فى السودان بقيادة الفونج انتصارا حاسما على الأحباش حيث كانت جيوش الفونج بقيادة الأمير ودسمار ود عجيب شيخ قرى . وكان شيخ أمير الفرسان محمد أبو الملكيك كبير الهمج ، وكان لهذا النصر دوى هائل فى العالم الاسلامى المعاصر حيث بلغت أخبار هذه الانتصارات مصر والشام والحجاز وتونس والهند والقسطنطينية عاصمة الخلافة الاسلامية .

وقد دارت هذه المعركة الجديدة التي تعرف بالحرب الحبشية الثانية في أبريل ١٧٧٤م . حيث بدأ الأحباش في عهد الامبراطور آياسوس يغيرون على حدود سلطنة سنار ، ولكن اغارة الأحباش شجعت الامبراطور نفسه بالاغارة على سنار حيث سار على رأس جيش كبير وكانت أوامره صارمة وواضحة وهى حرق القرى وقتل الناس وأخذ الغنائم من الكماشية والابل والغنم . وقد استمر الجيش يسير في أرض سنار ثمانية أيام محققا أوامر النجاشي .

وقد ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار ولكن الأحباش تغلبوا عليهم في النهاية وسار جزء كبير من جيش الحبشة في طريقه حتى وصل النيل الأزرق في اتجاه سنار من الناحية الشرقية وسارت بقية الجيش الى شرق الدنور وعندما رأت سنار هذه القوات عملت على تنفيذ خطة محاصرة الجيش الحبشي حيث تمكن الجيش الاسلامي السناري من محاصرة جيش الأحباش في مثلث بين النيل الأزرق والدنور واستطاع دحره ، وعندما وصل الخبر الى بقية الجيش الحبشي الذي كان يقوده الامبراطور آياسوس نفسه رأى أنه لا سبيل الى انقاذ الجيش المحصور ومن ثم قرر التراجع الى بلادهم .

وتعدو بعض المصادر أن خطة محاصرة جيش الأحباش كانت من تفكير أحد أمراء أسرة الفور حكام دارفور والذي كان لاجئا سياسيا عند سلطان سنار .

ومن هنا نرى أن الفونج ومن حالفهم من العرب قد أسهموا بنشاط كبير وواسع في نشر الاسلام متوسلين بالجهاد المسلح في ضد الأحباش ونشر الاسلام بين الوثنيين ، وانما استعانوا كذلك بالوسائل السلمية ، فعملوا على تنشيط الدعوة الاسلامية حيث رغبوا في الدين الاسلامي ونشر تعليمه ومساعدة الكتاتيب وارسال البعثات الى الأزهر وتشجيعهم لعلماء ورجال الدين ورجال الطرق الصوفية وكل من له شأن برفع اسم الاسلام عاليا في وسط القارة الأفريقية .

وقد شجعوا قدوم العلماء من البلاد الاسلامية المجاورة والقريبة ومن هنا ساهموا في اثراء تلك الحركة الاسلامية الكبرى دعاة وافدون من خارج السودان وكذلك دعاة وطنيون من أبناء السودان حيث يتميز عصر السلطان بادى أبو دقن بالنشاط الاسلامى الواسع .

ولقد كان كذلك النشاط الاسلامى الواسع والانتصارات العسكرية التى حققوها على الأحباش أن اتصلوا بالقوى الاسلامية المعاصرة اتصالا دينيا وثقافيا .

ولقد كانت الوحدة السياسية بين الفونج والعبدلاب عرب القواسمة وغيرهم من القبائل العربية من الأسباب الجوهرية التى مهدت الطريق لنشر الدين الاسلامى والثقافة العربية الاسلامية بطريقة أعمق وأشمل عما كان عليه الحال من قبل ذلك لأنه عند قيام سلطنة الفونج كان انتشار الدعوة الاسلامية ونشاط الدعاة لا يعدو الا أن يكون نشاطا محدودا وفي مرحلته الأولى ، فقد اهتم رجال الدعوة الاسلامية وجلهم من البدو والتجار وممن تنقصهم الثقافة العربية العميقة بالاسلام لكسب المسيحيين والوثنيين الى جانب الاسلام ولكنهم لم يعملوا على تعميق المفاهيم الاسلامية .

ولكن كان تدفق العرب في أعداد هائلة حيث استطاعوا أن يصبغوا البلاد بلغتهم وثقافتهم واعتنق الوطنيون الدين الاسلامى وتمثلوا الأنساب العربية وتقمصوا كثيرا من التقاليد العربية ولقد كان قيام مملكة الفونج (١٥٠٤ - ١٨٢١م) والفور (١٦٥٠ - ١٨٧٤م) الاسلاميتين ميلادا حقيقيا لغلبة العقيدة الاسلامية وانتشارها للثقافة العربية الاسلامية .

ومن هنا فان قيام سلطنة الفونج في وسط السودان الشمالى وامتدادها جنوبا حتى خط ٢٢ جنوبا بداية حقيقية وظفرة قوية في حركة المد الاسلامى على نطاق واسع ، ذلك لأن بذور الدعوة الاسلامية قد وصلت الى السودان في عهد مبكر قد يكون هو عهد الفتح الاسلامى

لمصر ٢١ م / ٦٤١م وقد يكون سابقا على ذلك بفترة قصيرة حيث لم يمنع ذلك من قدوم بعض المسلمين عبر البحر الأحمر في عصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أو في عصر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ، ذلك لأن اتفاقية البقظ قد نصت على أن يقوم رجال مملكة مقرة في دنقلة بالمحافظة على المسجد الذى تم بناءه في عاصمة بلادهم وليس في مدينة بعيدة أو قريبة من العاصمة اذ كيف يتصور أن يكون هذا المسجد قد أقيم قبل عام ٣١ هـ / ٦٥١ م الا اذا كانت هناك رعية اسلامية كبيرة وليست أعداد قليلة .

المهم أن قيام سلطنة الفونج قد كان من الأسباب القوية التي دفعت حركة الاسلام وانتشاره على نطاق واسع وتسربه جنوبا في السودان حتى دخوله الى أراضى مديرية خط الاستواء حيث الحدود الجنوبية للسودان . حيث كان قيام تلك السلطنة ايذانا لعصر جديد في سبيل الدعوة الاسلامية الى تلك المناطق حيث وفد رجال الدعوة الاسلامية من مصر والحجاز والعراق والشام والمغرب والأندلس ومن شتى أنحاء العالم الاسلامى لكى يدعو لدين الواحد القهار في ظل الأمن والطمأنينة التي نشرتهما دولة الفونج في السودان .

كما شاركت في ذلك البناء الاسلامى القوى والراسخ دولة الفور التي اتخذت من الفاشر عاصمة لها لكى تمارس نشاطها الدينى الواسع في أطراف السودان الغربى للمشاركة في اثراء الحركة الاسلامية التي بداية تتخذ من السودان معقلا اسلاميا تتطلق منه للدعوة للاسلام بين القبائل العربية المنتشرة جنوب وشرق وغرب السودان حيث الأقاليم الاستوائية الواسعة وحيث يعمل رجال الدعوة الاسلامية من السودانيين أنفسهم واخوانهم أبناء الاسلام في الأقطار الأخرى لبناء ذلك الوطن الاسلامى القوى في قلب القارة الأفريقية .

٤ - سلطنة الفور الاسلامية (دارفور)

٨٤٨ هـ / ١٤٤٥ م

يكتسب اقليم دارفور أهميته في سيطرته على مناطق واسعة تتخللها بعض المرتفعات حيث تنتشر فيها المراعى ، ومن هنا كانت خطورته لموقعه على طريق القوافل التى ربطت بين الشمال والجنوب والشرق والغرب .

ولما كان حديثنا فى ذلك البحث ينصب على الفترة الاسلامية منذ ظهور أنوار الدعوة الاسلامية فلا بد أن يكون ذلك الحديث منصب على فترة انتشار الاسلام على نطاق واسع فى ذلك الاقليم وكيف ظهرت تلك السلطنة الاسلامية فى ذلك الجزء من السودان وادى النيل ؟ وكيف ساهمت فى نشر الاسلام والعروبة فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية ؟ .

فقد كانت تلك السلطنة التى قامت كما تتصور بعض الروايات فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى لتكون حلقة فى سلسلة حلقات الزعامات والمشيوخ والامارات التى بدأت تظهر وتمارس نفوذها فى حوض وادى النيل الأوسط .

وتذكر المصادر فى تاريخ سابق للقرن الثانى عشر الميلادى ، السادس الهجرى ، كيف بدأت تظهر على مسرح الأحداث السياسية فى ذلك الجزء من السودان ولاية اسلامية أسسها شعب أسود دخل بلاد دارفور هو شعب الداجو أو الدجون وذلك فى صدر الاسلام .

وربما كانت تلك الولاية تخضع لحكم ملك علوة المسيحي الذى كان يعين حكام ذلك الاقليم من العرب المسلمين الذين سكنوا اقليم القاش منذ القرن الأول الهجرى ، السابع الميلاد . ومن ثم عمل هؤلاء العرب فى أرض المعدن بعد أن دخل العرب من المسلمين فى هدوء وسلام الى تلك الأقاليم .

ومن ثم أخذت تلك الهجرات العربية تتطور من قيام مشيخات قبلية وانتهت بسلطنة ترعمت المجموعات القبلية ومن هنا كانت سلطنة الفور تمارس سلطانها على اقليم معين وتمتد سلطاتها على الزعامات التي يتكون منها الاقليم . ومن ذلك فان سلطنة الفور كانت تختلف عن مملكة الفونج من حيث النظم السياسية والادارية .

وقد دخل ذلك الاقليم في القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى عنصر مغربى من تونس يتمثل في شعب التنجور وقد يكون هؤلاء المغاربة قد تركوا بلادهم هربا من الغزوة الهلالية الكثيفة في شمال أفريقيا .

وعلى ذلك فان الفترة التي تلت نهاية القرن الثامن الهجرى الى منتصف القرن التاسع الهجرى . قد كانت فترة تكون الزعامات العربية في مجتمع دارفور التي استطاعت أن تمسك زمام الحكم على الاقليم بأكمله في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى الى القرن السابع عشر كما تذكر ذلك بعض الروايات حيث أن ذلك الرأى حقيقى ولا يتمشى مع طبيعة الدور الذى أخذ العرب يقومون به منذ فترة طويلة كما يقول ياقوت الحموى حيث أخذ المسلمون يتحكمون في زمام التجارة وحركة القوافل منذ زمن بعيد .

والواضح أن منطقة دارفور كانت ميدانا تقابلت فيه الهجرات العربية وغيرهما كما تقابلت طرق القوافل التي كانت تأتى من أماكن عديدة من القارة الأفريقية ، كما أنها كانت ملجأ وموطنا للأسرات الحاكمة التي خرجت من حوض وادى النيل الأوسط . ويبدو أن الهجرات التي جاءت الى دارفور من الشمال والشمال الغربى قد شملت مجموعات كبيرة من حوض وادى النيل الأدنى أى من مصر العليا حيث يكون قد خرجت قبائل عربية من وطنها في شمال أسوان ثم هاجروا الى دارفور بصفة خاصة وإلى اقليم السودان بصفة عامة .

وأن الداخو الذين حكموا دارفور في القرن الثامن عشر الميلادي وجاءوا قبل شعب التنجور ، قد جاءوا من الشمال وهناك احتمال أنهم خرجوا من منطقة الواحات المصرية .

أمام التنجور الذين جاءوا من تونس فقد اخترقوا بلاد بونو وواداي حتى وصلوا الى دارفور ومن ثم فانه سرعان ما سيطر هؤلاء المهاجرون على بلاد دارفور واختلطوا بالسكان الأصليين ونتج عن ذلك الاختلاط بين شعب التنجور وشعب الداخو شعب يسمى شعب الفور وأن هناك علاقة تقليدية ثابتة بين التنجور وشعب سلطنة الفور حيث أن السلطان الأول الذي قام بالحكم كان مسلما تقيا متمسكا بكل التعاليم الاسلامية وقد ولد من أم تنجورية وأن أباه عربيا قد جاء من الشمال من تونس بعد خلاف وكان من أثر زواجه من إحدى بنات البيت المالك من التنجور أن انتقل الحكم الى ابنه بحكم وراثته ابن البنت دون الابن للحكم .

وقد نشر التنجور سلطانهم على منطقة واداي في الغرب وحاولوا نشر الاسلام في هذه المنطقة حيث كان الاسلام قد دخل معهم عند قدومهم من تونس . وقد كان ظهور تلك السلطنة يمثل دخول الاسلام والثقافة العربية الاسلامية الى السودان من منفذ آخر غير المنافذ الأخرى وهو المنفذ الغربى . حيث كان انتشار الاسلام في ذلك الجزء الغربى من السودان وادى النيل يبشر بقيام هذه السلطنة القديمة التى ترجع فى أصل قيامها الى القبائل العربية التى وفدت الى تلك المنطقة من مصر وتونس ومراكش حيث استطاعت هذه القبائل العربية أن تتغلب على القبائل التى كانت تسكن الصحراء ونشروا نفوذهم عليها بعد أن تحالفهم فيما بينهم وامتزجوا بها وأنشأوا دولة الفور التى كان الاسلام قد تسرب اليها منذ فترة طويلة قبل ظهورها كقوة سياسية ومؤثرة فى تلك المنطقة حيث ساهم الاسلام فى انصهار تلك القبائل التى كانت تقطن تلك الديار مثل شعب الداخو الذين هاجروا الى دارفور من منطقة جبال النوبا الواقعة غرب النيل الأبيض . وبسطوا نفوذهم على المنطقة الوسطى والجنوبية من دارفور واستطاع هذا الشعب أن يؤسس سلطنة محلية .

ولكن كان على دارفور بحكم سوقها واتصالها بالعديد من الأطراف
والتي منها بلاد المغرب عبر المسالك والدروب الصحراوية التي تتحدر
اليها من الشمال من طرابلس الى الجنوب ، أن قدم كما سبق الاشارة
شعب التنجور Tunguri *

الأصول العرقية لشعب التنجور :

حاول بعض المؤرخين الأوربيين أمثال بالمر وترمنجهام ارجاع
النسب لذلك الشعب التنجورى الى النسب العربى مستنديين الى روايات
قد جمعت من بعض سكان هذه المناطق والتي منها واداي والتي نسب
ذلك الشعب البربرى الى هجرة القبائل العربية والتي تذكر أن هناك
هجرات عربية تدفقت الى دارفور وواداي نتيجة لتطور الأحداث في
منطقة المغرب العربى أثر الغزوة الهلالية العربية التي أدت الى هجرة
بعض القبائل التي ربما لم يكن لها دور على مسرح الأحداث في بلاد
المغرب *

ويرجح بعض الباحثين أن الموجات التي اندفعت في القرن
الثانى عشر والثالث عشر (السادس ، السابع الهجرى) من المغرب
انما هم من البربر المعروفين بالتنجور والذين اندفعوا للجنوب تحت
ضغط القبائل الهلالية واندمجوا في العناصر الموجودة أصلا في هذه
الجهات وصاهروهم وكان شعب الفونج والذي كان سبب دخول الاسلام
لهذه البلاد مع شعب البربر الوافدين *

ذلك لأن هجرة القبائل الهلالية الغاربة المنتصرة كانت تندفع من
بلاد المغرب منحدرية في الطريق من مصر شرقا الى الغرب في غارات متصلة
ولم نرى أنها اندفعت نحو الجنوب ، انما الذين اندفعوا للهجرة نحو
الجنوب هم من العناصر المستضعفة التي لم تقو على الوقوف في وجه
هذا التيار العربى الوافد وهذه العناصر أغلبها إن لم يكن كلها من
البربر وأن هذه القبائل تنسب اليها قبائل البولالا التي عاشت وكونت

دولة حول بحيرة فتري جنوب شرق بحيرة تشاد وان كان هؤلاء قد ادعوا النسب العربى حيث عاشوا فى وادى ومعههم قبائل البديات وغيرهم من القبائل الأخرى . وأن هؤلاء التتجور يمثلون اندفاعا من هذه الاندفاعات .

وقد يجد المرء نفسه فى شك مما أورده بعض الباحثين المعاصرين ، ذلك لأن هجرة القبائل العربية الى بلاد المغرب قد تمت منذ القرن الأول الهجرى وعقب قيام العرب بغزو هذه البلاد فى القرن الأول الهكجرى ومن ثم وجدت قبائل عربية خالصة استقرت فى هذه المناطق وأن الغزوة الهلالية التى تمت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، الثامن الهجرى ، انما كانت غزوة عربية هلالية متأخرة ومن هنا فانه يمكن القول أن قبائل التتجور التى هاجرت من تونس قد تكون قبائل عربية لم تقدر على مواجهة الغزوة الهلالية ومن هنا فقد أثرت السلامة والاتجاه الى الجنوب حيث طاب لها المقام فى دارفور والاختلاط بشعب الداجو الذى سكن هذه المنطقة بعد أن خالتطه هذه الشعوب الوافدة العناصر السابقة لها فى المقام فى هذه المناطق .

أما القول بأن التتجور من القبائل البربرية المهاجرة فان ذلك الموضوع فى أمس الحاجة الى رجال الاركبولوجى والانثربولوجيا حيث أنه من نتيجة هذه الدراسات يمكن تحديد العنصر هل هو بربرى أم عربى ؟ .

لكن ما يمكن قوله فى ذلك المضمار أن تلك العناصر المهاجرة من التتجور كانت قبائل مسلمة هاجرت وحملت معها اسلامها العميق الى تلك المناطق .

بداية ظهور السلطنة :

لقد كان أول هؤلاء السلاطين المولدين من الداجو والتتجور السلطان أحمد المقعور الذى نسب الى شعب التتجور هو ثمرة الاختلاط بين الجنسين . وقد استطاع أحمد المقعور ، الذى يذكر بالمر أن لقب

المقعور ينسب الى شعب التتجور أن يدخل عدة اصلاحات حكومية وكانت له خبرة ودراية بأساليب الحكم حيث لقيت هذه الاصلاحات قبولا من الأهالى لا سيما أنه استطاع بسياسته الرشيدة جذب قلوبهم لا سيما بعد أن وزع الأراضى بين الفقراء وقوى في نفوسهم شعورا بالرضا والطمأنينة لم يعهدوه من قبل .

ولقد كان السلطان أحمد المقعور أول سلاطين دافور من المسلمين وان كان ذلك لا يمنع أن الاسلام قد انتشر منذ فترة قبل توليه عرش البلاد ، لكن الاسلام كان قد دخل على نطاق واسع مع قبائل التتجور المهاجرة ومن هنا كان ظهور تلك السلطنة بصورة أوضح يتوقف على عمق التيار الاسلامى وعلى صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية القوية التى رسخت تعاليم الاسلام في قلوب شعب الفور . ذلك الشعب الذى ربما يكون جامعا لدماء عربية ودماء الداجور ، وربما دماء بربرية ودماء الداجور حيث أن الأصل العرفى لشعب الفور لم يقطع فيه نسب واضح وصريح وان كان حكام الفور قد ادعوا النسب العربى الى بنى العباس ابن عبد المطلب بن هاشم لكن عندما نتقدم تاريخيا حتى نصل الى السلطان سليمان سولون المؤسس الحقيقى لسلطنة دارفور الفورية نجد أنه يذكر النسب العربى صراحة . ومن هنا ربما يصح النسب العربى دون البربرى .

وقد اقترنت اصلاحات أحمد المقعور هذا وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة الاسلامية ، ولكن النشاط الاسلامى على نطاق واسع لم يبدأ حقا الا بجهود أحد سلاطينها وهو السلطان سليمان سولون .

سليمان سولون :

استطاع هذا السلطان العربى بلغة الفور أن يحدث نقلة هامة في تاريخ السودان حيث كان توليه عرش البلاد نقطة هامة في كثرة الهجرات العربية الى دارفور والذين قدموا اليها منحدرين من

وادي النيل وهي نفس الموجات العربية التي اندفعت نحو الجنوب وأسهمت في تأسيس دولة الفونج بمساعدة عرب القواسمة نجد أن هناك موجات عربية أخرى اندفعت نحو الغرب في اتجاه دارفور تحمل الدماء العربية والدين الاسلامي الى تلك الأقاليم حيث استطاعت تلك القبائل العربية أن تفعل في دارفور مثلما فعلت في الأقاليم الأخرى التي بسطت نفوذها عليها بعد أن اختلطوا بالسكان المحليين وأصهروا سلاطين الفور مثل أصهارهم للوك النوبة في مقرة من قبل ومن هنا كان النسب عربيا صرغا في بلاد دارفور وهذا يبطل الدعاوى بالقول بأن سلاطين الفور شعب تكون من البربر والدايجو والتنجور •

ولقد كان سليمان سولون قد استعان بالقبائل العربية الوافدة في اخضاع القبائل والسكان الخارجين على سلاطين الفور وحكمهم والذين كانوا يعيشون في جبال مرة أو المناطق المحيطة بها ومن ثم انتشر الاسلام على نطاق واسع وطبعت البلاد بالطابع الاسلامي وتم توحيد كل عناصر سلطنته السكانية تحت لوائه الاسلامي •

كذلك استطاع أن يعيد بناء الدولة على أسس قوية ، بعد أن وحد القبائل وأسس أسرة بسطت نفوذها على دارفور وكردفان ، استطاعت هذه الأسرة أن تدعم الاسلام والعروبة وتعمل على نشرهما في كل المناطق الخاضعة لها •

وفي القرن الثامن عشر الميلادي حفرت تلك الأسرة الفورية سلسلة من الآبار الارتوازية تمتد ما بين الفاشر ومرتفعات كاجاة وكان لهذه الآبار أثر كبير في تسهيل طرق التجارة وفي ربط دارفور بمراكز الاسلام الشرقية والشمالية الغربية والتي تدفق منها الاسلام الى منطقة دارفور وقد بلغت دارفور في هذه الفترة أوج عظمتها وقد عملت تلك الأسرة على تدعيم ورسوخ الاسلام وتنشيط الحركة الاسلامية ومن هنا عملوا على تشجيع وصول الفقهاء من الشرق ومصر وبلاد المغرب العربي والأندلس الى بلادهم لتعليم القوم أصول دينهم الاسلامي الحنيف ، حيث بدأ العرب يلعبون دورا بارزا وفعالا ومؤثر كل التأثير في تاريخ هذه البلاد •

ومن هنا فان الدور الاسلامى الكبير الذى قام به سليمان سولون
والذى نرجح الآخذ بالقول الذى ذكر أنه حكم فى الفترة ٨٤٨ -
٨٨٠ هـ / ١٤٤٥ - ١٤٧٦ م دون غيرها من الروايات الأخرى لا يختلف
عن الدور الذى قام به عمارة دونقس ٨٩١٠ هـ / ١٠٥٥ م من حيث تنشيط
حركة الدعوة الاسلامية والعمل على نشر الاسلام بين القبائل الوثنية
كذلك العمل على تعميق المفاهيم الاسلامية . ومن هنا برزت تلك
السلطنة كقوة اسلامية عربية وامارة حضارية فى سماء الحياة العربية
الاسلامية فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، وليس
القرن السابع عشر أو السادس كما حاولت أن تصور ذلك بعض
الأبحاث .

ذلك لأن الموجات العربية الاسلامية كانت تندفع فى القرن
الرابع عشر والخامس عشر الى القرن السادس عشر أو السابع عشر
كما حاول أن يصور ذلك من جاءوا بالروايات الشفوية من بعض
رجالات وعلماء دارفور ومن هنا صارت تلك البلاد بلاد اسلامية ، حيث
وفدت عناصر اسلامية متعلمة ومثقفة ثقافة اسلامية عميقة من برنو
وباجرمى ، بل كان تشجيع الحركة التجارية من الأسباب الجوهرية التى
حفزت العلماء على القدوم الى دارفور صحبة القوافل القادمة
ومصاحبتهما ، ومن هنا أخذ الناس يدخلون فى دين الاسلام أفواجا
كثيرة بسبب اتصالهم بالتجارة والتجار والعلماء والأئمة ورجال الدين
والفقهاء .

ويذكر أرنولد توماس فى كتابه الدعوة الى الاسلام أن الاسلام
لم ترسخ أقدامه ولم يبشر به على نطاق واسع وتصبح هناك رعية
اسلامية كثيفة فى البلاد الواقعة من كردفان شرقا وبحيرة تشاد غربا مثل
دارفور وواداي وباجرمى الا فى فى القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر
الميلادى .

بل انه تأكيدا لتلك الروح الاسلامية التى وضحت صورتها فان
سلاطين الفور انتسبوا الى البيت العربى الشريف الى سلالة بتى العباس

حيث اتخذ أحفاد سليمان سولون هذا النسب العربى القرشى الشريف كما انتسب من قبلهم أو معهم الفونج الى النسب العربى الأموى ، وقد يكون النسب الفورى للأسرة العباسية دليل بحث على أن أم السلطان سليمان قد تكون من القبائل العربية الجعلية التى انتشرت فى دارفور والتى انتسبت بدورها الى بنى العباس .

ومن هنا نرى أن أسرة الفور حاکمة دارفور وعاصمتها الفاشر قد اتخذت لنفسها نسبا عربيا قرشيا حتى سميت آل العباس . وقد أدى ذلك الانساب الى البيت الهاشمى الى نشر الدعوة الاسلامية بين سكان سلطنتهم والعمل على تشجيع تلك الحركة الاسلامية .

وهناك قصة متواترة نرجع بأصول الفور حكام تلك السلطنة الى سلالة بنى العباس فيقال أن شقيقين من العباسيين كانا ممن هاجرا الى تلك المنطقة بعد زوال سلطان العباسيين عام ٦٥٦ هـ وحدث بينهما خلاف ففر أحدهما الى جبال مرة فى دارفور وتزوج من ابنة الملك الزنجى الذى كان يحكم فى هذه المنطقة وأنه أنجب من هذه المصاهرة ابنا هو سليمان سولون الذى خلف جده الزنجى والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه السلطنة الاسلامية .

كما أن السلطنة بعد ظهورها بهذا المظهر الاسلامى بدأت تتخلص من طابعها المحلى وتؤكد ذاتها كقوة دينية وسياسية كبرى فى السودان وذلك منذ القرن السابع عشر وما بعده ومن هنا بدأت تمارس نفوذها وتبسط سيادتها على الأقاليم القريبة منها وكان ان بسطت نفوذها على كردفان حيث ضمت الى السلطنة الفورية .

وقد جاءت عدة روايات عن الأسرة الحاكمة للسلطنة الفورية وان اتفقت كل تلك الروايات على أن السلطان سليمان سولون كان هو أول سلطان تظهر السلطنة به كقوة كبرى والذى حكم البلاد منذ عام ٨٤٨ هـ حتى ٨٨٠ هـ وقد كان عدد الزعماء أو رؤساء المشيخات أو الحكام المحليين الخاضعين للسلطنة سبعة وعشرين حاكما وشيخا وأميرا وملكا لا يوجد

من بينهم الا سبعة لا زالوا على الوثنية أثناء فترة حكمه فقط أما العشرون امارة فقد كان كل حكامها من المسلمين • وتضيف تلك الرواية الأولى الى هذه السلطات السبعة والعشرين التي كان يحكمها سليمان سولون • فانه كانت توجد هناك داخل سلطنته أو تخضع لنفوذه بعض القبائل العربية التي كان السلطان يستنفر بها لكي تتجده عند قيامه بالغزوات أو عند تعرضه لخطر خارجي •

وهذه الرواية ذكرها نعزم شقير عند حديثه عن بيت آل الفور في سلطنة دارفور • ونحن نميل الى الآخذ بهذا التاريخ لتولى السلطنة لما فيه من دلالة مبكرة لانتشار الاسلام وقيام السلطنات الاسلامية في ذلك الجزء من السودان وادي النيل ، اذ أنه ليس من المعقول أن يتأخر ظهور تلك السلطنة بمظهرها الاسلامي وتولى قيادة مسلمة لهذه البلاد حتى القرن السابع عشر الميلادي ، الحادي عشر الهجري ذلك لأن منطقة دارفور كانت محاطة بقبائل وامارات وسلطنات اسلامية منها الفونج في الشرق وواداي وباجرمي في الغرب اضافة الى مملكة البولالا الذين ادعوا النسب العربي لسيف بن ذي يزن حول بحيرة فتري • وسلاطين كانم في نجيمي وسلاطين البرنو •

اذا كان الاسلام قد اعتنقه سلاطين الكانم منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ونجد أن أول سلاطين كانم الذي اعتنق الاسلام هو السلطان أومي جلي والذي حكم (٤٧٩ - ١٠٨٥/٥٤٩٠ - ١٠٩٧ م) فكيف تأخر اعتناق سلاطين الفور للاسلام حتى عام ١٠٥٠ هـ في حين أنها قريبة لمصادر الدعوة الاسلامية في مصر وليبيا وتونس وبقية بلاد المغرب العربي •

ان القول بأن سلاطين الفور المسلمين (سليمان سولون) قد تولى السلطنة عام ٨٤٨ هـ هذا القول الذي يجانب الصواب ومن هنا فان تلك الرواية الأولى هي التي نأخذ بها نظرا لمطابقتها للواقع الاسلامي المحيط بدارفور •

وان كانت الرواية الثانية بجدول أنساب وتولى أسرة الفور قد نقلها التونسي في كتابه تشيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان وهي أقدم كثيرا من رواية نعوم شقير الا أنها قد لا تكون مصادرها صحيحة وأنها غير مؤكدة ؛ وعلى هذا نكتفى بذكر الرواية الأولى التي جاء بها ذكر سلاطين الفور كما يلي :

اسم السلطان	تاريخ تولى الحكم بالميلادى	تاريخ تولى الحكم بالميلادى
١ - سليمان الأول سولون	٨٤٨ - ٨٨٠	١٤٤٠ - ١٤٧٦
٢ - عمر بن سليمان	٨٨٠ - ٨٩٧	١٤٧٦ - ١٤٩٢
٣ - عبد الرحمن الرشيد	٨٩٧ - ٩١٦	١٤٩٢ - ١٥١١

وقد تم في عهد ذلك السلطان اتخاذ مدينة الفائر عاصمة سياسية للبلاد وذلك لموقعها على طريق القوافل ومركزها الممتاز كمنطقة تجارية هامة على طريق درب الأربعين مع مصر .

٤ - محمود الفضل بن عبد الرحمن	٩١٦ - ٩٣٣	١٥١١ - ١٥٢٦
٥ - محمد بن محمود	٩٣٣ - ٩٥٧	١٥٢٦ - ١٥٥١
٦ - دليل بن محمد	٩٥٧ - ٩٦٧	١٥٥١ - ١٥٦٠
٧ - شرف بن دليل	٩٦٧ - ٩٩١	١٥٦٠ - ١٥٨٤
٨ - أحمد بن شرف	٩٩١ - ١٠٠١	١٥٨٤ - ١٥٩٢
٩ - ادريس بن أحمد	١٠٠١ - ١٠١٣	١٥٩٣ - ١٦٠٥
١٠ - صالح بن ادريس	١٠١٣ - ١٠٣٥	١٦٠٥ - ١٦٢٧
١١ - منصور بن صالح	١٠٣٥ - ١٠٤٨	١٦٢٧ - ١٦٣٩

اسم السلطان	تاريخ تولى الحكم بالحجرى	تاريخ تولى الحكم بالميلادى
١٢ - السلطان شوش	١٠٤٨-١٠٦٨	١٦٣٩-١٦٥٨
١٣ - السلطان ناصر	١٠٦٨-١٠٨٠	١٦٥٨-١٦٧٠
١٤ - السلطان توم	١٠٨٠-١٠٩٤	١٦٧٠-١٦٨٣
١٥ - السلطان كورد	١٠٩٤-١١٠٦	١٦٨٣-١٦٩٥
١٦ - سليمان الثانى بن كورد	١١٠٦-١١٢٧	١٦٩٥-١٧١٥
١٧ - موسى بن سليمان	١١٢٧-١١٣٨	١٧١٥-١٧٢٦
١٨ - أحمد أبو بكر بن موسى	١١٣٨-١٣٥٨	١٧٢٦-١٧٤٦
١٩ - محمد دروه بن أحمد	١١٥٨-١١٦٩	١٧٤٦-١٧٥٧
٢٠ - عمر دليل بن محمد	١١٦٩-١١٧٦	١٧٥٧-١٧٦٤
٢١ - أبو القاسم بن أحمد	١١٧٦-١١٨٠	١٧٦٤-١٧٦٨
٢٢ - محمد تيراب بن أحمد	١١٨٠-١٢٠٢	١٧٦٨-١٧٨٧
٢٣ - عبد الرحمن الرشيد بن أحمد	١٢٠٢-١٢١٧	١٧٨٧-١٨٠٢
٢٤ - محمد الفضل بن عبد الرحمن	١٢١٧-١٢٥٤	١٨٠٢-١٨٣٩
٢٥ - ابراهيم بن محمد بن الفضل	١٢٥٤-١٢٨٨	١٨٣٩-١٨٧٣
٢٦ - الثورة المهدية	١٢٩٧-١٣١١	١٨٨٤-١٨٩٨
٢٧ - على بن دينار	١٣١٢-١٣٣٠	١٨٩٨-١٩١٦

أما عن دخول تلك الأسرة القورية الى دارفور قد دخلت الى تلك المنطقة سلميا وسرعان ما اندمجوا مع السكان المحليين وتصاهروا مع الأسرات التي كانت تحكم بخاصة وعلى هذا الطريق أو ذاك انتقل الحكم الى أبناء المسلمين ومن الطبيعي أن هذا التطور بانتقال الحكم الى يد العرب لم يأخذ أكثر من جيلين أى حوالى الخمسين عاما ، لو فرضنا جدلا أن العرب قد وصلوا الى المنطقة الغربية من الاقليم الأوسط لحوض وادى النيل فى منتصف القرن الثامن الميلادى حيث أخذت جماعاتهم فى التجمع فى مراكز التجارة أو تأسيس رباطات لهم والتجمع فى مراكز التجارة • وإذا ربطنا هذه التجمعات بحركات التطور العربى فى حوض وادى النيل الأوسط والأدنى فى تلك الفترة التى أسهمت بهجرات كبيرة حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى ، نجد أن جماعات من صعيد مصر الأعلى قد جاءت الى اقليم الفور فى ذلك الوقت ودلائل ذلك واضحة وبخاصة فى مجموعات المعاليا والمحاميد والزيادية ويعتقد أن أصولهم ترجع الى مجموعات تسكن حتى اليوم فى المنطقة الشمالية من مركز ادفو ويبدو أن تلك الغزوة قد حدثت فى فترة ولاية السلطان محمد حسين بن محمد الفضل (١٨٣٩-١٨٧٤ م / ١٢٥٤-١٢٨٨ م) وقد تم إعادة زعيم هذه الجماعة الى مصر • وأرسل له الوالى المصرى محمد سعيد باشا الهدايا بهذه المناسبة •

وقد ظلت تلك السلطنة ثلاثة قرون يتوارثها سلاطينها صاغرا عن كابر ، وكان السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن يعاصر محمد على وعندما فتحت جيوش مصر بقيادة الدفتردار كردفان كان من المتوقع متابعة الفتح فى دارفور غير أن حوادث الملك نمر فى شندى وحرقة للأمير اسماعيل بن محمد على ومن معه وما أعقبها من اضطرابات أخذت كل وقت ومجهود الدفتردار ولم تتمكن جيوش محمد على من فتحها وفى عام ١٢٥٢ هـ • وفى عهد خورشيد باشا وصل الى الخرطوم أبو مدين أخو السلطان محمد الفضل يلتقى بالاذن المصرى بالسفر الى مصر لمقابلة الجناب العالى ثم يُذهب الى الحج وقد استفسر خورشيد باشا

عند قوة دارفور واتفق معه أن تفتح الحكومة المصرية الاقليم وينصب أبو مدين بن عبد الرحمن الرشيد سلطانا عليها خاضعا للحكومة .

وقد حدثت صراعات بين سلطنة دارفور وسلطنة واداي في عهد السلطان يعقوب عروس بن السلطان عبد الكريم مؤسس سلطنة واداي استطاع فيها يعقوب أن يهزم قوات دارفور وأن يقتل السلطان موسى ابن سليمان الذي حكم (١١٢٧ - ١١٣٨ هـ / ١٧١٥ - ١٧٢٦ م) ولكن في عهد السلطان أبي القاسم بن أحمد ١١٧٦ - ١١٨٠ هـ / ١٧٦٤ - ١٧٦٨ م استطاع هذا السلطان أن يهزم قوات واداي .

ولقد كان كان السلطان سليمان سولون هو الخلف الثالث للأمير المسي كورد الذي استطاع أن يؤسس سلطنة دارفور .

وقد بلغت دارفور أقصى اتساع لها في عهد عهد السلطان محمد تيراب بن أحمد (١١٨٠ - ١٢٠٢ هـ - ١٧٦٨ - ١٧٨٧ م) اذ استطاع ذلك السلطان أن يوقع هزيمة قاسية بجيش العبدلاب وكان على استعداد لعبور النيل الأبيض منطلقا الى سنار الا أنه اكتفى بذلك الانتصار وقد بلغت الدولة أقصى اتساع لها فقد كان حدها من الشمال بئر النطرون في الصحراء الكبرى على درب الأربعين ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل ومن الغرب واداي وقد بلغت أقصى اتساع لها في عهد سلطانها عبد الرحمن الرشيد بن أحمد (١٢٠٢ - ١٢١٧ هـ - ١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) فقد انتقل الى عاصمته الفاشر واتصل بالسلطان العثماني في القسطنطينية واعترف بسيادته ومنح لقب الرشيد .

وخلت السلطنة من أي أثر من آثار العزلة وبدأت تمارس علاقاتها التجارية والسياسية والثقافية مع العديد من البلاد الاسلامية وكان هذا الاتصال اتصالا وثيقا ولذا فقد امتد نفوذ السلطنة الى واداي في عهد محمد الفضل الذي هزم سلطان واداي وحمله أسيرا الى الفاشر .

ولو قدر لهذه السلطنة أن تمارس نفوذها السياسي لتوسعت أكثر ولاستطاعت أن تنتزع كردفان وغيرها من المناطق المجاورة حيث

كانت تمتلك جيشا استخدم الأسلحة الحديثة ، لكن التوسع المصرى فى السودان وانتزاعه دارفور فى آخر عام ١٨٧٥ هـ فى عهد السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن بن الفضل الذى قتله الزبير باشا • وبذلك قضى على البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة •

وقد اتصل سلاطين هذه السلطنة بالحجاز عن طريق الحج وشجعوا علماء الحجاز ورجال الطرق الصوفية على الرحيل الى عاصمتهم الفاشر ، كما توطدت صلاتهم بالمغرب الاسلامى ووجد بها كثير من علماء الاسلام الذين ترجع أصولهم الى المغرب والأندلس •

كما أن صلتهم رغم الحروب مع العبدلاب لم تنقطع بسنار عاصمة الفونج فقد كانت هذه السلطنة تستعين بفقهاء سنار بل ان سلطانهم الأكبر « سليمان سولون » قد شجع فقهاء سنار على النزوح الى بلاده وقد ظهرت هذه الروح الإسلامية واضحة فى معاملتهم لرجال العلم وفى احترامهم واحاطتهم بالرعاية والتكريم •

وقد كان للعلماء الصالحين ورجال الطرق الصوفية نفوذا كبيرا لدى سلاطين الفور فلم يكن يرد لهم طلب اذا ما توسطوا فى أمر من الأمور ومن استجار بهم فهو آمن من غضب السلطان وتمتع الصوفية أيضا فى ظل سليمان سولون بسلطان كبير ، بل كان لبعضهم سلطات زمنية وروحية •

هذا فضلا عن تشجيع الحركة العلمية بكافة السبل وانشاء المساجد واستقدام العلماء والاغداق عليهم واحاطتهم بنوع من الرعاية والتكريم •

وقد اتصلت سلطنة الفور بمصر اتصالا وثيقا من جميع النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية ، بل ان سلاطين البلاد شجعوا العديد من طلابهم الذين أتموا حفظ القرآن الكريم على الرحيل الى مصر طلبا للعلم حيث الأزهر الشريف مقصد الطلاب والعلماء كما أنىء لهم رواق خاص سمي بهم هو رواق دارفور كما أن هناك رواق خاص بالسنارية أبناء سلطنة الفونج • ولا يستبعد أن يكون بعض علماء مصر من رجال الأزهر الشريف قد شدوا الرحال الى دارفور لا سيما

من الذين اجتذبتهم دارفور ووصلوا اليها في عهد السلطان عبد الرحمن أن طريق الرحلة عبر درب الأربعين كان مستمرا ومن ذلك اشارة التونسي في كتابه تشحيذ الأذهان * * ، بأن الشيخ حسنين عماري الأزهرى الملقب بالرشيد حيث تابع الشيخ رسالته العلمية في التدريس بالمسجد الكبير في الفاشر * كما أن سلاطين البلاد اتصلوا بالأمصار الاسلامية الأخرى *

كذلك فإن من آيات حرصهم على هذه الروح الاسلامية اشتراكهم في ارسال صرة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كان المحمل المصري يخرج بكسوة الكعبة وغيرها مما تحتاجه مكة المكرمة والمدينة المنورة ومعه الريش والسن وغيره من خيرات بلاد دارفور ثم تباع هذه السلع وترسل أثمانها في صرة الى الحجاز مع ركب الحجاج المصريين *

وقد كان حرص سلاطين البلاد على اكساب حكمهم صفة شرعية اسلامية اذ اتصلوا بالخليفة العثماني في الاستانة حيث أرسل السلطان « عبد الرحمن بن أحمد أبو بكر بن موسى » هدية كبيرة من العجاج وريش النعام الى الخليفة وتلقى منه كتابا يخلع عليه فيه لقب الرشيد ومن هنا لقب عبد الرحمن الرشيد وهو الذي انتقل بعرش أجداده الى مدينة الفاشر حيث أصبحت مقر السلطنة *

كما كان هؤلاء السلاطين رغم ندرة أخبارهم واختلاف الروايات في ذكر توليهم السلطنة وتوابعهم ينتهجون نهجا اسلاميا حيث يسرون في حكم بلادهم من منطلق انعدل ويلتزمون بالكتاب والسنة *

ولقد كان من التقاليد المتعارف عليها في سلطنة دارفور عند توليه سلطنة البلاد أن السلطان الجديد لا يكون الا من البيت السلطاني المالك أي من سلالة السلاطين الذين حكموا البلاد كما أنه لا يتولى عرش البلاد أي أجنبي حتى ولو كان شريفا قرشيا وتحقق نسبه *

ولقد كان النهج الاسلامي هو طريقهم منذ تولية العرش للسلطان سليمان سولون الأول ثم بعده ابنه عمر الثاني بن سليمان فقد كان هذان السلطانان من أشد السلاطين محافظة على الكتاب والسنة *

ويروى أنه بعد توليته سلطنة البلاد بثلاثة أيام خرج الى مجلس خاصته وسألهم أن يولوا أحد أعمامه في مكانه وذلك لأن التقاليد المتوارثة ان الملك المختار لولاية العرش عليه أن يحتجز في بيته لمدة سبعة أيام ولا تصدر منه خلال هذه الفترة أية أوامر في أية صورة من الصور وعليه بطبيعة الحال أن لا يحضر مجلس القضاء وأن لا يقبل أى دعوة وقد حافظت السلاطين على هذه العادة ، عادة الاعتكاف لسبعة أيام قبل ولاية العرش .

ومن ذلك نرى أن السلطان عمر قد خرج في الثلاثة أيام الأولى وسأل مجلس خاصته الذى كان لا يجوز حضوره قبل أسبوع أن يولوا أحد أعمامه في مكانه سلطنة البلاد وذلك على حد قوله لأن طاقية الملك ثقيلة . وذلك لالتزامه بالكتاب والسنة والسير على النهج الاسلامى واقامة العدل في البلاد وقد كان السلطان عبد الرحمن الرشيد لا يقل في نهجه الاسلامى عن هؤلاء السلاطين ، بالاضافة الى أنه قد خرق عادة السبعة أيام التى كان يعتكف فيها السلطان في بيته لأن هذه العادة ترجع الى عهود ما قبل الاسلام ، وانها تهدف الى قدسية السلطان وأن بقاءه في الاعتكاف لهذه الفترة تهدف الى تصفيته روحانيا قبل ممارسته للحكم ، ويقوم السلطان بالخروج للرعية في اليوم الثامن من توليه عرش السلطنة ويمر في موكب بالعاصمة وبعد جلوسه على العرش تدخل اليه الشكاوى ويصدر الأحكام .

وقد عمل سلاطين الفور على تشجيع العلم والعلماء وتقديم الهدايا لهم حرصا على نشر العلم الاسلامى والعلوم الاسلامية في بلادهم . ويروى التونسى كيف أن عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور لما ظهر حكمه وعدله وحبه للعلم والعلماء وأهل الفضل من رجال الدين والطرق الصوفية وفد على بلاده الأشراف والعلماء من شتى أنحاء العالم الاسلامى من بلاد الفولانى وامارة بونو ، وسوكوتو وامارات الهوسا ، كانوا ، وكشينا ، ومن مكة المكرمة وغيرها من البلاد الأخرى .

وقد كان اتصال أهالى دارفور بالغرب مع واداي وباجرمى وبرنو وكانو وامارة البولالا أكثر من اتصالهم بالشرق . وقد ظلت دارفور

حتى الفتح المصري للسودان القوة الاسلامية الكبرى في السودان وقد حاول سلاطين دارفور الاحتفاظ باستقلالهم أمام الفتح المصري وغيره والتزموا سياسة الدفاع عن بلادهم بدليل أنها لم تسقط تحت ضربات الجيش المصري الا في عام ١٨٧٥ م في حين تم فتح السودان ١٨٢١ م أي ظلت تجاور الحكم المصري ما يقرب من أربعة وخمسين عاما ولكن أمرهم انتهى بالخضوع للحكم المصري حيث تقدم الزبير باشا من بحر الغزال الى دارفور وقتل السلطان ابراهيم بن محمد آخر سلاطينهم حيث حمل الباقون من أمرائها وأسرتها الحاكمة السابقة الى مصر حيث سكنوا بها في منطقة سوق السلاح وقررت لهم الحكومة المصرية معاشا * والحقيقة أن سلطنة دارفور تجمع عناصر عربية وعناصر زنجية وتتمثل فيها تقاليد مختلفة بعضها عربى وبعضها يتصل بالتقاليد الزنجية السابقة *

لكن مع كل هذا كان العلماء يعقدون حلقات الدرس والعلم ويقومون بشرح وتفسير الآيات القرآنية وعلوم الحديث والفقه وغيرها من العلوم الاسلامية حيث كان يفد اليهم الناس ليتفقهوا في أمور دينهم وليعوا كل ما يطلب منهم أداءه قبل ذلك الدين الحنيف كما ذكر التونسي (ان السلطان عبد الرحمن الرشيد قد طلب من والده الشيخ التونسي الذي كان من بين الوافدين على السلطنة والذي تكاثر عليه القوم حيث وفد اليه أكابرهم وطلبوا منه قراءة مختصر خليل ، فقرأ لهم ربع العبادات *

وقد كان الفقيه في دارفور له منزلة تلى منزلة رجال السلطان ، كما أن الرحالة « بروان » الذي زار دارفور ذكر أن العلماء كانوا يتمتعون بمنزلة كبيرة عند السلطان عبد الرحمن الرشيد *

ومن هنا فقد ساهمت سلطنة دارفور كما ساهمت سلطنة الفونج وامارة الكنوز ومن قبلهما امارة العمرى في القرن الثالث الهجرى في اثراء الحركة الاسلامية وفي طبع البلاد بالطابع العربى وفي نقل السودان تلك النقلة الاسلامية العربية بانتشار العقيدة الاسلامية واللسان العربى وبذلك قدر للسودان أن يقوم بدوره العربى والاسلامى في وسط القارة الافريقية انطلاقا من حق الأخوة الاسلامية *

٦ - امارة تقلى الاسلامية

اذا كانت السلطنات الاسلامية السابق الاشارة اليها قد ساهمت مساهمة فعالة في نشر الاسلام والعروبة في ربوع السودان وصبغه بالصبغة العربية الاسلامية الا أن هناك امارة أخرى شاركت الامارات والسلطات السابقة صبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية ، تلك هي سلطنة تقلى التى شهد القرن الثانى عشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ظهورها كقوة سياسية كبرى تحاول أن تحتل مكانها بين أكبر قوتين اسلاميتين فى السودان فهى تتوسط سلطنة الفونج التى عاصمتها سنار من ناحية الشرق وسلطنة الفور التى عاصمتها الفاشر فى الغرب ومن هنا حاولت تلك السلطنة أن تحتل مكانتها فى وسط الصراع الدائر بين كل من الفاشر وسنار *

وتقع تلك السلطنة الاسلامية فى المنطقة الواقعة غرب النيل الأبيض وجنوب كردفان وهى عبارة عن منطقة جبلية لكن تتخللها الوديان الخصبة التى تساعد على الاستقرار والاقامة الدائمة فى تلك الوديان وسكانها يغلب عليهم العنصر العربى الذى اختلط وانصهر مع بعض السكان المحليين لكن العنصر العربى انوافد استطاع أن ييسط نفوذه على تلك المنطقة ومن هنا ظهرت سلطنة تقلى بمظهرها العربى الاسلامى *

وتشير الروايات المتواترة أنه فى أوائل القرن الثامن عشر الهجرى قد شهدت منطقة تقلى وفود بعض القبائل العربية والتى كانت من قبائل الجعلين العربية والتى هى عبارة عن مجموعة عدنانية الأصل ،

بل هي من أكثر القبائل العربية نفوذا وأكثر عددا في السودان وهي تنسب الى جد أكبر اسمه ابراهيم وقد لقبت بالجعل وتنسب الروايات التاريخية المتواترة الى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا يطلق عليها أحيانا في السودان اسم المجموعة العباسية بدلا من المجموعة الجعلية .

وقد استطاع أحد أبناء الأسرة الجعلية أو العباسية والذي تطلق عليه المصادر « محمد الجعل » الوصول الى تقلى والاستقرار بها فترة من الزمن ثم تقرب الى حاكم تلك المملكة بعد أن ترك قبيلته التي كانت تقطن على النيل قرب مصب نهر العطبرة أن يستقر في تلك المنطقة وأن يتزوج ابنة زعيم تقلى وأن يقوم بالعديد من الإصلاحات والأعمال التي بهرت الملك والشعب وقد أنجب ذلك الزواج ولد تطلق عليه المصادر « أبو جريدة » وقد كان لهذا الابن وراثة العرش الشرعى نظرا لتوريث ابن البنت في تلك المناطق .

ومن هنا ورث أبو جريدة عرش تقلى عن جده . ومن هنا يعتبر أبو جريدة المؤسس الفعلى للأسرة الجعلية الحاكمة والمسيطرة على مجريات الأمور في سلطنة تقلى منذ تولى مقاليد الأمور في البلاد والتي ظل أحفاده يتوارثون عرش البلاد حتى بداية القرن العشرين الميلادى .

ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الحقيقى أو الأعوام الحقيقية التي تولى فيها السلطان أبو جريدة بن محمد الجعل مقاليد الأمور في البلاد لكن المتعارف عليه أن الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى كان فترة توليته العرش . ولقد عمل أبو جريدة على ظهور السلطنة بالمظهر الاسلامى حيث كان الدين الاسلامى قد نشر لوائه على نطاق واسع بين أفراد سلطنة تقلى نظرا للاستقرار المكثف للقبائل العربية المهاجرة من الشمال والغرب ومن الشرق حيث كانت تلك المنطقة منطقة التقاء القبائل المهاجرة من الأطراف المختلفة .

ومن هنا نجده يولى اهتماما خاصا ببناء المساجد فعمل على بناء العديد منها لا سيما في مركز السلطنة ولقد كان الدور الاسلامي الذي قام به أحد الزهاد الجعليين واستقراره في تلال تقلى عام ١٥٣٠ م هو الأثر الأكبر في جذب قلوب السكان لما امتاز به من ورع وزهد وتقوى ومن هنا كثر أنصاره وأشياؤه وأقبل الناس حوله يتلقون بركاته ومن ثم لم يلبث أن ازداد نفوذه ومصاهرة مع حاكم الاقليم وكان ثمرة تلك المصاهرة ذلك الابن جيلى أبو جريدة الذى قدر له أن يتولى سلطنة تقلى الاسلامية وأن يكون السلطان المسلم منذ عام ١٥٧٠ م •

ومن ثم عمل على امتداد نفوذ السلطنة الى الاقليم الشرقى من جبال النوبة في كردفان وتذكر المصادر أن الذين تولوا عرش السلطنة بعد أبو جريدة هذا قد بلغوا تسعة عشر سلطانا وقد حافظت هذه السلطنة على استقلالها حتى الفتح المصرى للسودان •

ولقد لعبت سلطنة تقلى دورا كبيرا في الميدان الاجتماعى والثقافى فى السودان ، ذلك لأن وسيقتها لنشر الاسلام لم تكن بالدعوة التبشيرية والترحال لدعوة الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ، بل كان انتشار الاسلام يتسم بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى عن طريق المصاهرة الى الشعوب المحلية ثم اندماج هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة •

ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الآباء ودين القبيلة صاحبة النفوذ ثم ازداد التيار الاسلامى عمقا بمرضى الزمن •

ولقد لعب الجعليون الذين ينتمى اليهم الشيخ محمد الجعلى والد جيلى أبو جريدة ، دورا هاما فى تطور الحركة الاسلامية فى تقلى

وغيرها من المناطق العديدة في السودان ، إذا كانت سياسة الاندماج في القبائل السودانية من أهم عوامل نشرهم للإسلام .

ذلك لأن كبير القبيلة الجعلية ابراهيم كان يدخل في قبيلته من ليس منها ولعل هذا يفسر لنا النمو المطرد لهذه القبائل الجعلية حتى أصبحت شعبا كبيرا يتألف من عدة قبائل وفيرة العدد .

ومن هنا لعبت سلطنة تغلى دورا هاما في نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية حيث أن هذه الولاية الاسلامية التي لعبت دورها في الحياة الاسلامية والسياسية في السودان تقع بجبال تغلى جنوب خور أبوجبل وحدها الجنوبي حوالى خط عرض شمال ١١ أما حدودها الشرقية والغربية فليست معروفة أو بالأحرى هي حدود غير واضحة المعالم ولم تكن حدود ثابتة وتشتمل تلك الزعامة الثقيلة عددا من التلال الصخرية التي يطلق عليها محليا « جبال » ويقدر ارتفاع هذه المجموعة من الصخور بحوالى خمسة آلاف قدم عن سطح البحر وتتحد الجبال من الناحية الغربية في أرض مستوية السطح أما في الشرق فانحدارها أقل مما هو عليه في الغرب .

وتكاد تكون مجموعة التلال هضبة غير متساوية في الارتفاع وتعرف بالجبال الشمالية الشرقية ويبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة آلاف قدم وتبلغ مساحة المنطقة التي يطلق عليها أساسا سلطنة تغلى نحو الأربعين ميلا مربعا ، وتضم الجبال التي تقوم عليها في الوقت الحاضر الجلال ، القرى ، الهوى ، تاس ، جولوبا .

وقد قامت في تغلى منذ حوالى أربعة قرون أو يزيد قليلا زعامة دينية اسلامية تولاهما أحد رجال الدين الذين دخلوا المنطقة من حوض وادى النيل الأوسط واستطاع هذا الفقيه تكوين أسرة حاكمة عن طريق

زواج الفقيه من بنت الحاكم المحلي فانتقل بذلك الحكم الى ولده بحكم التقاليد المرعية في الحكم لأبناء البنت أو أبناء الأخت .

وعرف الحاكم الأول لهذه الأسرة التي دانت بالاسلام باسم « قيلي » أبو جريدة وقيلي هذا لفظ نوبى معناه الأحمر فيكون اسمه الأحمر صاحب أبو جريدة وتولى الحكم بعده حوالى التسعة عشر سلطانا أو ملكا دون انقطاع وامتدت سيطرة بعض الملوك الى ما وراء خور أبو جبل شمالا وتالودى جنوبا واعترف لهم بالسلطان عدد من القبائل العربية التي دخلت الولاية ، وتقول الروايات المحلية ، أن الفقيه محمد الجعلى وهو والد قيلي أبو جريدة قد جاء الى الاقليم من الشمال فى حوالى ١٥٣٠م ومن المحتمل أن يكون هذا الفقيه محمد الجعلى قد جاء مع مجموعة من الفقهاء للدعوة للرسالة الاسلامية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وكان أقوى من زملائه الآخرين حيث تزوج من البيت الحاكم فانتقل بذلك الحكم الى ابنه قيلي أبو جريدة الذى أسس الأسرة الحاكمة والمعروف أن الفقيه محمد الجعلى قد اتخذ مركزه للدعوة الى التعاليم الاسلامية فى المكان الذى يعرف الآن بجلال ، قرى ، الهوى ، والكرايا ، ولما أنس فيه الحاكم المحلي من خلق حسن زوجه من ابنته التى أنجبت أبو جريدة ، وبعد قليل مات الزعيم الذى كان يعرف باسم كيركير .

وقد اهتم هؤلاء الزعماء من أسرة تقلى أبو جريدة بالدعوة الى الدين الاسلامى وتعاليمه وجاء الى بلادهم عدد من الصوفية أمثال حسن ود حسونة ، تاج الدين البهارى ، اللذان جاءا الى جبال تقلى فى القرن السابع عشر الميلادى .

واستطاع سلاطين تقلى وزعمائها العمل على نشر سطوتهم على مناطق بعيدة وسكنت بلادهم جماعات كبيرة من التجار العرب الذين اشتغلوا بجانب تجارتهم بالدعوة الاسلامية اضافة الى رجال الدين

الاسلامى الذين قاموا بدورهم خير قيام كما منح رجال الدين مناطق معينة لكل واحد منهم لكى يقوم بالدعوة للدين الاسلامى بين الوثنيين من سكان الجبال .

واشتد نفوذ تقلى وزادت سطوتها لدرجة نها وصلت الى مرحلة استطاع فيها قبول اللاجئين الفارين من سلطنة سنار ومنحهم حق اللجوء السياسى والتكفل بحمايتهم وامتدت سيطرة سلطان تقلى فى حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى الى جميع الجبال الشمالية والشرقية وبلغت تقلى مركزا له شأنه .

ولما كانت هذه الزعامة الثقيلة فى موقع هام بالنسبة لسلطنة سنار وسلطنة الفور ، بعد أن بدأت سلطنة الفور فى ذلك الوقت فى الدخول فى منافسة سلطنة سنار والتحكم فى الطرق التجارية ومحاولة اجتذاب التجارة الى أسواقها فى الفاشر وغيرها من المدن الكبرى بها ، فلذلك لجأ سلطان سنار الى مصاهرة سلطان تقلى السلطان قىلى أبو قرون الذى حكم فى الفترة من ١٦٤٠ الى ١٦٦٨ م. وقد تزوج هذا السلطان الأميرة عجائب أم شيلة بنت السلطان رباط ، وقد جاءت هذه الأميرة الى تقلى فى حاشية كبيرة وأقامت مسكنها فى « بلولا » وقد أنجبت للسلطان قىلى أبو قرون ولدين وصل كل منهما الى العرش ، وقد عاشت الأميرة السنارية عصرا طويلا ولعبت دورا هاما فى سياسة تلك السلطنة حيث بدأت السياسة الخارجية تتجه بخاصية التعاون والترابط مع سلطنة الفونج فى سنار .

وقد أظهر سلاطين تقلى الكبرياء ، بسبب ما وصلت اليه زعامتهم من قوة فصاروا يجبون ضرائب عالية من التجار الذين يهرون عبر اقليمهم ، كما كان ينهب تجارتهم ويسىء معاملتهم وقد حدث ذلك مع صديق سلطان سنار بادي أبو دقن وربما كان شريك له فى التجارة ولما علم السلطان بصلة ذلك التاجر بسلطان سنار تحدى السلطان

السنارى وقال أن سلطان سنار لا يستطيع الوصول الى هذه الجبال غير أن السلطان السنارى تولى قيادة جيشه بنفسه واستطاع الدخول الى مقر قيادة سلطان تغلى واستطاع الوصول الى جبال تغلى وحاصر سلطانها لكن الحرب انتهت بالصلح على أن يدفع سلطان تغلى جزية سنوية بسنار .

وكان هذا الاتفاق قد دفع الفور الى تحويل طريق تجارتهم مع حوض وادى النيل الأوسط نحو منطقة الشايقية ومنها الى البحر الأحمر أو الى الشمال وبقي هذا الطريق مستخدما حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

وهكذا بقيت سلطنة تغلى تابعة لسلطنة سنار تدفع لها الجزية سنويا ولكن سلاطين تغلى مع اعترافهم بتبعيةهم لسنار استطاعوا الدخول فى صلات ودية مع سلاطين الفور ، الأمر الذى جعل سنار تنظر الى تغلى بعين الرضا والراحة وصارت تغلى تمارس أعمالها كدولة مستقلة فكانت ترسل المحمل الى الحجاز ولم تعارض سنار فى ذلك .

ويعتبر السلطان السابع محمد بن تغلى أبو قرون وهو الابن الأكبر لوالده من أقوى سلاطين البيت الحاكم ، واستطاع أن يؤسس عاصمته فى مدينة (سى) التى بقيت عاصمة البيت الحاكم فترة من الزمن زادت على مائتى عام ، وبعد وفاته تولى شقيقه عمر أبو زنتر الحكم وكان سلطانا جبارا رهيبا ووصف بأقبح الأعمال ، وكان بذلك أول سلطان يحكم تغلى وهذه صفات لم يسبقه اليها أحد من سلاطين تغلى الذين سبقوه فى الحكم .

ورأت أمه وهى عجوز ضرورة الخلاص منه ونقل السلطة الى حفيدها اسماعيل بن السلطان محمد السلطان السابع ، وتقول الروايات انها وضعت سكينه حادة فى طبق الغذاء ولما وجد السلطان عمر هذه السكينه استشاط غضبا وفى ثورته هذه قتل حوالى ثلاثين من رفاقه وأثارت هذه المذبحة غضب الشعب فطرد عمر وأتبعه من

السلطنة وأعلن اسماعيل سلطانا لنقلى خلفا لعمه عمر ، ولكن السلطان عمر طلب من سلطان سنار نجدته كما نصحته أمه وفي نفس الوقت أرسلت هي بنفسها كتابا سريا الى سلطان سنار تطلب منه فيه ألا يساعد ابنها عمر وأن يقتله اذا أمكن ذلك ، وكان عمر قد وصل هو وأتباعه الى سنار وأكرمه السلطان بادی الأحمر وكان في ذلك الوقت قد حدثت ثورة في احدى أقاليم سلطنة سنار قام بها أحد المشايخ فطلب منه السلطان بادی الأحمر أن يقود حملة لتأديب الثوار وذلك الشيخ ، اعتقادا منه أن عمر سوف يقتل في هذه الحملة وبذلك تنتهي مشكلته ولكن عمر قبل على مضض قيادة هذه الحملة التي كان عليها أن تقطع الصحراء لمسافة طويلة واستطاع عمر أن يتغلب على الثوار وكان النصر حليفه وبعد ذلك أعطاه السلطان بادی الأحمر الهدايا الكثير ووعدته بالمساعدة اللازمة لعودته لعرش تقلى ، غير أنه دبر مؤامرة لاغراقه في النيل الأبيض أثناء انتقاله الى تقلى وتم اغراق القارب الذي كان يقوله الى بلاده فمات عمر غرقا ورفقاؤه ونجا شخصان من أتباعه نقلا الخبر الى تقلى ، وتمكن « اسماعيل بن محمد بن قبلى أبو قرون » من الحكم بعد أن حكم فترة طويلة في البلاد ، وخلفه على عرش السلطنة ابنه أبو بكر بن اسماعيل الذي كان حسن السيرة وازدادت في عهده قوة تقلى وامتد نفوذها الى مناطق متعددة وبعد وفاة أبو بكر حاول أخوه المريد ولاية العرش ، غير أن الجيش والمستشارين الخاصين للسلطنة والسلطان نادوا بولاية العرش لابن أبو بكر وهو عمر وقبل عجيلون شقيق السلطان أبو بكر الوصاية على العرش حتى يتسلمه عمر ، وكان عجيلون هذا رجلا عاقلا وله شخصية محترمة واستطاع في هذه الظروف الصعبة من السير بالأعمال في أمانة وتعقل وعمل على زواج عمر واسناد العرش اليه وتخلي عن الوصاية .

وتسكن هذا الاقليم مجموعات متعددة من أجناس مختلفة لها لغاتها الخاصة بها وتشمل مجموعة متعددة من القرى التي يطلق عليها النوبا .

وهذه السلطنة في أمس الحاجة الى دراسة واسعة ومتعمقة تبين لنا أوجه النشاط والنظم والعلاقات التي كانت بين سلطنة تغلى وغيرها من السلطنات الاسلامية السودانية المعاصرة ، كما تلقى الضوء على دورها في نشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية في أنحاء السودان وعلاقاتها مع البلاد العربية الاسلامية . وعن دورها في ارساء دعائم العروبة والاسلام في ربوع السودان .

ونورد هنا قائمة سلاطين تغلى الذين حكموا تلك السلطنة منذ أن قدم اليها الفقيه محمد الجعلى مؤسس السلطنة الاسلامية حيث تزوج ابنة حاكمها السابق كير كير وأنجبت منه الفقيه محمد أبو جريدة ابن محمد الجعلى مؤسس أسرة جعل في سلطنة تغلى .

- ١ - محمد أبو جريدة أو محمد قيلي أبو جريدة بن محمد الجعلى ٩٦٢ - ٩٨٨ هـ - ١٥٦٠ - ١٥٨٥ م .
- ٢ - سبع بن قيلي أبو جريدة ٩٨٨ - ١٠٠٠ هـ - ١٥٨٥ - ١٥٩٧ م .
- ٣ - قيلي عمارة بن سبع أبو جريدة ١٠٠٠ - ١٠٢٩ هـ - ١٥٩٧ - ١٦٢٥ م .
- ٤ - عمر أبو شحيرة بن سبع ١٠٢٩ - ١٠٣٠ هـ - ١٩٢٥ - ١٦٢٦ م .
- ٥ - قيلي عوض الله بن قيلي عمارة ١٠٣٠ - ١٠٤٥ هـ - ١٦٢٦ - ١٦٤٠ م .
- ٦ - قيلي أبو قرون بن قيلي عوض الله ١٠٤٥ - ١٠٧٣ هـ - ١٦٤٠ - ١٦٦٨ م .
- ٧ - محمد بن قيلي أبو قرون ١٠٧٣ - ١١٧ هـ - ١٦٦٨ - ١٧٠٢ م .
- ٨ - عمر أبو زنتر بن قيلي أبو قرون ١١١٧ - ١١٢٠ هـ - ١٧٠٢ - ١٧٠٥ م .

- ٩ - اسماعيل بن محمد ١١٢٠ - ١١٩٣ هـ - ١٧٠٥ - ١٧٧٣ م .
- ١٠ - أبو بكر بن اسماعيل ١١٩٣ - ١٢٣٥ هـ - ١٧٧٣ - ١٨١٤ م .
- ١١ - عمر بن أبو بكر ١٢٣٥ - ١٢٤٨ هـ - ١٨١٤ - ١٨٢٧ م .
- ١٢ - أحمد بن أبو بكر ١٢٤٨ - ١٢٧٤ هـ - ١٨٢٧ - ١٨٤٣ م .
- ١٣ - المريد بن اسماعيل ١٢٧٤ - ١٢٧٥ هـ - ١٨٤٣ - ١٨٤٤ م .
- ١٤ - ناصر بن أبو بكر ١٢٧٥ - ١٢٩١ هـ - ١٨٤٤ - ١٨٥٩ م .
- ١٥ - آدم ديالو بن عمر ١٢٩١ - ١٣١٧ هـ - ١٨٥٩ - ١٨٨٤ م .
- ١٦ - علي أبو زنيب بن آدم ١٣١٧ - ١٣٢٤ هـ - ١٨٨٥ - ١٨٩٢ م .
- ١٧ - قبلى بن آدم ١٣٢٤ - ١٣٤٨ هـ - ١٨٩٢ - ١٩١٦ م .
- ١٨ - أبو بكر بن قبلى ١٣٤٨ - ١٣٥٥ هـ - ١٩١٦ - ١٩٢١ م .
- ١٩ - آدم النيل بن قبلى ١٣٥٥ هـ - ١٩٢١ م .

هؤلاء سلاطين تقلى الذين حكموها منذ منتصف القرن السادس الميلادى حتى الربع الأول من القرن العشرين الميلادى والذين عملوا ما يقرب من أربعة قرون متواصلة فى حكم البلاد فى سلسلة أسرة الجعليين الذين عملوا على نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية التى ساهم هؤلاء السلاطين مع غيرهم من سلاطين الإمارات والمشايخ والسلطنات الأخرى على نشر العروبة والاسلام فى السودان ادراكا منهم لما لهذه الرسالة الخالدة من دور فى رقى البشرية ومحاولة الأخذ بيدها الى مدارج العلم والترقى والحضارة وصولا لفاهيم انسانية خالدة ومن هنا كان دور سلاطين تقلى فى ارسال المحمل سنويا الى بلاد الحجاز بل انها كانت تشارك مع المحمل الذى يخرج من القاهرة وكانت تدفع بعض تكاليف كسوة الكعبة الشريفة ، اضافة الى ارسال العديد من أبنائها للدراسة فى جامع الأزهر والعودة بعد ذلك الى بلادهم لكن يساهموا فى اثراء الحركة العلمية الاسلامية كما أن هؤلاء

السلطين من أسرة أبو جريدة الجعلى قد عملوا على تشجيع الحركة العلمية الاسلامية ، ومن هنا سعى اليهم العلماء من مختلف الأقطار العربية والاسلامية لكي يقوموا بدورهم في نشر الدعوة الاسلامية في تلك البقاع من أرض السودان ، وذلك لما كانوا يجدونه من تشجيع وعطاء ومن مكانة ومنزلة لدى سلطين تقلى الذين عملوا جهدهم على جذب رجال الدين والدعوة الاسلامية الى امارتهم لكي يعملوا ما وسعهم العمل على تعميق المفاهيم الاسلامية لدى شعب هذه الامارة وترسيخ العقيدة الاسلامية في نفوس شعبها والأخذ بيد الوثنيين من أهلها الى عقيدة الاسلام في المدن الكبيرة والعشائر وفي غيرها من القرى والتجمعات العشائرية البدوية وذلك للعمل على نشر الاسلام بين شعبة وادخال الناس في ذلك الدين الخالد ، كذلك العمل على تشجيع المسلمين من مختلف البلاد العربية والاسلامية على الهجرة والاستقرار في بلاده بالاضافة الى عمله على تشجيع الحركة التجارية ومساعدة حركة القوافل وتأمين الطرق بين بلاده ومختلف البلاد الاسلامية والعربية .

فقد شجع السلطان أبو جريدة بن محمد جعلى وأحفاده من سلطين البلاد وغيرهم من الامارات والسلطنات الاسلامية الأخرى في السودان على قدوم العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مصر والحجاز والمغرب وذلك لكي يساهموا مساهمة فعالة في نشر العقيدة الاسلامية وتعميق مفاهيمها الاسلامية على أسس علمية سليمة بين مواطنيهم .

ومن هنا يمكن اعتبار أن الميلاد الحقيقي للثقافة العربية الاسلامية في السودان قد ولدت بقيام سلطنة تقلى وغيرها من السلطنات الأخرى . ذلك لأنه لا غرابة في أن يولى سلطين هذه السلطنات وجوهم شطر الشرق الاسلامى ونحو المغرب الاسلامى مشجعين قدوم العلماء والفقهاء ورجال الدين ورجال الطرق الصوفية وانه بنهاية القرن الثامن عشر عم انتشار الثقافة العربية الاسلامية في أجزاء كبيرة

من السودان الشرقي في ارتباط وجدانها بالثقافة العربية واكتمال انتمائها بالحضارة الاسلامية *

سلطنة تغلى بين الفونج والفور : لقد كان وقوع سلطنة تغلى في منطقة حساسة بين القوتين الكبيرتين في سودان وادي النيل هما سلطنة الفونج في سنار وسلطنة الفور في الفاشر قد جعل السلطنة في منطقة الاحتكاك والصراع العسكري بين القوتين المتصارعتين ذلك لأن سلاطين سنار كانوا يعملون على مد نفوذهم غرب النيل الأبيض وصولا الى حدود سلطنة الفور بالاضافة الى أنه على الجانب الآخر فان سلاطين الفور كانوا يعملون من جانبهم على مد نفوذهم وبسط سيطرتهم على منطقة حوض النيل ومن هنا سعوا الى محاولة التقرب الى سلاطين تغلى ومحاولة احتوائهم والتقرب اليهم *

ولكن سلاطين سنار كانوا قد عملوا على ضم تغلى لسلطانهم فقام السلطان « بادي أبو دقن » بشن هجوم على جبال تغلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين وسبب الغزوة أنه كان له أحد الأصدقاء قد سافر الى تغلى ومعه تجارة كبيرة فتصدى له سلطان تغلى واستلب ما معه من الأرزاق ، فقبل له ان هذا التاجر الكبير صديق لسلطان سنار ، فقال ان سلطان سنار له أن يفعل ما يفعل وبناء على ذلك سار السلطان بادي على رأس جيشه وتقدم حتى وصل الى قصر سلطان تغلى ولكن حسن معاملة سلطان تغلى السلطان (أبو قرون ١٦٤٠ - ١٦٦٨ م) قد جعلت السلطان بادي يقبل الصلح مع سلطان تغلى ويعود أدراجه الى سنار بعد أن فرض عليه جزية سنوية وجعله حليفا لسنار ورجع بسبايا تغلى وأسكنها في قرى حول سنار شرق وغرب النيل الأزرق كل فريق بقرية ويبدو أنهم أصبحوا عماد الجيش النظامي لسلطنة الفونج *

لكن السلطان « رباط بن بادي أبو دقن » الذي خلف أباه في عرش سلطنة الفونج قد عمل من جانبه على استمالة سلطان تغلى الى صف سنار خوفا من أن يتجاذبه سلطان الفور وذلك للحد من نفوذ

الفور فزوج ابنته الى سلطان تقلى ، ولكن هذه المصاهرة والصدقة لم تدم طويلا ، ذلك لأن سلاطين دارفور من ناحيتهم كانوا يعملون على التقارب مع تقلى ، وكان نفوذ دارفور الثقافى والحضارى والاقتصادى قد بدأ يمتد الى تقلى قبل النفوذ السياسى والعسكرى ، ذلك لأن سلاطين دارفور كانوا يساهمون مساهمة فعالة فى ارسال المساعدات الاقتصادية لسكان تلك الأقاليم لاطعام سكانها اضافة الى العمل على اقامة المساجد ونشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية فى أرجاء تقلى وارسال العلماء من ناحيتهم الى تلك الجهات . . .

ولقد كان ذلك التقارب والترابط بين سلاطين تقلى وسلاطين الفور من الأسباب القوية التى دفعت السلطان بادی أبو دقن الى القيام بحملته المشهورة الى تقلى واجبار سلطانها على دفع الجزية السنوية له . بعد أن أخذ معه العديد من السبایا ، ولكن بسط النفوذ ودفع الجزية لسنار لم يدم طويلا اذ نجد أن سلاطين تقلى سرعان ما انقلبوا على سنار ورفضوا دفع الجزية لا سيما بعد أن علموا أن سنار قد بدأت تواجه المشاكل الداخلية العديدة واشتداد الصراع بينهم وبين الفور ، اضافة الى ظهور قوة الشايقية الذين كانوا يتحكمون فى طرق القوافل الى البحر الأحمر ، وذلك الصراع الدائر بين العبدلاب وسلاطين الفونج واستقلال العبدلاب عن الفونج وانتقال عاصمتهم من مدينة قرى الى خلفاية الموك .

وقد عمل سلاطين تقلى من جانبهم على تحصين بلادهم ضد الهجوم الخارجى وتجهيز الجيش بما يلزمه من أدوات التسليح كما حصنوا العاصمة « تاس » وغيرها من الأماكن الهامة فى البلاد .

وقد عمل سلاطينهم على انتهاج النهج الاسلامى فى الحكم وانتهجوا الكتاب والسنة فى كل أمور بلادهم وكان السلطان يحكم بما أنزل الله فى كل ما يهم بلاده وكان له مجلس يعاونه فيه الوزير الأول بالإضافة الى أنه كان يقيم السلطنة الى قسمين كبيرين قسم فى

الشمال وقسم في الجنوب • كما أنه كان يتبع السلطان العديد من رؤساء الأقاليم والمقاطعات الذين كانوا يؤدون الجزية السنوية الى جانب هذا كان قاضي القضاة وهو المسئول الأول في البلاد عن تطبيق الشريعة الاسلامية نصا وروحا في كل ما يهم السلطنة من أمور الحياة •

ومن هنا فان الطابع الاسلامي قد ساد دائما السلطنة ذلك لأن السلاطين عملوا ما وسعهم العمل على تطبيق الشريعة الاسلامية في كل الأمور واقامة الحدود الشرعية • كما أن سلاطينها عملوا من جانبهم على ربط بلادهم ببلاد العالم الاسلامي فاتصلوا بالقوى الاسلامية المعاصرة وارتبطوا بها برباط وثيق في جميع النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية وشجعوا طلابهم وحجاجهم بالرحيل الى مصر حيث الدراسة في الأزهر الشريف والانتقال الى مكة المكرمة والمدينة المنورة لتلقى العلوم الاسلامية ودراستها بالاضافة الى الاتصال بالعديد من العلماء •

فكما رحل العديد من العلماء ورجال الدين والفقهاء الى سنار والفاشر فمما لا شك فيه أن بعضا من هؤلاء الرجال قد شدوا الرحال الى تقلى لا سيما أثناء عبورهم الى سنار وأبناء ذهابهم الى دارفور حيث كان توسط موقعها من العوامل المساعدة لقدم رجال الدين اليها عملا على بث الروح الاسلامية في أنحاء السودان الواسعة • كما أن السلاطين من جانبهم عملوا على دفع حركة النشاط الاسلامي ومن هنا كان عملهم على تنشيط حركة الدعوة الاسلامية ببناء المساجد حيث المعقل والمراكز الكبرى لانتشار العقيدة كما أنهم سهلوا كل الوسائل لقدم رجال الدين الاسلامي الى بلادهم بعد أن قربوهم اليهم وعملوا بنصائحهم وقدموهم في مجالسهم الخاصة واستعانوا بهم في كل المصالح التي تهم جوانب الحياة وفي حل مشاكل الشعب التقلى •

ومن ذلك فقد عم الدين الاسلامي البلاد على نطاق واسع وأصبح هو الدين الزهني للسلطنة ودين الأغلبية العظمى بحيث لم

تعد هناك الا اقلية قليلة جدا لم تعتق الاسلام وان كان أثرها هذا قد انعدم فيما بعد ، بعد الانتشار الواسع للزوايا والمدارس والمساجد وللدور الذى لعبه رجال الطرق الصوفية فى انتشار الاسلام فى أنحاء السلطنة وما تميز به دور الزوايا من انتشار التعليم الاسلامى على نطاق واسع ودور الكتاتيب فى نمو الحركة الاسلامية وانتشارها على نطاق واسع .

وكما ارتبطت سلطنة تغلى بالعديد من الأقطار العربية والاسلامية المجاورة بعلاقات سياسية واقتصادية وثقافية وطيدة الا أن علاقاتها كانت مع دارفور أكثر مما مع غيرها من الأقطار الأخرى نظرا لحرص سلاطين دارفور على امتداد سلطانهم الى منطقة حوض النيل كما كانت علاقاتهم أيضا مع الفونج ينتابها أحيانا بعض الخلافات والتنازع وأحيانا أخرى تكون العلاقات طيبة نظرا لما بينهما من روابط ووشائج المصاهرة والنسب .

وقد ارتبطت تلك السلطنة بعلاقات قوية ووثيقة مع مصر على الرغم من أنها لم تصل الى تلك المكانة التى احتلها سلاطين الفور والفونج الا أنها سعت الى القاهرة حيث الأزهر الشريف لى يدرس أبناء تغلى العلوم الاسلامية وعلوم الشرع والدين مع اخوانهم تلاميذ البلاد السودانية الأخرى والأقطار الاسلامية التى كان يفد أبناءها الى ذلك الحصن الاسلامى الامين ، ومن هنا كان الأزهر هو الملاذ لكل أبناء الشعوب العربية والاسلامية ، لكن العلاقات كانت وثيقة فى العصر المملوكى الأخير وان كان ذلك لا ينفى وجود علاقات قوية فى ظل وقوع مصر تحت سيطرة الاحتلال العثمانى .

ولكن عندما دخلت الجيوش المصرية السودان عام ١٨٢١ م فى عهد محمد على واستطاعت تلك القوات أن تقوض كيان دولة الفونج فى سنار ، فان حاكم مصر فى ذلك الوقت قد أرسل الى سلطان تغلى فى ذلك الوقت وهو السلطان « عمر بن أبو بكر » يدعوها للاعتراف بسلطان مصر على بلاده تغلى ودخوله فى طاعته حرصا على سلامته وسلامة بلاده وانطواءة تحت الكيان العربى الاسلامى التركى .

ولكن السلطان عمر بن أبو بكر رفض تلك الرسالة التي كانت تدعو للاعتراف بالحكم المصري حيث حافظ على استقلال سلطنته تقلى .

لكن كان ذلك الرفض من جانب سلطان تقلى سببا في قيام مصر بارسال حملة عسكرية في عهد حاكم السودان الحكمدار أحمد خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٧ م) واستطاعت تلك الحملة أن تدخل « تاس » عاصمة تقلى لكن السلطان عمر بن أبو بكر عقد صلحا مع السلطات المصرية واعترف بالسيادة المصرية بمقتضى معاهدة الصداقة .

ولكن بمرور بعض الوقت قد حدثت بعض الأحداث الداخلية في سلطنة تقلى مما جعل السلطات المصرية تتدخل بقوة عسكرية كبيرة لكي تدعم نفوذها في تقلى ، ذلك لأنه في عام ١٨٤٣ م قد حدث خلاف على تولية عرش السلطنة بين شقيق السلطان عمر بن أبو بكر وبين ابن أخيه ، استطاع أحد المطالبين بالعرش وهو الأمير « ناصر بن أبو بكر » الفرار من بلاده والالتجاء الى مدينة الخرطوم حيث قابل الحكمدار المصري للسودان وطلب منه أن يساعده في تولية عرش السلطنة وذلك نظير اعترافه بالسيادة المصرية كاملة على تقلى مع تعهده بدفع جزية سنوية اذا نجحت السلطات المصرية ومكنته من تولية العرش ، وهكذا ساعدته مصر في الوصول الى العرش ومكنت له عرش البلاد ، لكن السلطان ناصر بن أبو بكر عند ما أحس بالتفاف الشعب حوله ونجاحه في توطيد أركان حكمه واستقرار الأمور في البلاد فإنه قام من توه بنقض الاتفاق المبرم مع السلطات المصرية كما أنه رفض دفع الجزية السنوية وتمرد على القيادة المصرية .

كما أن السلطان الذي تولى حكم البلاد بعد ناصر بن أبو بكر وهو السلطان « آدم دابلو » (١٨٥٤ — ١٨٨٤ م) قد رفض أيضا الاعتراف بالسيادة المصرية على بلاده وأصر على ممارسة سلطاته مستقلا عن أى تدخل في شئون سلطنته الداخلية .

بل أكثر من ذلك فإن السلطان اضطر الى ترك العاصمة القديمة « تاس » واتخذ مدينة « كويية » عاصمة سياسية جديدة للسلطنة ،

وذلك بعد أن اتسعت الحركة التجارية والعمرانية بها وأصبحت سوقا تجاريا هاما في بلاد السودان ، ومن هنا فقد ساعد ذلك الرخاء الاقتصادي والازدهار العمراني في ظل حكم السلطان « آدم دابلو » في المحافظة على استقلال بلاده وتمتعه بالحكم الذاتي وظل على تلك الحالة من الاستقلال حتى قيام الثورة المهدية في السودان ، وحتى أثناء قيام تلك الثورة وسيطرتها على السودان ، فان ذلك السلطان ظل فترة طويلة مترددا في قبول سيادة المهدية على اقليمه .

لكن هناك متغيرات تاريخية قد أدت الى انضمامه الى الثورة المهدية وخضوعه لحكم المهدي ذلك لأن المهدي عند ما استطاع أن يستولى على مدينة الأبيض عاصمة اقليم كردفان ، فان سلطان تقلى آدم دابلو ذهب بنفسه الى المهدي ومعه بعض أفراد أسرته الى الأبيض ليعلن انضمامه للمهدي ، لكن المهدي قبض عليه وسجنه وقتل بعض أتباعه ومات السلطان آدم دابلو في السجن .

لكن انطواء سلطنته تحت لواء المهدية وموت سلطانها في السجن لم ينهي حالة الاضطراب والفوضى في البلاد ذلك لأن الأمور قد ظلت مضطربة وغير مستقرة لا سيما بسبب التنازع بين أبناء السلطان آدم دابلو في تولي عرش البلاد مما جعل الفتن تشتد وتزداد في البلاد وبدأت البلاد تتجه للحرب الداخلية ، ومن ثم فان هذه الحالة كانت من الأسباب التي جعلت عبد الله التعايشي خليفة المهدي يقوم بتجريد حملة قوية الى تقلى عام ١٨٨٧م استطاعت تلك الحملة أن تضع حدا لهذه الفتنة الداخلية بعد أن أعملت السيف في رقاب الخارجين على النظام والشريعة .

لكن عندما استردت الحكومة المصرية السودان فان سلطنة تقلى استطاعت أن تسترد مكانتها السياسية في السودان وأعلن السلطان خضوعه للإدارة المصرية الجديدة وذلك بعد أن أصبحت تقلى جزء من مديزية كردفان .

وهكذا نرى كيف ساهمت سلطنة تغلى بكل مقوماتها في اثراء الحركة الاسلامية وفي نشر الاسلام بين ربوع تلك المنطقة حيث استفادت من الظروف السائدة في المنطقة مما جعلها تتعاون مع الفونج والفور وغيرهم من الامارات الاسلامية في نشر الثقافة العربية الاسلامية وفي بروز السودان بدوره العربي الاسلامي في ذلك الجزء من القارة الافريقية .

ومن هنا قامت تغلى بدورها الاسلامي والعربي في ذلك الجزء من السودان .

وهكذا بعد أن عرضنا لكل السلطنات الاسلامية العربية السودانية التي ظهرت على أرض السودان بدأ من الامارة العمرية في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي وانتهاء بسلطنة تغلى التي قامت في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي وكذلك لدور سلطنة الكنور في النوبة الشمالية « دنقلة » وسلطنة الفور في دارفور والفونج في سنار .

فان كل هذه السلطات لعبت الدور الأساسي والأول والهام في تغيير وجه السودان من حالة الوثنية والمسيحية الى الوجه العربي الاسلامي حيث استطاعت تلك السلطنات بما ملكت من مقومات عربية اسلامية يضاف اليها تلك المقومات المحلية المتوارثة من البيئـة السودانية أن تطبع البلاد بذلك الطابع العربي الاسلامي الزاهر الذي ساعد على اثراء الحركة العربية الاسلامية وانتشار الثقافة الاسلامية على نطاق واسع وتغريب السودان جنسيا ولغويا وفكريا ، وهكذا ظهر السودان بوجهه الاسلامي الخالص النقي الذي أصبح طابعه في وسط القارة الافريقية ومن ثم قدر له أن يلعب ذلك الدور وصولا الى كل تلك المناطق المجاورة له .

ومن هنا كان قيام تلك السلطنات وقيام سلاطينها بحركة الجهاد الاسلامي هو الموقف الاسلامي الذي يدفع بتلك السلطنات لكي لا تنقف

بمعزل عن الأحداث الدائرة في ذلك الجزء من السودان ، اذ استطاعت تلك السلطنات أن تحارب القبائل الوثنية التي لم تستطيع أن تقف طويلا أمام المد الاسلامي الذي استطاع أن ينتشر على نطاق واسع لا سيما في منطقة نقلي .

كذلك فان تلك السلطنات لم تساهم في نشر الاسلام بالجهاد فقط ، بل ان الأقوام العربية المهاجرة وسكان تلك السلطنات قد عملوا من جانبهم على الدعوة للاسلام بين القبائل الوثنية ومن هنا ظهرت الدعوة الاسلامية نشطة وظهرت الرغبة الشديدة لدى السكان في اعتناق ذلك الدين الاسلامي الخالد بعد أن انتشر رجال الدعوة الاسلامية والتجار والفقهاء والأئمة يجاهدون ويتنقلون في العديد من الأماكن تحقيقا لقوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن » .

وهكذا فان انتشار الاسلام في ذلك الجزء من السودان على نطاق واسع مقدمة لحركة اسلامية واسعة بدأت تتجه الى الجنوب حيث سكان المناطق الاستوائية من النوير والشلوك والدنكا وغيرهم من القبائل الزنجية التي بدأت تفتتح عقولها على الاسلام بعد أن وجدت فيه الدين الحنيف الذي يلائم طبيعتها الفطرية . لكن القوى الاستعمارية البريطانية قد حالت دون ذلك وخلقت مشكلة الجنوب .

وهكذا حقق الاسلام تقدما فعلا في بلاد السودان بفضل قيام تلك السلطنات التي غيرت وجه السودان السياسى والحضارى والثقافى وجعلته ركنا هاما من أركان الدعوة الاسلامية في القارة الأفريقية يمارس نشاطه الفعال الذي استطاعت حملات التبشير بالتعاون مع الاستعمار البريطانى الوقوف أمام تيار المد الاسلامي وخلق مشكلة الجنوب بعد أن نشرت اللغة الانجليزية والديانة المسيحية على نطاق واسع في المديريات الجنوبية (راجع كتابنا أخطار التبشير في العالم الاسلامي ، السودان ومشكلة التبشير) .

الباب السادس

« القبائل العربية في السودان »

لقد مرت هجرة القبائل العربية الى السودان بمراحل تشبه في بعض النواحي والوجوه نظائرها في مصر • ذلك لأن الهجرات العربية الخالصة التي أخذت تتدفق على البلاد تدفقا مستمرا وتنتشر في سهوله الفسيحة في الشرق وفي الغرب انتشارا واسعا ثم استقر بها المقام واختلطت بالسكان الأصليين ونشرت في البلاد السودانية اللغة العربية والدم العربي والدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية ومن ثم طبعت السودان بالطابع العربي الواضح والمؤثر والفعال على مر الأجيال •

ولذا شهد انتشار القبائل العربية في السودان ظاهرتين فريدتين الأولى وهي استقرار العناصر العربية الوافدة من الجهات المتعددة ثم بعد ذلك انتشارها في ربوع السودان الواسعة ثم عملها بعد ذلك على نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية وتكوينها تلك الامارات والسلطنات السابق الاشارة اليها • والتي كانت هي الظاهرة الثانية في تاريخ السودان والتي ساعدت على صبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية •

الا أنه قبل الهجرة العربية الاسلامية الواسعة النطاق الى بلاد السودان فانه قد كانت هناك مرحلة حدثت فيها هجرات عربية الى السودان في عصور ما قبل الاسلام وهذا ما جعلنا نقول ان تلك المناطق من القارة الافريقية كانت مجتمعات شبه عربية قبل انطلاق نور الدعوة الاسلامية ، الا أن تاريخ تلك الهجرات العربية في الجزء

الجنوبى (السودان) من الوادى فى تلك المرحلة الممعة فى القدم لم يكن من الوضوح بحيث يمكن القول أنها جاءت فى أى فترة من التاريخ هل كانت فى عصور قبل الميلاد أو بعد الميلاد .

لكن من الثابت أن الهجرات العربية الى السودان قد تمت منذ عصور ساحقة فى القدم ، وقبل الفتح الاسلامى لمصر بفترة طويلة ومن هنا جاءت الهجرات العربية الى السودان كما أشرت الى ذلك فى الفصل الثانى من هذا البحث فى القرن السابع قبل الميلاد أو الخامس .

ومن هنا فانه يمكن القول عند حديثنا عن القبائل العربية فى السودان بعد هجرتها من منابعها الأولى فى جزيرة العرب واستقرارها فى بلاد السودان ، فان بعض الباحثين قد درج على تقسيم القبائل العربية فى السودان الى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ - الجعليون : وتشمل هذه المجموعة القبائل التى تسكن ضفاف نهر النيل فى المنطقة الواقعة بين دنقلة شمالا والشلال السادس شمال الخرطوم ، وهم مجموعة عدنانية الأصل وهى أكثر القبائل العربية نفوذا. وكثرة عددية فى السودان وهى تنسب الى جد كبير واحد اسمه ابراهيم وقد لقب بالجعل وتنسبه الروايات التاريخية الى سبيد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا يطلق عليهم أحيانا المجموعة العباسية ولا يستبعد أن يكون هؤلاء الجعليون خليطا من عدة قبائل تنسب الى عدنان حقا ولكنها لا تنتهى الى جد مشترك واحد ، انما تجمعها فى صعيد واحد الغاية والهدف ثم هى قد ترتبط برباط المصاهرة ، ولهذا فنحن لا نأخذ بفكرة الانتساب الى جد واحد . ذلك لأن مسألة الانتساب الى العرب قد دخلها الانتحال منذ القرن الثانى الهجرى ، ومن هنا قد يكون الجد ابراهيم ولكن ليس لكل الفروع والبطون والبدنات ، ذلك لأن هذا الزعيم حتى يكسب قوة وسيطرة ونفوذ قد عمد الى ادخال من ليس من نسبه الى قبيلته اذ يقول لأهل البلاد قد جعلناكم منا .

لقد دخلت تلك المجموعة العربية من الباب الشمالى من مصر حين وردت الى السودان حيث طاب لها المقام والاستقرار على ضفاف النيل حيث تركزت فيما بين بلاد دنقلة وموقع الخرطوم الحالى ، ثم أخذت تنتشر من مكان التجمع هذا نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم وقد تخلف بعضا منهم فى بلاد النوبة وسار فرع منهم فى الاتجاه الغربى من السودان نحو كردفان وجبال النوبا حيث تقلى وكلما زادت أعداد هذه الجماعة كلما تعددت بطونها وعشائرها وقبائلها فقد كان الجعليون اذن شعبا عظيما •

والجعليون كما ذكرنا يرجعون نسبهم الى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وهم جمع كبير لعشائر عربية متعددة ، والراجح أن نسبها الى العباس قد أصبح لقبهم العباسيين وانما أريد به مجرد النسب الشريف الذى يميز هذه المجموعة عن غيرها من المجموعة العربية الأخرى وخاصة المجموعة الطالبية •

وهذه المجموعة الجعلية تضم الكثرة العظمى من العرب القحطانيين على أن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانيين بل أن هناك مجموعات أخرى مثل الكواهلة والرشايدة نسب أحيانا الى الجعليين •

والعباسيون لهم سطوة ونفوذ فى السودان • وقد يكون اتخاذهم لهذا اللقب العباسى أنه لم يرد به أى اتجاه سياسى معين لهذه القبائل العربية المهاجرة ، لكن ربما أريد به مجرد النسب الشريف الذى يميزهم عن الطالبيين خاصة ، ففي تلك المرحلة غدت السودان تعج بمعظم الهجرات العربية ومن ثم كان اللفظ له فى أوساط العرب ولا سيما أهل البادية منهم دلالة وأكثر اشتهار الى احدى الطائفتين الشريفتين من بنى هاشم ، الطالبيين ، والعباسيين • ونحن نعلم أنه كانت هنالك نقابة لهما ، ثم أصبح لكل فريق منهما نقيب خاص فى بغداد •

وليس بالعسير أن ترجع المجموعة الجعلية الى بطونها الأولى فى مصر ولكن موقعها الجغرافى على نهر النيل ما بين الخرطوم وبلاد

النوبة وانتشارها من هذا المركز في شعب وفروع نحو البطانة ونحو النيل الأزرق ونحو النيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب الى كردفان ، كل ذلك يحمل الدليل على أن هذه المجموعة قد وصلت السودان من الشمال عن طريق وادي النيل •

وليس في أقوال الرواة عن أصل تسمية جعل • ما يرشدنا الى معرفة نواة القبيلة أو المجموعة في شمال الوادي ويختلف النسابون في أصل التسمية على قولين ، القول الشائع أن ابراهيم الهاشم جد الجعليين كان جوادا كريما وأنه كان يقول للجماعات التي تتصوى تحت لوائه جعلناكم منا ، فسمى لذلك جعلاً وفي مخطوط سوداني يرجع الى عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م • أنه لقب جعلاً بضم الميم لسميته الشديدة ومنظره ، والواقع أنه لم يرد لفظ جعل ومشتقاته في أسماء قبائل العرب القديمة الا في قبيلتين احدهما جمال بن ربيعة وهم من أقطهم الرسول صلى الله عليه وسلم أرض أرم من ديار جذام والأخرى بنو حرام بن جعل وهي بطن من بطون بلي بن قضاة وهو بنو حرام ابن عمرو بن جشم ، فاللفظ اذن معروف في الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب ، أي في المستودع الأول الذي أمد مصر بموجاته العربية المتلاحقة •

بل ان المصادر تحدثنا أن من بين الصحابة الذين نزلوا مصر حرام بن عوف البلوي وكان من بنى جعل من بلي وهو ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة في رهط من قومه من بنى جعل فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ضحر ولا جعل أنتم بنو عبد الله ، على أننا لا نستطيع أن نجد صلة بين هؤلاء الجعليين في السودان • ولا سيما اتفاق جمهور النسابة على أن الجعليين عباسيون وأن جعلاً هذا ليس الا لقب لابراهيم وفي روايات أخرى أن الذي سمى جعلاً هو عبد الله جعل حفيد ابراهيم أو الجعلى وقد يخلط بعض الناس فيقول عبد الله جعل وابراهيم جعل فان عبد الله حفيد ابراهيم ومن هنا فلا غرابة ولاداعي للجدال •

كما أنه يلاحظ أن نسب الجعليين المتفق عليه يشتمل على بعض أجداد من أعقاب سبأ مثل يمن الخرزجى وذى اكلاع الحميرى وهو ابن سعد الأنصارى نسبة الى أمه الأنصارية ، الا أنه يستمر بعد ذلك الى العباس أسعد الأنصارى بن الفضل بن عبد الله بن عباس •

ولقد انقسم من الجعليين العديد من القبائل التى كانت تنطوى تحت لوائهم ومنها :

قبيلة الجوابرة :

وهم نسبة الى جد أكبر يدعى جابر ومركزهم الرئيسى فى جزيرة بادين الواقعة وسط النيل الى الجنوب من الخط الذى يفصل بين المحس ودنقلة جنوبا ويبدو أن وطنهم كان أكثر اتساعا فى عصر بوركهارث فقد ذكر أنه يمتد من الشلالين الأول والثانى •

وقد كانوا محبى العلم والمعرفة ومن ذلك فقد هاجر الى مصر طلبا للعلم بعض أولاد جابر وهم أربعة أعلمهم ابراهيم وأصلحهم عبد الرحمن وأروعهم اسماعيل وأعبدهم عبد الرحمن وهؤلاء يرجعون نسبهم الى غلام الله وقد عادوا للسودان للاسهام فى الحركة الثقافية والفكرية الاسلامية ، فنجد أن أحدهم وهو الشيخ ابراهيم بن جابر المعروف بالبولاد قد سكن قرية ترنج ودرس فيها وهو أول من درس الرسالة ميلاد الفوننج وشدت اليه الرحال ومدرسته فى خليل سبع صفحات وعلم فيها أربعين انسانا صاروا كلهم أولياء وأقطابا باذن الله تعالى ويرجع نسب هؤلاء أولاد جابر الى غلام الله اليمنى •

والجوابرة هم أكثر انقبائل عددا هناك وهى تمتد من شبالات حنك الى حلة التيتى وتتضمن ممالك ارجو وجزيرة مقاصر والخنق • وكان أهالى هذا الاقليم خليطا معظمهم فى الجوابرة والنوبة مع أثر من الكتوز والمهاجرين المصريين ويقول (بوركهارث) أما قبيلة الجوابرة والغربية ، فان الأخيرة فرع من قبيلة الزناتية الكبرى التى استوطن البلاد الواقعة من

أسوان الى وادى حلفا وكان من أثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد كبير من القبائل كانوا قد استقروا على ضفتى النهر وكان من بينهم الكبوز وهم قبيلة من نجد والعراق واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى ضفاف النيل من اسنا الى أسوان واستقر نفر قليل من أسر الأشراف فى بطن الحجر وفرض فرع من قريش نفسه على المحس وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون مستمرة مع بعضهم بعضا .

أما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريبا فأرسل الغربية رسلا الى القسطنطينية فى عهد السلطان سليم وطلبوا مساعدتهم على أعدائهم ونجحوا فى اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كردى وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة وأهالى دنقلة من النوبة والى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقلة ينتمون الى الجوابرة ومع ذلك بقيت بعض أسر الجوابرة يعيشون فى مواطنهم فى سلام ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون فى معظمهم فى الدر ووادى حلفا معروفين بأسماء أجدادهم والمركز الرئيسى للجوابرة الآن فى جزيرة بادين ويوجد عدد كبير من الزورات حيث يوجد عدد كبير فى جزيرة سميت فى المحس ويطلق على الجوابرة فى اللهجة النوبية اسم جبرى .

كذلك فانه بالاضافة الى قبيلة الجوابرة توجد قبيلة الركابية وهى أكثر مجموعة من قبائل الجعليين تطرفا فى السكنى نحو الشمال من السودان حيث يعيشون وسط الدناقل ويقال أن قرابتهم للجعليين قد جاءت عن طريق المصاهرة الا أنهم كانوا ينضمون تحت لوائهم . وأنهم كانوا يسكنون على وجه التحديد أواسط بلاد المحس الشمالية التى هى أول بلاد النوبة وموطنهم الرئيسى فى مركز دنقلة وهم ينتسبون الى جد من نسل الحسين بن على بن أبى طالب وهو ركاب بن غلام الله ابن عائد .

وان صحت الروايات المتواترة لديهم تكون هجرتهم من الناحية

الشرقية من طريق البحر الأحمر وقد هاجر منهم كثير الى غرب السودان حيث كردفان ودارفور وجبال تقلى .

اذن هؤلاء الركابية قد يكون تحالفوا مع الجعليين بحكم المصاهرة الا أنهم لا ينتمون الى فرع الطالبين والذين ينسبون الى الأشراف الذين ينسبون الى النبی صلی الله عليه وسلم .

والذين كان مركزهم الرئيسي في وادی الكنوز ووادی النوبة الى حدود دنقلة ونحن نعلم أن جيرانهم الكنوز من بقايا بنى كنز بن ربيعة الذين كانوا سندا قويا للدولة الفاطمية ولا يستبعد أن يكون الطالبيون قد اختاروا هذه المنطقة لصلته تربطهم بالكنوز ويبدو أن هذه المنطقة ظلت محل سكن الطالبين ونحدهم حتى وفدت اليهم جماعات أخرى مثل الجوابرة السابق الاشارة اليهم والقريبة فسكنوا بجوارهم .

كذلك فانه يمكن القول أن هؤلاء الركابية الطالبين الأشراف ينتمون الى فرع القرشيين حيث تتمثل قريش بمختلف فروعها في عرب السودان ففيهم البكريون والعمريون والزيريون والطالبون والعباسيون والأمويون ، ويرى أحد نسابة السودان المعاصرين تقسيم العرب في السودان الى ثلاثة أقسام هم جهينة والطالبون والعباسيون . بينما يرى البعض الآخر تقسيمهم الى أربعة أقسام الجعليون وجهينة ، والأشراف ، والأمويون ، والذين يذكرون أن أسلافهم قد جاءوا الى السودان بعد أن سقطت دولتهم على يد العباسيين وانقسمت تلك المجموعات الكبيرة بدورها الى عدة أقسام صغيرة وكل قسم منها يمثل قبيلة من القبائل التي وفدت الى السودان عن طريق مصر ويبدو أن المجموعة الجعلية ضمت معظم الحضر كما أن المجموعة الجهينة مالت بصورة عامة الى حياة البداوة .

وأن نشاط هذه القبائل العربية كان بصعيد مصر وأن تلك القبائل

شقت طريقها الى السودان وادى النيل فبالنسبة لجهينة يذكر المقريزي أنهم أكثر عرب الصعيد •

كما أن الجعليين لا تشتمل على كل العدنانيين ، بل أن هناك مجموعات أخرى مثل الكواهلة والرشايدة نسبت أحيانا الى الجعليين ، كذلك فانه الى جانب هذه المجموعات هناك مجموعات أخرى من القبائل العربية استقرت على ضفاف النيل ومن هؤلاء الكنوز « بنى كنز » وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام سبع وأربعين ومائتين في عدد كثير وانتشروا في النواحي ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها ، ثم اتصلوا بالبجة وتزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا القرى وحفروا الآبار ، ثم كونوا فيما بعد أرستقراطية عربية بمنطقة أسوان وشمال النوبة •

أما بالنسبة لبني أمية فقد أورد المقريزي وصفا للمجموعات التي كانوا يتألفون منها منهم ولد ابان بن عثمان بن عفان وولد خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان • وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان ومنهم المروانية أولاد مروان بن الحكم •

٢ - الأشراف :

وأما الأشراف فيبدو أن اسم الأشراف أصبح يطلق على أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأحفاد الخليفة على بن أبي طالب وأخيه جعفر الطيار ، ولقد هبط الجعافرة أرض مصر ضمن المجموعة القرشية وكان من هؤلاء الجعافرة بنو جعفر الطيار بن أبي طالب ومنهم أيضا الزيانية أولاد على بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وأمه زينب بنت على بن أبي طالب وأن هؤلاء الجعافرة لعبوا دورا كبيرا في الحياة السياسية في مصر ثم هاجرت مجموعات منهم الى السودان وانتشرت في أرجاء معينة فيه •

ومن هنا فان الطالبون أكثرهم في السودان يجتمعون في ركاب ابن غلام الله بن عائد والعباسيون تجمعهم قبائل جعل أي الجعليين ويذكر نعيم شنقى أن أهم الأصول التي يرجع إليها عرب السودان في انتسابهم هم بنو أمية وبنو العباس وجهينة والزبير بن العوام وجعفر الطيار بن أبى طالب وأن معظمهم ينسب إلى جهينة وبنى العباس إلا أن المنتسبين إلى جهينة أكثر .

وليس هناك شك في أن فئات من القرشيين في السودان قد اندمجت في مجموعات أخرى بالحلف أو بالمصاهرة وربما كان هذا من أسباب اختلاف النسابين في نسب المجموعة الواحدة أحيانا فبعضهم ينسبها إلى قریش وبعضهم ينسبها إلى جهينة أو ربيعة أو مضر من غير قریش .

وليس الاختلاف في رواية هذه الأنساب هو دائما وليد جهل أو خطأ بل ربما يعود ذلك إلى نوع الحلف أو الأحلاف التي كانت تتم بين القبائل العربية في السودان حيث كان يتألف الحلف من عدة قبائل أو مجموعات كبيرة من القبائل فمثلا في السودان قبيلة الشكرية ينسبون في روايات مختلفة إلى جهينة ثم في أخرى إلى فزارة ثم إلى جعفر ابن أبى طالب وهذا لا يعنى أن كل هذه الروايات غير صحيحة ، إنما ربما يكون مرجع ذلك إلى أن هناك مجموعات من هذه الأفرع قد أنطوت أو اندمجت في بعض الفترات التاريخية إلى مجموعة قبائل الشكرية .

وقد نزلت جماعات من قریش إلى السودان في فترات مختلفة في مرحلة الأحلاف وربما جاء معظمهم من وادى النيل وقليل منهم جاء من أطراف أخرى كالطريق الشمالى الغربى ، الطريق الليبى ، أو عن الطريق الشرقى « الأوسط » وهو طريق البحر الأحمر .

كذلك فان ورود أحفاد أبى بكر الصديق رضى الله عنه قد كانوا في جملة العرب الذين اشتركوا في غزو بلاد النوبة أيام السلطان .

قلاوون • ففي السودان نجد المسلمية وهي القبيلة الوحيدة التي
تنتسب الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكثير منهم يسمون أنفسهم
البكرية مبتعدين بنسبهم عن كل من الجعلين والجهينين •

وهم يعيشون فى الجزيرة حيث سمي أحد المراكز باسمهم وعلى
صفتى الفيل الأبيض وأكثرهم مستقرون يمارسون الزراعة ولهم فى
البطانة شعبة صغيرة تعيش عيشة البداوة •

كذلك العمرىون أولاد عمر ، لهم دخلوا السودان على فترات
ومنهم طائفة دخلت أرض السودان فى القرن الثالث الهجرى أيام حملة
عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ، وقد فرت جماعة من العمرىين الى
السودان فى أيام الظاهر بيبرس وهم آل عاصم بن عامر بن قصير
العمرى من بنى عمر بن الخطاب •

أما قبيلة الجعافرة نسبة الى جعفر بن أبى طالب فقد كانت هناك
جماعات منهم تنزل الصعيد الأعلى وما زالت بقاياهم الى اليوم بين
قوص واسنا ثم انتشرت طوائف منهم جنوبا الى بلاد المحس ومع ذلك
فان لهم شعبة تعيش فى كردفان وتتصل بالجوامعة •

كذلك توجد فى وادى العلاقى فى أرض المعدن من جملة العشائر
التي تعمل فى ذلك المكان قبيلة العليقات وقد عاشت فى ذلك المكان ردحا
من الزمن وبعد أن أصاب الوادى الخراب ، نزحوا شمالا الى بلاد
الصعيد والى سيناء • ويبدو أن سبب تسميتهم بالعليقات يرجع الى
هذا المكان وهو وادى العلاقى وهم ربما يكونوا قد أخذوا ذلك الاسم
تسمية الى عقيل بن أبى طالب الذين يسكنون هذا المكان فيما بين
المضيق وكركسكو وأيضا من ذرية عقيل بن أبى طالب جماعة الصوادة
فى بلاد المحس •

وفى دنقلة عاصمة بلاد المقررة السابقة عاشت أسرة سوار الذهب
وهى أسرة الشيخ شامى محمد ولد عيسى وفى زواياتهم أنه يرجع

نسبه من جهة أبيه الى العباس ومن جهة أمه الى الحسين بن علي بن
أبي طالب رضى الله عنه .

وفي منطقة بوهين سكنت جماعة من الفادينة ويتصل نسبهم الى
محمد بن الحنفية وأول من ذكر منهم في تلك المنطقة الشريف محمد بن
محمد بن سليمان بن جعفر بن عبد الله .

وفي أنحاء السودان تفرقت جماعات أخرى كثيرة تنسب الى قريش
وليس من اليسير احصاءها ولكن يوجد منهم العباددة وهم يرون أنهم
ينسبون الى نسل من الزبير بن العوام ويربطون نسبهم بالكواهلة وان
العباددة والكواهلة كانوا من قبائل أرض المعدن ومنها تفرقوا في أنحاء
وادي النيل .

كذلك فانه من قريش أيضا قبيلة البطاحين وهم يقولون ان
اسمهم مشتق من بطحاء مكة المكرمة وهم يلتقون في نسبهم مع أجداد
الجعليين وأن هجرتهم كانت عن طريق مصر الى غرب السودان وأن
لهم في كردفان آثار يعرفونها وأنهم صاروا ينتجعون المراعى ومعهم
أبناء عموماتهم الفنن فنزلوا بالضفة الشرقية للنيل في المكان الواقع
شرقى الجريفان الى ما بعد شرق الحلفاية شمالا .

ومن قريش أيضا ملوك الفونج الذين أسسوا سلطتهم في سنار
حيث كانوا أول من أسس سلطنة إسلامية واسعة النفوذ في بلاد
السودان وحكموا أكثر من ثلاثمائة سنة . وهؤلاء الفونج ينتسبون الى
بنى أمية وأن لهم صلة بأعقاب بنى أمية الذين استوطنوا هذه
الجهات .

ومن القبائل التي تمت بصلة القريبى الى قريش قبيلة كنانة بن
خزيمة وأن أول من قدم منهم الى بلاد السودان جماعة كانت بزعامة
منصور حيث عبروا طريق النيل من مصر الى السودان نحو الى عام
٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ومن منصور هذا تشعبت بطون كنانة البقرة ومنهم

أولاد سوار ، وكانت كنانة ممن سكنوا مدينة سواكن ولكن يبدو أن كنانة هذه التي تمت بصلة القريبى الى قریش قد هاجروا بعد ذلك الى دنقلة واستقروا هناك زمنا ثم تفرقوا بعد ذلك فذهبت طائفة منهم الى كرن جنوبى تقلى فى كردفان ولحق قسم منهم بالكبابيش وبقي قسم كبير منهم شرق النيل الأبيض •

وقد تدفقت هذه القبائل العربية على السودان واختلطت بأهله وصبغتهم بالصبغة العربية جنسا ولغة وعلى هذا فان السودان تشهد صورة عربية مشابهة الى حد كبير مع تلك التي شهدت فى مصر •

وعلى هذا فان نظرة واحدة على القبائل العربية التي تعيش اليوم فى السودان تجعلنا ندرك مدى الصلات بين تلك القبائل وبين القبائل العربية فى مصر ، فهذه القبائل التي هاجر أكثرها من مصر حملت معها الى السودان عناصر جديدة من وحدة الدم واللغة والعادات والتقاليد والقيم ، ومن هنا فان صورة المجتمع العربى بالسودان تنقسم الى جزئين عربيين رئيسيين جزء بدوى وحضرى • ذلك أن هنالك بعض القبائل العربية فضلت حياة البحث وراء الكلا فأصبحت قبائل رعوية فى جهات معينة من السودان وتتكون أكثر هذه المجموعات من قبيلة جهينة وما انتسب اليها من القبائل العربية •

٣ - جهينة هذه من قبائل اليمن وهى : « جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحاف بن فضاعة » وهى قبيلة عظيمة وبها بطون كثيرة وأنهم نزلوا بصعيد مصر ثم تحركوا بعد ذلك الى السودان حيث أصبحت منطقة نفوذهم فيما بين الصعيد الأعلى وبلاد الحبشة وهناك تكاثروا وغلبوا على بلاد النوبة وأن دخولهم بلاد السودان كان على دفعات كبيرة لكنه تم فى أزمان مختلفة وربما تكون متباعدة فقد كانوا يشكلون نسبة كبيرة فى جيش العمرى الذى قام بغزو بلاد النوبة الشمالية وبلاد البجة أيام عصر أحمد بن طولون ، كذلك تكاثروا فى أرض المعدن ثم أخذوا يعملون مع قبيلة ربيعة فى زمن مبكر منذ القرن

الثالث الهجرى وفي عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م تنازعت جهينة ورفاعة في صحراء عيذاب ورفاعة هذه ربما تكون فرع من جهينة وفي عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م طارد المماليك عرب برية عيذاب حتى بلغوا سواكن ، كذلك فان جهينة انتشروا في زمن انفاطمين شرق الصعيد الأعلى الى عيذاب أدركنا كذلك أن عرب جهينة كانوا يمثلون في غرب برية عيذاب هؤلاء بنصيب غير قليل ، ثم جاءت أحداث أخرى أدت الى لجوء كثير منهم الى أطراف بلاد الزنج وبلاد الزنج هذه هي بلاد الصومال في اصطلاح العرب القديم .

ومن هنا ندرك أن جهينة قد دخلت بلاد السودان في موجات متعددة واتجه معظمها من طريق وادي النيل الى الشرق حيث بلاد البجة وساحل البحر الأحمر واكتظت بهم المنطقة الواسعة التي تأخذ من حلفا الحالية الى شمال غربى الحبشة وكان لهم أثر قوى في الضغط على مملكة النوبة المسيحية الشمالية حتى أزالواها ثم تدفقوا الى الغرب ثم الى الجنوب فشغلوا بقاعا مترامية من السودان تمتد من الشرق الى الغرب وأصبح لهم نفوذ كبير في بلاد السودان حتى أنهم صاروا ومن تحالف معهم يشكلون الكتلة الرئيسية بين القبائل العربية الى هاجرت الى السودان وتركت بصماتها واضحة قوية في حركة التأثير الحضارى والثقافى العربى والاسلامى .

وجهينة هذه قبائل قحطانية وهم يتألفون في السودان من مجموعتين كبيرتين احدهما مجموعة شرقية ومجموعة غربية في كردفان ودارفور وعلى هذا الأساس فان المجموعة الشرقية هذه قد دخلت السودان من الطريق الشمالى الشرقى (مصر) على حين دخلت المجموعة الأخرى الغربية السودان من المعبر الشمالى الغربى .

وتتقسم جهينة تلك القبائل العظيمة في بلاد السودان الى ثلاث مجموعات رئيسية تشكل المجموعة الأولى قبيلة رفاعا ، اللحويون ، العوامرة والخواالد ، الشكرية .

تلك هي المجموعة الأولى والتي منها رفاة الذين كانوا مجاورين
للبجة ولهم أوطان على حدود الحبشة وفي عصر الفونج كانت مواطنهم
تمتد على جانبي النيل الأزرق في السودان من سفوح الحبشة الى
المقرن وهم بطن من سليم بن جهينة وهي من القبائل الواسعة الانتشار
في السودان وتصل ديارهم من هضاب الحبشة ملتقى النيلين الأزرق
والأبيض بالخرطوم .

وحسب الروايات السائدة في السودان ، فان رفاة كانت في
باديء الأمر تقيم ببلاد البجة وقد دارت حرب طاحنة بين رفاة
وجهينة في صحراء عيذاب في عام ١٢٨١هـ / ١٨٦٠م الأمر الذي دفع
السلطات المملوكية في مصر الى أن تتدخل لكي تضع حدا لهذا النزاع
وتحسمه ، ومن ثم ارتحلت رفاة من اقليم البجة الى الغرب وهبطت
الى النيل الأزرق واحتلت أجزاء كبيرة من بقاعه وكذلك الجزء الجنوبي
من أرض بطانة .

ومن هنا فان وجود جهينة في صحراء عيذاب يدعم الآراء القائلة
بأن أغلبية القبائل العربية التي هاجرت الى السودان أواخر العصور
الوسطى جاءت اليه من مصر ولا بد أن تلك القبائل كانت تنتقل من
مصر الى صحراء عيذاب ثم تتحدر جنوبا الى السودان .

كذلك فان هناك فرعاً كبيراً من قبيلة رفاة الجهنية قد لعب دوراً
كبيراً في الاطاحة بمملكة سوبا (علوة) المسيحية في القرن السادس
عشر الميلادي ، وذلك لأن عرب العبدلاب وهم شعبة من مجموعة
القواسمة الرفاعية ، قد شاركوا بجهود عظيمة مع رجال الفونج في القضاء
على مملكة علوة وتأسيس مملكة الفونج السنارية حيث كان العبدلاب
العضد الأكبر لهذه السلطنة الاسلامية في الاقليم الشمالي وأن أمراء
العبدلاب لم يكونوا مجرد زعامة للشعبة الشمالية من رفاة أو حتى
القواسمة بل كانوا حكام أقاليم لهم السلطة التامة على جميع القبائل
التي تعيش في الشطر الشمالي من سلطنة سنار .

ولعل هذا الدور الذي قام به فرع من قبيلة رفاعة يدل على مدى النفوذ والقوة التي بلغتها بعض هذه القبائل العربية المهاجرة الى السودان •

أما الشكرية وتعيش أكثر الشكرية في اقليم البطانة ويتجولون في سهول البطانة بابلهم شمالا وجنوبا يصلون ملتقى نهر عطبرة بالنيل وجنوبا يصلون الى النيل الأزرق ويضعهم النسابون في مجموعات جهينة وتذكر الشكرية أنهم من بني شكر وأن بني شكر استقروا في أرض المعدن ردحا من الزمن وأن أحد مواقع المعدن كان يسمى الشكري وربما أخذ اسمه من ذلك الفرع الذي ينسب لقبيلة ربيعة ، ثم أن بني شكر ارتحلوا من أرض المعدن واستقروا في موطنهم الحالي بأرض البطانة ومن الراجح أن يكون قد صاحبهم في هجرتهم هذه بعض بطون من جهينة ومن المعتقد أن تكون هذه الهجرة قد تمت في القرن الرابع عشر الميلادي وقد لعبت قبيلة الشكرية دورا كبيرا في حياة السودان السياسية خاصة في عهد الحكم التركي (١٨٢٠ - ١٨٨٥ م) •

ومن المحتمل أن تكون هناك أفرع كثيرة قد انضمت في أزمان مختلفة الى مجموعة الشكرية ، كما أن موقع الشكري الذي يقع في موضع معادن التبر من المحتمل أن يكون هذا الموضع نسبة الى رئيس مجموعة عربية سكنت هذا الموضع ردحا من الزمن وربما قد تكون هناك صلة بين موضع الشكري هذا وقبيلة الشكرية التي تسكن حاليا منطقة البطانة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة •

وتأتى المجموعة الثانية من جهينة من القبائل الأولى التي شاركت بدورها في اثراء حركة العروبة والاسلام في السودان وهم بنو حامد ، وبنو جرار ، والزيادية ، والبرعة ، والشنابلة ، والمعاليا •

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة ويعيشون في الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، وبنو فزارة هؤلاء هم فزارة ابن ذيبان بن يفيض بن ريث بن عطفان بن سعد بن قيس بن

عيلان وسمى فزارة واسمه عمرو لأن سعد بن ذبيان أخاه فزر ظهره فكانت به فزرة فسمى فزارة ، وفزارة هذه عدة عشائر كبنى شمع وظالم ومرة ومازن وشكم وسعد ولوذان وغير ذلك •

وفزارة عاشت جماعة منهم بصعيد مصر ثم ارتحلت بعضها الى السودان وهم قبيلة قيسة ويبدو من دراسة المجموعة القزارية هذه في السودان أن لبعضها على الأقل صلة ببني هلال ففى روايات دار حامد التى هى فرع من فزارة أن جدهم حامد حين قدم الى غرب السودان لقي أبا زيد الهلالى فاستشاره فى المكان الذى يتخذة مقاما له فأشار عليه بسكنى بقعة معينة فى كردفان ، والزيادية أيضا ينتسبون الى اليوم الى أبى زيد الهلالى •

كذلك يضاف الى هذه القبائل التى تنتمى الى فرع جهينة أيضا قبائل الدويحية السلمية والبقارة والمحاميد ، الكبابيش ، المغاربة والحرر ، وقد أطلق النسابون اسم فزارة على مجموعة من القبائل التى تعيش فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان وتتألف هذه المجموعة من عدة عشائر منها دار حامد وبني جرار ، الزبادية ، النزعة ، الشنابلة والمعالية •

وبعض هذه العشائر تعنى بتربية الجمال ، واذا نظرنا الى قبيلة فزارة فى السودان حاليا نجد أن عقدها قد انفردت وصارت وحدات منفصلة كل وحدة تحمل اسمها الخاص •

ومن قبائل البقارة قبيلة بنى سليم : وينقسمون الى فرعين هما أم طريف وأولاد محبوب ويعيشون غرب النيل الأبيض فى منطقة تمتد جنوبا حتى كاك ، شمال منطقة الشالك والدنكا وجنوب الأحامدة وحرفتهم الرئيسية رعى البقر وفى الفصل المطير يتحركون شمالا وشرقا غرب النهر وهربا من أثر الذبابة وقد لجأ بعضهم الى تربية الضأن وأكثروا منه لنزوحهم نحو النهر •

كذلك توجد قبائل الغدييات ، وقد أقاموا في البداية عند جبل كردفان بعد أن طردوا النوبا منه وعند ما استطاع الفونج إخضاع المناطق بين الأبيض والداير أقاموا عليها حاكما من العذياب وقد تداخلوا في قبائل النوبا الشمالية حتى ضاعت كثيرا من الفوارق بينهم وفي عهد المهديّة كان لهم قبيلة من أتباعهم اشتركت في حصار الأبيض يقودهم اسماعيل الدلندوك ودكتونة •

وإذا كان البقارة والكبابيش ينتسبون اليوم الى جهينة الا أنهم في واقع الأمر أحلاف تجمعت على فترات وتألّفت من بطون عدة لعل أهمها جذام وجهينة والهواره وبنو هلال وأحلاف هؤلاء وأولئك من فزارة وسليم وتميم وبلى وغيرهم ، ومن الجائز أن بعض من هذه البطون قد نزلت من بلاد المغرب من الطريق الليبي عقب الغزوات الهلالية لشمال افريقيا ولكن مما لا شك فيه أن أكثر هذه الجماعات المتحالفة قد سلكت في هجرتها الى السودان طريق وادي النيل وهذا ما رجحه ماكمايكل ، والبقارة ليس في الأصل اسم علم على قبيلة عربية قديمة ولكنه وصف يدل على المهنة فمعناه رعاة البقر ولعلمهم رضوا بذلك لتمييزهم في المهنة عن جيرانهم في الشمال من رعاة الابل الكبابيش والبقارة يسكنون دارفور وكردفان والكبابيش معظمهم في كردفان •

وقبائل البقارة من أكثر قبائل البلاد التي انتشرت في غرب السودان ومن الواضح أنه بنهاية القرن الرابع عشر الميلادي استطاعت القبائل المتدفقة من مصر أن تتوغل في انسهول الشمالية لكردفان كما تجاوزت هذه الأنحاء غربا الى دارفور حتى بلغت في توغلها غربا اقليم واداي في السودان الغربي وكانت هناك مجموعات من هذه القبائل اتجهت جنوب هذه المنطقة حيث وجدت نفسها في بيئة طبيعية لا تتناسب مع رعى الجمال والأغنام بل تصلح لتربية الأبقار ولذا أطلق على هذه القبائل العرعربية التي عنيت بتربية الأبقار اسم البقارة •

ومن فروع البقارة التي يظن أن لها صلة بخذام ولخم بنو هلبة وهم من البقارة وتمتد بطونهم الى وراء السودان الغربي وهذا

الاسم يذكر ببني هلية الجذامين الذين سكنوا الحوف الشرقى من مصر وتضيف بعض المراجع أن بني هلية يعيشون حالياً في جنوب دارفور •

كذلك فانه بالاضافة الى بني هلية يوجد فرع آخر من قبائل البقارة هم بنو هبانة أو انهبانية ومعظمهم في دارفور وأن الهبانية أو بني هبان بطن من لخم كانت مساكنهم بالبر الشرقى في صعيد مصر وترجح بعض المراجع أن لفظ هبانية قد تحرفت في السودان الى حبانة ومهما يكن من أمر فان في السودان العديد من القبائل التى تنتسب الى لخم •

كذلك فانه يضاف الى البطنين السابقين بنو هلية وبنو هبانة بطن آخر هم الثعالبة الذين يكونون جزء كبيراً من احدى قبائل البقارة وتسمى المسيرية والتي تعيش حالياً في اقليم كردفان بغرب السودان ويذكر بعض النسابة في السودان أن المسيرية هم أبناء « مسيره بن ثعلبة بن فخذ بن طى » وكانت هناك مجموعة الثعالبة في صعيد مصر ويشير القلقشندي الى أن مجموعة من الثعالبة كان صلاح الدين الأيوبي قد أسكنهم الحوف • وفيما يبدو فانه بعد فشل الانتفاضات العربية المتكررة فقد هاجر الثعالبة وأبناء عمومتهم الى كردفان ويبدو أن الثعالبة كبقية قبائل البقارة امتزجوا بمجموعات عربية أخرى خلال هجرتهم وفيما بعد اختلطوا عن طريق التزاوج مع سكان كردفان الأصليين وتجدر الإشارة الى أن بعضهم قد احتفظ بعرويته خاصة من ناحية الجنس ، اذ أن هناك نوعين من المسيرية في كردفان أحدهم المسيرية الزرق كناية عن سواد بشرتهم والمسيرية الحمر كدلالة على بياض بشرتهم •

وينسب البقارة الى جنيد بن أحمد الأجزم أو ابن حمد الأجزم في رواية أخرى •

البقارة : تعيش قبائل البقارة في جنوب كردفان ودارفور في اقليم يمتد غرباً حتى بحيرة تشاد وجنوباً حتى اقليم الدنيكا والفريت

والبقارة هم المجموعة الوحيدة التى تحتفظ بهذا الاسم كتعريف أصلى لها دون القبائل الأخرى حتى التى تحترف رعى البقر وبسبب هذه الحرفة يضطر البقارة للتنقل جنوبا وشمالا حيث موسم الأمطار خوفا من أثر الذبابة ولكنهم كانوا يقعون فى قبضة الحكومة حيث يضطرون لدفع الضريبة ، وقد ساهموا فى اشعال الثورة فى عهد المهدي واشتركوا مع المهدي فى حصار الأبيض ولكنهم فى عهد خليفته واجهوا بعض الصعاب عندما رفضوا سياسة تهجيرهم الى الشمال ، وينقسم البقارة فى كردفان الى عدة قبائل أهمها :

المسيرية والحرر : وهما فى الأصل قبيلة واحدة ذات قسمين هم المسيرية الزرق والحرر والواقع أن المسيرية الحرر قد انفصلت فى الأونة الأخيرة حيث صاروا يشكلون قبيلتين منفصلتين لكل منها دار ، فالمسيرية الزرق موطنهم حول جبل السنط والمفرع ويمر ببلادهم وادى الغلة ومجرأه فى الشمال الى الجنوب الغربى وينقسمون فى كردفان الى أولاد سليم والفزايا والديرادى وأولاد أبو نعمات وأولاد هبيان وقد دخلوا فى نزاع مع قبائل كردفان ، والأخرى بغرض التوسع وتنقسم الى فرعين أساسيين الحرر العجاجة والحرر الفلاتية • وموطن الحرر بين البركة وشكا ولا يتجاوز خط عرض ١١° شمالا وأكثرهم الأصية وأبى قلب • وانتقالهم من الغرب الى الشمال والى الجنوب يساعدهم على الانتفاع بجميع المراعى ويجنبهم غائلة الذبابة فى موسم المطر •

الهبانية : ويقع اقليمهم بين بركة الرهد وشريكيه وجنوبا الى تقلى بين خطوط طوليا ١٥ ، ١٣ ، ٢٢ شرقا وبين خط عرض ١٥ ، ١٢ - ١٢ر٤٥ شمالا ويقولون انهم فرع من هبانية دارفور هاجروا فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر وقدر عددهم عام ١٨٧٦ م بنحو ٨ آلاف نسمة وينقسمون الى فرعين هما الطارة والسوط ويلحق كلا من هذين الفرعين فروع أخرى ويعيشون تقريبا على نمط من الحياة التى يعيشها اخوانهم البقارة الآخرين سواء فى تربية الأبقار أو من حيث العادات والتقاليد •

الحوازمة : وتقع منطقتهم الى الشرق من الدلنج وتمتد الى قرب كادوفلى ، جزؤها الشمالى الشمالى فى قاحل اقيزان ، وبقية الأجزاء تصلح للزراعة وخاصة فى جهات النجكية وأم علوان وغيرها ، كما تكثر بها أشجار الصمأ ، والحوازمة رحل تقريبا اذ أنهم يضطرون للنزوح فى الصيف جنوبا حيث المرعى والماء ، أما الذين يعملون فى الزراعة والتجارة فيقيمون بمنطقتهم على مدار السنة وتتقسم القبيلة الى ثلاثة أقسام ، عبد العلى ، حلالة ، الروادمة ، وبسبب توغلهم فى جبال النوبا فقد اختلط بعضهم بشعب النوبا حتى أن بعضهم سمي أولاد نوبا وبطون هذه القبيلة التى تعيش فى كردفان هى دارتى ودار شلنقو ودار نجونى ودار بعيلة وأولاد عميوش .

أولاد حميد : وموطنهم حول تقلى ويقولون أن جدهم بابكر العباسى من الجعلين الذين نزحوا الى كردفان فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حيث أقام فى منطقة بنى الرهد وثركيه وفى جنوب غرب تقلى ، وفى تلك المنطقة تنازعوا مع الهكبانىة وجانب من الحوازمة قبيل المهدية ، وعند اندلاع المهدية حاولوا مقاومتها ولكنهم فقدوا كثيرا من رجالهم المحاربين فاضطروا الى تأييدها والانضمام اليها وفى كردفان اختلطوا ببعض القبائل الأخرى كما تداخلوا فى قبائل النوبا من حيث ساعدوا على تسرب بعض الدماء النوبية اليهم .

وكان قد تدفقت بنو جذام الذين ينسب اليهم البقارة فى الاتجاه الشرقى الى السودان حوالى عام (٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م) حتى بلغوا شمال دارفور وقضوا على حكم الزغاوة هناك . وقد أبعدت طوائف من الجذاميين وقرنائهم اللخميين عن مساكنهم فى مصر فى عهود الفاطميين والأيوبيين ولعلمهم اتخذوا أطراف مصر موطناً لهم ولا سيما الأطراف القريبة فترة من الزمان وكانت هذه الأطراف منذ القرن السادس الهجرى مسرحاً لحركات الهلالين وأحلافهم عقب الغزوات التى شنوها على شمال افريقيا وربما انضم الجذاميون وجماعاتهم الى الهلالين هؤلاء ، ثم تدفقوا على السودان الغربى ومنه الى دارفور .

على أننا لا نجد اسم جذام في القبائل التي تعيش اليوم في السودان ومن الجائز أن جذاما وأحلافهم لخم وغيرهم اندمجوا في قبائل البقارة والكبابيش الذين يمثلون الغالبية من العرب في غرب السودان •

الكبابيش : الذين يعيشون في المنطقة ما بين خط ١٤ - ١٦ شمالا شمال كاجا وكاتول وتمتد شرقا حتى جيرة في شمال شرق أم درمان وتبلغ مساحة هذه المنطقة حوالي ٤٨ ألف ميل مربع ، ولكن الكبابيش يسرحون أحيانا في الصحراء الليبية ويبيعون إبلهم في وادي النيل والمناهل المختلفة في جيرة والصفافية وغيرها وقد يصل بعضهم إلى النيل في دنفلا ، وتنقسم قبيلة الكبابيش إلى عدة فروع منها العطوية وأولاد عقب وأولاد عون والتوارب وغيرهم ، وقد عمل بعضهم في الزراعة كما عملوا في نقل البضائع في كردفان إلى وادي النيل وكانوا ينقلون الصمغ من الأبيض إلى الدية وهو مازال لنا وفي الطريق يجف ويقل وزنه وحجمه ، ولكن المسئولين الأتراك كانوا يحاسبونهم على الوزن الذي استلموا به في الأبيض وعليهم دفع الفرق ، فاحتجوا لدى الوالي التركي فزاد لهم أجرة الترحيل ، وأحيانا كانت الحكومة لا تدفع لهم استحقاقاتهم نقدا وتضطرهم إلى أخذها عينا ولهذا السبب كانوا كثيرا ما يفضلون نقل بضائع الجلابة رغم أن الأخير أقل مما تدفعه الحكومة •

وقبيلة الكبابيش من قبائل البدو المشهورة في السودان والكبابيش من أعظم القبائل الآبالة وأكثرهم عددا وإبلها أكثر من الإبل لدى أي قبيلة أخرى وأغلب الجمال التي تصدر إلى مصر تفد من منطقة الكبابيش وهذه القبيلة كسائر البدو يتجمعون وراء الكلا وليس لها في الشمال حدود واضحة المعالم سوى الصحراء الليبية ومن الناحية الغربية يقترب الكبابيش في تجوالهم مع حدود دارفور • وفي الشرق قد يصلون إلى النيل عند منطقة دنقلة وبعض الكبابيش يستقرون أحيانا ويمارسون زراعة المحاصيل مثل الفول السوداني والسمسم وبلاد

الكبابيش ملائمة كل الملائمة لرعى الابل والضأن والكبابيش مثلهم مثل البقارة ينتسبون الى جهينة ويؤكد أنهم أبناء كبش بن حمد الأفرز بن عيسى بن سفيان بن الأفرز بن ذبيان بن عبد الله الجهني أو الجهيني.

وتتضم قبيلة الكبابيش بعض المجموعات الصغيرة التي تستطيع أن تبين صلتها بالقبائل العربية التي عاشت في مصر وهذه الفروع لها صلتها بخدام ولخم كما يظن بعض الباحثين .

(أ) أولاد سليمان :

وهم فرع كبير من قبيلة الكبابيش بل بطن من بطونها المنتشرة في السودان ولا سيما في كردفان ، كما أنه يوجد فرع من بنو سليمان هؤلاء في مصر وهم يكونون فرعا من بنى عقبة وقد كانوا في سيناء أيضا وربما لا تزال بعض بقايا منهم في سيناء حتى الآن .

(ب) أولاد عقبة :

ويروى أهل كردفان أن أولاد عقبة هؤلاء هم النواة الأولى من الكبابيش وبنو عقبة في مصر يسكنون الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء وبنو عقبة من خدام وهم ينتسبون الى عقبة بن عبيد بن مالك .

ثم يأتي بعد هؤلاء من حيث الكثرة العددية والوجود القوى في كردفان فرع :

(ج) بنو واصل :

الذين يشكلون مع البطنين السابقين بطنا آخر من بطون الكبابيش . ويوجد أيضا بنو واصل في مصر وهم بطن من بطون عقبة ويبدو أن أولاد عقبة يشكلون الشجرة الكبرى التي تتفرع منها بنو واصل وأولاد سليمان وقد جاء بنو واصل الى سيناء من شمال بلاد العرب ثم عبروا بضعيد مصر الى السودان .

كذلك يوجد بطن رابع هو بنو عطيه أو العطوية وهم أيضا فرع من الكبابيش ينسبون الى بنو عقبه وقد نزلوا حول خليج العقبة في القرن الرابع عشر الميلادي .

وتلك هي القبائل الرئيسية التي تنتمي الى جهينة والذين كان لهم أثر قوى في مجرى الأحداث السياسية والثقافية والحضارية والاقتصادية على مسرح الأحداث في السودان خلال فترة صبغه بالصبغة العربية الاسلامية .

كما أنه يوجد مجموعات قبائل العركيون الذين يدخلون في التقسيم الحالى في السودان مع مجموعة قبائل جهينة والعركيون جماعات يسكنون قرى الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق ومنهم فئات مازالتوا في غرب السودان وأقدم من عرف منهم في تاريخ السودان كانوا في أوائل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى وأول من حمل لواء الزعامة الروحية في السودان منهم ثلاثة أحدهم الشيخ « دفع الله ابن مقبل بن نافع العركى » الذى عاش في القرن السادس عشر الميلادى حوالى ١٥٥٠م وهو جد الجماعة العركية أبى حراز بالجزيرة ونسبه معروف في كتب الطبقات ونسبه مشهور الى العركى نسبة الى قبيلة عرك العربية المعروفة . وقد تفرقت قبيلة العركى في الصعيد الأعلى وقد نشب نزاع في عام ٧٤٩هـ بين قبائل عرك وبنو هلال ولكن المماليك في مصر ساندوا بنو هلال في هذا النزاع وقتل عدد كبير من المماليك وأمرائهم في هذا الحادث وقد كان هذا ايذانا ببدء حرب عنيفة بين المماليك والعركيون وأحلافهم والذين اضطروا الى الهجرة جنوبا حيث أرض السودان ، وعرك هذا بطن من بطون جهينة وكانوا في بلاد العرب في الشمال الغربى منها ، ثم انتقلوا مع جهينة الى الصعيد الأعلى واستمرت حركته المقاومة هذه خمس سنوات أو أكثر (٧٤٩-٧٥٤هـ) بزعامة محمد بن واصل العركى .

وقد شن المماليك حملة على العرك وحلفائهم بقيادة محمد بن واصل شيخ عرك واستطاع المماليك بالخداع أن يضعوا السيف بيطنهم ومن ثم

قامت معركة حامية بين الحلف العركى والمماليك وقتل من الجانبين خلق كثير ومن ثم طرد العرب العركيون الى بلاد السودان ولم يبق بدوى واحد بصعيد مصر ، ويقول ابن اياس ، أن الأمراء المماليك مشو وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج وأن جهينة في الفترة (٦٩٨ — ٥٧٥٤) كان لها نصيب في المقاومة مما أدى بهم في نهاية الأمر الى الهجرة الكثيرة الى بلاد السودان .

ولقد كان لهؤلاء العركيون دور كبير في نشر الثقافة العربية الاسلامية في السودان ولا سيما في منطقة الجزيرة بوجه خاص بعد أن سافر العديد من أبناء العركيون من منطقة سكناهم حول النيل الأبيض الى مصر حيث قاموا بتلقى العلم في الأزهر الشريف وأقاموا بمصر فترة طويلة وكان سلاطين الفونج قد أرسلوا العديد من أبناء العركيون نظرا لنبوغهم ومن ثم أرسلوا في طلبهم للمساهمة في الحركة العلمية الاسلامية في السودان واستطاع هؤلاء أن ينشروا العلوم الاسلامية وعلموا الناس مسائل الفقه على مذهب الامام مالك .

وقد أنشأ بعض أبناء العركيون بلدة الفقراء في الجزيرة بالسودان حيث توارث أحفادهم تعليم العلوم الاسلامية الدينية في هذه البلدة ، حتى تلك الأيام .

الهاليون :

سكن الهاليون وحلفائهم صعيد مصر الأعلى منذ زمن الفاطميين وأن مجاورة تلك المنطقة لبلاد السودان مما يقوى الاحتمال بأن هناك جماعات كثيرة من بنى هلال قد نزلت الى السودان في أزمان مختلفة ولكن فيما يبدو أن هذه الجماعات كانت جماعات صغيرة في بادىء الأمر لا سيما تلك الجماعات التي استقرت في شرق السودان بحيث أنها لم تستطيع أن تحتفظ بكيانها القبلى والعرقى فترة طويلة من الزمن مما أدى الى الاندماج أو على الأقل معظم تلك القبائل المهاجرة في مجموعات عربية أخرى مهاجرة ان لم يكن قد تم بعض الاندماج مع السكان المحليين .

ومن هنا صار الانساب الى بنى هلال قليل ومحدود الأثر ، أما في غرب السودان فان التأثير الهلالى العربى والنسبى يظهر بصورة قوية وفعالة بل بصورة واضحة .

وتذكر بعض المصادر أن هناك أثر للهلالين وسط قبائل البقارة اذ توجد قبيلة من البقارة تعرف باسم بنى سليم تعيش على النيل الأبيض من جهة الغرب ومن المعروف أن بنى هلال قد نزحوا الى السودان فى أزمنة مختلفة وأن هناك جماعات كثيرة منهم قد صحبت الحملة المملوكية التى جردها السلطان قلاوون عام ٦٨٥ - ٦٨٦ هـ والراجح أن تكون هذه المجموعة الهلالية قد اتجهت من دنقلة الى اقليم كردفان حيث تكونت قبائل البقارة .

كذلك فان ذبوع سيرة الهلالين وتردد أصداء قصة أبو زيد الهلالي وسيرة بنى هلال فى المجتمعات العربية فى السودان شرقا وغربا كان له أثر بالغ فى حياة عرب السودان الاجتماعية والثقافية والراجح أن السودان قد عرف الهلالين بعد أن ذاع صيتهم على أثر الغزوات التى قاموا بها فى شمال أفريقيا واشتهر أبو زيد الهلالي فى البوادي والقرى العربية السودانية .

كذلك فانه اذا نظرنا من وجهة النظرة الاجتماعية على مظاهر الحياة لدى قبائل البقارة ندرك تمام الادراك ذلك التماثل بين تلك القبائل وبين تلك الخصائص التى اختصت بها القبائل الهلالية والتى تقابل البقارة وخاصة الرزيقات منها والتى اشتهرت فى السودان بالفروسية بكافة مظاهرها من تربية الخيول الى المهارة فى استعمال السلاح كما اتصفت بالنزعة للقتال .

ومن ذلك ندرك أن تأثير الهلاليين فى السودان لم يكن وليد تغلغل النسب الهلالي وحده بل كان كذلك نسب تعلق عرب السودان بسيرة أبى زيد الهلالي والشخصيات التى لعبت دورا فيها ومن هنا فان التأثير فى السودان له جانبان جانب عرقى سلالى ونسبى وجانب قصصى .

ومن الأقوال التي تتداول في بلاد السودان والتي تكاد تتفق جميعها على أن الهلالين وفدوا على السودان من الطريق الشرقى الأوسط (البحر الأحمر) من بلاد العرب الى كسلا مباشرة ، ثم عبروا النيل الأبيض واتجهوا الى غرب السودان ثم واصلوا رحلتهم غربا وشمالا الى بلاد تونس لمحاربة المغاربة .

كذلك فان تلك القبائل الهلالية مثل الرزيقات نجد فيها أن القتال والفروسية سمات تغلب على حياة تلك المجموعات العربية ، هذه الجماعات الهلالية المبنية على عصبية الدم والنزعة الى التآزر بين أجسادها لمنا يكتنفها من الخطر الشاخص في الطبيعة وفي الناس يشتد دفعها لروح الجماعة .

كذلك من الواضح لقصة عبور الهلالية من شبه جزيرة العرب الى سواكن ثم في الاتجاه غربا ما هي الا قصة محلية لكي تتسج تلك الرويات السودانية لكي تجعل السودان طريقا كان يستخدم في الاتجاه غربا والذي سلكه بنو هلال في طريقهم الى تونس . ويؤكدون ذلك الى أن معظم الجماعات العربية التي تنسب الى الهلالين أو الى أبى زيد الهلالي يعيشون الآن في غرب السودان واذا اتجهنا في الاتجاه الشرقى نجد أن التأثير القصصى أكثر مما هو عن التأثير العرقى النسبى .

ولو أن الهلالين كما نقول الروايات قد وصلوا جموعهم العربية عن طريق الشرق من كسلا في الاتجاه الغربى وسلكوا هذا الطريق الذى وصفته الروايات لكان من المنتظر أن نجد لهذه الجموع بقايا استقرت في شرق السودان حيث يكون قد طاب لها العيش والمقام حيث المناخ المناسب للاستقرار وتوفر ظروف المعيشة الملائمة ولكان لازال يوجد الى اليوم في شرق السودان من ينتسب الى بنى هلال أو الى بنى زيد ولكن ذلك من النادر وجوده في اقليم شرق السودان ، ومن الراجح أن الهلالين دخلوا السودان بعد أن اتخذوا طريق وادى النيل ثم انحرفوا غربا على امتداد وادى الملك الى كردفان ثم الى دارفور .

والمؤكد تاريخيا والثابت كما يذكر المقرئى أن بنى هلال كانوا من بين جملة قبائل العربان فى صعيد مصر التى شاركت فى حملة السلطان قلاوون (٦٨٦هـ / ١٢٨٧م) ، وأن تلك الحملة قد انقسمت الى قسمين كبيرين قسم سار فى اتجاه البر الغربى للنيل والقسم الآخر سار فى البر الشرقى ، وليس من المستبعد أن يكون عرب بنى هلال قد ساروا مع القسم الذى سار فى غرب النيل مع الفرقة الأولى ثم أنها بعد انتهاء أغراض الحملة فانهم قد يكونوا اتجهوا فى طريقهم الى غرب السودان •

وربما يكون هناك رأى آخر أن مجموعة الهلالين بعد أن نجحوا فى شن غاراتهم فى بلاد المغرب قد انخرط قسم منهم الى الجنوب من تونس حيث كانت تلك المسارب والمسالك المتجه الى الجنوب مطروقة ومعروفة ومأهولة مما يجعل حركة التنقل فيها ميسرة ومن هنا كان وصولهم الى غرب السودان من الطريق الشمالى الغربى وليس من طريق البحر الأحمر •

وفى غرب السودان نجد جماعات عربية كثيرة تنتسب الى الهلالين أو الى أبى زيد والذين منهم قبائل التنجور والفور والرزيقات وهلالية البرقد والزيادية ، بالإضافة الى التأثير العسقى الجنى فى هذه الجماعات فاننا نجد التأثير القصصى يتمثل فى رواياتهم ولكن مع كل ذلك التأثير القصصى فانه لا يوجد ما يدعو للشك فى نسبهم الى الهلالية أو الى أبى زيد ومن هنا فان تلك القبائل العربية التى تحركت الى تلك المنطقة هى من سلالة الهلالين وان اختلفت الروايات فى الطريق الذى سلكوه حتى وصلوا الى تلك المناطق التى يقطنوها هذه الأيام •

الهوارة :

تدفقت قبائل هوارة الى صعيد مصر الأعلى حيث مناطق الغرب الى السودان مع نهاية مرحلة الأحلاف العربية التى ظهرت فى مصر منذ عام ٦٥١هـ بين القبائل العربية ضد سيطرة المماليك ، وبعد انتهاء تلك

المرحلة بانتصار الممالك فان هناك مجموعات من قبائل هواراة قد دخلت الى أرض السودان في موجات بشرية متلاحقة منذ ذلك الوقت وقد استمرت هجرتها منذ ذلك الحين حتى الى وقت قريب الى السودان .

والهواراة الذين يعيشون في السودان وبصفة خاصة في الجزء الشمالى منه هم بقايا هواراة مصر ويرى بعض الذين يدرسون حركة الهجرة العربية وانتشارها في السودان وادى النيل أن هواراة السودان قد نزحوا الى المناطق التى يقطنونها من منطقة صعيد مصر وبالتحديد من منطقة اسنا وهم في معظمهم بدو رحل وقليل منهم يستقرون على ضفاف النيل في دنقلة وفي فصل الأمطار ينتقل الهواوير الرحل بقطعانهم من المساشية الى الغرب ومن ثم يقومون برعى ابلهم وماشييتهم مع الكبابيش من منطقة وادى الكاب شرقا الى حدود دارفور غربا وبعد أن يبدأ موسم الجفاف في تلك المنطقة فانهم يبدأون في العودة الى الشرق .

ويوجد قسم آخر من قبائل الهواراة يقيمون حاليا بالقرب من منطقة الأبيض وكردفان وبالتحديد حول ضمى وأم دليكة وغيرهما من الأماكن وأنهم يرون أنهم بطن من بطون قبيلة الهواوير التى يطلقها السودانيون على الهواراة ، ويرون أن أجدادهم قد قدموا الى تلك الديار من صعيد مصر بعد أن عاشوا هناك حقبة طويلة من الزمن وأن أجدادهم الذين قدموا الى السودان كانوا بيض اللون ، وأن أول من قدم من الهواراة الى السودان كان رجلا تاجرا جوالا اسمه الحاج عيسى ود محمد ود منصور قدم من منطقة منفلوط احدى مراكز أسيوط وأنه نزل منطقة كردفان حيث سلك ذلك الرجل درب الأربعين الذى يمر بالقرب من بلدته منفلوط . وكان رحيله الى كردفان مقدمة لكى يتبعه بعض التجار الآخرين من الهواراة والذين سكنوا كردفان وتجمعت طائفة لهم بعد أن تكاثر قدومهم الى كردفان ولهذا أطلق عليهم السودانيون جلابة الهواوير وبدأوا يمارسون تجارتهم في تلك المنطقة .

ولقد لقي الجيل الأول من هؤلاء الهواراة النازحين الى السودان العديد من المتاعب والصعوبات في كردفان ، مما حفزهم على عزم

الأمر بالرحيل مرة أخرى الى موطنهم الأصلي في منفلوط بصعيد مصر ، وكان ان ترعم محمد أبو منامة بن الحاج عيسى ود محمد بن ود منصور القافلة التي تحركت شمالا للرحيل من السودان وبعد أن قطعوا شوطا طويلا في رحلتهم شمالا والتي استغرقت أكثر من يومين ، فانهم بلغوا قرية يقال لها دوم الخاتراب بالقرب من شريم حيث تقابلوا مع أهالي هذه المنطقة الذين استضافوهم وأقنعوهم بالبقاء معهم حيث يشاركونهم معيشتهم وولوا الشيخ محمد أبو منامة فقيها فيهم ولقريتهم يعلمهم العلوم الاسلامية الدينية ويقوم بتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم، ولكن الشيخ محمد هذا قد توفي في قرية دوم الخاتراب فرجع قومه مرة أخرى الى قرية ضمي وام دليكة وهناك استقروا الاستقرار النهائي .

وقد ظهرت بعض الفوارق في السحنة بين بدو الهوارة وجلاية الهوارة على مر الزمن فقد كان جلاية الهوارة أكثر امتزاجا ومصاهرة وتناسل مع العناصر الزنجية من أقاربهم بدو الهوارة .

وهكذا سكنت قبائل الهوارة بالقرب من منطقة الأبيض في كردفان وربما يكون قد قدم بعض الهوارة عبر الطريق الشمالى الغربى الليبى وليس درب الأربعين الى السودان ، وكان يطلق عليهم في السودان الهواوير وموطنهم في شمال كردفان في غرب وادى الملك الى صحراء بيوضة أو صحراء بيوضه فهم يجاورون الكبابيش من ناحية الشمال الشرقى ويلتقون سويا في طلب المرعى وحول مناهل المياه ويوجد منهم كثيرون في الأبيض والرهـد كما أن منهم بيوتا في الاضية والهنود وهم يعملون في التجارة وفي نقل البضائع وفي عهد الخليفة عبد الله التعايشى ساهموا في تقديم المساعدات من الجمال لحصار صالح فضل الله زعيم الكبابيش .

قبائل ربيعة وقبائل أهل المعدن :

تتأثرت معادن التبر والزمرد على مراحل في شرقي النيل من صعيد مصر وبلاد البجة في شرق السودان حيث كانت كل منطقة معدنية منها بمثابة مركز تجمع للقبائل العربية وكذلك الأفراد الذين يعملون في المعادن وقد ذكر اليعقوبي في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي أن تلك المنطقة بها حوالي ثلاثين موقعا للمعدن يتخذ كل منها مركزا للقبائل العربية المهاجرة الى تلك المناطق .

ومن المؤكد والثابت تاريخيا وعلميا أن أرض المعدن هذه بجموعها الهائلة كانت مستودعا بشريا أمد السودان بالعديد من القبائل العربية وقد أخذت هذه الجموع في الانتشار في بقاع السودان شرقا وغربا وجنوبا بعد أن خربت في مناطق المعادن أو معظمها .

ولقد كانت من القبائل التي هاجرت من أرض المعدن الى السودان قبائل الكواهلة والتي كانت نواتهم الأولى وهي بقايا أحلاف ربيعة الذين هاجروا الى أرض المعدن بنسائهم وذريتهم في آلاف كثيرة وقد انشق من ربيعة وأحلافها فرع بنى كنز الدولة الذي أثر السكنى شمال بلاد النوبة .

الكواهلة :

ينتسبون في أصولهم الى كاهل بن أسد بن خزيمة ، والكواهلة يعيشون في السودان في المنطقة الواقعة على النيلين الأبيض والأزرق وفي الجزيرة بينهما في جهتي عبود وود مدني ومنهم بادية يسكنون غربى الرهد مع الحمدة ومن فروعهم الحسنات والثنايلة ، وأن الكواهلة والعبادة كانوا من قبائل أرض المعدن ومنها تفرقوا في أنحاء وادي النيل ، وقد كان للكواهلة صلة وثيقة ببني ربيعة ، ذلك لأن بني ربيعة من نسل حنيفة بن لجيم الذين كانوا يسكنون في منطقة اليمامة شرق الجزيرة العربية ، ثم نزحوا منها الى صعيد مصر وأخوة بني حنيفة هم

بنى عجل بن لجيم الذين ربما كان موقع العجلى فى أرض المعدن منسوباً
اليهم وأم صفية كما يقول المقرئى وسائر المؤرخين هى صفية بنت
كاهل بن أسد بن خزيمه .

والقرائن الدالة على أن الكواهلة كانوا من قبائل أرض المعدن
لا تحتل الشك فهم أهم قبيلة عربية فى السودان انصلت بالبجة اتصالاً
وثيقاً من ناحيتى الجوار والنسب وتعلمت لسانهم البجاوى .

والكواهلة من القبائل العربية التى نزحت الى السودان فى وقت
مبكر واتجه بعضهم الى كردفان قبل الحكم التركى بقليل (فتح محمد
على للسوان) وأقاموا حول خط عرض ١٥° شمالاً وتتقوم ثروتهم على
الابل وما يتبعها من الماشية وقد تضطروهم ظروف المرعى الى التوغل
فى أراضى غيرهم كما يحصل فى فصل الجفاف حيث يلجأون الى منطقة
الخيرات حول بارة ثم ينزحون شمالاً عندما تسقط الأمطار فينزلون أراضى
الكبابيش حيث يضطرون الى دفع أجر نظير حصولهم على المياه وقد
كثر اختلاط الكواهلة بغيرهم كما أنتشر بعضهم بين قبائل النوبا .

واندمج قسم كبير من قبائل البجة معهم حتى أصبحت كل
مجموعة بجاوية تنسب الى بنى كاهل .

ثم نزل بقية الكواهلة أوطانهم فى أرض البجة واتجهوا الى وسط
السودان وغربه ويكاد أن يكون من المؤكد أن الكواهلة أو معظمهم
قد دخلوا السودان من الشرق ووصلوا اليه من الجزيرة العربية
مباشرة وبدأوا حياتهم فيه باحتلال الاقليم الساحلى أو جزء كبير
منه من سواكن شمالاً الى عيذاب جنوباً حيث اختلطوا بالبجة وتعلموا
لسانهم وصاهروهم وربما كان لهم الأثر الأكبر فى نشر الاسلام
والثقافة العربية بينهم .

وقد نزلت شعبة منهم فى العظيرة والنيل الأزرق وشعبة أخرى
حول النيل الأبيض من خط عرض ١٢ الى اقليم جبل الأولياء شمالاً

أى مسافة تتراوح ما بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كيلو متر وهناك شعبة منهم اتجهت غربا حيث استوطنت كردفان •

هذا التوسع العربى فى مثل هذا النطاق الأرضى الواسع الذى تم فى الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس عشر وأواخر القرن الثامن عشر تؤيد الى حد كبير دراسات الرحالة بوركهارت ورحلاته فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد فى عام ١٨١٤ قبل الفتح المصرى بعدة سنوات •

ولكن ليس من اليسير أن نؤكد هجرتهم من الشرق مباشرة ، ذلك لأنه من الجائز أن يكونوا قد شقوا طريقهم نحو طريق الصحراء الشرقية من الشمال ولا سيما اذا علمنا أن الكواهلة هم بقايا ربيعة الذين هاجروا الى مصر ، وكان منهم من سكنوا الحوض الشرقى بالوجه البحرى بمصر ، ومنهم من سكنوا أرض المعدن فى صعيد مصر وبلاد البجة • وعلى ذلك فان أجداد الكواهلة سكنوا أرض المعدن منذ القرن التاسع الميلادى واختلطوا بالقبائل العربية التى كانت تسكن تلك المنطقة كالحدارية وغيرهم من أعقاب سبأ ومضر • وقد شاركت هذه القبائل فى الأحداث السياسية التى شهدتها ذلك العصر واضطرت بسبب النزاع الذى نشب بينها حول مواطن الرعى والذى نشب بينها وبين أهل البلاد الأصليين وما صحب ذلك من اختلال الأمن وتدهور الحالة الاقتصادية وتعطل التجارة بين مصر والسودان واختلال سير القوافل فى منطقة النوبة الشمالية وعدم الخضوع لحكومة مركزية تستطيع أن تعزز الأمن وتصون طرق التجارة فاشتركت بعض هذه القبائل فى حلف مع الفونج حين حالف أحد زعمائها عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة سلطان الفونج وتمكن الحليفان من اقامة السلطنة العربية الاسلامية • وذلك بعد تحركها جنوبا وتركها أرض المعدن •

وعلى ذلك فقد أصبح الكواهلة من أهم القبائل التى اتصلت بالبجة اتصالا وثيقا حتى أصبحت كل مجموعة بجاوية تنسب الى بنى كاهل مفضلة النسب العربى الجديد على النسب البجاوى القديم •

وفي زمن الرحالة ابن بطوطة في الفترة (١٣٣٠ - ١٣٤٠ م) كان البجة قد أقاموا على جزيرة سواكن السلطان الشريف زيد بن أبي نمي وهم أخواله وكان عساكره من البجة وأولاد كاهل وعرب جهينة ومن المعروف أن البجة قد جروا على الاعتراف على نظام الأنساب الى الأم وتوريث الملك عن الأم .

وقد أبرز ابن بطوطة أيضا جانبا من جوانب الاتصال بين البجة والكواهلة حين قال : وصلنا الى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجة عارفين بلسانهم .

وكما سبق أن ذكرت فإن الكواهلة قد اتجهوا في زمن متأخر نسبيا الى جهات عطبرة وخور القاشى وسفار بعد أن تركوا أرض المعدن وواصلت فروع منهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان ومنهم مجموعة تعيش اليوم في جبال النوبة جنوب كردفان « حيث سلطنة تقلى » .

ورغم قولنا أن الكواهلة قدموا الى بلاد السودان من الجزيرة العربية مباشرة ، الا أن هناك آراء تذكر أن الكواهلة رغم ارتيادهم شرق السودان منذ القدم ، الا أنهم وصلوا السودان من الشمال أساسا وليس عن طريق البحر الأحمر وتضيف تلك المراجع أن الكواهلة ربما كانوا بقايا ربيعة الذين هاجروا في بادئ الأمر الى مصر وسكنوا صعيد مصر ومن ثم اتجهوا الى جنوب الصعيد وبلاد البجة .

ولقد كان تأسيس سلطان تقلى الاسلامية من الدوافع القوية التى هيات لقبائل الكواهلة بأن تنتشر الى جهات عطبرة وخور القاشى وسنار حيث تمثلوا أكبر قسم من القبائل العربية وواصلت فروع لهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان وبيوضة وغيرها وهناك جماعات صغيرة تعيش منهم في جبال النوبا .

وقد اتخذوا لقب « منجل » وأصبحوا حكاما اقليميين لهم السلطة التامة على القبائل التى تنزل الشطر الشمالى من مملكة سنار وتوارثوا

الحكم وجبوا الضرائب وامتد ملكهم من مصب دندر الى دنقسة ثم انفصلوا عن الفونج عام ١٧٧٠ م حينما ضعفوا وغلب عليهم الفونج .

وهناك أمثلة على مشاركة هذه القبائل في الحياة السياسية للبلاد فعرب الشايقية مثلاً بعد أن خضعوا زمناً لنفوذ العبدلاب انتهزوا فرصة النزاع الداخلي بين العبدلاب والفونج عام ١٦٩٠ م وثاروا بزعامة قائدهم « عثمان ود حماد » وظفروا باستقلالهم وأسسوا إمارة عربية لهم .

الجوامعة : يقع اقليم الجوامعة في كردفان في اقليم مستطيل سهال وجنوب شرق الأبيض وهم قسمين في كردفان الحمراء والجميعة ، وقد تكاثر عددهم وأصبح لهم ثروة بفضل استفادتهم من غابات الصمغ ، وعند ظهور المهدي كانوا من مناصريه واشتركوا في بعض وقائع المهدي بكردفان كما أن المهدي كلف زعيمهم المنا اسماعيل بحصار بارة حيث تمكن من اخضاعها ، وقد نقص عددهم حتى قيل أنه لم يبقى من الجوامعة في ظل المهدي سوى السدس من أصل تعدادهم بكردفان وكان بدارهم مراكز تجارية معروفة في المهدي مثل أم صغير وأم دم كما كان بمنطقتهم معاصر للزيوت على عهد الخليفة .

وكان الجوامعة أنصار الفونج وقد ساعدوهم على التوسع في منطقة كردفان واشترك الغدبات في جيشهم واتصل البقارة بسلاطين دارفور ودخلوا في طاعتهم أحياناً ودفعوا الجزية أو خرجوا عليهم وفروا بأنفسهم ليعادوا الكرة من جديد . وفي نفس هذا العصر كانت الهجرات العربية تشق طريقها الى السودان منحدره من الباب الثاني باب البحر الأحمر وشرق السودان . فقد استطاع فريق العرب المنتسبين الى كاهل بن أسد بن خزيمة أن ينحدروا من جزيرة العرب وأن ينزلوا بالاقليم الساحلى الممتد من سواكن الى عيذاب ، وكان نزولهم في هذا القرن الحادى عشر الميلادى على وجه التقريب ، ثم أقاموا بهذا المهجر لمدة ثلاثة قرون أو أربعة اختلطوا فيها بالبجة وتعلموا لسانهم وعملوا على نشر الاسلام والثقافة العربية بين صفوفهم

ولا يزال الى اليوم من ينسبون من البجة الى كاهل بن أسد بن خزيمة
ثم حدثت حركة الهجرة الواسعة الى المناطق المشار اليها سابقا حيث
عمل تيار الكواهلة القادم من الشرق مع التيار القادم من الشمال على
اجتلال الجزء الأكبر من المساحة الواقعة على النيل الأبيض على
الضفتين الشرقية والغربية ، ثم لم تطب لبعضهم الاقامة فكان الرحيل
الى منطقة كردفان ونهجوا نفس النهج الذى التزمه العرب المندفعون
من الشمال من حيث اختلاطهم بالسكان الأصليين أو بغيرهم من القبائل
وتسربهم سلميا ومقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة عنهم .

ولا يكافى ينتهى هذا الدور حتى يكون السودان قد تعرض بحكم
موقعه الجغرافى لتيارات اسلامية أخرى وافدة من الشمال الغربى الى
دارفور وكردفان ، ثم تيارات أخرى منبعثة من سنار ومتموجة صوب
الشمال . استطاعت هذه التيارات الوافدة أن تسقط الحواجز وأن
تفتتح باب السودان على مصرعيه لتلقى الثقافة العربية الاسلامية
ولتقبلها وتهيأه ليلعب دوره الاسلامى الذى لعبته الأوطان الاسلامية
الأخرى .

وقد أسس العرب العديد من المشيخات التى منها مشيخة خشم
البحر ، شرق النيل الأزرق بين رتقة والروصيرص ثم مشيخة الحمده ،
ومشيخة الجموعية ، مملكة الجعليين ومركزها شغدى ، ثم مملكة
الميرقاب فى شمال الجعليين بين المفرق ووادى السنقى ، ومملكة الرباطاب
المآتدة من وادى السنقى الى الشامخية ، مشيخة المناصير من الشامخية
الى الشلال الرابع ، ثم مملكة الشايقية .

غير أن هذه الجماعات العربية تركت أثرا أبقي فى الميدان
الاجتماعى والثقافى ، فقد عملت على نشر الدين الاسلامى فى منطقة
فسيحة وواسعة تمتد من حدود مصر شمالا حتى خط عرض ١٢ جنوبا
ومن ساحل البحر الأحمر شرقا حتى منطقة بحيرة تشاد . ولقد كان
للكواهلة قدرة على مخالطة الشعوب الوطنية والاندماج فيها ، وإذا
كانوا قد تركوا فى أوطان البجة الأثر القوي الذى تركوه فلا بد أنهم
حملوا نفس الرسالة الى الأوطان الجديدة التى انحدروا اليها .

ولا يبعد أن يكون الجهننيون قد أدوا نفس الرسالة وقاموا بنفس الدور واستطاعت هذه القبائل أن تكسب السودان الشعب العربى والدم العربى واللغة العربية وأن تضيف الى عالم الاسلام قطرا فسيحا ليمتد وسط القارة الافريقية ليساهم فى الحياة الاسلامية مساهمة الأقطار العربية والاسلامية الأخرى .

وكانت هذه القبائل أداة لنشر الثقافة العربية فى أرجاء السودان وأحسن مثل للجهود التى بذلت فى هذه السبل الدور الذى اطلع به الجعليون فى حياة السودان ذلك لأن الجعليون قد لعبوا فى هذا التطور دورا هاما وكانوا من أهم عوامل ذلك الاندماج وقد رأينا كيف أن كبيرهم ابراهيم الجعلى كان يدخل فى القبيلة من ليس منها ولعل هذا يفسر النمو المطرد لهذه القبائل حتى أصبحت شعبا كبيرا يتألف من عدة قبائل كثيرة العدد .

ولقد كانت عشيرة المجذوبين التى تنتسب الى الجعليين دورها فى حياة السودان لا سيما دور الفقيه حامد بن محمد المجذوب حيث أنشأت هذه العشيرة مدينة اندامر فأصبحت حاضرة روحية للجعليين بل للسودان كله وقد زارها الرحالة يوركهارت عام ١٨١٤ ورأى فيها جوا من التقوى والصلاح والعلم . والسبب فى ذلك أن الامامة والسيادة فى الدامر كانت لرجال الدين من الجعليين .

فكما رحل أبناء عشيرة المجذوبين الى القاهرة ومكة المكرمة طلبا للعلم ثان أبناء قبيلة الجعليين لا سيما قبيلة الركابية فقد كان أبناءها أيضا يرحلون الى مصر فى طلب العلم حيث كانت لهم شهرة واسعة فى الفقه والدين حيثما نزلوا وتولى كثيرون منهم منصب القضاء وكانوا من أشهر العاملين على نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى جنوب كردفان وكذلك كان شأن الغديات حيث نشروا الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى النصف الشمالى من دار النوبا .

واضافة الى عشيرة المجذوبين الركابية ، الغدياب الذين ينتمون الى الجعليين فانه توجد قبائل عربية كبيرة وكثيرة ليست من الجعليين •

منها الشايقية : الذين ينتمون الى شايق الذى « هو شقيق غانم جد الجعليين » كما يذكر ذلك النسابون وتمتد أوطانهم على ضفتى النيل من نهاية الشلال الرابع الى مصب وادى الملوك فى مسافة تزيد عن مائتى كيلو متر •

وفى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى قدم الى دار الشايقية الشيخ « ابراهيم البولاد » من مصر ودرس فيها العلم و خليل والرسالة وانتشر علم الفقه فى الجزيرة ، كما أن المساجد التى أنشأها الشيخ عبد الرحمن بن جابر فى دار الشايقية كان لها دور فى تفقه رجال تلك العشيرة كما كثر حفاظ القرآن الكريم بينهم كذلك يوجد بطن آخر من بطون الجعلية هم المناصير والذين تمتد ديارهم من أبى حمد الى آخر الشلال الرابع وقد هاجر فريق منهم فى القرن الثامن عشر الميلادى فاتخذوا طريقا منحدرًا نحو الغرب الى دارفور وكردفان •

والشايقية : هم من أهم قبائل السودان الشمالى من وجهة النظر التاريخية وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالى ارتباطا وثيقا من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر ولا يعزى هذا الارتباط الى الموقع الجغرافى وحده بل لما يتصف به أفرادها من نزعات حربية واقدام ومهارة واستبسال فى الفنون العسكرية ، والشايقية هم أبناء شايق بن حمدان بن صبح أبو مريحة وهو الذى ترعم رواياتهم أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان وهو ذو قرابة وثيقة بقبائل الجميعات والجوامعة وفروعها ويتصلون بالبديرية بنوع الاتصال ولكنهم ينتمون الى المجموعة الجعلية •

دخلت هذه القبائل السودان عن طريق سواكن ومصوع واتجهت غربا وجنوبا صوب نهر النيل وتمسك البدو منهم بحياة البداوة

فنتقلوا في البلاد الفسيحة الواقعة بين العظيرة والنيل الأزرق ،
أما القبائل الأكثر استقرارا فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتي
النيل بين الشلالين الرابع والخامس حيث شغلوا جزءا فاصلا بين
المملكتين المسيحيتين في ذلك الحين مملكة علوة الجنوبية ومملكة مقرة
الشمالية .

وقد التأم روابط العرب في هذه المنطقة بحكم صلات القربى
التي تجمع بينهم وبحكم روابط الدين المشترك . وفي نهاية القرن
الخامس عشر الميلادي انطوت هذه القبائل تحت لواء قائد واحد هو
عبد الله جماع من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها .

وتمتد دار الشايقية على طول ضفتي النهر من جبل الداجر الى
نهاية مسقط الشلال الرابع وتشمل ممالك أربع وهي حنك وكجين ،
ومروى وعمرى ، والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية وقليل من
النوبة يعيشون بينهم عيشة خضوع واذعان وأهم دار الشايقية
يختلفون عن أهالي سائر الدور في أنهم عند ما يتهددهم عدو مشترك
يهبون صفا واحدا لمحاربته وقد طرحوا جنبا كل ما بينهم من أحقاد
وخصومات وبادروا جميعا الى النطواء تحت قيادة موحدة ، هذا
بالرغم من أن دارهم مقسمة الى أربع ممالك منفصلة وأن ملوكها
الأربعة طالما تنازعوا فيما بينهم .

ولقد أصبح الشايقية في غضون القرن السابع عشر قبيلة قوية
ذات نفوذ وسلطان والحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا في
خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة
سنار وأن يتحدوا العبدلاب والفونج جميعا وحانت لحظة الثورة على
بلاط سنار عند ما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية في سنار .

ففي عهد الملك « بادي الأحمر » سلطان سنار كان هذا أول ملك
من ملوك الفونج تخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه فثار عليه
الشيخ « ارذاب ودعجب » وثار اليه على رأس ألف رجل من الفونج

وغيرهم ونصبوا ملكا آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادي الأحمر .

لكن ظهر في الشايقية امرأة اسمها عديلة كانت فارسة شهيرة في تاريخ الشايقية فقد فاقت في الفروسية وفنون القتال جميع نظرائها من الرجال وكان وجودها مع المحاربين وبسالتها في الحرب أكبر مشجع لهم على الاستماتة في القتال ولقد أحرزت لقبيلتها كثيرا من المعارك التي كان النضال فيها شديدا عنيفا .

وقد استطاع الشايقية هزيمة جيش العبدلاب بعد أن لاذ هؤلاء بالفرار ، ومن هنا استطاع الشايقية الحصول على استقلالهم من العبدلاب وقد تكون هذه الأحداث قد حدثت في عام ١٦٩٠ م

ومن هنا لم يأتى القرن الثامن عشر حتى نجد الشايقية قد نفصوا عن كواهلهم الولاء والتبعية لسلطنة سنار واستجمعوا قوتهم وتطلعوا الى الشهرة وكان ذلك أحد العوامل الحاسمة في تاريخ السودان الشمالى في حين ظلت بقية ولاية دنقلة تابعة للفونج ، في ذلك الوقت انصرف أمراء الفونج الى متاعب داخلية فكانت شغلهم الشاغل في ذلك الحين أى عام (١١٣٧ - ١٧١٣ م) تولى بعد بادي الأحمر ابنه أونسة فاتبع هواه واستسلم للهو واللعب وأفرط في ذلك حتى انتهى خبره الى الفونج في النوبة فعزموا على عزله وذهب عنه سلطانه وكان ذلك في عام ١١٣٠ هـ وذهبت معه سلطة الفونج وانقرعت من أيديهم ، وفي عام ١١٣٥ هـ تولى العرش السلطان بادي أبو شلوخ وكان آخر سلاطين الصولة والشوكة فلم تكد تنتهى مدة حكمه حتى سيطر مشايخ الهمج على الحكم حيث كانوا هم أصحاب السلطة والنفوذ فقد جمعوا كل سلطات السلاطين في أيديهم .

ففى الفترة من ١١٧٥ - ١٧٦٢م أصبحت السيادة في أيدي الهمج وكان الشيخ محمد أبو الكيلك الأقوى من السلطان حيث قتل عددا كبيرا

ولما انصرف أمراز سفار الى متاعبهم وهزم الشايقية شيخ العبدلاب
انصرم ذلك النفوذ الذى كان يفرضه الفونج على دنقلة .

وقد كان عرب الشايقية بعد أن كان لهم نصيب من اليراد يأخذون
عن الأرض التى ترونها السواقي أربعة موريات « وهى نوع من أنواع
المكايل القديمة » من الذرة عن كل ساقية ورأسين أو ثلاثة من الأغنام
وثوبا من الكتان ، وبذلك فلم يعزل الشايقية أمراءهم الوطنيين بل عينوا
عمالا فى كل بلاط كانت مهمتهم أن يجلبوا من كل أمير نصف ايراده
وأخذت جموع من فرسان الشايقية يطوفون البلاد من كورتى الى حنك
بقصد الاغارة والسلب فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفرع فى نفوس
الاهالى ، وكان من جراء التخريب الذى أحدثته هذه الجموع أن هاجرت
جماعات هائلة من السكان الى كردفان ودارفور وبربرة .

وأنة قبل أن يصل المماليك الى دنقلة عام ١٨١١م كان الملك نمر ملك
شندى فى حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيرا
من أقربائه فى المعارك كما أنهم أغاروا على بلاده عدة مرات فى جموع
كثيرة من الفرسان وبينما كان الشايقية منصرفين الى تلك الحروب
والحملات كان العبيد والأسرى من النوبيين يتعهدون أراضي الشايقية
بالرى والزراعة ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح الشايقية أقوى قبيلة
فى السودان من الشمال تثير الرعب فى جميع أنحاء البلاد الممتدة من
حلفاية الى حدود المحس ، ذلك لأنه بعد زوال سلطنة سفار أصبح
الشايقية جبابرة فى نظر جيرانهم وقد عانى أهالى دنقلة وبربر وحلفاية
ما عانوه على أيدي هؤلاء انقوم من الشايقية .

كما توجد فى السودان قبائل عديدة فى كردفان منها ما كان يعرف
بقبيلة فزاره وقد كانت خليطا من المجموعات العربية التى تضم أكبر
مجموعة من رعاة الابل فى كردفان ومن هذه المجموعات قبائل دار حامد
وأهم مراكزهم بارة ومن فروعهم الجليدات والمجاتين والمدامرة
والفراضنة والهبانين وهم يرعون الابل والبقر ويزرعون فى بعض الأماكن
ذات التربة الطينية التى تحتفظ بالماء ، وأكبر هذه المناطق هى دار

هبابين وهنا تروى جميع دار حامد أبقارها أما الابل فتروى من مشروع العاديك والبشيري بأرض الفراضنة وأيضا في أم بادر بدار الكبابيش ، وهناك أيضا بنى جرار في جنوب خورس وقد لعبوا دورا في فترة المهدية ومن أقسامها المحابيب والجبارات ، أما النبرعة فهي قبيلة قليلة العدد لهم صلة ببنى جرار ويعملون في اقليم الصمغ بشرق كردفان وفي جنوب أم دم وقليل منهم يرعى الابل في غرب كردفان وهناك الشنابلة وأكثرهم في كردفان رعاة ابل وليس لهم شأن سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية وفي كردفان أيضا تعيش شعبة من المعاليا الى القرب من دار حامد ومن الهنود والأبيض والدنج وأم رواية وهم يعملون في حرف مختلفة منها رعى البقر ورعى الابل ، أما الزيادية فهم قبيلة صغيرة هاجرت حديثا الى كردفان وليس لها وزن وسط القبائل الكبيرة سوى أنها تقيم ويعمل بعضهم برعى الابل بالقرب من دار حامد .

ثم بطن الرياطاب : وهم قبيلة جعلية أيضا ولو أنهم انطوا تحت لواء الجعليين وتقوم مساكنها في المنطقة الواقعة على ضفتي النيل من شمال بلدة عبيدية حيث بين الشلال الخامس وتستمر مسيرتهم في الامتداد حتى تصل الى أبى حمد ثم الى امتداد النهر غرب أبى حمد بنحو يزيد عن كيلو متر مربع .

ثم قبيلة الميرفاب والذين يسكنون في المنطقة الواقعة فيما بين مصب نهر العطبرة الى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس وعاصمتهم مدينة بربر . وهم في شمال الجعليين بين القرن ووادي السنقير .

وكذلك من يطلق عليهم الجعليون الخالص وربما تكون كلمة خلص هذه دليل على أنهم هم الذين كانوا أساس قبيلة الجعليين وهناك العديد من القبائل الأخرى التي انطوت تحت لوائهم زمن جدهم الأكبر إبراهيم الجعلي وهؤلاء تمتد منطقة سكنهم ومعيشتهم فيما بين منطقة خانق سبلوقة الى العطبرة حيث يقطنون على الضفتين الشرقية والغربية للنيل .

والى الجنوب من هؤلاء الجعليين الخالص توجد بطن أو عشيرة
الجموعية والذين يقطنون جنوب خانق سلبوقة على الضفة الغربية للنيل
الأعظم شمال أم درمان وجنوبها ، بل تمتد أوطانهم الى نحو يزيد عن
خمسين كيلو متر جنوب أم درمان الحالية وأغلبهم يعيش على الضفة
الغربية للنيل الأبيض والنيل الأعظم لنهر النيل .

كذلك يوجد بطن صغير من بطون الجعليين هم الجمعة أو الجمعية
الذين يسكنون فى منطقة غرب النيل الأبيض الى الجنوب من منطقة
سكنى قبائل الكواهلة الذين ينتمون الى جهينة .

كذلك توجد قبيلة البديرية وقد انحدرت شعبة كبيرة منهم حيث
تعيش على النيل بينما فرع آخر منهم اتخذ طريقه فى الاتجاه الغربى
الى منطقة كردفان حيث طاب لهم المقام هناك ويبدو أن انحدارهم الى
تلك المناطق الغربية من السودان لم يتم الا فى القرن الرابع عشر الميلادى
الثامن الهجرى وذلك فى الوقت الذى استطاع منه العرب القضاء على
مملكة المقررة فى دنقلة ومن ثم يستمر سعيهم فى حركة التنقل والترحال .

والبديرية : كما يقول بوركهارت بين مدينة دنقلة ومروى يوجد دار
للعرب يسمى بدير ورؤسائه انى الوقت القريب كانوا خاضعين للشايقية
وتمتد ديار البديرية من ثيتى الى حدود دار الشايقية عند جبل الدجر
وكان لها أمراء يحكمون فى الخندق ونقطة العجوز وجزيرة تنقس وايكور
ودفر وكانت دنقلة العجوز أكبر ممالكهم وكانت سائر الممالك بمثابة
امارات تابعة لها . واستوطنت هذه البلاد البديرية والنوبة وسكنت
مقاطعات كورتى قبيلة الطريفية التى تمت بصلة قرابة وثيقة الى
البديرية .

والبديرية موطنهم الأصلى على النيل شمال أرض الشايقية وجنوب
الجوابة وفى أوائل القرن الرابع عشر هاجر بعضهم الى كردفان وأقاموا
حول الأبيض ومارسوا الزراعة والرعى والتجارة .

كذلك توجد قبيلة أخرى اتخذت نفس المجرى المنطلق فى الترحال
غربا جنوب كردفان ودارفور وان كانوا قد استقروا جنوبا على ضفاف

النيل جنوب أم درمان حيث طاب لهم المقام وشهد القرن التاسع عشر الميلادى انطلاقتهم الكبرى الى كردفان ودارفور تلك هى قبيلة الجوامعة العربية الذين ينسبون الى جدهم الأكبر جامع •

كذلك من القبائل التى لعبت دورا كبيرا فى مساعدة الفونج فى تأسيس دولتهم ومساعدتهم فى حروبهم قبيلة العدييات التى اشتركت أيضا فى الحملة المشهورة التى قادها الفونج على سلاطين تغلى جنوب كردفان حيث كان توسع نفوذ الفونج منطلقا لهم للتحرك الى تلك الجهات •

اضافة الى قبيلة البطاحين التى تسكن فى سهل البطانة الشمالى •

ولقد كانت السياسة المعادية للعرب فى مصر من الأسباب القوية الى ازديار التيار العربى الاسلامى فى السودان حيث دفع ذلك التيار بموجات عربية كبيرة نحو السودان اضافة الى الباب الشرقى (البحر الأحمر) والباب الشمالى الغربى الطريق الليبى (تونس) ليس هذا فحسب بل ان المجموعة العربية التى هبطت أرض السودان فى ذلك العهد لتكون الى حد بعيد النواة العربية الكبيرة والواسعة التى أثمرت معظم المجموعات العربية القائمة اليوم فى السودان انما كانت حركتها من صعيد مصر ، كما أن حركة الهجرة الواسعة التى تمت بها تلك الهجرات تحت الظروف السياسية والاجتماعية والسياسية كان لها أثر كبير فى شكل وفحوى عروبة السودان وطبعه بالطابع العربى الاسلامى حيث وجدت تلك القبائل العربية مناخا اجتماعيا وسياسيا وطبيعيا واقتصاديا استطاعت أن تتلاءم معه فى ظل كل هذه الظروف وبما لا شك فيه أن طبيعة تلك الهجرة العربية أثرت الى حد كبير فى عروبة السودان وثقافته العربية والاسلامية الحالية ، ذلك لأن العديد من القبائل العربية قد اندمجت فى السكان المحليين والذين كانوا ينتمون إلى أجناس متعددة أبرزها الحاميون وفى نفس الوقت نجد مجموعات عربية احتفظت بنقاوتها الجنسية واللغوية •

ورغم الحديث عن القبائل العربية هذه التي يشكل ما ذكرناه الجزء اليسير منها الا أنه رغم ذلك فإن السودان يحتل مركزه في الأسرة العربية الاسلامية ، لا لأن تاريخه القومي يحفظ لنا الكثير عن انتشار القبائل العربية وتوطنها في أرجاء ذلك الوطن ، ولكن لأن الصفة العربية الاسلامية هي الطابع والسمة الغالبة التي طبع بها السودان العربى منذ قرون عديدة قبل الميلاد .

ولقد استمرت حركة الهجرة العربية من الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الأخرى المجاورة للسودان منطلقا الى ذلك المكان الواسع الفسيح حيث يطيب المقام لهذه الحركة المهاجرة حتى الوقت الحديث ، فلم تنقطع الهجرة منذ العهود القديمة من سيناء ومصر والحجاز وجنوب الجزيرة حتى العصر الحديث رغم ظروف ائحكم في مصر وبلاد المغرب العربى بأقسامه المختلفة ، ذلك لأن السودان كان المعقل الآمن المستقر الذى تلجأ اليه الهجرات العربية في ساعة العسرة التى كان يضيق فيها الحكام فى الأقطار المجاورة انخناق على تلك القبائل ومن هنا كانت تجد طريقها الى ذلك المتسع العربى الاسلامى ومن تلك الهجرات العربية الواسعة الحديثة هجرة قبيلة الرشايدة .

الرشايدة : حدثت هجرة هؤلاء الرشايدة الى السودان فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وبالتحديد فى الفترة ما بين أعوام (١٨٤٦ - ١٨٧٧ م) وأنهم انتشروا فى منطقة ساحل البحر الأحمر الغربى فى المنطقة الواقعة بالقرب من فرورة وأن هجرتهم كانت بطيئة وتتضح من روايات الرشايدة أنفسهم أنهم هاجروا من الحجاز الى السودان ابان العهد التركى المصرى ، وأن هجرتهم كانت لقتال وقع بينهم وبين قبائل الحجاز فعبروا البحر الأحمر فى نحو ألف رجل ومعهم أسرهم وابلهم وعتادهم من جدة الى أرض الحباب فى عام ١٨٧١ م . وأن الرشايدة هؤلاء كانوا ينتشرون فى الجزيرة العربية من نجد الى برزان وحول مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والغصن ، وأن هجرتهم كانت بسبب خلاف بينهم وبين حكامهم من أشراف مكة المكرمة حيث كان حاكمها هو الشريف عون باشا وكان نزوحهم الى السودان فى وقت كان فيه علاء الدين باشا حاكم سواكن ، وأن الرشايدة هؤلاء كانوا أصحاب ابل وغنم .

وان تاريخ هجرتهم الى السودان يكتنفها الكثير من الغموض
كتاريخ معظم القبائل العربية التي هاجرت الى السودان ولكن هجرة
الرشايدة كانت أحدث الهجرات العربية التي هاجرت الى السودان
حيث وفدت من جزيرة العرب الى الساحل الغربى من البحر المتوسط
فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد عرفت تلك القبيلة المهاجرة باسمين فى السودان الاسم الأول
وهو الأغلب والشائع وهو الرشايدة ، أما الاسم الثانى فهو الزبيدة ،
ويفسر بعض كبار هذه القبيلة ممن تجاوز سنهم السبعين عاما أن السر
فى ازدواجية هذا الاسم (الرشايدة والزبيدة) هو أنهم من نسل
ال خليفة هارون الرشيد العباسى وزوجته زبيدة ، صاحبة بئر زبيدة فى
عرفة ، فمن الرشيد اشتقوا اسمهم الأول ومن زبيدة اشتقوا اسمهم
الثانى وهم ينقسمون الى ثلاثة بطون رئيسية هى البراعة فى الشرق
والبراطيخ والزنيقات ، وأن بينهم وبين الجد الأكبر الذى قدم السودان
سبعة عشر جدا حتى يصل الى اسم هارون الرشيد .

والذين زاروا الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر يعدونهم من
القبائل العربية الأصيلة وفى الجزيرة العربية يوجد لهم فروع رئيسية
هم الشررات أقر بيسى وبنو رشيد ، وأن جد الهيثم الذين يسكنون
المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية هو الرشيد وربما كان هناك صلة
بين الرشايدة وآل الرشيد الذين نازعوا الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن
آل سعود الحكم والنفوذ فى الرياض ، ويوجد منهم الهيثم الذين
يعيشون على ساحل البحر الأحمر بالقرب من ميناء الوجه (الوش)
فيدعون قرييس وقد يكون هؤلاء الذين هاجرت النسبة العظمى منهم الى
السودان . ويسكن بعض الهيثم فى تهامة شمال مكة المكرمة ومما يقوى
حجة وجود صلة بين الرشايدة والهيثم أن العوازم أو العوازمة الذين
هاجروا الى السودان مع الرشايدة وصاروا تحت امرة الزنيقات هم فى
الأصل جزء من الهيثم .

ورشايدة السودان يصسفون جدهم الأول برشيد الزول حفيد
هارون الرشيد وأنهم يعرفون في بلاد الحجاز ببني رشيد وأن الرشايدة
في الجزيرة العربية يسكنون حاليا في المنطقة الواقعة فيما بين نجد شرق
المدينة المنورة غربا وأنهم هم الذين قاوموا عبد العزيز آل سعود عند ما
كان آل الرشيد يسيطرون على الرياض ، وكانت مدينتهم « حائل » بل
أكثر من ذلك فان بطون القبيلة المعروفة لديهم في الجزيرة العربية من
نفس الفروع الموجودة في السودان وشم ابلهم يطابق وشم ابل رشايدة
السودان •

ومن هنا فان بني رشيد الذين ينتمون الى هارون الرشيد ومن ذريته
قد اختلطوا ببعض القبائل العربية الحجازية التي تسكن أرض الحجاز
وأن أساسها من أصول قحطانية وربما تكون بعض القبائل العربية
المجهولة الأصل قد انضمت اليهم •

ومن أسباب هجرتهم الى السودان هناك من يروى أن سنوات
الشدة والجذب هي التي اضطرتهم للهجرة الى السودان وأنهم تقابلوا
مع أصحاب المراكب (السفن) في البحر الأحمر والذين كانوا يصلون
الى جدة من موانئ سواكن وبور سودان ومصوع وقرؤزة وانهم سهلوا
لهم الهجرة الى السودان حيث المناطق الممطرة فهاجر بعض من الرشايدة
الى قرؤزة والبعض الآخر هاجر الى كل من مصوع وجنوب مصر وانهم
اجتمعوا في موضع يقال له فرسفن وفي هذا الموضع تعاينوا
فيما بينهم على العبور للوصول الى السودان بعد أن استعملوا السنايك
في عبور البحر الأحمر ومن ثم دخلوا منطقة حلايب ومنها اشجهوا الى
مصوع واتجه بعضهم الى فرشوط وسوهاج في مصر •

وربما تكون ظروف الجذب الشديد الذي طال سبع سنوات
والخلاف مع الشريف عون باشا حاكم مكة المكرمة وغيرها من الأسباب
كانت من الدوافع القوية للانتقال الى السودان والهجرة عبر البحر
الأحمر •

وكانت أقوال لا زالت تذكر أن أغلبية قبيلة الرشايدة لا زالت تسكن حتى عصرنا الحاضر الجزيرة العربية حيث أن الرشايدة في الأصل جزء من قبيلة كبيرة من قبائل الحجاز لا زالت تسكن شمال المدينة المنورة وأن الذين هاجروا منهم الى السودان هم نسبة صغيرة نظرا للظروف السابق الإشارة إليها •

ولكن هناك من يدعونهم بالزبيدة في السودان وذلك نسبة الى قبيلة زبيد القبيلة اليمنية وليس الى زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن قبيلة الرشايدة والزبيدة قبيلتان مختلفتان وأن ظروف الهجرة قد جمعت بينهما وقارب بينها تشابه الشكل واللون ، كما أن الرشايدة أنفسهم يؤكدون أن بعض فروعهم كالعوازمة والغزايزة والعوينات ليست جزء منهم أصلا وانما انتمت اليهم بعد اكتمال هجرتهم الى السودان حيث صاروا جزء من إحدى ادارتهم الثلاث وهي الزنيمات والبراعصة والبراطيخ • وأن التسمية بالزبيدية تعود الى قبيلة زبيد العربية التي كانت تتردد على السودان بسفنها بقصد التجارة وعند ما يسألهم الهوندوة والبشاريون من قبائل البجة عن اسمهم يقولون انهم زبيدية فلما وفد الرشايدة الى نفس المنطقة أطلقوا عليهم اللفظ السابق ، وأن قبائل بنى عامر إحدى قبائل البجة عند ما شاهدوا الرشايدة الذين ربما تكون سفن الزبيدية هي التي نقلتهم الى السودان مع هؤلاء سموهم الزبيدية وأن التشابه فيما بينهم دفع البجاة الى مناداة الرشايدة بالزبيدية حيث أنه الاسم المتعارف لديهم ، ونظرا لأن الرشايدة لا يألون اسم الزبيدية فان عمدة الرشايدة كان يفرض غرامة على كل رشيدى يقول انه زبيدى •

وهناك آراء كثيرة تتفق على أن بنى زبيداد الزبيدية الذين يحترفون مهنة الملاحة كانوا يترددون على ميناء سواكن قبل مجيء الرشيدة بفترة طويلة •

كما أنه يوجد أولاد راشد أو بنى راشد الذين يسكنون في وادى وبلاد برنو ودارفور وكردفان ويكون الزبيدية بطن من بطونهم الرئيسية الثلاثة •

ومن هنا فإنه يكون هناك تداخل في تاريخ قبيلة الرشايدة والزبيدية منذ القدم بسبب طول جريتها في الجزيرة العربية وفي منطقة الحجاز بوجه خاص وأن رجوع القبيلتين الى أصول قديمة الى كنانة بن عذرة ابن فضاة بن قحطان يقوى السر في هذا التداخل .

ومهما يكون من أقوال في الأصول العربية لهذه القبيلة العربية المهاجر في العصر الحديث الى السودان فإن ذلك يعطى الدليل القوي على أن تيار الهجرة العربية الى السودان لم يتوقف لحظة حيث كانت سبل الحياة الميسرة دافعا قويا على التحرك من الشاطئ الشرقى الى الشاطئ الغربى ومن هنا كانت هجرة الرشايدة الذين قدموا من الباب الشرقى الأوسط من أرض الحجاز واستوطنوا منطقة السودان الشرقى وأخذت هجرتهم في التوسع حتى وصلوا الى أرتريا والى تخومها وأن هجرتهم كانت خوفا من بطش المهدي بهم وأنهم انتشروا في المنطقة الساحلية بالقرب من مصوع .

وخلاصة القول أن النواة العربية المهاجرة الى السودان والتي التفت حولها المجموعات التي تعيش اليوم على أرض السودان إنما كانت تتألف من هجرات عربية متعاقبة وفي فترات زمنية متلاحقة وأن معظمها كان يتم عن طريق وادى النيل حيث مصر المصدر الأساسى للهجرة العربية الى السودان وهى بقايا الأحلاف العربية التي كانت بقيادة جذام وجهينة والعركيين والهلالين والهوارة والقرشيين وربيعه وغيرهم من القبائل العربية الأخرى التي دخلت في دائرة هذه القبائل العربية .

ان محاولة ذكر القبائل العربية الكثيرة المنتشرة في السودان حاليا سواء الأصول الكبيرة أو البطون أو فروع البطون أمر يحتاج الى دراسة مفصلة ومستفيضة لا يتسع لها المجال هنا ، ذلك لأن ذكر كافة القبائل العربية سواء تلك البدوية أو الحضارية وتتبع تاريخ هجراتها وفروعها وأصولها يحتاج الى جهد كبير ، لكن اكتفيت هنا بذكر تلك المجموعات العربية البارزة في تاريخ عروبة السودان والتي كان لها شأن كبير في سير الحوادث التاريخية وفي اقامة الامارات والسلطنات العربية

الاسلامية وفي صبح الحياة بالصبغة العربية والاسلامية وتلك هي صورة عامة وليست متخصصة لحركة القبائل العربية ، والتي هاجرت الى السودان من جميع المعابر الرئيسية حتى وصلت الى السودان خلال عصور تكوين المجتمع السوداني العربى المسلم ، والتي لعبت تلك القبائل السابق الشارة اليها دورها الاساسى فى أن يكون السودان حصن من حصون العروبة والاسلام فى القارة الافريقية .

وبعد هذا العرض لمجموع القبائل الرئيسية التى هاجرت الى السودان فانه توجد مجموعات صغيرة كالرشايدة هؤلاء وأيضا الكواهل فهما ليسوا من جبهة ولا من الجعليين بل لهم نسبهم الخاص ، إضافة الى أن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانية كما أنه توجد قبائل قليلة مثل الأحامد على النيل الأبيض تارة تنسب الى بنى كاهل وتارة أخرى الى الجعليين .

ولقبيلة الجعليين مكانها على النيل الذى يمتد من دنقلة شمالا تقريبا فى الاتجاه الجنوبى حتى مدينة الخرطوم الحالية ويعتبر هذا الجزء من حوض النيل المركز الرئيسى الذى انتشرت منه مجموعة قبائل وأفرع وبطون الجعليين فى شعب وفروع نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم وفى الاتجاه الغربى نحو دارفور وكردفان بل ان هناك مجموعات من الجعليين قد طاب لهم المقام والاستقرار حيث استقرت فى المديريات الجنوبية من السودان مثلما حدث ذلك الاستقرار فى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال وهذا يثبت عمق العروبة فى جنوب السودان .

والمجموعة الجعلية هذه تشتمل على عدد كبير جدا من البطون والعشائر والبدنات والبيوت فهناك الجعليون الأصليون الذين نسميهم الجعليون الخالص والذين ليس لهم اسم آخر غير هذا الاسم فهم يعيشون فى المنطقة التى تمتد من الشلال السادس الى عطبرة .

ولا يتسع النطاق فى تلك الدراسة لذكر كل فروع وبطون وعشائر وبدنات الجعليين ، ذلك لأنه يوجد ما يزيد عن خمسة عشر عشيرة

رئيسية أخرى تنتمى للمجموعة الجعلية والتي أشرنا إليها سابقا بالمجموعة العباسية إضافة الى العديد من الأفرع والبطون والبدنات الكثيرة لهذه المجموعة الجعلية التي ساهمت كل المساهمة في صبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية بالمشاركة مع المجموعة الجهنية وغيرها من الأشراف الطالين والأمويين وكل القبائل العربية الاسلامية التي انصهرت في بوتقة السودان لكي يخرج لنا السودان العربي الاسلامي الافريقى الذى يعتبر جسر العروبة والاسلام الى قلب القارة الافريقية .

ومنطقة الجعليين هذه الواسعة والممتدة تتمثل فيها الثقافة الاسلامية العميقة سواء في اللغة العربية الفصحى أو في القيم العربية الأصيلة الأخرى حيث تمثل منطقة سكناهم لونا من ألوان الحياة العربية والحضارة العربية الاسلامية المستقرة من خلال تفضيلهم البقاء بجوار النيل لكي يمارسوا الزراعة كما أنهم نشروا لواء العروبة والاسلام في تلك الربوع ، وأن ذلك لا ينفى البتة أن هناك مجموعات أخرى من الجعليين قد تفرقوا في أنحاء عديدة من السودان لكي يمارسوا دورهم في نشر العروبة والاسلام وفي الدعوة للاسلام وفي ممارسة التجارة التي كان لها دورها في نشر العروبة والاسلام وانتشار القبائل العربية في أنحاء عديدة من السودان وادى النيل حيث حمل العرب لواء التجارة في أجزاء عديدة من السودان وكان لهذا اللون من الاتصال أثر كبير في تعميق الثقافة العربية الاسلامية في تلك البلاد وذلك بعد أن وجدت القبائل العربية في البيئة السودانية ما يذكرهم ببيئتهم الأولى في شبه الجزيرة العربية وهى تلك البيئة التي تساعد على الرعى بكافة مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية ومن هنا طاب المقام والاستقرار حيث لم تكن تلك الهجرات العربية عبارة عن انتقال مجموعات بشرية من مكان الى آخر ولكنها في المقام الأول كانت تفاعل بين ثقافات متباينة حيث شمل ذلك التفاعل اللغة والجنس والعقيدة الاسلامية وكافة مظاهر النشاط الانسانى ومن هنا اختلطت تلك القبائل بالعناصر المحلية وكانت درجة ذلك الاختلاط من القوة والمنعة بحيث صار العرب يتخذون من القبائل التي يعاشرونها عوناً وحليفاً لهم على من يعاديهم من القبائل الأخرى .

ومن هنا فانه يمكن القول أن مصر لم تكن هي الطريق الوحيد
انما هي الطريق الأساسى الذى دخل العرب منه الى السودان ، فقد
توغل جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للدول الإسلامية عن طريق
البحر الأحمر ، فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى
قد هرب الى ميناء باضع بالقرب من عقيق عام ٢٦ هـ / ٦٣٧ م وذكر
أن الخليفة أبا بكر الصديق قد نفى جماعة من الأعراب الى منطقة
عيذاب ، وفى ذلك العصر المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش
والمسلمين ، كما أن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد اتخذوا جزر
دملك هذه منفى للعناصر العربية غير المرغوب فيها ، وقد ساعد ذلك على
سرعة الاتصال ومن هنا كانت دملك ومصوع ميناء الجزء الشمالى من
الحبشة وباضع وعيذاب مداخل رئيسيان لأرض البجة وفوق هذا كان
التجار العرب يمارسون نشاطهم التجارى فى تلك البقاع •

ومن هنا قويت العروبة بتلاحمهم مع سكان السودان بتلك الصورة
التي ربما تدل على أن العرب استطاعوا حمل لواء العروبة فى تلك المناطق
التي نزلوا بها ، ولقد كان استقرار العرب بهذه الصورة فى تلك المناطق
التي نزلوا بها يدل على مدى النجاح الذى حققوه لا سيما بعد أن قامت
تلك الامارات والسلطنات العربية الإسلامية بدورها فى اثراء حركة
الهجرة العربية وما قام به العرب فى السودان وادى النيل فى تلك المساهمة
الفعالة ، حيث سهل ذلك على تحركات القبائل العربية داخل الأقاليم
السودانية المختلفة واتساع حركة الهجرة الى الجنوب حيث المديرية
الجنوبية كالمديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال وما أدى الى ذلك
من احتكاك بين ثقافات العروبة والاسلام وغيرها من الثقافات المحلية
التي ذابت فى الوجود العربى والاسلامى وان كانت لا تزال تحتفظ ببعض
مظاهرها المحلية ، ومن هنا تطلب على العرب أن يدخلوا الى المناطق
الداخلية فى السودان لا سيما تلك المناطق الجنوبية حيث الكثرة السكانية
وصالحية تلك الأقاليم للدعوة الإسلامية ونشر العروبة والاسلام ومن
هنا شق المسلمون والعرب طريقهم الى قلب السودان حيث المناطق
الاستوائية ومناطق الغابات الجنوبية •

ولقد ساهمت البيئة الاجتماعية خير اسهام في تعميق حركة الهجرة العربية الى أنحاء عديدة من السودان وادى النيل ، ذلك لأن أبرز هذه الحقائق الاجتماعية التي ساعدت على التحام العنصر العربى بالعنصر السودانى هو نظام الأمومة الذى تقضى بتوريث ابن الأخت مدلا من الابن ولعل هذا النظام هو الذى أفاد القبائل العربية وشجعها على الانتشار وصولا الى المناطق الجنوبية حيث أن ذلك النظام الاجتماعى قد ساعد على سرعة امتزاج العناصر العربية بالسودان وجعل العرب يملكون ناصية الأمور السياسية فى تلك البلاد بعد أن اختلطوا بقبائل الشلك والدنكا والنوير وغيرهم من قبائل الجنوب .

ثم ان انتشار الاسلام على نطاق واسع كان من أهم العوامل التى مهدت الطريق أمام العرب فى تعريب السودان وفى انتشار الثقافة العربية الاسلامية التى سوف نعرض لها فى الفصل القادم .

الباب السابع

مآثر الثقافة العربية الاسلامية

لقد ظهرت الثقافة العربية في السودان بصفة عامة وفي بيئة البادية بصفة خاصة على أثر الهجرات العربية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية في عهود مختلفة ، وجمع كثير من المؤرخين أن السودان عرف العروبة منذ أزمان بعيدة ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية بعدة قرون طويلة ، وفي ذلك يقول ماكما يكل أنه منذ الأيام الغابرة دخل العرب مصر في أعداد كبيرة عن طريق الساحل الأترى وأقاموا هناك ومن المحتمل أن كثيرا منهم أقاموا منازلهم قريبا من الحدود الجنوبية لمصر في السودان .

وكما سبق أن عرضنا فان العلاقة بين شاطئ البحر الأحمر كانت وثيقة الصلة منذ فخر التاريخ المبكر ، ومن هنا فانه من الخطأ القول أن السودان لم يعرف العروبة وانتشار الثقافات العربية الا في أوائل القرن الثامن الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، أى أن انتشار العروبة في السودان لم يبدأ بصفة جدية الا بعد اتمام فتح دنقلة ، ومن هنا كان خطأ القول أن انتشار العروبة في السودان لم يتم الا بعد تأسيس دولة عربية ومن هنا وقع هؤلاء في خلط بين السياسة والعروبة .

وعلى هذا فانه لا جدال في أن كل القرائن تشير الى أن العرب قد أتحت لهم الهجرة الى السودان منذ أزمان غابرة في القدم ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام بعدة قرون طويلة وبالتحديد بعد سقوط سد مأرب ولا شك في أنهم قد حملوا معهم ثقافتهم العربية الى تلك المناطق التي هاجروا اليها ، كذلك فانه من الواضح أن هذه الثقافة التي حملها أولئك

العرب للسودان أنها كانت في بادئ الأمر ثقافة عربية جاهلية ، وأن آثار هذه الثقافة العربية !جاهلية في السودان قد ظهرت في عدة وجوه مختلفة في العديد من مظاهر الحياة حيث نقل عرب حمير وسبأ والحضارمة تلك الثقافات المختلفة إلى تلك الأوطان التي استقروا فيها وقد كان ذلك فيما بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد .

الا أن تلك الهجرات العربية التي حدثت قبل الاسلام قد اندثرت بظهور نور الاسلام وبانتشار الاسلام بين العرب وذلك سبب انتشار الدين الاسلامي بين الجماعات العربية التي هاجرت الى السودان عقب ظهوره .

ولقد كان للهجرة العربية الواسعة للسودان التي حدثت بانتشار الاسلام في الجزيرة العربية وفي المناطق المحيطة بالسودان أثره المباشر في نشر الثقافة العربية الاسلامية التي لا تزال آثارها خالدة حتى اليوم حيث بدأت تلك المرحلة الراسخة عقب هجرة القبائل العربية من شبه جزيرة العرب مع الفتوح الاسلامية حاملة معها ثقافتها العربية وعقيدتها الاسلامية الخالدة التي تركت آثارها واضحة وقوية وجلية في البنية السودانية حتى اليوم .

ولقد كان سكان الجزيرة العربية منذ ظهور الاسلام سواء أكانوا من العرب العاربة أو العرب المستعربة والذين وفدوا الى أرض السودان واختلطوا بالسكان المحليين اختلاطا كاملا اكتسبوا من خلاله العروبة بالثقافة أو بالاختلاط ، هذا الاختلاط هو الذي وسع من مفهوم العروبة على أرض السودان وساعد على انتشارها ، وكان أن انتشرت العروبة بين النوبة وتفهموا ثقافتها وشعروا أنهم جزء من حضارتها ومن هنا أصبح هذا يؤهلهم لكي يصبحوا جزءا منها وينتموا اليها .

ومع أن الاسلام والثقافة العربية قد ساعد كل المساعدة في صبغ السودان الشمالي بدرجة كبيرة من التجانس الثقافي والاجتماعي الوجداني، فان المنطقة الوسطى منه وهي تمثل مركز الثقل الحضاري والثقافي في

السودان تعرضت الى حد كبير جدا لحركة الهجرة العربية وذلك فيما نراه ممثلا في استقرار العديد من المجموعات العربية الكبيرة من العرب البدو حيث تمت لهذه العناصر العربية الاسلامية الغلبة على أوجه الحياة الشاملة بحيث صارت العادات والتقاليد والأعراف العربية هي السائدة كل السيادة في تلك المناطق من السودان اضافة الى أن اللغة العربية لغة العروبة والاسلام والقرآن الكريم قد صارت لغة التخاطب بين كل الأقوام اضافة الى أنها صارت لغة الثقافة والحضارة والأدب والعمران ومن هنا كانت اللغة العربية خير شاهد لغلبة ثقافة القرآن الكريم على كل ما يمكن القول عليه ان كانت هناك لغات مثل النوبية والبجاوية والفواراوية والكردفانية والزنجية النيلية وغيرها من اللهجات المحلية الأخرى التي دخلت فيها العديد من الألفاظ والمترادفات العربية مما يعكس قوة وحيوية اللغة العربية وقدرتها على التفاعل في وسط تلك الشعوب التي أصبحت فيما بعد جزء من المجتمع السوداني العربي الاسلامي . وان كانت تلك اللهجات السودانية غير مكتوبة ولا يوجد لها تأثير ثقافي في البنية الثقافية السودانية بوجه عام .

ولقد لعبت تلك القبائل التي عرضنا لها في الفصل السابق دورا كبيرا في نشر الاسلام والنفوذ العربي في أرض السودان ، اذ أنه بمرور الزمن بدأت الصبغة العربية تأخذ مجراها في صبغ السودان بتلك الصبغة الثقافية الاسلامية التي يعتز بها أبناء السودان جنوبه مع شماله نظرا لعمق الحضارة والثقافة الـوحية التي تستمد قيمها من مصدر روحي هو القرآن الكريم .

اضافة الى أن مظاهر النشاط العربي الاقتصادي هذه كانت بمثابة المراحل التي مهدت الطريق لانتشار هذه الثقافة الباقية الخالدة في أرض السودان ، فقد كان كل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة قد ساعد بطريقته الخاصة في فتح البلاد للتيار الثقافي وشجع الطريق على الهجرة العربية التي أصبحت حقيقة ملموسة في الحياة السودانية .

وقد كان تدفع تيار الهجرة العربية دون رقيب من الأسباب التي ساعدت تلك الهجرات على اللحاق بالكثير من أبناء جلدتهم الذين سبقوهم

الى تلك البقاع حيث نشروا فيها سمات الثقافة العربية الاسلامية ومن ثم تركوا بعضا منهم لكي يرسخ هذه الثقافة العربية الاسلامية في تلك البقاع وتابع البعض الآخر مسيرتهم في أرض البطانة والجزيرة ، ثم عبروا النيل الى كردفان ودارفور حيث التقوا هنالك بمجموعات عربية أخرى كانت قد تابعت الشاطئ الغربى للنيل حيث استقر هؤلاء في سهول أواسط السودان الغنية ، حيث أن هناك آراء تذكر أن القبائل العربية الوافدة الى السودان لم تكن في بادىء الأمر تهتم بنشر الاسلام ربما لانشغالها بمشاكل المرعى في وطنها الجديد ولجهلها بأصول الاسلام العميقة خاصة بعد مصاهرتها للسكان المحليين الا في حدود ضيقة حيث عكف بعض الرواد المسلمين الأوائل ينشرون العقيدة الاسلامية في بساطتها وسماحتها واتسع نشاط الدعاة المسلمين بعد ذلك ، ذلك لأن انتشار الدعوة الاسلامية والثقافة العربية الاسلامية لا يعدوا أن يكون اسما وفي مرحلته الأولى ، فقد اهتم رجال القبائل العربية وكلهم من البدو والتجار وهم ممن تتقصهم الثقافة الدينية الاسلامية العميقة وعدم الفهم بالعلوم الاسلامية ، ومن هنا كان كسبهم للوثنيين والمسيحيين هو الشغل الشاغل حيث أنهم كانوا مركزين على السمات العامة للدين الاسلامى دون الدخول في التفاصيل العميقة للعقيدة الاسلامية .

لكنه على الرغم من نشاط رجال القبائل البدوية والتجار ، الا أن ذلك لم يمنع من مشاركة بعض العلماء المسلمين لهاتين الفئتين والذين أسهموا في بث تعاليم الدين الاسلامى وتعميق مفاهيمه .

ومن هنا اختلطت المؤثرات الاسلامية بالمؤثرات المحلية وظهر طابع محلى من ألوان الحضارة الاسلامية حيث كان انتشار الاسلام بين هذه الشعوب ايدانا ببروزها فجأة في دنيا الاسلام وايدانا باتحاذها مظهرا اسلاميا واضحا ، وذلك بعد أن ازداد انتشار هذه الهجرات العربية الخالصة التي أخذت تتدفق على البلاد تدفقا مستمرا وتنتشر في سهوله الفسيحة في الشرق والغرب وانتشارا واسعا حيث استقر بها المقام وطابت لها العيشة الرغدة ، واخلطت بالسكان الأصليين ونشرت في السودان اللغة العربية والدم العربى والدين الاسلامى والثقافة العربية وطبعت السودان بالطابع العربى الواضح والمؤثر والفعال . وان كانت المؤثرات المحلية

لا تشكل في البنية الثقافية السودانية أى مدلول ومن هنا ظهرت الثقافة العربية الإسلامية ثقافة خالصة لا يداخلها أدنى تأثير بأى صورة من الصور المتعارف عليها في المؤثرات المحلية كما كان في بلاد الشام والعراق ومصر قبل الفتح الإسلامى .

وقد كان هذا التطور لا يقل عن نظيره في البلاد الإسلامية الأخرى حيث انتشرت الدماء العربية والثقافة العربية ولقد كان هذا الدور لظهور ملامح الحضارة الإسلامية دورا تم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة بكل ما تمك من مؤثرات روحية وقيم إنسانية وتقاليد وعادات أصيلة . مع التقاليد المحلية السائدة في جميع النواحي وفي نظم الحكم وفي الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الإسلامية ومما يعجب هذا من نشأة لون من الحضارة الإسلامية حيث كان على السودان أن يستجيب لهذا التطور بعد أن سادته المؤثرات الإسلامية على نطاق واسع .

ذلك لأن مما لا شك فيه أن ذلك الامتزاج قد ترك آثاره الى حد كبير في عروبة السودان وثقافته الحالية ذلك أننا نجد اليوم بنيانا واضحا في الثقافة العربية في السودان من حيث اللغة والجنس فبعض المناطق تغلب عليها الصبغة العربية والبعض الآخر يتسم بطابع أفريقى وفريقا ثالث يجمع بين الثقافتين وبالنظر الى ذلك يمكن القول أن ذلك التباين الثقافى والأنثروبولوجى يرجع الى طبيعة الهجرة العربية الى السودان ، اذ كانت بعض القبائل تتدمج وتذوب في السكان المحليين والذين كانوا ينتمون الى أجناس متعددة أبرزها الحاميون وفي نفس الوقت نجد مجموعة عربية احتفظت ببقاوتها الجنسية واللغوية على أننا لا نستطيع أن نغفل أثر الظروف المحلية في تكييف عروبة السودان فالبنية بطبيعتها أثرت بدورها في طبيعة واستقرار واستيطان تلك القبائل كما أن بعض العوامل الاجتماعية قد ساعد على انصهار بعض تلك القبائل في البوتقة المحلية .

وعلى هذا لم تكن القبائل العربية وحدها هي الرائد الأول في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان ، بل كان قد وفد الى البلاد قوم من العرب أو من بقايا الجيوش المحاربة الهاربين من الضغط السياسى أو من الدعاة الذين كان لهم الفضل في نشر التعاليم الإسلامية التى ذاعت شمال السودان بل ووصلت حتى المديرية الجنوبية حيث مديريات خط

الاستواء وبحر الغزال وعلى هذا فانه لم يكد السودان يزداد معرفة
بالثقافة العربية الاسلامية حتى جاء الدعاة على نطاق واسع لكي ينشروا
أصول الدعوة الاسلامية على نطاق واسع وفق عقائد الجماعة والسنة
حيث انتشر مذهب أبى حنيفة على نطاق واسع كما انتشر المذهب
الشافعى وان كان انتشار المذهب المالكى قد سبق كلاهما في الانتشار في
ربوع السودان حيث كانت له الغلبة بين أبناء الشعب السودانى ،
وأنه اذا كان هناك التقاء بين التقاليد الاسلامية والتقاليد المحلية
قد وضحت آثارها في بعض أوجه الحياة الاجتماعية أو في بعض
نظم الحكم أو العادات والتقاليد الموروثة الا أن كل هذه المظاهر لم يكن
لها أدنى وضوح في ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، حيث أن الثقافة
التي شهدتها السودان كانت ثقافة عربية اسلامية خالصة في جوهرها
ومظهرها لم تدخلها مظاهر سودانية على الاطلاق حيث كانت ثقافة عربية
لا تكاد تختلف من جميع جوانبها عن تلك الثقافة العربية التي جاءت بها
من الجزيرة العربية قبل هبوطها أرض مصر والبلاد المجاورة للسودان .
وذاك لأن أرض السودان لم تشهد ثقافة قديمة وحضارة قديمة
الا فيما ندر كتلك الحضارات العريقة التي شهدتها أرض مصر والشام
فالثقافة المغلوبة اذا كانت ذات جذور حضارية عميقة فمما لا شك فيه
أنها تؤثر في الثقافة العربية الغالبة ، وينشأ من ه ذا الالتقاء نمط
حضارى جديد في الثقافة العربية أدواته في التعبير والثقافات الموروثة
وأدواته في التفكير ، ومن هنا ثم تجد الثقافة العربية الوافدة الى
السودان ثقافة قديمة من النوع الذى أشرنا اليه ومن هنا لم تتأثر بأية
تقاليد محلية انما بدت عربية خالصة .

ومن هنا لا يوجد أدنى أثر لعمق سودانى أو أفريقى في الثقافة
العربية الاسلامية في السودان ، وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن
اللغة العربية قد دخلت فيها وتأثرت ببعض اللغات المحلية كالنوبية
والبجاوية والنيلية والزنجية والكردفانية والفواردية ، ويستدلون على
عمق الأثر الأفريقى في اللهجة السودانية التي صارت ذات طابع مميز لها
عن باقى اللهجات العربية ، بل أن هناك العديد من الكلمات المتناثرة في
اللغة العربية في السودان (اللهجة السودانية) تؤكد على أن غلبة الثقافة

العربية على شمال السودان وصلتها الحميمة بالبدَاوة أو شبه البدَاوة لا تنفى أثر التيارات الأخرى .

هذا من الناحية اللغوية حيث صارت اللهجات العربية جزء من مجموعة اللغات السودانية ومجموعة اللغات الحبشية السامية ولهجاتها وعلى نحو ما تغلبت هذه القبائل العربية وامتصت في داخلها مجموعة السكان المحليين وأكسبتهم الصبغة العربية كما نرى الآن في السودان المعاصر ، كذلك تغلبت هذه الثقافة العربية الجديدة على بعض تلك الثقافات المحلية التي خضعت خضوعا مباشرا لضغط هذه الثقافة العربية العميقة الجذور . ولقد كانت هي العملية اللغوية والثقافية من النتائج ذات التأثير الفعال بحيث بدأت نتائجها في اتخاذ الأهالي للغة العربية لغة لهم وبعض التطورات العربية بحيث أصبحوا متضلعين بالنظام القبلى العربى .

صحيح أنه قد ظهر هناك بعض التطور في الثقافة العربية الا أنه بشكل عام قد حافظت على جوهرها ، ذلك لأن التنوع في الاختلافات الشكلية بين اللهجات المحلية في السودان ، قد بدا واضحا في أن هذه اللهجات وان تعددت أشكالها الا أنها ترجع بأصولها الى لهجات أقدم منها عاشت في شبه الجزيرة العربية كما أنها قد دخلتها في السودان بعض الألفاظ الغربية التي ترجع الى لهجات محلية ، نجد أن هذه الألفاظ الغربية لاتعدو أن تؤلف نسبة قليلة جداً من الصيغ المحلية .

كذلك فان هذه القبائل العربية المهاجرة لم تكتفى بإدخال الاسلام الى تلك المناطق ، بل أنها طبعت بطابع عربى خالص بسبب انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم في تلك البقاع ، وعلى هذا فان ظهور الاسلام واللغة العربية بنجاح كبير في ذلك الاقليم بين لنا الدور العظيم الذى قام به هذا الدين ولغته الغراء في تلك البلاد وتطورها فقد أصبحت عن طريق الاسلام والعلوم الاسلامية العربية عظمة الحضارة والتقدم اذ سرعان ما شكل الاسلام عادات السكان وطور حياتهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره في الدول المعاصرة الاسلامية في ذلك الوقت سواء في الشرق الاسلامي أو بلاد المغرب العربى .

ولقد كان الاسلام والعلوم العربية الاسلامية وانتشارها الواسع سببا في أن سارت تلك السلطنات الاسلامية التي قامت في السودان بتلك

النهضة الاسلامية حيث انتشار اللغة العربية في شتى أنحاء السودان ومن ثم أصبح المذهب الغالب في تلك البلاد هو مذهب الامام مالك ، على أن سيادة هذا المذهب لا ينفى وجود بعض الشافعية والحنفية في البلاد .

ذلك لأنه ليس من شك في أن التآلف الروحي الذي ولدته وحدة الشعائر الاسلامية بين جميع هذه الشعوب التي سكنت تلك الأماكن كان لها أثر بعيد في حياة شعب السودان ، لأن كل ذلك كان من غير شك بمثابة دفعة قوية أثارت في شعب السودان شعور عظيم بأنهم قوة متماسكة من ناحية وبأنهم جزء من كيان اسلامي عالمي أوسع بكثير من حدود بلادهم الضيقة من ناحية أخرى .

ولقد تأثرت الثقافة العربية الاسلامية في السودان في ذلك العهد الذي شهد قيام تلك السلطنات الاسلامية بعاملين بارزين في تاريخ الحركة الثقافية الاسلامية .

فلقد خُطت تلك الثقافة الاسلامية العربية خطوتها الأولى منذ أن وطأت أقدام القبائل العربية المهاجرة أرض السودان منذ القرن الثالث الهجري ، السادس الميلادي حيث تركت تلك الغزوة التي قام بها عبد الله بن عبد الرحمن العمري عام ٢٥٥ هـ بصماتها الأولى في انتشار الثقافة العربية الاسلامية حيث ازداد النشاط الثقافي الاسلامي ولو قدر لهذه الامارة العربية أن تمارس دورها في شمال السودان لتغير وجه الحياة الثقافية الاسلامية في ذلك البلد العربي الاسلامي منذ فترة بعيدة الا أن هناك بعض الآراء تتصور أن الحياة الثقافية لم تتبلور بصورة واضحة الا في خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، بل انها لم تظهر بصورة اسلامية واضحة المعالم الا في القرن السادس عشر حيث بدأت معالم الحياة الاسلامية تظهر وتتنوع مع بزوغ فجر القرن السابع عشر الميلادي .

كذلك تأثرت الحركة الثقافية الاسلامية بذلك الموقع الجغرافي للسودان الذي جعله يقع بين بيئات اسلامية توطدت فيها أصول الثقافة

الاسلامية منذ عهد بعيد وكذلك اتصاله بالعديد من الأقطار والأوطان مثل مصر والحجاز واليمن والحبشة مع ارتباطه مع بلاد المغرب العربى وغرب القارة الأفريقية .

ومن هنا كان هذان العاملان من العوامل الفعالة فى اثرها الثقافة العربية فى السودان وطبعه بطابع سودانى خالص حيث كان هذا العاملان يشكلان البنية الأساسية التى قامت عليها حركة الثقافة العربية الاسلامية وعلى هذا فانه يمكن القول أن الثقافة الاسلامية العربية قد دخلت الى السودان فى عصر كانت فيه مصر قد اكتمل نضجها الثقافى والحضارى حيث شهد القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى حركة ثقافية وفكرية وعلمية وحضارية كانت فيه مصر فى ذلك القرن هى الموجه الأول لحركة التيار الفكرى الاسلامى على مستوى العالم الاسلامى أجمع ومن هنا كان على السودان أن يستفيد من كل هذه الظروف المعاصرة والسائدة ولا سيما من جارتها فى الشمال والتى أمدته بالجزء الأكبر والأعظم من مؤثرات الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ، حيث كان العصر المملوكى الذى شهد بزوغ السلطنات الاسلامية فى وسط وغرب السودان قد ساهم فى رفع شأن الثقافة العربية فى السودان وايصالها الى المستوى الذى وصلت اليه من التقدم والازدهار لكن خضوع مصر للنفوذ العثمانى فى الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى كان ايذاً باتجاه حركة الفكر والثقافة والحضارة والعلوم الى الطريقة العقلية وليس معنى ذلك عزوفها عن العلوم العقلية ، لأن تلك العلوم العقلية كانت ولا زالت تدرس فى العصر التركى العثمانى لكنها كانت تدرس بصورة آلية .

وعلى هذا لم يكن حال الثقافة العربية الاسلامية فى مصر بخير منها فى البلاد الاسلامية المجاورة للسودان حيث كانت الثقافة الاسلامية فى بلاد المغرب العربى تنصب فى نفس المجارى التى تجرى فيها الحركة الثقافية فى مصر . وكانت مدارس غرب القارة الأفريقية التى ساهمت بشكل قريب أو بعيد فى تغير وجه الحياة الثقافية فى غرب السودان قد خضعت للسيطرة المغربية منذ ١٥٩٣م عندما سيطر المغاربة على سلطنة سنغاي الاسلامية فى عصر انخليفة أحمد المنصور السعدي سلطان المغرب .

ولقد سادت المؤثرات الاسلامية السودان على نطاق واسع واستجابة لظهور السلطنات الاسلامية والامارات الاسلامية السابق الاشارة اليها والتي كان لها الدور الاساسى فى ذلك الاثر العلمى والفكر الاسلامى فى السودان ذلك لأن سلاطين الفونج فى السودان لم يهملوا التعاليم الاسلامية وما كان لهم أن يفعلوا ذلك وهم مسلمون ، بل اننا نجد أنهم عملوا بالحكم بالكتاب والسنة وسعى سلاطين تلك السلطنة فى سنار الى تطبيق الشرعية الاسلامية مما وسعهم العمل وذلك فى شئون الحكم وفى الأموال وفى جمع الزكاة والعشور واقامة الحدود الشرعية على الجناة ، فقد كان علماء الفونج يقيمون حد السرقة والقذف وغيرها من الحدود الاسلامية .

كما أن الحياة الاسلامية فى سلطنة دارفور الاسلامية قد خضعت لنفس هذا التطور الاسلامى واستجابت لمثل هذه المؤثرات الاسلامية حيث عمل سلاطينها على التمسك بالكتاب والسنة وطبقوا الشريعة الاسلامية تطبيقا تاما وشاملا فى جميع أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى طول البلاد وعرضها ومن ذلك ما نشهده فى عصر السلطان محمد الفضل الذى شهد عصره تطبيق أحكام الدين على الوجه الأمثل فى كثر أمور الحكم وهذا يبين مدى تمسكهم بالتقاليد الاسلامية التى ساعدت على انتشار الثقافة العربية الاسلامية ، حيث أن انتشار الثقافة العربية لا يزدهر الا فى جو اسلامى صميم خصوصا فى تلك الظروف التى نعرض لها لماثر الحياة الثقافية والعلمية الاسلامية فى السودان فى عصر تلك السلطنات الاسلامية التى ساهمت كل سلطنة فيها بجهدا الخاص فى انراء الحركة الثقافية بما بذلته من جهود جبارة فى فتح المجال لانتشار ذلك التيار العربى الاسلامى الوافد من جميع الجهات المحيطة القريبة جغرافيا وسياسيا بالسودان أو البعيدة عنه نوعا ما من ناحية الاتصال الجغرافى .

الدور المصرى الاسلامى :

ولقد كان اتصال سلاطين الفونج فى سنار بالنبع المصرى الاسلامى يشكل حجر الزاوية فى حركة التطور الثقافى الاسلامى من ذلك أننا نجد

أن سلاطين الفونج ومشايخ العبدلاب كانوا على صلة وثيقة بمصدر العلوم الإسلامية والثقافة العربية حيث كانوا على اتصال بالأزهر الشريف ورجاله وعلمائه حيث كان يصل العلماء المصريين إلى سنار ، ومن ذلك ما نجده في اتصال السلطان بادى المعروف بسيد القوم (١٦١١ - ١٦١٦م) بالعلماء المصريين في الأزهر الشريف حيث كان يرسل لهم واليهم انهدايا كما أن الأزهر الشريف أفرد رواقا خاصا بالطلبة السناريين أطلق عليه « رواق سنار » وقد ساعد ذلك على هجرة الطلاب السودانيين إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف ثم العودة إلى السودان مرة أخرى ونشرهم العلوم والمعارف الإسلامية بين ذويهم وطلابهم والقاء تلك الدروس في المساجد مما يساعد على إثراء الحركة الثقافية الإسلامية في السودان كذلك فقد هاجر العديد من علماء مصر ورجال الدين إلى السودان حيث طاب لهم المقام والاستقرار بعد أن تزوجوا من السودانيات ومن ثم أخذوا ينشرون الثقافة الدينية الإسلامية في ربوع السودان .

وقد كان اتصال السودان بمصر اتصالا وثيقا أملت به الظروف الطبيعية حيث كان موقع السودان واتصاله الطبيعي بالأمم الإسلامية المجاورة والتي منها مصر كان يحتم عليها تبادل الثقافة الإسلامية العربية ، ومن هنا كانت قوافل السودان ولا زالت تتحدر إلى مصر انحدارا متصلا من سفار ودارفور عن طريق درب الأربعين وطريق النيل وغيره من الطرق الأخرى التي كانت تربط مصر بالسودان حيث تحمل إلى مصر وأسواقها سلع السودان ومحاصيله وكانت مثل هذه القوافل تعود بحاصلات مصر وحاصلات آسيا وأوروبا .

هذه القوافل كانت تصل إلى شندى ثم يصل بعضها منها إلى سنار وكسلا أو الفاشر وما جاورها غربا ومن هنا كانت مصر أوثق الأقطار الإسلامية اتصالا بالسودان فكانت المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية التي بدأت تظهر في هذه البلاد منذ القرن العاشر الميلادي فصاعدا ، بل نستطيع القول أن مصر هي التي غرست البذرة الأولى للثقافة العربية الإسلامية التي وفدت من شمال الوادي إلى جنوبه حيث كانت

حملة العمرى بداية هذا الاتصال ثم تمثل بعد ذلك فى رحلة العلماء المصريين الى بلاد السودان واقامتهم به مشغلين بالتعليم أو رحلة طلبة السودان والاقامة بالأروقة الأزهرية مثل رواق السنارية وتلقى العلم بالأزهر الشريف والتأثير بالاعتبارات الفكرية فى القسم الشمالى من الوادى زم العودة الى السودان لمتابعة الدرس والتحصيل •

وكتب الطبقات هى أفضل ما يصور لنا هذه الرحلات المتبادلة ، اذ تصور لنا أن أول من قدم الى مصر ونزح اليها هو الشيخ محمود العركى حيث هاجر الى مصر وتلقى فيها العلم وتعلم فى الأزهر على شيخين من أعلام شيوخ المالكية هما شمس الدين اللقانى وأخيه ناصر الدين اللقانى ، والظاهر أن قدومه الى السودان كان فى العقد الرابع من القرن العاشر الهجرى ، لأن أستاذه شمس الدين اللقانى الذى تتلمذ على يديه توفى عام ٩٣٥ هـ ويعتبر الشيخ محمود العركى أول من نشر علوم الدين الإسلامى والثقافة العربية فى السودان حيث انطلق هذا الشيخ الى منطقة النيل الأبيض حيث لم يجد فى منطقة النيل الأبيض عند قدومه الى تلك البلاد مدرسة علوم ولا قرآن كريم يدرس فيها العلوم الإسلامية يقول ود ضيف الله عند ما تسلم الفونج زمام الأمر فى سنار أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها فى أول القرن العاشر الهجرى ولم يشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، ويقال أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى سنارة من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركى من مصر وعلم الناس الغدة وسكى البحر الأبيض وبنى له قصرا يعرف الآن بقصر محمود ثم أقام بجزيرة سنار وأسس نحو من سبع عشرة مدرسة بين الحسانية واليس واشتغل بتعليم الفقه ، كذلك أنشأ الخلاوى لتحقيق القرآن الكريم وتدريس علوم الدين وكان له ما بين الخرطوم واليس والكوه ، ما يزيد عن ثلاثة عشرة مدرسة •

ثم اشتد وفود العلماء من مصر فى النصف الثانى من القرن العاشر بعد أن توطدت دولة الفونج وبسطت ظلها على السودان وظهرت مكانة سنار بين عواصم العالم الإسلامى ، وتعدد كتب الطبقات أسماء

الوافدين وتعرض لانتاجهم وتحدث عن آرائهم في ميدان الثقافة ، فقد هاجر الى مصر أولاد جابر وهم أربعة أعلمهم ابراهيم جابر المعروف « بالبولاد » وأصلحهم عبد الرحمن وأروعهم اسماعيل وأعبدهم عبد الرحمن وهؤلاء يرجعون نسبهم الى غلام الله بن عائذ اليمنى ، ويبدو أن قدومهم كان بعد قدوم الشيخ محمود العركى لانهم درسوا في الأزهر على يد الشيخ محمد البنوفرى ، وهو على يد الشيخ عبد الرحمن الأجهورى وهو أخذ على ناصر الدين وشمس الدين اللقانى .

وقد سكن أحدهم وهو الشيخ ابراهيم بن جابر المعروف بالببولاد قرية « نرنج » حيث اشتغل بتدريس الفقه المالكى وتدريس مختصر خليل وأقام بديار الشايقية أول الأمر ثم انطلق الى أرض الفونج متابعاً رسالته ، حيث كان أول من درس رسالة خليل لبلاد الفونج وشدت اليه الرحال ومدرسته في خليل سبعة ختمات وعلم فيها أربعين انساناً صاروا كلهم أولياء وأقطاباً .

ويعد أولاد جابر من الذين أسهموا اسهاماً فعالاً في نشر علوم الدين اذ تتلمذ عليهم كما سبق أن أشرنا أربعون عالماً . وعمل هؤلاء الطلاب على نشر علوم الدين ووجدوا اقبالا شديدا ، وقد كان من تلاميذ هؤلاء الجابريون الشيخ الزين ولد صفيرون ، الذى بلغت حلقة ألف طالب وصار طلابه شيوخ الاسلام ، وبالجمله فالبلاد كلها الى دار حليج نجد فقهاءها طلاب ذلك الشيخ وطلاب طلابه ، وأيضا كان لطلاب الشيخ الزين ولد صفيرون ، دور بارز في نشر علوم الدين .

كذلك من الطلاب السودانيين الذين وفدوا الى مصر وكان لهم شأن كبير في نشر علوم الدين والثقافة العربية الاسلامية الشيخ حمد المجذوب ، وهو ينتمى الى عشيرة المجاذيب التى كانت ذات أثر واضح في نشر الثقافة الدينية في البلاد وكان الكثير من أبنائها يرحلون الى القاهرة ، ثم يعودون الى السودان لمقابلة رسالتهم حيث تنشأ الزوايا

لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد اليها الطلاب من كافة الأقطار وكذلك عملوا على بناء المساجد لتساهم بدورها في اثراء الحياة الثقافية .

وقد ذكر (ود ضيف الله) في طبقاته العديد من الشيوخ الذين دخلوا مصر وأخذوا العلم من شيوخ الأزهر ومن الواضح أن هذه الهجرة لم تقتصر على زمن الفونج بل هي ما زالت مستمرة الى يومنا هذا حيث ازداد قدوم هؤلاء الذين تعلموا في مصر ثم عادوا الى بلادهم ولو أن ظروف هذه الهجرة الى مصر كانت تخضع للظروف السياسية السائدة في البلدين والتي تحكمت في هذه الهجرة فمثلا نرى أن هجرة الطلاب الى مصر قد ضعفت في أواخر عصر أسرة سلاطين الفونج بسبب الكوارث والمجاعات وفترة الانحلال التي أصابت المجتمع السوداني ، زد على ذلك حالة العزلة التي فرضها حكام الفونج الأواخر على البلاد وبذلك انقطعت صلتهم بالعالم الخارجى .

كذلك كان المظهر الثانى من مظاهر الدور المصرى في اثراء الحركة الاسلامية والثقافية العربية في السودان ، ذلك لأن فريقا من علماء مصر ورجال دينها المطلعين قد هاجروا الى السودان وكان من طلائع الهجرة العلمية الاسلامية الى السودان في عصر أسرة سلاطين الفونج الشيخ محمد القناوى وهو من شيوخ المالكية حيث كان قد تتلمذ وتلقى علومه على أيدي العلماء الأفاضل الشيخ سالم السنهورى والشيخ يوسف الزرقانى اللذين كانا من أكابر علماء المالكية في مصر وقد تنقل الشيخ القناوى في السودان من المنطقة الواقعة بين سنار وأربجى حيث نزل في أول أمره في برير حيث هي مكان وسط بين ديار الشايقية محل أولاد جابر وجزيرة سنار التي كان فيها الشيخ محمود العركى ، وكان قدومه في النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى زمن الشيخ عجيب المانجلك ودخل برير وبنى بها مسجدا لتدريس الرسالة والعقائد والنحر وسائر العلوم وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة وبذلك انتشر علم الفقه في الجزيرة .

ومن ذرية الشيخ محمد القناوى المصرى نبغ حفيده الشيخ محمد اكداوى الذى شرع فى تدريس الرسالة والنحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق واجتمع عليه خلق كثير . كذلك وفد الى السودان من مصر فى عصر الفونج الشيخ محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميذ الخطيب الشربيني ودخل بلاد البر فى أول بلاد الفونج ثم توطن بعد ذلك فى بربر الى أن توفي فيها وقد أخذت عنه جميع الشيوخ التى ظهرت فى السودان ، أخذت عنه علم الفرائض وكان له دور لا يقل عن دور الشيخ عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى والشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ، والشيخ ابراهيم الفرضى والشيخ جودة صاحب المنظومة وأيضا وفد الى مصر الشيخ جاد الله الشكرى وكان ورعا تقيا عابدا زاهدا متواضعا .

وكان من الذين تتلمذوا على يد الشيخ القناوى من أبناء السودان الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، ثم الشيخ قرم الذى استقر بمدينة بربر يعلم فقه الشافعية ثم ارتحل بعد ذلك الى مدينة اربجى وتعلم عليه القاضى وشينى قاضى مدينة اربجى .

كما أن اختلاف طلاب السودان الى مصر حقيقة ليست فى حاجة الى توضيح ويكفى أن تذكر ما سبق أن وضحت فى انشاء الأزهر رواق السنارية لطلبة سلطنة الفونج ورواق لطلبة دارفور التى كانت عاصمتها الفاشر واستمرت هذه العلاقة متصلة غير منقطعة حتى اشتدت بعد الفتح المصرى . والأثر المصرى فى ثقافة السودان واضح كل الوضوح يتمثل فى الطابع المصرى لهذه الثقافة فى تدريس الفقه والمنطق والروحيد ونشر المذهب المالكي والمذهب الشافعى .

وقد يكون من أسباب قلة عدد العلماء المصريين الوافدين الى السودان فى عصر الفونج وربما يرجع ذلك الى صعوبة المواصلات وخطورة الطريق لعدم استتباب أحوال الأمن فضلا عن مشقة هذه الطرق وأخطارها الطبيعية لكن دور العلماء المصريين كان واضح كل الوضوح فى عهد الوحدة المصرية السودانية فى عهد محمد على ، ذلك لأن سياسة

محمد على كانت تهدف الى توثيق العلاقات الدينية أولا وقبل كل شيء بين البلدين لذلك نراه يرسل مع الحملة التي وجهها الى السودان بقيادة ابنه اسماعيل ثلاثة من نخبة العلماء المصريين وهم القاضي محمد الأسيوطي الحنفى المذهب ، والسيد أحمد أحمد البقلى الشافعى المذهب والشيخ أحمد السلاوى المالكى المذهب حتى يكون لكل مذهب من المذاهب الشائعة شيخ يشرف على شئونه وحتى لا يجبر مقتضى مذهب على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام الى شيخ فى غير مذهبه .

ولم يكتفى محمد على بارسال العلماء بل حاول تشجيع الطرق الصوفية على النزوح الى السودان حتى تتوثق تلك الصلة الدينية بين مصر والسودان وتشجيع الطريقة السعدية وهى فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهى نوع من الورقاوية والطريقة البدوية نسبة الى أحمد البدوى والى طنطا وأبرهمانية والدسوقية نسبة الى ابراهيم الدسوقى .

كما وفد الى السودان فى أول هذه المرحلة الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى (١٢٦٧هـ) وتولى نظارة مدرسة بالخرطوم وقدم معه مجموعة من القراء الذين علموا فقهاء الخرطوم لتجويد القرآن الكريم وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك ، كما أنشئت بعض المساجد التى لعبت دورا ملحوظا فى نشر علوم الدين الاسلامى ومن هذه المساجد الجامع العتيق بالخرطوم وكان مؤثلا للعلم ومقاما للذكر وذلك لأنه فى هذا العصر الذى برز فيه السودان الاسلامى فى سماء الحياة الاسلامية العامة كانت المذاهب الصوفية قد سادت وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامترجت بالدراسات الاسلامية وصار كثيرون من العلماء يعتقدون أن علم الظاهر لا يتم الا بعلم الباطن ، بل اعتبر بعضهم هذا العلم الباطنى هو الذى لا علم غيره وكانت الأمم الاسلامية غارقة فى لجة الصوفية بطرقها المختلفة وآدابها ونظمها وتقاليدها وذاكرها وكرامتها بحيث لم يعد أهل العلم والفقهاء يحتلون المرتبة الأولى فى نفوس المسلمين انما هذه المرتبة احتلها رجال الطرق الصوفية الذين ارتفعوا الى مكانة التقديس أحياء وأمواتا .

هذا الى جانب دور مصر في اثراء الحركة الاسلامية الثقافية ومساهمتها مساهمة فعالة في نشر بذور الثقافة العربية الاسلامية ومتابعة نموها واشتداد عودها حتى استطاعت أن تصبح السودان بالصبغة العربية الاسلامية ليساهم السودان بدوره الاسلامي في بلاد القارة الأفريقية المجاورة .

دور الحجاز في اثراء الثقافة العربية الاسلامية :

وكما اتصل السودان بمصر فان اتصاله بالحجاز كان أوثق نظرا لأن السودانيين كانوا يرحلون الى هذه البلاد المقدسة في الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة وذلك للحج والزيارة وكذلك للعلاقات الاقتصادية التي أملتها مصلحة التكامل الاقتصادي بين البلدين ومن هنا وفد على السودان الكثير من علماء الحجاز للاقامة والتدريس وبث روح الثقافة العربية الاسلامية ، حيث ساعد ذلك على ازدياد الروابط العلمية والثقافية ، أما هذه العلاقة الدينية والثقافية والتجارية فانها لم تنقطع طوال العصر الاسلامي قبل الفتح المصري ، بل ان تيارها كان يشتد بمرضى الزمن وتطور الأيام ، واتصال السودان بالحجاز حمل الى السودان وادي النيل مبادئ الصوفية الاسلامية في الحجاز في هذا العصر ، حمل الى هذه البلاد مبادئ الصوفية والطابع الصوفي للثقافة الاسلامية وغذى الحجاز السودان من الناحية الصوفية والعلمية في الوقت الذي كانت فيه مصر تغذى الناحية العلمية وتنميتها .

ذلك لأن الحجاز يعد من أهم مجارى الثقافة الاسلامية الدينية تأثيرا في السودان ، وقد كان للدور الحجازي في عهد الفونج أبعد الأثر وأشدّها خطرا في الحياة الثقافية الدينية وخاصة الصوفية ، وقد ساهمت الموانئ السودانية المطلة على البحر الأحمر والمقابلة لموانئ الحجاز بأن تكون تلك المنافذ البحرية منفذا هاما للأراضى المقدسة ، لا للسودانيين فحسب بل لكل الحجاج القادمين من أفريقيا الغربية وقديما كانت عيذاب (١٠٠ - ١٤٢٦م) تعد ميناء رئيسيا لحجاج أفريقيا وخاصة بعد أن استولى الصليبيون على ميناء العقبة وبلاد الشام في القرن الحادي عشر الميلادي .

أما في عصر الفونج فقد احتلت سواكن هذا المركز ولعل بورسودان تحتل اليوم نفس المركز الذي كان يحتله كل من عيذاب وسواكن قديما وقد كان لهؤلاء الحجاج دور ملحوظ في تشجيع هذه الصلات الثقافية بين السودان والحجاز ، ذلك لأن بعضهم كان يقوم بدعوة علماء الحجاز الى السودان ، ومن ذلك فقد قدم من الحجاز شيخ من شيوخ الصوفية يسمى « تاج الدين البهاري » من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني ، قدم من الحجاز مع (داود بن عبد الجليل) أحد التجار الذين كانوا يسافرون الى الحجاز كثيرا ، وذلك بعد أن نجح هذا في اقناع الشيخ البهاري في القدوم معه الى السودان وكان بعض هؤلاء الحجاج وهم في طريق عودتهم الى بلادهم ينشرون تعاليمهم التي أخذوها من الحجاز مثل ما فعل الشيخ عثمان دن فوديو الذي قاد الحركة الاصلاحية في غرب أفريقيا وأسس امبراطورية التكرور الاسلامية في عاصمة سوكوتوت في شمال نيجيريا .

ومن ذلك تذكر طبقات و د ضيف الله مجموعة من العلماء السودانيين الذين دخلوا الحجاز لأداء فريضة الحج بالاضافة الى عملهم على تلقي العلم ، ومن هؤلاء الشيخ السوداني محمد بن عدلان الشايقي الذي أخذ العلم في بلاد الحجاز وفي المدينة المنورة وبالذات على يد الشيخ عبد الله المغربي عالم المدينة المنورة في ذلك الوقت ، ثم عاد بعد أن تزود في العلوم الاسلامية وخاصة علم الكلام الى السودان حيث استقر في أرض الجزيرة وعكف على تدريس ونشر علم الكلام على كبرى السنوسية ووسطاه والصغرى وهي أم البراهين وصغرى الصغرى ، ولم يكن تدريس هذه الكتب معهودا في جزيرة الفونج ومن هنا اشتهر علم الكلام في دار الجزيرة وكثر طلبته وطلبه طلبته .

ولم يقتصر دور الحجاز في اثرء الحركة الثقافية الاسلامية في السودان على أداء الوظيفة التعليمية التي كانت تقتصر على التدريس واتخاذها وسيلة أساسية لنشر المعرفة الدينية وذلك لما يتحصله أبناء السودان الذين يذهبون لأداء فريضة الحج ثم يقومون بتلقي العلوم في مكة المكرمة أو المدينة المنورة ثم يقومون بعد ذلك بالتدريس في بلادهم السودانية بعد عودتهم .

بل انه كان للحجاز دوره الهام أيضا في طريق الدعوة الاسلامية وذلك حيث سلك الدعاة الذين دعوا الى اتخاذ الطرق الصوفية التي ينتمون اليها أسلوبا لنشر الدعوة الاسلامية التي يتبعها نشر الثقافة العربية الاسلامية ، حيث اتخذوها أساسا لنشر تعاليمهم الدينية ولا شك أن هذا الأسلوب يمتاز بالسرعة والشمول أكثر من الطريقة التقليدية التي تعتمد على التدريس في المدارس والمساجد والخلوى .

وتفويض المصادر التاريخية بذكر العديد من أبناء السودان وشيوخه الذين ارتحلوا الى الحجاز قاصدين أداء فريضة الحج وتلقى مبادئ الطرق الصوفية ، حيث تتلمذوا هناك على رجال الصوفية الذين كان يزخر بهم الحجاز في ذلك الوقت ، فنجد الشيخ حمد بن محمد المجذوب يعود من الحجاز ومن مكة المكرمة حيث يؤسس في السودان وفي بلدة الدامر التي اتخذها مقرا له للطريقة الشاذلية والتي سميت طريقته في ذلك الوقت طريقة المجاذيب .

كما أنه في الوقت نفسه قدم الى السودان جماعة من أهل الحجاز أنفسهم الذين قدموا صحبة الحاج أو مع التجار الحجازيين أو السودانين أو قدموا بأنفسهم ابتغاء الجهاد في سبيل الله في أرض السودان ومن ثم طاب لهم المقام والاستقرار وقاموا في القوم داعين الى ما اعتنقوه من طرق صوفية ، ومن أقدم تلك الحركات الصوفية التي يعزى قيامها في السودان الى سي محمد أحمد بن ادريس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة المكرمة في الفترة من ١٧٩٧ الى ١٨٣٣م حيث كان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية حيث أرسل قبل موته أحد أتباعه ويدعى محمد عثمان المرغنى في رحلة الى أفريقية لنشر تعاليم الاسلام حيث نجحت رحلته من أسوان حتى دنقلة نجاحا تاما وقد أسرع النوبيون الى الدخول في الطائفة التي ينسب اليها الشيخ محمد عثمان المرغنى التي عرفت بالطريقة الختمية وكانت هذه الطريقة الختمية قد دخلت الى السودان على يد مؤسسها السيد محمد عثمان المرغنى عام ١٨١٨م ، حيث انتشرت تلك الطريقة في دنقلة بسبب ترك الشيخ المرغنى لوادى النيل وذهابه الى كردفان حيث مكث هناك زمنا طويلا وهنا عمل على نشر الدعوة

الاسلامية بين قبائل تلك المناطق وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية ولم تعرف طريقها الى الاسلام بعد حيث لاقت دعوة الشيخ محمد عثمان المرغنى نجاحا كبيرا بين هؤلاء القوم الذين بدا طابع الاسلام يأخذ العديد من مظاهره في تلك المناطق حيث ساهمت الطرق الصوفية ولا زالت تساهم بدور فعال في نشر الاسلام في العديد من مناطق الجنوب ، حيث تأثر هؤلاء الجنوبيون الذين يزورون الخرطوم ويشاهدون حلقات الذكر التى تترك تأثيرها النفسى فى تلك الشعوب ومن ثم يتم اعتناقهم للدين الاسلامى .

ومن هنا فان الطرق الصوفية ساهمت بدورها في نشر الاسلام على نطاق واسع بمقدار ما ساهمت طرق التدريس الاسلامى في اثراء الحركة العلمية الاسلامية .

دور المغرب وغرب أفريقيا (البرنو) في اثراء الحركة الثقافية :

لقد قامت المغرب بدور تشارك فيه مصر والحجاز في اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية في تلك البلاد ، ذلك لأن صلة السودان بالمغرب الاسلامى قد كانت صلة مستمرة لا سيما بعد أن رحل العديد من العلماء المغاربة الى تلك الديار ، حيث كان المغرب العربى يشكل منبعاً من منابع الثقافة الدينية في السودان ، لا سيما بعد أن هاجر العديد من علماء المغرب العربى والذين كانت هجرتهم الى بلاد السودان قد تركت أثراً في ازدهار الثقافة الاسلامية ، فقد كان أهل المغرب مالكي المذهب ومن ثم نراهم يسهمون في تدريس فقه مالك الذى تخصص فيه أهل المغرب وفيه تعددت مؤلفاتهم وعزز انتاجهم العلمى حول ذلك المذهب ، كما حمل المغاربة الى السودان التأثير الصوفى كما حمله أهل الحجاز .

ومن العلماء المغاربة الذين وصلوا الى السودان الشيخ القلمسانى المغربى الذى وصل في أوائل القرن الحادى عشر الهجرى والذى كان قدومه على الشيخ السودانى محمد بن عيسى سوار الذهب وقد اشتغل بتدريس القرآن الكريم وعلم الكلام والتجويد والرويات ونحوها ومن ثم ساعدت على نشر علم التوحيد والتجويد في الجزيرة .

وقد تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، مجموعة من العلماء الذين عملوا على نشر علوم القرآن والتجويد ويتحدث ود ضيف الله الى أبعد من ذلك حيث يتحدث عن بعض العلماء المغاربة الذين وصلوا الى بلاد الفوننج ويرجع أصلهم الى الأندلس أو بلاد المغرب نفسها ويضرب لذلك أمثلة كثيرة مثل عبد الكافي المغربي وحسن ود حسونة ودفع الله بن مقبل وسعد ود شوشاي والشيخ على اللبدى ، ولقد عمل هؤلاء العلماء المغاربة على نشر مؤثراتهم المغربية والتي ظهرت في نشر المذهب المالكي والتمسك بآراء هذا المذهب في الفروع .

وهذه الظاهرة لا يمكن أن نفردها لتلك المجهودات الشخصية التي قام بها علماء المغرب في بيئة السودان ذلك لأننا لا نجد لهم باستثناء الشيخ التلمساني في الطبقات مجهودات علمية بارزة كما لا نجدهم بتلك الكثرة التي تكفل نشر المذهب المالكي على مستوى القطر كله .

ولعل تفسير تلك الظاهرة يرجع الى السلطة الحاكمة في السودان نفسها قد تأثرت بالثقافة الاسلامية البرنوية الى حد كبير والتي كان من أهم مظاهرها التمسك بمذهب الامام مالك في الفروع الى أبعد حد .

ومن ذلك فان هؤلاء العلماء الذين هاجروا من المغرب الى السودان قد استقروا بعض الوقت في برنو ثم رحلوا الى السودان الشرقي وأن الفوننج قد حملوا معهم المذهب المالكي من غرب أفريقيا وكانوا من أوائل الذين نشروه في منطقة الجزيرة لأن أهل الفوننج والبرنو يأخذون المذهب المالكي مذهباً دينياً لهم وقد شهدت سلطنة الفور في دارفور هجرة الكثير من القبائل العربية في المنطقة الواقعة شمال شرق دارفور وانتشار كثير من مظاهر الثقافة الاسلامية من الشمال ومن الغرب كذلك فان طلاباً من دارفور وكردفان وسنار قد اختلطوا بزملاء لهم في بلاد المغرب والبرنو وواداي وهم يدرسون في الجامع الأزهر .

ولا شك أن هذا الاختلاط قد ترك أثراً قوياً في كليهما ، وأنه من بلاد البرنو نشطت حركة الجهاد السلمي لنشر الاسلام في الشرق وأن نفوذ

برنو الثقافي قد وصل حتى حدود بلاد النوبة ومن هنا فان كان لابد للاسلام والثقافة الاسلامية أن تسربت الى منطقة دارفور من برنو بفضل المؤثرات الاسلامية القادمة من الغرب .

وكما نعلم فقد كان السودان طريقا هاما للتجارة بين البحر الأحمر وغرب افريقيا وهكذا انتشر الاسلام والثقافة العربية في السودان وقد كان التجار القادمين من الغرب خير دعاة للاسلام في السودان وذلك لتقارب المسافات بين بلاد برنو والسودان وقد خلق ذلك تقاربا حضاريا وثقافيا وعقائديا حتى تلاشت معظم الأبعاد وذلك بسبب قدوم وفود اسلامية من بلاد المغرب العربي والسودان العربي وعمل هذه الوفود كان له تأثير في اثراء الحركة الثقافية الاسلامية على أرض السودان .

ويرجح أن انتشار الاسلام والثقافة العربية في كردفان ودارفور قد جاء نتيجة اندفاع تيار الهجرة من المغرب ثم جنوبا الى برنو وكانهم وباجرمي وواداي ثم الى تلك المناطق .

كما أن هناك طلابا من كردفان ودارفور (طلاب السودان) قد رحلوا غربا للدراسة في جامعة تمبكتو في سنغاي ولا شك أن هؤلاء الطلاب وهم في طريقهم الى تمبكتو قد مروا بسلطنة برنو واستقروا بها فترة من الزمن ونالوا قسطا من الثقافة العربية الاسلامية الموجودة في برنو في ذلك الوقت .

وهكذا استمر تأثير الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها في كردفان ودارفور وواداي وبرنو وامارات الهوسا وشواطىء النيجر وفولتا العليا وانتشرت اللغة العربية والحضارة الاسلامية وثقافتها الزاهرة على نطاق واسع بين سكان تلك الأقطار مثل العرب لأنها لغة الدين والقرآن الكريم .

ويضاف الى ذلك أن استيعاب شعب السودان للاسلام وتمثلهم للثقافة العربية الاسلامية قد أدى الى خلق نوع من التفاهم والتماسك

والترابط بين تلك الجماعات المختلفة كما أسهم في بذر بذور بعض المقومات الأساسية لوحدة وطنية وسياسية أبقي وأشمل بين السلطنات الإسلامية كالفونج والفور وتقلي والعبدلاب وغيرها من السلطنات الإسلامية التي عاصرت بعضها البعض في السودان الشرقي .

وهكذا أدت الاتصالات الحضارية والاحتكاكات الثقافية والهجرات العربية من القبائل والعلماء ورجال الدين والدعاة والحجاج من بلاد المغرب العربي بعد نكسة الأندلس وسقوط ذلك الفردوس الإسلامي المفقود تحت ضربات المسيحية ، ثم الى بلاد السودان الغربي والأوسط ثم نزوحها بعد ذلك الى بلاد السودان الشرقي حيث دارفور وكردفان وتقلي الى ايجاد نوع من التوافق والانصهار بين شعوب تلك المناطق التي استقرت بها تلك القبائل العربية .

ولقد كان ازدياد نشاط حركة الدعوة الإسلامية الى مذهب الامام مالك مع تلك الموجات الإسلامية القادمة من الغرب من منطقة بحيرة تشاد الى تلك المناطق السودانية قد ساعد على انتشاره بين الناس وأصبح منذ ذلك الحين هو المذهب السائد الى اليوم .

وهكذا ساعدت الموجة المغربية القادمة عبر بلاد وسط وغرب القارة الافريقية في اثراء الحركة الثقافية الإسلامية بما بذله علماء تلك المناطق في مشاركة التيار العربي الأساسي في تلك المؤثرات الإسلامية اضافة لما لعبه الدور الحجازي أيضا من دور مؤثر وفعال نظرا للرباط الروحي الذي شد أبناء السودان الى تلك المناطق ومن ثم ساعد على رحيل علماء الحجاز لا سيما من المدينة المنورة ومكة المكرمة الى السودان ، الى تلك المناطق طلبا للعلم والاستزادة من مناهله في تلك المدن ثم العودة الى السودان للقيام بتعميق المفاهيم والعلوم الإسلامية .

دور جنوب الجزيرة العربية في اثراء الحركة الثقافية الاسلامية :

لقد شارك أبناء وعلماء جنوب الجزيرة العربية من اليمن وحضرموت اخوانهم علماء مصر والحجاز والمغرب وغرب افريقيا في اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية وفي صبغ السودان بالصبغة الاسلامية وتهيئته للقيام بدوره في الحركة الاسلامية في قلب القارة الافريقية .

وقد كانت اليمن من المصادر الأولى للثقافة الاسلامية والصوفية في البيئة السودانية ، وذلك لأننا نجد أنه منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، الثامن الهجري قد وفد من اليمن الى أرض الجزيرة بالسودان ذلك الشيخ اليمني « غلام الله بن عائد » الذي سكن أول قدومه جزيرة ساكية ثم رحل الى دنقلة وسكن بها ، وبعد أن توطن تلك المدينة شرع في القيام بدوره الاسلامي فقام ببناء المساجد لتأدية الصلاة وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الشرعية والعلوم المباشرة كالقراءة والكتابة وذلك للأطفال المسلمين والقاء الدروس في المسجد بعد صلاة العصر للكبار وجعل طلابه يتحلقون في حلقات حوله ، بعد أن درس لهم علوم التفسير والفقه والحديث والتجويد وعلوم القراءات .

وقد خرجت من ذرية ذلك العالم الزاهد « غلام الله بن عائد » ذرية كبيرة من علماء الدين نشروا الثقافة العربية الاسلامية ، حيث حرص ذلك الشيخ على أن يجعل أطفاله بين أطفال المسلمين الذين كان يقوم بالتدريس لهم ، وقد عمل هؤلاء في المدى البعيد على نشر الثقافة العربية الاسلامية في أرجاء السودان حيث نزل نفر من أبنائه وطلابه الى جهات عديدة في السودان منها الجزيرة والنيل الأزرق ، حيث كان أحد أبنائه المسمى الضير قاضيه في فترة حكم الفنج ، بل ان منهم من قام بدوره الاسلامي قبل قيام دولة الفونج في سنار .

كما أن ود ضيف الله أورد في طبقاته أسماء بعض الفقهاء ورجال الدين والعلماء الذين وفدوا من حضرموت بأرض اليمن الى السودان

والذين كان قدومهم الى تلك الديار بعد فترة طويلة تزيد عن قرن من الزمان بعد قدوم « غلام الله بن عائد » ويمكن أن نعتبر قدومهم في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ومنهم الشيخ « حمد ولد زروق » والذي قدم ومعه الشيخ الحضرمي جار النبي حيث سكنا قرية الصباني التي تقع على شاطئ النيل الشرقي والتي تشكل الآن جزء من مدينة الخرطوم بحري ، كما قدم معه أخوه « البنداري » .

وان كان ود ضيف الله المصدر الرئيسي والوحيد للتأريخ لهؤلاء العلماء والفقهاء والمشايع والصوفية لا يذكر لنا شيئاً عن جار الله سوى قوله انه كان من عباد الله الصالحين ، كما أنه لم يذكر لنا شيئاً عن تلاميذه ، الا أنه يمكن القول أن الشيخ حمد ولد زروق والشيخ جار النبي وأخيه البنداري قد ساهموا مساهمة تقدر في التعليم الاسلامي وتدرس تلك العلوم والقائما في المساجد ولا شك أنه كان لهم تلاميذ وطلاب ومريدين وانه مهما يكن من ذلك الدور فانهم من علماء الاسلام بوجه عام مهما قلت غزارة عملهم فانهم لا بد أن يتركوا بصماتهم القوية في الأماكن التي يحلوا بها ويستقروا فيها حيث يطيب لهم المقام والاستقرار ، ولا شك أن كل عباد الله الصالحين الحافظين لكتابهم قد ساهموا في السودان كما في غيره من الأقطار حتى ظهور أثر بارز في الحركة الثقافية الاسلامية .

كما قدم من جنوب الجزيرة العربية الشيخ جبارة وقد كان قدومه و قدوم الشيخ جار النبي والشيخ حمد ولد زروق في زمن واحد .

قد يكون الأثر الذي تركه علماء جنوب الجزيرة العربية في السودان كان له دور محدود لا يصل الى أثر أي دور من الأدوار السابق الإشارة اليها سابقا ، الا أنه لا يمكن انكار الدور الذي قام به أحفاد « غلام الله ابن عائد » في إثراء ونشر الثقافة الاسلامية العربية في السودان ولكن للحقيقة العلمية فانهم لم يكونوا مدينين لهذا الثراء الثقافي العلمي الاسلامي للأماكن التي قدم منها جدهم غلام الله حيث جنوب الجزيرة

ولكنهم كانوا يدينون في ذلك للأزهر الشريف في القاهرة حيث تلقوا تعليمهم وأتموا دراستهم على رواد الحركة الاسلامية المصرية التي تركت بصماتها بها ولا تزال تؤثر في مجريات الحركة الثقافية في السودان حتى وقتنا الحاضر •

واذا كان الحديث عن كل هذه المصادر الثقافية الاسلامية التي أثرت على المسيرة الثقافية الاسلامية في السودان قد تضافرت جميعها في ابراز ذلك الدور ، الا أنه يبقى دور آخر في نهاية الأدوار القطرية الاسلامية المؤثرة في تلك الثقافة وهو :

دور علماء الخلافة العباسية في بغداد :

لقد كان المصدر العراقي ممثلاً في قدوم علماء الخلافة العباسية في بغداد من أقدم المصادر الاسلامية العلمية في السودان باستثناء المصدر المصري الذي ساهم فيه الشيخ عبد الله بن عبد الحميد العمري الذي قدم الى السودان في القرن الثالث الهجري ، لتأسيس امارة اسلامية في شمال السودان ، الا أن دور العلماء البغداديين قد يصل الى القرن الثالث الهجري أيضاً ، القرن التاسع الميلادي حيث وفد الى دنقلة عاصمة دولة مقرة مجموعة من العلماء البغداديين في ذلك الوقت المبكر وذلك لتعليم الناس أمور دينهم الاسلامي ومحاولة تعميق تلك المفاهيم الاسلامية وترسيخها في أذهان القوم •

الا أن قدوم هذه الجماعة البغدادية المبكرة لم تكتمل مسيرتها في القدوم الى السودان اذ لا نكاد نعلم عن رحيل رجال الدين والفقهاء والأئمة والصالحين العراقيين الى السودان ، الا منذ حلول القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي وبالتحديد في النصف الثاني من ذلك القرن الهجري ، اذ تصادف بعض الحجاج السودانيين أن التقوا في مكة المكرمة مع بعض علماء الاسلام البغداديين والذين تصادقوا معه واستطاعوا اقناعه بعد عدة محاولات بحاجة السودان الى جهود مثل هذا العالم الذي هو الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي الذي قدم بصحبة هؤلاء الحجاج الى السودان •

وقد كان الشيخ البهاري من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧١ - ٥٦١ هـ) مؤسس الطريقة الصوفية الجيلانية التي لعبت دورا هاما في نشر الاسلام في ربوع القارة الافريقية ، وقد لعب الشيخ تاج الدين البهاري « البغدادى » دورا فعالا ومؤثرا وبارزا في تاريخ الثقافة العربية الاسلامية في السودان وادى النيل ، حيث أن دوره قد اتضح في ادخاله الطريقة الصوفية الى مملكة الفونج في سنار ، حيث لقيت دعوته الى التصوف رواجا شديدا في السودان وخاصة في أرض الجزيرة التي أقام بها فترة من الزمن تزيد على سبع سنوات متواصلة حيث اجتمع اليه القوم طوال تلك الفترة الزمنية حيث انطوى العديد من القوم في طريقته الصوفية التي لعبت دورها في نشر الاسلام في صفوف السودانيين ، وقد تكاثر عدد الذين أخذوا عنه معالم الطريقة الصوفية القادرية والذين كان من بين تلاميذه ومريديه (الشيخ محمد الهميم ولد عبد الصادق) الذى سلك طريقة أستاذه في الدعوة لهذه الطريقة ومارس دوره بنشاط وفعالية مما أكسب الطريقة أنصارا جدد من السودانيين الذين شدتهم هذه الطرق الصوفية والطوائف الدينية الاسلامية كذلك من الذين أخذوا عن الشيخ تاج الدين البهاري البغدادى (بان النقا الضير) بل ان تلاميذ الشيخ البهاري البارزين قد كانوا أربعين من الأقطاب البارزين الذين لعبوا دورا هاما في الحركة الاسلامية في السودان والذين كان منهم العديد من الفقهاء الذين ذكرهم كتاب الشونة المخطوطة التي حققها الشاطر بصيلى عام ١٩٦١م حيث ورد ذكر تلاميذه ومنهم الفقيه حمد النجيفى صاحب مسجد اسلنج والفقيه رحمة جد الملاوينى والمعتمد اثنان ولد عبد الصادق وبان النقا ، الذى قيه أنه سافر الى سلطنة نكلنى وسلك فيها مسلك عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة ، ومهما يكن من أمر فقد توافر تلاميذ الشيخ تاج الدين البهاري في أرجاء السودان وصار لهم مريدين وأتباع عديدين في العديد من المدن والقرى حيث اقترن دخول الطريقة القادرية أكثر الطرق الصوفية انتشارا في السودان بذلك الشيخ البهاري الذى كان قدومه بالتحديد عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م من بغداد عن طريق الحجاز أثر دعوة التاجر السودانى داود بن عبد الجليل ، حيث أدى دوره في انتشار تلك الطريقة الصوفية والتي يذكر أنه أثناء اقامته طلب من الشيخ

عبد الله بن دفع الله العركي تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر أحد أبناء الأربعة الذين تلقوا تعليمهم في الأزهر الشريف وهو ممن ولاهم الشيخ عجيب القضاء أن سلك طريق القوم في الدخول في الطريقة القادرية ، إلا أن الشيخ عبد الله رفض ذلك المطلب لأنه كان فقيها يعطى كل الفقه اهتمامه ، ولكنه لما رأى المكانة الرفيعة التي تبوأها أنصار وأقطاب ومريدي الشيخ تاج الدين البهاري بين الفونج والعرب وما اشتهروا به من كرامات بين عامة الناس آثر أن ينخرط في هذه الطريقة ولحق بالشيخ تاج الدين البهاري بالحجاز بعد أن كان قد ترك السودان .

وكان الشيخ البهاري قد سافر إلى الحجاز للعمل على نشر طريقته هناك والتي لاقت اقبالا شديدا ويذكر ود ضيف الله بن محمد الجعلي صاحب كتاب الطبقات إبان الشيخ السودانى بان النقا لازم خدمة الشيخ البهاري الى أن سافر الى الحجاز فأعطاه العهد وجميع حالاته وأدخله في مقامات الرجال ويكفى تربيته لابنه الشيخ يعقوب وبتول ابنته ويعقوب ربي ولديه موسى ومرزوق وهجو بن بتول وعبد الرازق وعبد الرافع فتفرعت طريقة تاج الدين من هؤلاء المذكورين .

وهكذا شارك التيار العراقي كل من التيار المصري والحجازي والمغربي والسوداني الغربي وغرب أفريقيا وجنوب الجزيرة في اثراء الحركة الاسلامية التي لعبت دورها في السودان وجعلته مؤهلا للقيام بدوره الفعال في قلب القارة الافريقية بما أمدته تلك الروافد بمغريات ثقافية تشابكت جميعها على أرض السودان فتكون تلك الملامح الثقافية الاسلامية .

ولقد كانت الصلة مستمرة بين السودان والأقطار المجاورة التي ساهمت في اثراء الحركة الثقافية العلمية فكما اتصل أهل دارفور بتونس وذهب كثير منهم الى كانو وتمبكتو طلبا للعلم ، وعلى ذلك فقد اتصلت كل من سنار مركز سلطنة الفونج والفاشر مركز سلطنة الفور بمراكز العلم في العالم الاسلامي كما أنه على هذا النحو فقد اتصلت

مدارس السودان بعضها ببعض بتبادل الأساتذة والطلاب ، فكثر
الرحلة من دنقلة وبربر الى سنار واربعى وكذلك تأثرت دارفور بالحركة
العلمية المزدهرة في سنار كما رحل كثيرون من علماء الفونج الى دارفور
وأقاموا بها واستقلوا بالحياة العلمية كما رحل طلبة دارفور الى سنار
لاستكمال الدراسة وتلقى العلم على العلماء الذين وفدوا من أنحاء
العالم الاسلامى الى سنار .

كل هذه العوامل قد أثرت في طبيعة الحياة الثقافية في السودان
وهناك عوامل أخرى انبعثت من الحياة السودانية نفسها ، كان لها أثر
عظيم في نمو الحركة الفكرية والأخذ بكل هذه المعايير الثقافية والعمل
على دفعها الى الأمام حيث عملت السلطنات الاسلامية التي قامت في
السودان بفكرة دفع الحركة الفكرية العلمية الاسلامية ومحاولة نشر الثقافة
الاسلامية الى الأمام بتشجيعها بكافة السبل ، ثم مساهمة شعب
السودان نفسه في هذا التشجيع واقبالهم على هذه الثقافة اقبالا
عظيما .

واذا كان قد قدر للثقافة الاسلامية في السودان أن تنمو وتزدهر
فان الفضل في ذلك يرجع الى قيام سلطان الفونج ودارفور لأن القبائل
البدوية التي انحدرت الى السودان وراء المرعى والموطن كانت تمارس
نفس الحياة التي مارسها في بيئاتها القديمة ولم تعنى كثيرا بالأمور
الدينية والثقافية .

كما أن ظهور سنار في عهد الفونج وتدفق التجارة اليها وارتفاع
مستواها الاقتصادي ، ثم ما حققه الفونج أنفسهم من سلام وطمأنينة
كان من الأسباب التي بعثت انثقافة الاسلامية من مراقدها .

فقد كان ملوك الفونج يشجعون العلماء على القدوم الى سنار
والاقامة فيها وكانوا يقدرونهم وييسطون عليهم ظل الطمأنينة والحماية
ويمنحونهم الإعطيات ويعفونهم من الضرائب وييسرون لهم أسباب
الراحة هذا الى جانب بناء المدارس والمساجد والانفاق عليها وتشجيع

الطلاب على القدوم الى سنار أو تيسير أسباب السفر لمن يريد منهم
الرحيل الى الأقطار الاسلامية المجاورة •

ولقد كانت المشيخات الداخلة في نطاق سلطنة الفونج تحذو حذوها
والشيخ عجيب المانجك مثلا كان يقطع الاقطاعات الواسعة للعلماء
والصالحين ويحببهم في الاقامة •

وكذلك مما ساعد على تطور وازدهار مظاهر الثقافة العربية
الاسلامية وظهور معالم الحضارة العربية الاسلامية ذلك الدور الذي
لعبه سلاطين الامارات الاسلامية كما سبق الاشارة بما قام به سلاطين
سنار ، ومن ذلك نرى أن سلاطين دارفور لم يكونوا أقل من سلاطين
الفونج احتراما للعلماء وتشجيعا للعلم ، اذ تمتنع المشتغلون بالثقافة
بمكانة ممتازة في حياة دارفور ، وهذا بعض مما ذكره الرحالة « براون »
في كتابه رحلات افريقيا وكذلك مما ذكره الرحالة محمد بن السيد عمر
التونسي •

فقد رأى « براون » ما كان للعلماء من مركز مرموق وضرب مثلا
بالفقيه سراج الدين وحظوته عند السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان
دارفور ، وقد ذكر التونسي في كتابه تشحيذ الأذهان بأن الفقيه في
دارفور كانت له أعلا منزلة بعد رجال السلطان •

وذكر التونسي أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم الى سلطان
دارفور حسن معاملة وضيافة وكرم السلطان عبد الرحمن الرشيد الذي
كان له اتصال مع الخليفة العثماني في اسطنبول ، والذين ازداد قدومهم
الى تلك الديار والذين كان منهم الشيخ التمرى والفولاني والشيخ
حسين عماري الأزهرى والشريف مساعد الذي وصل من مكة المكرمة
بالحجاز والشيخ الفولاني الذي جاء من غرب أفريقيا •

ولم يكن هذا التشجيع وقفا على السلاطين انما شارك فيه الشعب
فقد كان سكان الحي الذي به المسجد أو الخلوة يستضيفون الطلبة
الغرباء في بيوتهم كأنهم أبناءهم أو ذو قرباهم •

ويشـير بوركهارت في كتابه رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ، والذي كان قد زار السودان قبل الفتح المـصرى عام ١٨٢١ م بفترة قصيرة ، حيث يقول ، كلما أرسلت الجهات المجاورة صبيانها وأطفالها دون العاشرة الى قبيلة الشايقية لكي يتلقوا علوم حفظ القرآن ودراسته في مساجد القبيلة وخلواتها ، فان كبير الفقهاء كان يقوم بتوزيع هؤلاء الصبيان الصغار بين الاخوان والأصدقاء لكي يقيموا في بيوتهم طاعمين كاسين ويقيموا معهم في ضيافتهم كأنهم أبناءهم كما يشاءون حتى يتموا حفظ القرآن الكريم ويقرروا العودة الى ديارهم .

ثم يضيف في موضع آخر أن كثيرا من أولاد السكون والمحس يرسلون الى مدارس عرب الشايقية حيث يقيمون بين ظهر انيهم اقامة طويلة تطول الى عشر سنوات أو أكثر يعلمهم فقهاء القبيلة .

وكانت للحياة الثقافية مراكز في السودان ينبعث منها هذا الاشعاع الثقافي ، ومن أقدم هذه المراكز التي لعبت دورها في اثراء الحركة الثقافية الاسلامية في السودان مدينة دنقلة التي دخلها الاسلام في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، الثامن الهجري ، ومن ثم ارتفعت مكانتها الاسلامية بعد سقوط مملكة علوة المسيحية وقيام سلطنة الفونج حيث انتشرت بها المساجد والمدارس ، وقد رأينا كيف أن الشيخ « غلام الله بن عابد اليمنى » الذي قدم من جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي يقيم في تلك المدينة حيث ينشئ بها مدارس لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه للصغار ثم يقوم بتدريس علوم التفسير والفقه والحديث ثم انتشرت تلك المراكز في المنطقة الممتدة من دنقلة في الشمال الى ارجى في الجنوب .

ومن ثم ظهرت ديار الشايقية واشتهرت كديار لتدريس العلوم الاسلامية والثقافة العربية منذ القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، وقد ذكر اترحالة بوركهارت أيضا ، أن تلك الديار كانت مصدرا من مصادر نشر العلوم الاسلامية في السودان ، حيث أنه وجد بمنطقة استقرار قبائل الشايقية الكثير من المدارس والمساجد التي تدرس

فيها علوم الدين الاسلامى وكذلك مدينة كورتى وبربر وغيرها من
الأماكن الأخرى •

اضافة الى الدور الذى قام به الشايقية فان الجعليين قاموا بدور
أعظم من تلك الأدوار الثقافية التى لعبها الشايقية وذلك فى المراكز
الشمالية حيث أصبح نفوذ الجعليين أكثر انتشارا وأبعد أثرا مما جعل
مدينة الدامر من المراكز الثقافية والحضارية ، بل هى كعبة الجعليين
الثقافية فى السودان •

وقد تحدث بوركهارت فى كتابه رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة
والسودان عن مدينة الدامر حيث كانت من الأماكن التى زارها وتحدث
عنها طويلا مشيرا الى مكانتها العلمية واحترام الناس وتبركهم بقضاء
فترة من الزمن فى تلك الديار وانتشار نفوذهم فى جميع أرجاء السودان ،
حيث وصف لنا مسجد المدينة وتحدث عن أهميته العلمية فقال : وفى
الدامر مسجد كبير حسن البناء له عقود من القوالب وأرضية مغطاة
بالرمل النظيف يلجأ اليه أبناء السبيل والغرباء ، ولهذا المسجد صحن
يحيط به عدد من الخلوات لتعليم الأطفال العلوم الاسلامية وتحفيظ
القرآن الكريم ، كما أن للفقهاء مساجد صغيرة قرب منازلهم •

ومن هنا فقد ظهرت تلك الثقافة الاسلامية العربية وازدهرت
وبدأت تؤتى ثمارها فى عصر أسرة الفونج فى عام ١٥٠٤م ، القرن
الثامن الهجرى ، حيث تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات الثقافية
الاسلامية فى السودان •

وقد لقيت العلوم الاسلامية عناية شديدة حيث أقبل الشعب على
دراسة علوم القرآن الكريم والفقه وعلومه مثل علم المواريث والفرائض
والتوحيد والتصوف الذى ظهر فى السودان جنبا الى جنب مع هذه
العلوم النقلية •

وبذلك أخذت مظاهر حفظ القرآن الكريم تنتشر الى جانب علوم التجويد والقراءات حيث نبغ في هذه العلوم بعض العلماء مثل الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، كما اهتم العلماء بدراسة العلوم الفقهية فوجهوا عناية شديدة الى علم المواريث وعلوم الفرائض كما ازدهرت دراسة علم التوحيد ويسمونه علم العقائد حيث أن السودانيون منذ أن دخلوا الاسلام يدينون بمذهب الامام الأشعري في العقائد التوحيدية وهو مذهب وسط بين المعتزلة وأهل السنة •

كما أنه الى جانب علوم القرآن والتفسير والفقه والمواريث والتوحيد يتردد ذكر علوم أخرى في الطبقات مثل علوم الحديث ومصطلحاتها •

وتحدث بوركهارت عن الحركة العلمية المزدهرة في المدارس الكثيرة وعن الطلاب الوافدين من دارفور وكردفان وسنار الى مدينة الدامر كعبة الجعليين الثقافية ، وتحدث عن الكتب الكثيرة الاسلامية التي تدرس والتي يتم شرائها من أسواق الكتب في القاهرة ، وعن معاهد العلم التي تعلم التجويد والتفسير والتوحيد والفقهاء لهم مكانة سامية في نفوس أهل السودان كلهم ترقى الى مرتبة التقديس حيث تنسب اليهم الخوارق والمعجزات وتنسب اليهم الأعاجيب يخافهم أهل السودان كلهم حتى البشاريين لا يجرءون على إيذاء أحد من فقهاء الدامر •

وقد توافد العلماء على الدامر والذين شجعهم حسن كرم ومعاملة الجعليين لهم لا سيما زعمائهم الذين أغدقوا عليهم الهبات وأجزلوا لهم العطايا ، فأخذ رجال الدين يشرحون للناس أصول دينهم مبينين لهم ما يتعارض مع ما ورثوه من عادات وثنية وتقاليد قديمة وثنية أيضا •

ولقد كان هؤلاء الدعاة ورجال الدين والفقهاء الذين قدموا من مصر والحجاز والمغرب خليطا من الفقهاء والمتصوفة ، الا أن الطابع العلمي

كان أغلب على الذين وفدوا من مصر بينما تميز الأثر الحجازي بغلبة المبادئ الصوفية وساعد المغرب في إثراء كل من الأثرين السابقين •

وقد تحدثت يوركهارت عن رحلته من الدامر الى شندى في أبريل ١٨١٤م وكان في قافلته فقيهان ليخرسا القافلة وكان وجودهم كافيا لأن يبعث في قلوب الناس الهيبة والرغبة لا سيما في قطاع الطرق حيث كان وجود الفقهاء في القوافل يجعل الناس يفدون الى القافلة لتقبل أيدي هؤلاء الفقهاء وكما لعبت الدامر ودنقلة أدوارهما في إثراء الحركة الثقافية الاسلامية ، فان سنار كانت أعظم المراكز الثقافية في ديار الفونج حيث كانت مركزا تجاريا قبل كل شيء وعرفت بغناها الوافر وتجاريتها الراجعة وكان التجار يجلبون اليها البضائع من مصر والحجاز عن طريق النيل والبحر الأحمر وكان قدوم التجار الذين كان منهم العديد من الفقهاء من العوامل المساعدة التي تساعد على ازدهار الحركة الثقافية اضافة الى قدوم الفقهاء ورجال الدين اليها من البلاد الاسلامية المجاورة حيث أنها كانت مقر السلطنة ومركز حركتها الثقافية ونهضتها العلمية حيث أصبحت مركزا علميا تتطلع اليها جميع المناطق السودانية شرقا وغربا •

ويحدثنا ود ضيف الله محمد الجعلى في طبقاته عن العديد من العلماء الذين دخلوا الى سنار للقيام بدورهم العلمى والاسلامى وكذلك عن العلماء الذين تحركوا منها الى مناطق سودانية أخرى كانت في أمس الحاجة الى نشاطهم الاسلامى العلمى والثقافى •

كذلك شاركت مدينة الفاشر بعد أن أصبحت العاصمة والمركز الثقافى الاسلامى في غرب السودان المدن السابقة بحيث أصبحت لا تقل شأنًا عن سنار ودنقلة والدامر ، الا أن التونسى في كتابه تشحيز الأذهان يحدثنا عن انخفاض المستوى العلمى في هذه المدينة فقراءة القرآن وحفظه متأخرة نوعا ما عن المدن السابق الاشارة اليها ، وكذلك شأن العلوم الاسلامية الأخرى ، ولكن أكثر قراءتهم في علوم الفقه والتوحيد والعلوم العقلية وعلم الكلام قليلة جدا ، وان كان يدرس بها القليل من علوم النحو والمعانى والبيان والعروض والبديع والمنطق •

وقد ساهم المسجد والكتاب والمدرسة والخلاوة ، باعتبار أن هذه هي المراكز الإسلامية العلمية الثقافية التي لعبت دورها في إثراء الحركة العلمية ، حيث كانت المساجد هي قلاع ومعاهد العلم الإسلامي والتي انتشرت في جميع أرجاء السودان ، كما أن الخلاوة شاركت المسجد في أداء بعض الأدوار حيث كانت تتخذ كأماكن لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه وهذه الخلاوى منتشرة على نطاق واسع في جميع قرى السودان ، وقد يكون استعمال لفظ مدرسة هنا على اعتبار أن بعض الحجرات أو الأركان في المسجد التي كان تدرس فيها العلوم الإسلامية .

وكان التعليم في كل هذه المراكز التعليمية يتم أولاً عن طريق تحفيظ القرآن الكريم حيث كان ذلك مقدمة المراحل التي تبدأ بها الأطفال الصغار وكانت المصاحف ترد إليهم مخطوطة من مصر والحجاز وفي أحياناً كثيرة لم يكن كل المشايخ يملكون المصاحف كاملة ، بل أن بعضاً منهم كان يملأ على طلابه من الذاكرة ثم يقوم الطالب بكتابة لوح بعد آخر بعد أن يتم حفظ اللوح ثم الذي يليه إلى أن يتم حفظ القرآن الكريم كاملاً مع تفسير آياته العظيمة .

وكان الفقه هو المادة التي تلى القرآن الكريم في الأهمية ، ثم يلي علم الفقه علم الفرائض أو علم التوحيد أو علم العقائد .

وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، نجد بعض المستندات والوثائق تذهب إلى أن الأقطار السودانية في تلك الفترة كانت تفتقر إلى المسلك الديني والتقدم الفقهي لانعدامه فيها ، كما أنه لا يوجد فيها طلبة علم يليقون لوظائف القضاة والنيابة والامامة ونشأ من عدم الالتفات إلى هذا المسلك فيما مضى ومن عدم اعارته الاهتمام الواجب أن أكثر أهالي السودان لم يتمكنوا من تصحيح عقائدهم وشرائعهم .

وعلى الرغم مما جاء في هذا الزعم من مغالاة وصفة التعميم إلا أنه يعطينا فكرة واضحة عما آلت إليه الحركة العلمية الفقهية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي .

ويتحدث محمد عوض محمد في كتابه السودان الشمالى سكانه وقبائله عن بعض الظواهر التى سادت الحياة الدينية فى السودان مثل ظاهرة الطرق الصوفية فهو يلمح فى انتشارها وذيوعها فى السودان أكثر من أى قطر اسلامى آخر وما اتسمت به من شعائر أثرا أفريقيا حيث يتسأل أليس من الممكن أن تكون هذه الزعامات الروحية ، التى لا تعرف لها نظير فى مصر أيضا أثرا من الزعامات الروحية التى تعرف لها كيانا قويا فى القارة الأفريقية •

حيث كان التصوف شائعا علما وعملا فى السودان وكان معظم العلماء صوفية وللصوفية أدب خاص وأوراد وأذكار تحفظ وتردد ، ومن أجل ذلك كانت دروس الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى فى المساجد والخلوى ، فقد انتشرت الطرق الصوفية فى السودان كله من ذلك العهد ، حيث عملت تلك الطرق على التقريب بين القبائل والأجناس اذ دخل الناس فى مختلف أنحاء السودان الى الربط والزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى العلم عنهم ، ولعل هذا الانتشار الواسع يعزى الى الفونج الذين شجعوا رجال التصوف وأعانوهم ونالوا من رعايتهم الشيء الكثير •

وقد اتخذت الصوفية طابعا محبيا الى عامة الناس ولعل هذا يفسر لنا انقسام تلك الثقافة الصوفية فى السودان الى جانبين ، الجانب النظرى وهو الانتاج العلمى الصوفى الذى امتازت به طبقة كبار المتصوفة والجانب العلمى وهو الجانب الذى امتازت به طبقة الأتباع •

وكان لشيوع هذه الثقافة الصوفية وغلبتها أبعد الآثار فى مستقبل الثقافة الدينية فى السودان ، ذلك لأن هؤلاء المتصوفة قد أولوا عناية شديدة لما يسمى بعلم الباطن وكانوا يعتقدون أنه هو العلم الحقيقى وفى نفس الوقت فان عنايتهم بعلم الظاهر لم تكن شديدة •

وفى واقع الأمر أن الثقافة الدينية قد استهوت قلة من السودانيين وأن الأغلبية قد انخرطت فى سلك الصوفية حيث المريدين والأتباع لرجال

الطرق الصوفية وسهلت من تعاليهما بل فضلها على الطابع الفقهي وفي تاريخ الحركة الاسلامية الثقافية في السودان نجد أن عددا كبيرا من الفقهاء قد جمعوا بين علمي الظاهر والباطن وصاروا من مؤيدي الطرق الصوفية وبهذا التلاحح بين المنهجين الفقهي والصوفي وضعت النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية في السودان وقد أخضع انتشار الاسلام في السودان خضوعا تاما للجو الصوفي السائد والمنتشر في العالم الاسلامي بعد أن كتب له النصر في طريقه الطويل مع أهل السنة في القرن الثامن الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وذلك بعد أن أدرك الصوفية أن الدين قد أصبح في عرف الفقهاء جملة رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها وهذه الرسوم وإن أرضت ظاهر الشرع وأشبعت عقول الشرعيين المفتونة بعقيدة القواعد وتعميم القوانين ، لم تكن لترضي باطن الشرع ولا تشبع العاطفة الدينية عند الصوفية ، واتسعت شقة الخلاف بين الطرفين من ناحية الدين والأحكام الشرعية وطريقة الاستنباط وقد حسم هذا الخلاف الامام أبو حامد الغزالي (الذي توفي ١١١١م) بعد تجربة فكرية روحية رائدة في التوفيق بين الشريعة والحقيقة أو شرح التصوف وتعاليم الدين جاعلا الأخيرة أساسه .

وقد لاقى هذا التوفيق قبولا عند جمهور المتصوفة كما رضى عنه كثير من أهل السنة ، وقد تبوأَت الحركة الصوفية المعدلة مكانها في اطار العقيدة الاسلامية .

وبعد أن كان التصوف مقصد الصفوة من المسلمين ضار مقصدا للجميع فانتشرت الطرق الصوفية حتى عمت كل أرجاء العالم الاسلامي وقوى سلطانها على الخاصة والعامة ، بل أصبحت قوة كبرى في نشر تعاليم الدين الاسلامي في أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا كما زادت هيبتها الروحية على الجيوش المقاتلة حتى ثغور الامبراطورية العثمانية فلما نقلت الطرق الصوفية الى مملكة الفونج وجدت التربة الصالحة والجو المهيأ فكتبت لها الغلبة .

كذلك بجانب الدراسات الاسلامية وانتشار الطرق الصوفية : نشطت حركة الدراسات الغربية في ركاب الحركة الدينية ذلك لأنه أينما سارت

الدعوة الإسلامية سارت معها اللغة العربية ، حيث كان علماء الدراسات العربية اللغوية هم أنفسهم علماء الدين الذين كان لهم شأنهم في نشر الدراسات الدينية ، حيث ظلت مصر والحجاز والمغرب منبعاً زاهراً لهذه الدراسات العربية اللغوية في السودان منذ عصر ظهور سلطنة الفونج وسلطنة الفور وسلطنة تقلى وقبلهما سلطنة الكتوز ، فقد كان سلاطين تلك الإمارات والسلطنات على علاقة طيبة مع علماء مصر وغيرها في البلاد العربية .

وبالإضافة إلى هذه العلاقات الطيبة التي أقامها البلاط السناري مع العلماء في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، نجد مجموعة من العلماء الذين وفدوا من شتى الأقطار العربية يقومون بتدريس علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض وعلوم البيان والمنطق ، فنجد أن أغلبية العلماء الذين قاموا بتدريس هذه المواد اللغوية كانوا قد وفدوا من مصر مثل الشيخ محمد المصري والشيخ محمد القناوي اللذين كانا يدرسان إلى جانب العلوم الإسلامية أيضاً العلوم اللغوية كالنحو والصرف والعروض والبيان وغيرها من العلوم ذات الصلة الوثيقة باللغة العربية كذلك نجد بعض الطلاب الذين درسوا في مصر وتعلموا فيها مثل الشيخ عمار بن عبد الحفيظ الذي درس وتعلم في الأزهر الشريف كان يقوم بتدريس علوم النحو وكل ما يتعلق بعلوم اللغة العربية والمنطق ، وقد أخذ على الشيخ عمار هذا جماعة كبيرة من الطلاب السودانيين الذين كان لهم شأن في نشر علوم اللغة العربية مثل الشيخ عبد الله بن صابون الذي برع في علوم النحو والصرف واللغة والمعاني والبديع وعلوم العروض وغيرها بل كان شاعراً ماهراً وماهراً .

كما تتلمذ على الشيخ عمار بن عبد الحفيظ الشيخ على ولد شافعي الذي كان شاعراً ماهراً أيضاً وكذلك ذهب جماعة من أبناء السودان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولطلب العلم على أيدي علماء تلك الديار في مكة المكرمة والمدينة المنورة وأخذوا علوم اللغة العربية من مشايخ هاتين المدينتين أمثال الشيخ محمد بن عدلان الشافعي الذي قرأ علم العربية

على عبد الله المغربى عالم المدينة المنورة ، والشيخ عمار بن شافعى الذى
قرأ فى مكة المكرمة علوم اللغة العربية .

وقد كانت الدراسات اللغوية والأدبية وثيقة الصلة بالدراسات
الاسلامية وعلوم الدين الاسلامى مما ساعد على تهيئة المناخ الملائم
لانتشار الثقافة العربية الاسلامية فى شتى الفروع والعلوم المختلفة ،
ولذا فاننا نجد أن دراسة علوم الأدب واللغة والتاريخ نشأت فى السودان
كما نشأت فى البلاد الاسلامية الأخرى باندراجة الأولى على أيدي رجال
الدين حيث بفضلهم انتشرت هذه العلوم .

وما تحدثنا فيه سابقا عن انتشار مظاهر الثقافة العربية الاسلامية
فى السودان ليس المقصود به شمال السودان فقط حيث الانتشار الاسلامى
والعربى الواسع انما نعنى به السودان كله من شماله الى جنوبه ، ذلك
لأنه مما لا شك فيه أن بيئة الغابات الاستوائية فى جنوب السودان قد
عرفت العرب والعلوم العربية الاسلامية منذ فترة بعيدة وذلك من خلال
صلاتهم المستمرة مع شمال السودان ونعنى بها الصلات الاجتماعية ، لأن
الوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى كانتا فى ذلك الوقت تعد من
الوسائل الفعالة لنشر الثقافة بين تلك الشعوب ، وبهذا فانه يمكننا القول
أن الجنس العربى عرف السكان الزنوج حول البحيرات الكبرى وأعلى
الكونغو منذ وقت طويل وقاموا بنشر حضارتهم وثقافتهم العربية وأسسوا
مدنهم حول جنوبى السودان .

ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى فى عصر
الفونج تثبت المراجع لنا أن الشلك وهم إحدى القبائل النيلية الكبرى
قد اتصلوا اتصالا مباشرا مع العناصر العربية من سنار حيث كانت فى
ذلك الوقت تعد من أكبر الخواضر الاسلامية فى السودان ، بل أن هناك
بعضا من الباحثين قد ذهب الى حد القول أن الشلك هم الذين أسسوا
سلطنة سنار وبصرف النظر عن صحة هذا الزعم أو خطئه فانه يعطينا فكرة
عامة عن مدى اختلاط هؤلاء الشلك وتأثرهم بالثقافة العربية الاسلامية
حول سنار ، كما اتصلوا بالنوير والذنكا بالإضافة الى ذلك كان للصلة

الطبيعية التى فرضتها ظروف بعض القبائل العربية مثل البقارة الذين يتصلون اتصالا وثيقا بالقبائل النيلية أثرها فى تثبيت بعض المؤثرات العربية فى داخل بيئة الغابة ومثال ذلك اتصال قبيلة بنى سليم بانثسك وخاصة عند مدينة كاكا ، اذ كان لهم فضل نشر الثقافة العربية الاسلامية غربى النيل الأبيض الى مدى أبعد مما بلغت شرق ذلك النهر ، كذلك اتصال عرب الرزيقات بقبائل الدنيكا عند بحر العرب وخاصة فى فصل الجفاف •

بالاضافة الى كل هذه الأدوار نجد تلك الآثار الثقافية والاسلامية التى تركها التجار العرب فى جنوبى السودان بحيث أتيح لهؤلاء التجار العرب وأبناء السودان الشماليين فرصة الاختلاط المباشر بهذه العناصر الزنجية بل الاستقرار والتوطن والانصهار بالزواج من الزنجيات •

مثال ذلك ما حدث من انصهار بعض العناصر العربية التجارية والمهاجرة فى منطقة غربى بحر الغزال ، اذ نجحوا عن طريق الاختلاط المباشر مع الزنوج فى صلب مجموعات قبلية كبيرة بالصبغة العربية وخاصة تلك الجماعات المعروفة باسم الفرثية فى غربى بحر الغزال ، فبعض المجموعات مثل كرش وفروغى والباندا التى تعيش فى المرتفعات جنوبى دارفور ، قد اعتنقت الاسلام ومازال زعمائها يعتنقون هذا الدين السمع ويتكلمون لهجة قريبة من اللهجة العربية الداريجة •

ولعل خير مثال على مجهودات أولئك التجار فى بث المؤثرات الثقافية العربية ذلك المجهود الذى قام به الزبير باشا ، حيث أتيح له أن يؤسس مملكة عربية فى بلاد القولو • واتخذ عاصمة له فى (ديم الزبير) التى سميت باسمه ويقول الزبير باشا وصارت الناس تتقاطر الى من كل الجهات للانتظام فى خدمتى وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت فى تمدنها وعمارتها •

بجانب ذلك كان التجار الذين دخلوا جنوبى السودان للتجارة فى منتجات تلك الأقاليم أثرهم البالغ فى بث المؤثرات الثقافية العربية بين

الزنوج اذ أن الاسلام والتجارة ربطت بينهما برباط تحالف وثيق ، ولما كان من السهل على التاجر أن يقوم بالدعوة والهداية للاسلام عمليا في الأسواق والقرى وهناك مارس الاسلام دوره الطبيعي على أيدي هؤلاء التجار بين الزنوج في الجنوب .

ولقد كان اعلان الحكومة البريطانية الاستعمارية عزمها على محاربة انتشار الثقافة العربية الاسلامية في تلك البيئات من هنا تمت عملية استئصال هذه الثقافة العربية عن تلك البيئات ، فقد ذهبت الادارة الانجليزية بعدا آخر في منع دخول معالم الثقافة العربية الاسلامية الى كل أرجاء السودان الواسعة .

ولقد تركت الحياة الثقافية الاسلامية بصماتها الواضحة في كل أنحاء السودان فمثلا في منطقة الجبال انتشرت المدارس في جبال النوبا حيث يختلط العرب بالنوبا وخاصة بجانب المدارس العديد من الخلاوى والمساجد التي تحفظ الأطفال القرآن الكريم ، حيث أصبح أهلها مسلمون ولكن أهلها يتحدثون اللغة العربية بلهجة عربية بدرجة محدودة ومن هنا نشأت في منطقة شمال الجبال وحدها مجموعة من الخلاوى في النتل والدلنج ودبيكر والحمادى ورأس الفيل وحى حقوص وأم حيطان وكرمتى وزيادة على هذه الخلاوى التي تساهم مساهمة كبيرة في نشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية ، فانه توجد مجموعة من المساجد المبنية من الحجر في جبل النتل ودلاس وسالرا ووالى ، وهذه المساجد يقوم بها بعض المشايخ بتدريس وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم الفقه .

والى جانب هذه المساجد توجد مجموعة من المساجد المبنية بالقش منتشرة في منطقة شمال الجبال تقريبا وهذه الأخيرة تؤدي فيها الصلوات فقط وخاصة صلاة الجمعة .

اضافة الى ذلك فقد كانت بعض الجماعات النوباوية في تلك الجبال قد استعربت بفضل انتشار الثقافة العربية الاسلامية وتلك هي الجماعات التي عاشت وتحركت في منطقة تقلى الاسلامية ، والتي كانت تعتبر قلعة

اسلامية عربية في داخل المحيط النوباوى الواسع ، وفي تلك المنطقة ترك الأهالى أنسابهم النوباوية وادعوا النسب العربى القرشى حيث قال شيوخهم أنهم عباسيون ، ويرجعون بهذه النسبة الى أحد الزعماء الجعليين ممن ذكرتهم الروايات التاريخية والذي أسس امارة تقلى الاسلامية وساهمت تلك الامارة في نشر الاسلام والثقافة العربية في تلك الأرجاء بدور فعال ، بحيث أصبح أهالى تلك المناطق يتحدثون اللغة العربية بطلاقة ، بل أن حياتهم العربية الاسلامية وانتشار العلوم الاسلامية والثقافة العربية أصبحت صورة مماثلة للقوى الاسلامية الثقافية في شمال السودان .

وعلى هذا الأساس فقد عمت العلوم الاسلامية والعربية كل أرجاء السودان الواسعة في كل الشمال ومناطق الغابات الاستوائية ومناطق الجبال ، بحيث صبغت كل هذه الأرجاء بتلك الثقافة العربية الاسلامية التى تركت بصماتها على كل فروع الحياة العلمية والدينية والصوفية ، ومن ثم ظهر الاهتمام بالدراسات العربية الاسلامية ، وقد صاحب هذا الاهتمام بالدراسات العربية والاسلامية شغف كبير بجميع كتب المعارف الاسلامية والعربية التى كانت منتشرة في مصر وبلاد العالم الاسلامى ولا سيما من جانب هؤلاء الطلاب الراحلين في طلب العلم الى شتى الأقطار ، حيث كانت مصر من أولى الأقطار التى هبط اليها الكثير من الطلاب السودانيين ، حيث كانت مصر في القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى مهبط العلم والفكر والثقافة والحياة العلمية الراسخة في العالم الاسلامى ، بل كانت كعبة العلم والثقافة والدراسات الاسلامية اليها يحج طلاب العالم الاسلامى وكان أبناء السودان يجدون بغبتهم في ذلك الحصن الاسلامى حيث الأزهر الشريف ، حيث كان الأزهر مهبط للرواد والعلماء من جميع أنحاء العالم الاسلامى الذين وضعوا الأساس انثقافى والاسلامى العميق لهذه البلاد السودانية التى طبعت بالطابع العربى الاسلامى ومارسته على نطاق واسع وقد تمكنت فئات المتعلمين من أبناء الشعب السودانى في تمثل جوانب العلوم الاسلامية المختلفة ومن ثم انصرف نشاطهم ليدور حولها اختصارا وشرحا أو نسجا على منوالها . وقد كانت القرون الثلاثة الأولى (القرن التاسع الهجرى – الحادى عشر الهجرى) هى قرون بداية انتشار الثقافة العربية

الاسلامية في السودان بشكل مكثف وعميق الجذور في بيئات السودان المختلفة التي أخذت تنهل في هذه الثقافة الاسلامية ، ولقد كان طابع انتشار الطرق الصوفية على الحياة الاسلامية على نطاق واسع وغلبة هذه الروح على الحياة ادينية وميل العلماء منهم الى الانخراط في سلك الطرق الصوفية وتشبعهم بروح التقاليد بالاضافة الى نماذج وظيفتي الفقيه والصوفي في أكثر من مظهر .

كما أن البلاد لم تشهد تقدما ملموسا في الحياة العمرانية أو ترفا ماديا يهيئ الأسباب لازدهار الأدب والعلوم ومهما تكن العوامل التي أسهمت في قلة المحصول الفكري في مرحلة التقليد هذه فتبدو لي أن غلبة روح التدين بين العلماء كانت مسئولة عن روح التهييب والاحجام عن التأليف خوفا من الزلل .

ولقد كان بودي أن نصل الى مؤلفات أو مخطوطات عن الانتاج العلمي السوداني قبل القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي وذلك مما ألفه علماء السودان قبل تلك الفترة ، وحقيقة الأمر أن ما ألفه العلماء والمشايخ ورجال الدين الاسلامي السودانيين لا يرقى الى مرتبة الانتاج العلمي الاصيل مثلما نشهده في مصر أو الحجاز أو بلاد المغرب العربي أو بلاد الشام والعراق .

بل أن هناك بعض الآراء تذكر أن الانتاج العلمي السوداني لم يصل الى انتاج علماء السودان الغربي في تمبكتو ودولة مالي وسنغاي حيث وصلت الى أيدينا مؤلفات علماء كثيرين من هؤلاء العلماء الأفريقيين مثلما نشهد في مؤلفات أحمد بابا التمبكتي ، أحمد بن فرطو ، عبد الرحمن السعدي ، محمود كعت وغيرهم العديد من أبناء وعلماء جنى وتمبكتو وجاءوا وغيرها من المراكز العلمية الاسلامية في غرب أفريقيا على الرغم من اشارة العديد من المصادر الى رحيل العديد من طلاب هذه البلاد الى واداي وباجرمي وكانم وبرنو وسلطنة البولالا وامارات الهوسا ومالي وسنغاي والتكرور لتلقي العلم على أيدي علماء السودان في سنار ودارفور وكردفان وغيرهم الكثير في الدامر وبعض المدن السودانية الأخرى ، مما يدل على وجود حياة علمية اسلامية سودانية راقية .

ومهما يكن من مستوى هذه المؤلفات الاسلامية الدينية وندر مؤلفيها فان طبقة العلماء هذه التي سعى اليها طلاب غرب أفريقيا هذه كانت هي التي أنجبت خير ما يمثل ذلك العصر روحا وثقافة وهو عصر السلطنات والامارات الاسلامية التي عرضنا لها في فصل سابق *

وقد أثرى مشايخ الطرق الصوفية المكتبة السودانية بالعديد من المؤلفات في ذلك المجال الدينى الذى ساد الحياة الاسلامية في السودان دون غيرها من الأقطار ، حيث شهدت السنوات الأخيرة من تاريخ مملكة الفونج وسلطنة الفور وتقلى والعقود الأولى في العهد المصرى التركى ازديادا في نفوذ بعض الطرق الصوفية وتجديدا في تعاليمها انعكس في ظهور العديد من المؤلفات التى أثرت تلك المكتبة السودانية والتي كانت بأقلام مشايخ تلك الطرق الصوفية وتجديدا في تعاليمها انعكس في ظهور تلك المؤلفات *

وقد شهد السودان في ذلك العصر ميلاد طراز آخر من الزعامة كان جديرا بأن يوحد السودان وأن يلم الشمل بعد أن أصاب هذه السلطنات الاسلامية المتعددة الضعف والانهياء ، حيث ظهرت الزعامات الدينية زعامات الفقهاء ورجال الطرق الصوفية حيث كان من الممكن أن تعيد تلك الزعامات الدينية الى المجتمع السودانى توازنه وأن توفر للوطن استقرارا ثقافيا اسلاميا وانتاجا علميا أو صوفيا ، وأن تحفظ تلك الزعامات الفقهية والصوفية ذات الكرامات والأعمال المجيدة التوازن بين المشايخ والسلطين ولكن على العكس من ذلك فقد تفرقت تلك الزعامات الدينية الفقهية والصوفية كما تفرقت الزعامات السياسية ، بل أن العلاقات الروحية والدينية الطيبة قد انعدمت بين الفقهاء أنفسهم ، بل أكثر من ذلك فانهم عملوا على اشاعة جو من روح التعصب والتنافس *

ومن هنا فقد سادت الحياة الاسلامية الثقافية العلمية والفقهية العاطفة والخرافة وهما الصفتان اللتين كانتا تخيمان على فكر رجال الطرق الصوفية ، بحيث بدأت الناس العامة ينسبون الى الفقهاء العديد من الخوارق التى لا يصدقها العقل البشرى ولا الفكر المتدين والعامل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم *

بل وصل الأمر في بعض مناطق السودان النائية أن كان عامة الناس يقدسون العلماء والفقهاء ورجال وأقطاب الطرق الصوفية أكثر مما يقدسون الرسول صلى الله عليه وسلم ، في الوقت الذي انحدر فيه مستواهم العلمى حيث خيم على القوم روح من الاستسلام لأقوال المشايخ والفقهاء بحيث لم يكن في مقدورهم أن يميزوا بين الخرافة والايمان .

ولم يكن السودان هو وحده القطر الاسلامى الوحيد الذى سيطرت على وجدان شعبه تلك الروح الاسلامية فكما تعرض السودان لتلك الأخطار فان بقية أقطار العالم الاسلامى المعاصر قد تعرضت لنفس تلك الأخطار لا سيما منها الأقطار التى خضعت للنفوذ العثمانى .

ولقد كان السودان فى ظل هذا الجو الثقافى الاسلامى الذى وصل الى حد لم يكن فيه من الممكن التمييز بين الخرافة والايمان أن تحدث به انتفاضة اسلامية قوية تحاول أن تعيد اليه توازنه الاسلامى وتبعث فيه حركة اسلامية نشطة تعمل على بث الروح الاسلامية القوية من جديد بعد ذلك التدهور السياسى الذى صاحبه تدهور فى جميع أمور الحياة الثقافية والعلمية الاسلامية .

ولقد كان من الممكن أن تأتى تلك الصحوة الاسلامية الثقافية والانتفاضة العلمية الاسلامية من أبناء السودان أنفسهم أو تحمل اليهم مبادئ الإصلاح قوة أخرى ترتبط بهم بروابط ثقافية وحضارية و اسلامية وثيقة ، بحيث لم يكن السودان فى ظل ظروف التفكك والانحيار السياسى وما يتبعه من انهيار ثقافى حضارى واقتصادى واجتماعى قادرا على الخروج من ذلك المأزق الخطير ومن ثم بدأت تلك الصحوة الاسلامية والثقافية فى السودان بذلك الفتح المصرى الذى تم عام ١٨٢٠م .

والذى تكون بداية الفتح المصرى هى نهاية المطاف فى ذلك البحث ، الذى عالجت فى فصوله المختلفة عوامل انتشار الاسلام والعروبة فى ذلك

الجزء الغالى من الوطن العربى الاسلامى الذى يعتبر جسر العروبة والاسلام الى افريقيا ، ومن هنا كانت اصالة السودان تقع فى قدرته على استقطاب العديد من الأجناس وصهرها فى بوتقة اللغة العربية الواحدة ، فيما عدا بعض اللغات المحلية فى الجنوب بل قدرته فى صهر هذه الأجناس فى وحدة الثقافة العربية الاسلامية التى عمت كل أركانه كما سبقنا الإشارة الى ذلك ، بعد أن استطاع أن يجعل تلك النواة الثقافية محور الوحدة الكبرى فى السودان ، وذلك بعد أن حاولت القوى الاستعمارية والتبشيرية أن تحول بين أبناء الجنوب ووحدتهم الثقافية العربية الاسلامية . ومن هنا ارتفعت الآراء مطالبة الى اعطاء اللغة العربية وثقافتها العربية الاسلامية دورها فى وحدة السودان الشاملة ، وفى ذلك يقول أحد رجال الفكر والثقافة فى السودان أن اللغة العربية ودراستها وحياتها فى كل أنحاء السودان ، بعد أن تعمقت فى وجدان ونفوس السودانيين هى الخطوة الأولى لحياء ذلك الكيان السودانى الواحد ، اذ أنه لا يمكن أن يحيا الفكر والأدب والثقافة فى هذه البلاد بأقاليمها المتعددة الا باحياء اللغة العربية ، ولن يكون ذلك الاحياء الا بالتوفر على دراستها ، كما أنه لا يعتبر ذلك الاحياء وحده من جانب الشعب الا اذا لقيت تلك الحركة تشجيع رجال الدولة والحاكم ، وأن ذلك من خلال اللغة العربية لغة الثقافة والحضارة والتاريخ والتى يمكن عن طريقها القضاء على كل مخلفات الاستعمار والتبشير فى الجنوب وعلاج مسألة الجنوب فى ظل الوحدة الثقافية العربية الاسلامية .

اذ أنه من خلال التزود بتلك اللغة صاحبة الثقافة العربية الاسلامية الواسعة ، فإنه يمكن من خلالها دراسة تاريخ البلاد ومن ذلك يتمكن الشعب ومثقفيه من دراسة تاريخ بلادهم مكونة المادة الأساسية لكى يجوب أرجاء السودان ويعرف عاداته وتقاليده وأعرافه وما يتغلغل فى نفسية ووجدان ذلك الشعب الذى كانت الثقافة العربية الاسلامية هى ملجأه الأول والأخير والتى مهدت له طريقه ليمارس دوره مع اخوة العروبة والاسلام فى شتى أقطار العالم العربى والاسلامى وفى قدرته فى القضاء على ما غرسه الاستعمار فى أبناء الجنوب ، عن طريق وحدة الثقافة .

وتلك هى لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة العربية والاسلامية وملامح تطورها على أرض السودان والظروف التى مرت بها والعوامل التى ساعدت على انتشارها وصبغها السودان بصبغة عربية اسلامية دائمة خالدة خلود الزمن وقاهرة لكل محاولات الوقية والايقاف والاستبعاد عن أداء الدور العربى الاسلامى وسط القارة الأفريقية وجمع وحدته السياسية الشمالية والجنوبية فى اطار الوحدة الفكرية العربية الاسلامية حلا لمشكلة الجنوب الذى استعصى حلها ولن يكون لها حل الا من خلال وحدة الفكر العربى الاسلامى الذى من خلال الوجدان الفكرى والثقافى والاجتماعى المشترك يستطيع السودان أن يواصل مسيرته هادما كل ذلك البناء انزائف الذى أقامه الاستعمار والتبشير من لغة أوربية دخيلة وعقيدة بعيدة عن فكر أبناء الجنوب قبل الاستعمار ♦

«الخاتمة»

من خلال هذه الدراسة عن الاسلام والعروبة في السودان وادى النيل قبل الفتح المصرى للسودان في عام ١٨٢٠ م فانه يبين لنا أن الصلات الثقافية والتجارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية مع ذلك الوطن العربى الاسلامى علاقات قديمة ، بل عريقة في القدم ترجع الى قرون عديدة قبل ظهور أنوار الدعوة الاسلامية ، التى كان ظهورها بوحى الهى على مسرح الأحداث الدينية والسياسية في العالم ، من العوامل الأساسية لصبغ البلاد بتلك الصبغة العربية الاسلامية التى تشهد السودان المعاصر عليها اليوم والذي يحاول القيام بدوره الاسلامى في قلب القارة الافريقية باعتباره جسر العروبة والاسلام الى أواسط القارة بأقطارها المتعددة .

ولقد اندفع الاسلام الى السودان عبر قنوات طبيعية كانت هي المعبار أو المسارب التى تسربت عن طريقها تلك التيارات العربية الى السودان ومن هنا كانت العروبة أصيئة كل الاصاله في أرض السودان ولم تكن طارئة أو وافدة أو مؤقتة كما حاول أن يصور للأذهان بعض الكتاب ، انما هي عميقة وقديمة قدم التاريخ السودانى بل قدم الانسان في تلك الديار ، ذلك لأن السودان بأقسامه المختلفة وبصفة خاصة ذلك الجزء الشرقى والجنوب الشرقى القريب من البحر الأحمر كانت فيه شبه عروبة متوطنة قبل انتشار الاسلام .

ذلك لأن الهجرات العربية الى ذلك الجزء قد شهدت بعدا تاريخيا يمتد الى سبعة قرون قبل الميلاد . ومن هنا ساهم استقرار الانسان العربى في تلك الفترات القديمة على وجود العنصر العربى بجانب العناصر الأخرى ان لم يكن قد سبقها في الاستقرار والتوطن والتمدين واقامة معالم حضارية قبل تلك الأقوام التى كانت تسكن المناطق الجنوبية في السودان حول منطقة البحيرات وحوض الكونغو .

ولقد تتابعت الموجات البشرية في حركة هجرة متواصلة أو متقطعة من الجزيرة العربية عبر مداخل متعددة ، حيث استخدمت الهجرات هذه المنافذ وصولا الى قلب السودان •

وكان برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء من أهم هذه المعابر التي انطلقت منها الهجرات العربية في الجزء الشمالى من الجزيرة العربية عبورا الى مصر ثم منها الى السودان وبقية الأقطار الافريقية بحيث ظل برزخ السويس هو الطريق الرئيسى الذى تدفقت عبره القبائل العربية نحو وادى النيل ، غير أن دخول العرب الى السودان عبر مصر قبل الاسلام لم تترتب عليه آثار عميقة الجذور ، اذ انحصر وجودهم أغلب الظن في الجزء الشرقى من البلاد وهى المنطقة الغربية من شبه جزيرة سيناء حيث لم يكن قد تم حفر قناة السويس بعد •

ومن هنا كان برزخ السويس أهم طريق سلكته الجماعات البشرية المتتالية كما ورد ذلك في القرآن الكريم وسفر التكوين حيث سلكته هذه الموجات البشرية في فترات متقاربة •

كذلك ساهم البحر الأحمر باعتباره معبرا من معابر الاتصال بين الجزيرة العربية وسودان وادى النيل حيث أن عبور ذلك البحر من موانئ البحر الأحمر الشرقى لم يكن يقف أمامه عوائق على مر الأيام •

كما كان باب المندب ولازال يمثل تيار هجرة بشرية منذ أقدم العصور حيث انتشر سكان الجنوب العربى على السواحل الشرقية للقارة الافريقية ثم اتجهوا شمالا وغربا بحيث استقرت منهم جماعات عربية في بلاد الحبشة والسودان وتسربت بعد ذلك أعداد منهم الى الغرب ومن ثم ظهر أثرهم الحضارى والثقافى قبل الميلاد بفترة طويلة حيث نشروا فيها ثقافتهم العربية ، بل ان أقدم آثارهم العربية المخطوطة ترجع الى القرن الرابع قبل الميلاد في حين أن الهجرات العربية قد تسربت عبر باب المندب منذ القرن السابع قبل الميلاد •

وقد ازدادت حركة الهجرة العربية قبل الاسلام الى الاقاليم الشرقية في السودان والحبشة في عهد دول معين وسبأ وحمير حيث توغل العرب غربا الى وادى النيل واستقرت جماعات منهم في حوض النيل ، بل ان بعض الآراء ترى أن كلمة سوبا عاصمة مملكة علوة هي تحريف لكلمة سبأ وبهذا يمكن القول أن عرب الجنوب كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام .

ثم يأتى بعد ذلك دور مصر كمعبر من معابر الهجرات العربية الى السودان حيث كانت تتوغل انقوافل العربية في مصر اتجاها الى الجنوب وبذلك ارتبط السودان بالهجرات العربية من مصر منذ عصور قديمة ومن هنا كانت مصر من الطرق الرئيسية بل هي الطريق الأكثر عبورا الى السودان وذلك نتيجة حتمية للعلاقات التى تربط بينهما حيث كانت مصر مقرا لوصول الموجات البشرية العربية المتلاحقة .

كذلك فقد ساهم المعبر الشمالى الغربى حيث بلاد المغرب العربى بدوره في الهجرة العربية القادمة من تلك الأقطار المغربية التى نتجه الى الجنوب الغربى حيث دارفور وكردفان وبذلك ساهم ذلك المعبر الشمالى الغربى سواء أكان منطلقا من طرابلس ليبيا أو بقية بلاد المغرب العربى في اتجاه الجنوب بل ان هناك آراء تذكر أن دارفور ترجع في الأصل الى العرب الذين قدموا من بلاد المغرب العربى بعد هجرتهم الى بلاد غرب القارة بعد انهيار الوجود الاسلامى في الأندلس (أسبانيا) .

وهكذا كانت هذه المعابر هى البوابات الكبرى التى طرقتها وتعبرتها القبائل العربية انطلاقا من الجزيرة العربية وصولا الى السودان وذلك في الفترات السابقة والقديمة قبل ظهور أنوار الاسلام .

ولقد كانت العديد من المناطق في القرن الافريقى ووادى النيل والشمال الافريقى مناطق شبه عربية قبل ظهور الاسلام ، بل ان هذه المناطق كانت قد قطعت المراحل الطويلة في طريق عروبته عبر آلاف السنين ، بل انها تعربت لغة وجنسا ولقد كان العامل الحاسم في عروبة هذه المناطق بدء ظهور نور الاسلام وانتشاره .

ولقد تدفقت القبائل العربية نحو افريقيا وأحدثت تغيرات هامة في وادي النيل وشمال افريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تاريخ تلك البقاع السياسى والفكرى والاجتماعى منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربى ، ومن هنا كانت مصر جسر العروبة والاسلام الى السودان بعد أن عبرتها القبائل العربية من الجزيرة العربية الى افريقيا •

بل انها لم تكن موجات جزئية متقطعة كما هو حال الهجرات العربية الأولى قبل الاسلام ، بل أنها كانت هجرات عربية متصلة ومتواصلة وعلى هذا فان السودان وادي النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر أثرا كبيرا اذ دخلت المؤشرات الاسلامية عبر بلاد النوبة وتركت بصماتها واضحة جلية في تاريخ السودان وتطور ثقافتها العربية الاسلامية •

فمن المعلوم أن هناك جماعات من سبأ قد نزحت منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم تحركت الى الداخل حيث أرض السودان ، بالإضافة الى أنه يقال أن هناك قبائل عربية من بلى قد نزحت الى بلاد البجة قبل انتشار الاسلام كما أن القرن السادس قبل الميلاد قد شهد هجرة عربية واسعد الى أرض البجة وقد تصاهر هؤلاء الأقوام مع من سبقوهم من قبائل بلى •

ومهما يكن من أمر الهجرة العربية الى السودان فانه يمكن القول بأن العنصر السبىء وأعقابهم الذين جاءوا من بعدهم كانوا هم العنصر الغالب والأكثر من العرب في السودان في العصور الجاهلية وقبل انطلاق حركة الهجرة العربية على نطاق واسع •

ولقد تكاثر الوجود العربى من ربيعة ومضر وأعقاب سبأ في أرض المعدن بالنوبة ، ثم بدأت مرحلة خطيرة في حركة الهجرة العربية الواسعة الى بلاد السودان اثر ظهور مرحلة الأحلاف العربية بين القبائل العربية في مصر ، بل ان تلك الأحلاف العربية التى لجأت الى السودان كانت هى العمود الفقرى والأساسى الذى التقت حوله المجموعات العربية التى بذرت بذور العروبة والاسلام في السودان •

ولقد كان عدم قدرة القبائل العربية وأحلافها على مقاومة الوجود التركي في مصر من الأسباب التي جعلتهم يولون وجهتهم للهجرة العربية الجماعية الى السودان ، ومن ثم استطاعوا الوصول الى أرض السودان على دفعات كبيرة ومن ثم تفرقوا في أنحاء السودان الواسعة واندمجوا مع جماعات عربية سبقتهم الى تلك الأماكن واندمجوا مع السكان المحليين وكونوا أحلafa جديدة مع اخوانهم العرب .

ولعل حركة الهجرة العربية من الباب الشمالى الى السودان قد استمدت القوة والحيوية من تيار العروبة المندفع من يناييعه الدافعة في مصر ، ذلك لأن تيار الاسلام والعروبة في مصر لم ينقطع عن السودان بل ان حركة الدفع العربى استمرت تتغلغل في السودان حتى أصبح جزءا كبيرا منه عربيا جنسا ولغة وهكذا كان المنفذ الشمالى له الدور الأكبر في اكتساب السودان لعرويته واسلامه .

وهكذا فان المسلمين الذين اجتازوا شبه جزيرة سيناء الى مصر للمرة الأولى كونوا المسادة الأساسية أو العمود الفقري الأساسى الذى صاغ ذلك المجتمع العربى سواء كان في مصر أو السودان ، وقد انعكست تلك الآثار على المجتمع السودانى .

ولقد كان الفتح الاسلامى لمصر عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م في عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الأسباب القوية في فتح الأبواب على مصراعها لتدفق العديد من القبائل العربية التي أحدثت أثرا بالغا في وادى النيل ، ذلك لأنه في عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهرى الى بلاد النوبة على رأس جيش اسلامى ، حيث كانت تلك المناطق تعرف بشمال السودان في العصور الوسطى وذلك لفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية ، ومن هنا كانت حملة عقبة بن نافع الفهرى بداية أول اتصال بالسودان .

ثم جاء عبد الله بن سعد بن أبى سرج عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م ليعاود الكرة على بلاد النوبة ثانية ، ومن هنا فانه يبدو أن ممالك النوبة

المسيحية لم تعد تملك القدرة على الوقوف في وجه التيار الاسلامى الذى بدأ يتدفق من مصر عبر النوبة ، ويبدو أن هذا الباب قد بدأ يفتح على مصراعيه ليتدفق التيار الاسلامى طليقا من كل قيد بعد أن كان المسلمين قد عرفوا بلاد النوبة أو المقصرة في الشمال وأرض علوة في الجنوب أو (حاكم الأبواب) أول أقاليم مملكة علوة وكانت حملة عبد الله بن سعد أبى سرج قد توغلت في النوبة حتى العاصمة دنقلة وحاصرتها حصارا عنيفا حيث ضربت قلاعهم بالمنجاديق التى لم تكن قد عرفها النوبيين من قبل ، ومن ثم طلب ملكهم « قليدوث » الصلح ، بعد أن أملى المسلمون شروطهم ومن ثم توقف الزحف الاسلامى الى هذا الحد واقتنع المسلمون بالمصالحة ، وقد اشترط عليهم الأمان وألا يحاربهم المسلمين وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل ببلادهم من المسلمين ، وهذا يعنى أن الاسلام قد تسرب الى السودان منذ الفتح الاسلامى لمصر وكذلك العديد من البنود والشروط التى منها أن يحفظ النوبيون المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه واسراجه وتكرمته وهذا يعطى الدليل القوى على أن الاسلام قد تسرب طوال العشرة سنوات التى مرت من عام ٢١ هـ / ٦٤١ م الى ٣١ هـ / ٦٥٢ م وكذلك حماية التجار وغيرهم من المسلمين الذين يطرقون بلادهم •

وكذلك كان النوبيون بدورهم ليسوا أقل من العرب رغبة في الاتفاق فقد كانت الكنيسة الأم لهم في مصر في قبضة المسلمين وكذلك مسارب التجارة ومسالكها ومن ثم تبلورت كل هذه الرغبات المتبادلة في معاهدة البقط وكما تعهد النوبيون بالمحافظة على المسجد الذى ابتناه المسلمون في دنقلة لا يهدموه •

ولقد كانت تلك المعاهدة بمثابة وضع الأسس لبناء المجتمع العربى الاسلامى في النوبة ، ذلك لأنها ألزمت النوبيين بفتح بلادهم لكل وافد اسلامى على ألا يقيم وكان ذلك ايذانا بانطلاق رجال الدعوة الاسلامية للدعوة لدينهم بين النوبيين أثناء مرورهم بالنوبة انطلاقا الى الجنوب حيث مملكة علوة •

كما أن بعض مسلمي أسوان قد اشتروا ضياعا داخل أراضي النوبة ومن هنا فإن الأمر لم يعد في حاجة لاحتلالها وضمها للأراضي الإسلامية ، وفي القرن الثالث الهجري ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م أغار البجة على مدينة قفط ولكن الخليفة العباسي المأمون جرد عليهم حملة وعقد معهم عهدا جعلت فيه الأراضي الواقعة بين أسوان ومصوع وباضع ملكا للخليفة على أن يكون (كنون بن عبد العزيز) زعيم البجة (وهذا الاسم دليل على انتشار الاسلام بين البجة) هو وأهل بلده تابعين لأمر المؤمنين ، ويتضح من هذا أن الاسلام شق طريقه الى أرض البجة كما شقها الى بلاد النوبة ، لأن وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين الى بلاد البجة بجمع صدقات من أسلم وهذا دليل واضح على انتشار الاسلام على نطاق واسع سواء أكانوا عربا من الذين أقاموا هناك أم من البجة الذين اعتنقوا الدين الاسلامي نتيجة اختلاطهم بالعرب .

وقد توطدت أركان العروبة والاسلام في بلاد النوبة بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في بوصير بصعيد مصر حيث اتجه ابنه عبد الله وعبيد الله ومعهما أربعة آلاف من أتباعهما الى بلاد النوبة بقصد الإقامة ، الا أن ملك النوبة طلب منهم الخروج ومن ثم قرر جزء منهم العودة الى الجزيرة العربية والبعض الآخر سلك طريقا آخر للهجرة جنوبا وشرقا ومن بدأ الاسلام يتدفق نحو السودان بأعداد كبيرة ، كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر في تلك الانحاء حيث بنوا مساجد لهم وهذه ظروف مهدت كلها للعرب للاختلاط بأهل النوبة والبجة وكانت من العوامل التي ساعدت على تعريب هاتين المنطقتين وكان لزواج العرب من النوبيين أثر في اسلام الآخرين .

وهكذا كان الاستقرار العربي الاسلامي دافعا للانتشار جنوبا في السودان الأوسط أو ما يعرف باسم مملكة علوة ومن هنا أصبح السودان مفتوحا للاسلام والثقافة العربية الاسلامية للتوغل في وسط

السودان وحتى حدود الحبشة دون انتظار لسقوط مملكة المقرة
المسيحية .

ولقد كان قرار الخليفة العباسي المعتصم بالله بإسقاط العطاء عن
العرب بمصر من العوامل الأساسية لتشجيع الهجرة جنوباً نحو السودان
بل ان تلك السياسة أدت الى هجرة بعضهم جنوباً في الصحراء مننعدين
عن الجو المعادي للعرب والعروبة ، ومن هنا شهد القرن الثالث الهجري ،
التاسع الميلادي ، حركة هجرة اسلامية عربية واسعة النطاق في اتجاه
الجنوب ، كما أن هذا القرن شهد قيام الدولة الطولونية في مصر حيث
شهدت قيام أحمد بن طولون بتجهيز حملة الى بلاد النوبة والبجاة ،
حيث قام بها (أبو عبد الرحمن عبد الله العمري) الذي كان يهدف الى
اقامة امارة مستقلة عن ابن طولون في تلك المنطقة الواسعة في جنوب
أسوان ، بعد أن استقر في منطقة بالقرب من قبيلة مضر وانتصر على
النوبة والبجاة في وقت واحد ، ولا نبالغ اذا قلنا أن العمري قد فارب
النجاح عند ما أنشأ أول امارة عربية في شمال السودان وضرب بنجاحه
هذا مثلاً للعرب للهجرة الى الجنوب .

ومن كل هذا يتضح أن هذه الهجرات العربية الى السودان قد
تمت في ظروف مختلفة لم يكن طابعها العام يتسم بالعمل السريع بل انه
كان تسرب سلمى اجتماعى فرضته دوافع اجتماعية كالزواج والمصاهرة
والاندماج ودوافع سياسية واقتصادية ، وقد تم ذلك في ببطء وسهولة
على مدى أجيال متعاقبة وكانت هذه الهجرات ينتهى بها الأمر في نهاية
المطاف الى الاندماج في حياة السكان المحليين الذين كانوا ينتمون الى
عناصر متعددة كالحامية والزنجية ومثل هذا ينطبق على تلك الثقافة
العربية الاسلامية التي حملوها معهم الى مهاجرهم الجديدة .

ولقد تتابعت الهجرات أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطمين
حيث كان هؤلاء المهاجرين من اللاجئين من علية القوم والأمراء والحكام
الذين يشكلون عنصراً من عناصر نشر الاسلام بين أهل تلك البلاد ، ومن
ثم بدأ التحرك جنوباً والاختلاط بأهل البلاد المحليين حيث خالطوهم

الدماء العربية واعتنقوا الاسلام وتعلموا اللغة العربية • وهذا الاختلاط كان له عظيم الأثر في تاريخ البلاد •

وفي العهد الفاطمي قام أحمد بن سليم الأسواني برحلة الى ملك النوبة جورج الثاني (٣٥٨ - ٣٩٣ هـ / ٩٦٩ - ١٠٠٠ م) وذلك لدعوة الملك ورعيته الى الدخول في الاسلام ولكن الملك رفض ، ومن ثم فان ابن سليم الأسواني توغل جنوبا في النوبة العليا فوصل الى سوبا عاصمة مملكة علوة ووجد بالعاصمة سوبا جماعة من المسلمين فاطمان عليهم وشاركهم احتفالات العيد بعد أن رفعوا الأعلام الفاطمية أثناء احتفالهم •

كذلك من المعالم البارزة في علاقة الفاطميين بالنوبة قيام امارة الكنوز العربية الاسلامية في أسوان حيث اعترفت بها الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، ويعتبر عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) عصر ود ومصالحة مع بلاد النوبة بصفة عامة ، بحيث أصبحت بلاد النوبة في أواخر العصر الفاطمي ملجأ وملأذا لكبار رجال الدولة الفاطمية فرارا اليها من الأخطار التي تتهددهم •

ثم كان استخدام ميناء غيذاب لانتقال الحجاج في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الفاطمي فرصة طيبة لانتشار الاسلام جنوبا حيث كان بعض الحجاج يفضل الإقامة في عيذاب عند عودته ومن ثم يتجه جنوبا الى أرض البجاة أو النوبة وقد ساعد استخدام الميناء على انتشار الاسلام في السودان الشمالي وتسهيل حركة الانتقال في تلك الأقاليم السودانية •

ولقد تأثرت الجماعات النوبية التي أسلمت بالتقاليد العربية وان كانت قد احتفظت ببعض تقاليدھا القديمة وأضافت اليها بعض التأثيرات الجديدة ، وقد كانت بلاد النوبة متسع كبير تمتص هذه العناصر العربية الاسلامية الزائدة وتتشربها ولا يظهر نفوذ العرب ولا تملؤ كلمتهم

الا حيث تكثر أعدادهم وتضعف رقابة السلطة الحاكمة وتعجز عن كبح جماحهم •

وشهد العصر الأيوبي ارسال صلاح الدين أخاه « شمس الدين توران شاه » في حملة لبسط نفوذ مصر السياسى على النوبة وقد اضطر ملك النوبة الى طلب الصلح ولكن رغبة صلاح الدين كانت افساح المجال للهجرات العربية حتى يتم طبع هذه البلاد بالطابع العربى الاسلامى ، بحيث كانت الهجرات العربية متصلة الى النوبة ، بل انها كانت تزداد في فترات عند ما يظهر الحكام عداوتهم للعرب ، وعند ما انتهت الدولة الأيوبية في مصر فانه وضح كل الوضوح أن علاقة مصر ببلاد النوبة لم يطرأ عليها أدنى تغيير جذرى ، ذلك لأن بنى كثر سيطروا على الجبهة الجنوبية ، وهكذا فانه يمكن القول أنه رغم النزاع الذى قام بين بنى كثر والدولة الأيوبية الا أن الأيوبيين في مصر عملوا من جانبهم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر على تقوية النفوذ الاسلامى في بلاد النوبة بل تدعيمه بكل الوسائل وتقديم المساعدات لبعض القبائل العربية المهاجرة •

بل ان النشاط الاسلامى قد زاد خلال فترة الحكم الأيوبي لمصر وانتشر الاسلام وطبعت المنطقة بالطبعة العربية الاسلامية ، بل ان أبلغ دليل على انتشار الاسلام في تلك المنطقة أنه عند ما أرسل السلطان المملوكى الظاهر بيبرس حملته الى بلاد النوبة عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فان حاكم اقليم المريس كان يحمل اسما عربيا اسلاميا هو (قمر الدولة) وهذا دليل على أن نور الاسلام قد غير معالم هذه المنطقة الممتدة من جنوب أسوان حتى حدود النوبة العليا والتي كانت عاصمتها سوبا وبذلك فان كل السياسات الحكومية في القاهرة سواء أرادت بطريق مباشر أو غير مباشر كانت تخدم قضية الاسلام والعروبة في أقاليم النوبة سواء بهروب الولاة أو فرار المضطهدين ونزوح القبائل العربية أو احكام الحصار على النوبة المسيحية بحيث أصبحت النوبة دار اسلامية تشع بنور الاسلام •

ولقد كان قيام الدولة المملوكية في مصر ايذاناً بتغيير السياسة السلبية القديمة للنوبة وبداية عهد جديد من الاهتمام الايجابي ، بحيث أدرك المماليك في مصر ذلك الخطر الصليبي الكامن في الجنوب حيث النوبة ، أدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف والظهر وهي منصرفة الى دك ما تبقى من قلاع بقايا الصليبيين في الشام لذا نجد الحملات المصرية المملوكية تتتابع في عنف الى النوبة •

فنجد السلطان الظاهر بيبرس يغرم بانتهاز فرصة الصراع على عرش النوبة لكي يرسل حملته السابق الإشارة اليها لكي تنصب الأمير الذي طلب حماية الدولة المملوكية ، وقد كانت هذه بداية الحماية المملوكية الاسلامية المصرية على مملكة مقرة بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم ومرتبطة بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائباً عنه •

والحقيقة التاريخية فان الحملة المملوكية المصرية التي صاحبت الأمير شكندره قد حققت فتح بلاد النوبة فتحة حقيقية وأن بلاد النوبة بعد تلك الحملة لم تعد مستقلة ومن ثم نجحت السياسة المصرية في جعل بلاد النوبة تابعة للحكم المصري ولقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الاسلام على نطاق واسع ، بل ظهرت حركة التعريب في كل أنحاء البلاد بصورة ظاهرة وراسخة •

وفي عصر السلطان قلاوون ، أرسل الملك « ادور » ملك الأبواب التي هي الجزء الشمالي من علوة سفراءه الى مصر حاملين للسلطان قلاوون شكوى من سوء معاملة « سماسون » ملك دنقلة ويحكمه في النزاع وقام « سماسون » بارسال سفارة وهدايا الى القاهرة ومن ثم عمل السلطان قلاوون على بحث أسباب الشكوى وكان أن تولى عرش السلطنة في مصر السلطان « خليل بن قلاوون » الذي أرسل حملة توغلت لمسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً جنوبى دنقلة ، وقد تسببت هذه الحملات المملوكية المتكررة في رضوخ النوبيين لشيئة السيادة المصرية ولاخضاع ملوك النوبة واعترافهم بالسيادة المصرية في ذلك العصر •

ولقد وجد ملوك النوبة أنفسهم بين خطرين ، عدوان المماليك المستمر والدائم والخطر الذى لم ينقطع عن استمرار حملات المماليك المستمرة ثم هجوم القبائل العربية من الداخل والتي انصهرت فى المجتمع وصاهرت أغلب الأسرات صاحبة النفوذ والحظوة فانها خلعت رداء المسالمة وبدأت تتطلع فى ضرورة بسط نفوذها على البلاد .

وهكذا استمر النفوذ العربى الاسلامى فى بلاد النوبة بمساعدة المماليك ، حتى أن مملكة علوة فى سوبا قد أصبحت تدرك هذه الحقيقة الثابتة ومن هنا بذل محاولات للتقرب من بلاط السلطنة فى القاهرة بعد أن رأى ملوكها بينهم النفوذ العربى الاسلامى يزداد داخل بلادهم .

وشهد عهد الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م تنصيب أول أمير نوبى مسلم هو سيف الله عبد الله برشنمو وكان هذا أول سلطان مسلم يتوج ملكا على عرش البلاد ، ولكن عهد سيف الله عبد الله لم يظل اذ ثار عليه النوبيين بإيعاز من كنز الدولة ، الذى نصب نفسه سلطانا على البلاد ولكن السلطان المملوكى رفض الاعتراف بكنز الدولة لأنه حاكم عربى وقد يشكل خطرا على النفوذ المملوكى فى النوبة ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية المعادية للمماليك أن تمارس نشاطا معاديا للسلطنة فى القاهرة .

وبعد عدة محاولات استطاع كنز الدولة أن يتولى حكم النوبة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م بعد حروب طويلة بينه وبين المماليك ، حيث ضم اليه العرب واستعان بهم .

ومن هنا فقد أصبح الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وتم اعفاء النوبة من الجزية وبذلك صارت بلاد النوبة جزءا من الكيان المصرى وليس أدل على ذلك من أن السلطان المنصور قلاوون اعتبر بلاد النوبة من الأقاليم المصرية ولقد تعاون ملوك النوبة مع السلطنة فى القاهرة ضد خصومها وأعدائها .

وهكذا كان القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميادى هو قرن الصبغة الاسلامية البحتة لاقليم النوبة العليا (المقررة) وهكذا بين لنا الدور الذى لعبته القبائل العربية المهاجرة وحكام مصر طوال عصورها المختلفة فى نشر الاسلام والعروبة والثقافة الاسلامية جنوب مصر حتى تم صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية العربية .

ومن ثم فانه لا بد من الحديث عن هاتين المملكتين المسيحييتين (مقررة ، علوة) فى عصرها المسيحى وكيف تم صبغ تلك الديار بالصبغة المسيحية وذلك لكى تلقى بها الظلال على دور السلطنات الاسلامية التى ظهرت فى سماء السودان العربى المسلم وكيف أعطى ذلك الطابع العربى والوجه المشرف للبلاد .

ويرى المؤرخون أن المسيحية دخلت الى بلاد النوبة بأقسامها مقررة وعلوة من مصر منذ القرن الأول الميلادى وكان ذلك بسبب هجرة بعض المهاجرين الذين فروا بدينهم الى بلاد النوبة .

وانه لم يأتى القرن الثالث الميلادى الا وكان بعض الأفراد من النوبة قد اعتنقوا المسيحية ، الا أن القرن الخامس الميلادى قد شهد التحول فى عقيدة النوبة والبجاة بعد أن شهدت البلاد الأديرة والكنائس التى كان لها أثرها فى دخول بعض النوبيين فى المسيحية بل وعن انتحاق بعضهم بالأديرة المصرية التى نشأت فى بلادهم ، الا أن النصف الثانى من القرن السادس الميلادى قد شهد بعدا آخر اذ أرسلت الامبراطورية الرومانية بعثات الى بلاد النوبة وهى بعثات دخلت الى مملكة النوبة السفلى (علوة) بينما أرسلت البعثة الملكانية الى مملكة مقررة ، ومن هنا جاءت المسيحية الى النوبة لكى تجد هناك مملكتين احدهما علوة فى الجنوب وعاصمتها سوبا والثانية مقررة فى الشمال وعاصمتها دنقلة .

وهكذا لم ينتهى القرن السادس الميلادى الا وكان الجزء الواقع بين الشلال الأول من النوبة قد تحول للمسيحية ولقد اعتنق النوبيون المذهب اليعقوبى والملكانى ، ألا أن الغلبة صارت فيما بعد للمذهب اليعقوبى

ومهما يكن من أمر فقد ارتبطت المسيحية في النوبة بالكنيسة المصرية ،
ويبدو أن الكنيسة النوبية قد استخدمت في بداية الأمر اللغة اليونانية في
أداء الطقوس الدينية ، ثم أخذت اللغة القبطية تنتشر وتستخدم في
الكنائس ثم ترجمت الطقوس الدينية فيما بعد الى اللغة النوبية .

ولقد كانت فترة ازدهار المسيحية في النوبة فيما بين القرنين
الحادى عشر والثالث عشر ، وذلك لأن القرن الرابع عشر الميلادى ،
الثانى الهجرى قد شهد انهيار المملكتين النوبتين علوة ومقرة ، ولقد كانت
مملكة علوة أغنى من مقرة نظرا لاتساع أراضيها وخصوبتها وكثرة
أقاليمها التى كانت تصل الى حوالى تسعة أقاليم وعند زيارة أحمد
ابن سليم الأسوانى فى العصر الفاطمى مملكة علوة وجد أن بها رباطا
للمسلمين مما يدل على انتشار الاسلام فى تلك الفترة من القرن السابع
الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وقد أشار ابن سليم الأسوانى الى أنه
حتى نهاية القرن العاشر الميلادى فان المسيحية لم تكن قد ضربت بجذورها
فى مجتمع النوبة الجنوبية ، ولقد كان اتساع رقعة مملكة علوة وتوافر
المراعى والزراعة مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال
وكان ذلك فرصة لكى لا يقاوم الحكام الزحف العربى الاسلامى المتدفق
الذى بدأ يزحف على بلادهم بصورة واسعة .

وقد كانت القبائل العربية المستقرة بتلك النواحي الواسعة بحكم
عاداتها وتقاليدها خير من يجير سكان النوبة حيث كانت قد حدثت
مصاهرات كثيرة بين العرب والنوبيين الذين كانوا يرحبون بهذه المصاهرات
التى تضمن لهم سندا قويا وحماية وسط عوامل الضعف والفوضى التى
اجتاحت البلاد ومن هنا لم يكن لدى سكان النوبة أى سبب يدعوهم
لنزع هذه الهجرات العربية أو التدخل فى شئونهم لا سيما أن هؤلاء
الوافدين من هذه القبائل العربية لم يثيروا لدى الدولة والسكان أدنى
متاعب أو أية اضطرابات . ولا سيما أنهم عملوا على نشر الاسلام على
نطاق واسع .

كما أن انتشار القبائل العربية في السودان الأوسط وسقوط مملكة مقرة وقيام دولة اسلامية في مقرة ودنقلة عام ١٣٢٣م/٥٧٢٣ هـ ، قد قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية في العاصمة سوبا وكل الكنائس المنتشرة في بلاد علوة وبين كنيسة الاسكندرية ومن هنا حدث اهمال للطقوس الدينية وخربت الكنائس بحيث لم يتمكنوا من الحصول على قساوسة لهم من الاسكندرية ومن هنا فانهم بعثوا في عام ١٥٢٢م الى نجاشي الحبشة لكي يرسل لهم بعض القساوسة ولكن نجاشي الحبشة لم يتمكن من ارسال ما طلبوه ، وقد تهدمت الكنائس بحيث كان منها في بعض الفترات التاريخية حوالى مائة وخمسين كنيسة خربت جميعها بسبب النزاع المستمر بين علوة وجيرانها في دنقلة والحبشة والزعامة كذلك كان للحروب القبلية التي وقعت في المنطقة المحيطة بها أثرا كبيرا في انهيار تلك المملكة بحيث أصبح الشعب يعاني من حالة الانقسام الديني فأصبحوا لا هم من الاسلام أو المسيحية أو اليهودية أو الوثنية .

ولقد كان تكاثر وجود العرب في مملكة علوة وكثرة المهاجرين منهم سببا في سقوط مملكة علوة ، حيث اعتنق شعب علوة الاسلام ، ولقد كانت قبيلة العبدلاب التي هي من عرب القواسمة قد ساعدت على سقوط مملكة علوة ، ذلك لأن استقرار العرب وتأسيسهم للمدن العمامة واستقرارهم على نطاق واسع وخاصة خلال القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي يعطى الدليل القوي على أن سقوط مملكة علوة قد تم على أيدي القبائل العربية سواء كان عرب القواسمة الذين منهم العبدلاب أو القبائل العربية الأخرى التي لا بد أنها شاركت في انتهاء الوجود المسيحي للأسرة الحاكمة وطبع البلاد بالطابع العربي الاسلامي وسواء شاركت في ذلك قبائل الفونج أو غيرها .

وبذلك تكون القبائل العربية قد نجحت في وقت لم تحدده المصادر في تأسيس عدة سلطنات ومشيخات اسلامية في حوض النيل الأوسط من الشلال الثالث حتى مدينة أربجي وما بعدها بقليل الى الجنوب .

وهكذا كما سقطت مملكة مقرة الشمالية (دنقلة) على أيدي القوات المصرية الاسلامية المملوكية التي نصبت أول ملك مسلم هو سيف الله عبد الله برشمنو ثم جاء بنو كنز ليتولوا الحكم في دائرة الشريعة الاسلامية ، فان مملكة علوة قد لحقت بها في الدخول في العقيدة الاسلامية وانتشار الاسلام وقيام السلطنات والامارات الاسلامية في شمال السودان •

والتي لا بد من القاء الضوء عليها حيث أن قيامها بتلك الصورة التي ظهرت بها قد ساهمت بدور فعال في صبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية ولقد كانت أولى هذه الامارات والسلطنات الامارة العمرية بزعامه شنقير وتستمد هذه الامارة اسمها من المجاهد الاسلامي عبد الرحمن العمرى الذى ينتمى نسبه الى الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد خرج ذلك المجاهد الى أرض النوبة والبجاة للجهاد بعد أن أغار البجاة على المسلمين في مصر أثناء صلاة العيد ، فخرج العمرى مجاهد في طلب أعداء الله وأعداء الاسلام •

ولقد كان لحملة العمرى عدة أغراض متعددة فلم يكن المقصود بها قبائل البجاة في الصحراء الشرقية فقط بل انها شملت أيضا المناطق النيلية وكذلك الدعوة للاسلام ونشره بين البجاة والنوبيين ، لكن نشر الاسلام كان هو الهدف الأساسى وكذلك لتأسيس اماره عربية اشترك معه في تأسيسها أعداد كثيرة من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة •

ويشير المقرئى الى تلك الأحداث التي دارت بين جورج الأول ملك النوبة وبين العمرى والقوات العربية من أجل بسط النفوذ العربى الاسلامى في تلك المناطق ، ولكن ازدياد النفوذ العمرى وتوطيد دعائم حكمه وزعامته قد جعل أحمد بن طولون يتوجس به خيفة من الانفصال والاستقلال عن مصر فبادر بارسال حملة الى العمرى بعد أن سمع عن عظمة سلطانه ونفوذه ولكن العمرى هزم هذه القوات بمساعدة القوات العربية والتي نجحت الدسائس بينه وبين العرب والانقلاب عليه بعد أن تم قتله على أيدي بعض خصومه •

ومن هنا فان تلك الامارة العمرية لم يكتب لها الدوام طويلا ، اذ انفصم عرى القبائل العربية ، ولكن تأسيس امارة عربية اسلامية في منطقة شنقير بالقرب من الشلال الرابع قد فتحت أبواب الهجرة الى بلاد النوبة على مصراعيها ، ولكي تكون نواة أول امارة عربية تطول فترة حكمها في تلك المنطقة .

وكان العمرى قد بسط نفوذه على قبائل جهينة وربيعة وسعد العشيرة ونظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن سبعين ألف جمل كانت تعمل في حمل المؤن من أسوان لحلفائه من القبائل عدا البعير التي تأتي من ميناء عيذاب ، والواقع يثبت أن نجاح العمرى الوقتى في تحقيق قيام الامارة العربية قد خلق الفرصة لقيام امارات عربية مستقلة ، ومن ثم كانت رحلة العمرى واستقراره في منطقة شنقير وقيام ما يعرف بالامارة العربية الاسلامية هي الفاتحة لكى تحذو حذوه القبائل العربية وتتحرك في اتجاه نشر الاسلام جنوبا توطئة لانتشار الاسلام والعروبة على نطاق واسع .

ولقد ظهرت بعد ذلك امارة بنى كنز التي أسسها عرب ربيعة بزعامة أبو مروان بشر بن اسحاق والتي ظهرت عربية اسلامية امتد نفوذها من أسوان شمالا الى منطقة المريس في بلاد النوبة جنوبا وشرق الصحراء والبحر الأحمر ، ولقد كان انتقال الزعامة اليهم عن طريق الوراثة عن الأم ، وبهذا استطاعت ربيعة أن تضع نواة أول امارة عربية اسلامية في تلك البلاد وقد ظلت هذه الامارة التي شملت جزءا من أعالي مصر وبلاد النوبة والبجة تزدھر الى أن كانت الدولة الفاطمية في مصر ومن هنا دخلت في طورها الذهبى ، ذلك لأن الفاطميين لما فتحوا مصر وجدوا هذه الامارة العربية الاسلامية المزدهرة قائمة على الحدود المصرية النوبية .

وقد كان اعتراف الخلافة الفاطمية بدويلة بنى كنز بعد القبض على أبو ركوة الذى ثار ضد الدولة وكذلك كانت تلك الدولة بمثابة خط فاصل بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية ، بل أنها بمثابة خط دفاعهم الأول ، اضافة الى أن هذه الامارة حدثت من غارات البجة على

مصر منذ قيامها ، وقد أطلق على هذه الامارة امارة أرض المعدن أو امارة منطقة العلاقى حيث تحتل هذه الامارة المنطقة الواسعة من جنوب وادى حلفا الى الجنوب فانها لم تكن معلومة ، وقد بقيت عشيرة كنز الدولة فى منطقة المعدن الشمالية وانتشرت فى أرض البجاة •

ويقول ابن سليم الأسوانى لقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها وبنو بدنقلة جامع يؤوى اليه الغرباء وقد حدثت خلافات بين الفاطميين وبنى كنز استطاع بعدها الفاطميون استعادة نفوذهم على صعيد مصر واخضاع مدينة أسوان عاصمة بنى كنز وربما لأول مرة تدخل فيها المدينة فى حوزة الفاطميين •

وعندما علم آل كنز بنبأ سقوط الدولة الفاطمية فانهم وجدوا الثقة فى أنفسهم للمشاركة فى الأحداث الأخيرة لتثبيت أركان امارته فقد وقف أول الأمر بجانب صلاح الدين الأيوبي ضد الدولة الفاطمية وعاونه فى القضاء على فلول النوبيين الفارين الى صعيد مصر على أثر هزيمتهم من صلاح الدين ، لكنه عاد وانقلب على صلاح الدين ، لكن الدولة الأيوبية لم تسكت على عدوان بنى كنز وحلفائهم ، اذ بعد زمن ليس بطويل حاول صلاح الدين القضاء على زعامة بنى كنز ، فأرسل صلاح الدين أخاه لقمع حركة كنز الدولة فهزمت جنود كنز الدولة وأسر زعيمها وقتل •

وفى العصر المملوكى ثار بنو كنز على أول والى مسلم يتولى حكم النوبة وهو سيف الله عبد الله برشمبو واستطاع أن يتوج بنى كنز على البلاد النوبية ، وبذلك يكون كنز الدولة أول حاكم عربى يحكم النوبة ودنقلة وهو الذى كان ينحدر من قبيلة ربيعة العربية ويقوى نفوذه بمساندة القبائل العربية فى هذه البلاد ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية الناقمة على سلطنة المماليك فى القاهرة أن تمارس نشاطا ضدها •

ومن هنا فان الدور الذى أخذت تقوم به القبائل العربية بزعامة

ربيعة في ذلك الاقليم يعد ظاهرة لها أهميتها في مجرى الأحداث في تلك المنطقة ومحاولة صبغ البلاد بالصبغة العربية الاسلامية .

وهكذا استطاعت هذه السلطنة الاسلامية العربية أن تصبح منارة عربية اسلامية للاسلام والثقافة العربية الاسلامية التي أخذت تمتد الى الجنوب لطبع السودان بالطابع العربى الاسلامى ، ذلك لأنه بانتشار العرب في السودان اكتسب السودان النسب العربى والدم العربى واللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية فقد كانت هذه القبائل العربية أداة لنشر الاسلام وثقافته في أرجاء السودان فيما بين البحر الأحمر شرقا وبحيرة تشاد غربا ومن حدود مصر شمالا حتى خط عرض ١٣ شمال خط الاستواء .

ولقد كان قيام الامارات العربية الاسلامية في السودان يمثل ظاهرة ازدهار للاسلام وانتشار حضارى اسلامى عربى وأن البلاد قد بدأت تتجه للحياة الاسلامية العربية ، ولقد كان ظهور الحركة الاسلامية التي انبعثت في سنار والتي أدت الى ظهور امارة الفونج والتي تعتبر حدثا بارزا في تاريخ السودان في مستهل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ومن المحتمل أن يكون الفونج قد عقدوا اتفاقا سابقا مع زعيم عرب العبدلاب هذا الزعيم العربى زعيم بلدة قرى الواقعة شمال خائق السليوكة مباشرة بين الخرطوم وشندى .

وقد حقق التحالف الذى تم بين العبدلاب والفونج القضاء على مملكة علوة المسيحية قضاء تاما واعلاء كلمة الاسلام وقد كانت دولة الفونج في أوائل القرن السادس عشر ١٥٠٤م قوة نامية شاركت في ازالة دولة علوة وشاركت العرب في هذا الحدث البارز في تاريخ السودان ، ومن هنا فان ظهور الفونج كقوة سياسية وعسكرية قد حدث قبل ذلك التاريخ بوقت طويل .

وقد كان الفونج حكام سنار من أصول عربية أموية مع الاعتراف باختلاط أنسابهم عبر القرون بالأفريقيين وكان عرب العبدلاب القواسمة

قد نجحوا قبل القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى فى تأسيس عدة سلطنات ومشىخات عربية اسلامية فى حوض النيل الأوسط ، ومن هنا فان الشيخ عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة قام بدور كبير فى قيام مشيخة العبدلاب وسقوط علوة .

وأن الفونج كانوا أرسقراطية عربية ذات نسب أموى نزلت المنطقة الشرقية ونشرت الاسلام وتآلفت حولها القلوب بحكم النسب الأموى العربى القرشى ثم اختلطت هذه الأرسقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة ، وقد مضى نفوذ سلطان الفونج فى طريقه نحو الامتداد ، فمد الفونج نفوذهم الى فازوغلى على النيل الأزرق بل أخضعوا الشلك وانفسح نفوذهم ممتدا الى جبال تقلى وجنوب كردفان، وقد شهد القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى امتداد رقعة السلطنة الفونجية على هذه الرقعة الواسعة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غربا ومن الشلال الثالث حتى فازوغلى جنوبا وخضع لها كل سكان تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذهم .

ويعتبر عمارة دونقس مؤسس البيت الفونجى فى عاصمته سنار فى حوض النيل الأزرق ، وقد اتخذ السلطان عمارة عميد البيت السنارى لنفسه لقب دونقس وقد اتخذ غيره من السلاطين من بعده هذا اللقب .

وقد تتابع تولى أسرة عمارة على السلطنة من عام ١٥٠٤ حتى ١٧١٩م أى أكثر من قرنين من الزمان ثم جاء بعدها فى حكم سنار بيت عين الشمس من ١٧٢٠ الى ١٨٢١ عند قدوم القوات المصرية .

ولقد كان لقيام السلطنة الفونجية فى سنار وتحالفهم مع عرب القواسمة أثره البعيد المدى فى النشاط الإسلامى فى السودان وتعميق الشعور الإسلامى ، ولقد كان لظهور سلطنة الفونج الإسلامية وغيرها من السلطنات الإسلامية أثره الكبير فى إتاحة الفرصة للعلماء وأصحاب الدعوة الإسلامية للتوافد عليها ، ومن هنا ظهرت سلطنة الفونج منذ

فجر قيامها الأول قبل انتقالها الى سنار عام ١٥٣٤م في مظهر اسلامي عميق . وقد ساهموا قبل وصولهم الى سنار في حركة الجهاد الاسلامي في شرق افريقيا ، كما شاركوا في الحركة الاسلامية في الحبشة .

ومن هنا نرى أن الفونج ومن حالفهم من العرب قد أسهموا بنشاط كبير وواسع في نشر الاسلام متوسلين بالجهاد المسلح في نشر الاسلام بين الوثنيين واستعانوا كذلك بالوسائل السلمية حيث رغبوا في الدين الاسلامي ونشروا تعاليمه وشجعوا قدوم العلماء من البلاد الاسلامية وارسال البعثات الى الأزهر ونشر الكتاتيب ومن هنا فانهم ساهموا في اثراء تلك الحركة الاسلامية الكبيرة ، وكانت الوحدة السياسية بين الفونج والعبدلاب عرب القواسمه وغيرهم من القبائل العربية من الأسباب الجوهرية التي مهدت الطريق لنشر الدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية .

ومن هنا كان قيام سلطنة الفونج في السودان الشمالي وامتداده جنوبا حتى خط ١٣ جنوبا بداية حقيقية وطفرة قوية في حركة الجهاد الاسلامي على نطاق واسع ، ذلك لأن بذور الدعوة الاسلامية قد وصلت الى السودان في عهد مبكر .

كما شاركت في ذلك البناء الاسلامي القوى الراسخ دولة الفور التي اتخذت من دارفور سبطنة لها ومن الفاشر عاصمة لها لكي تمارس نشاطها الديني الواسع في أطراف السودان الغربي للمشاركة في اثراء الحركة الاسلامية التي بدأت تتخذ من السودان معقلا اسلاميا تنطلق منه الدعوة الاسلامية بين القبائل الوثنية جنوب وغرب السودان حيث الأقاليم الاستوائية .

وقد كانت منطقة دارفور ميدانا تقابلت فيه الهجرة العربية وغيرها كما تقابلت طرق القوافل التي كانت تلتقي في أماكن عديدة من القارة الأفريقية ، ويبدو أن الهجرات التي جاءت الى دارفور من الشمال

والشمال الغربى قد شملت مجموعات كبيرة فى حوض وادى النيل الأدنى حيث يكون قد خرجت قبائل عربية من وطنها فى شمال أسوان ثم هاجروا الى دارفور ، حيث استطاعت هذه القبائل العربية أن تتغلب على القبائل التى كانت تسكن تلك المناطق ونشروا نفوذهم عليها بعد أن تحالفوا فيما بينهم وامتزجوا بها وأنشأوا دول الفور التى كان الاسلام قد تسرب اليها منذ فترة طويلة حيث ساهم الاسلام فى انصهار تلك القبائل التى كانت تسكن تلك الديار •

وقد كان السلطان أحمد المعقور هو ثمرة الاختلاط بين الجنسين ، وكان هذا السلطان أول سلاطين دارفور من المسلمين ، وكان الاسلام قد دخل على نطاق واسع الى دارفور لأن ذلك السلطان كان أول سلطان مسلم يحكم البلاد وكان حكام الفور ، قد ادعوا النسب العربى القرشى حيث نسبوا أنفسهم الى العباس بن عبد المطلب ، وعندما وصل الى عرش البلاد السلطان سليمان سولون نجد أنه يذكر النسب العربى صراحة حيث كان هذا هو المؤسس الحقيقى لسلطنة دارفور •

وقد استطاع هذا السلطان العربى أن يحدث نقلة هامة فى تاريخ السودان حيث كان توليه عرش البلاد نقطة هامة فى كثرة الهجرات العربية الى دارفور والذين قدموا اليها منحدرين من وادى النيل وهى نفس الموجات العربية التى اندفعت نحو الجنوب وأسهمت فى تأسيس دولة الفونج ، فاننا نجد أن هناك موجات عربية أخرى اندفعت نحو الغرب فى اتجاه دارفور تحمل الدماء العربية والدين الاسلامى ، وقد عملت تلك الأسرة على تدعيم ورسوخ الاسلام وتنشيط الحركة الاسلامية ومن هنا فان الدور الاسلامى الكبير الذى قام به سليمان سولون ، فى تشجيع وصول الفقهاء من الشرق ومصر وبلاد المغرب العربى والأندلس الى بلاده والدعوة لنشر الاسلام بين القبائل الوثنية وذلك للعمل على تعميق المفاهيم الاسلامية وقد حكم سليمان سولون فى الفترة من (٨٤٨ - ٨٨٠ هـ) ١٤٤٠ - ١٤٧٦ م •

ويذكر أرنولد توماس في كتابه (الدعوة الى الاسلام) أن الاسلام لم ترسخ أقدامه ولم ينتشر على نطاق واسع وتصبح هناك رعية اسلامية كثيفة في البلاد الواقعة بين كردفان شرقا وبحيرة تشاد غربا مثل دارفور واداي وباجرمي الا في القرن الثامن الهجري ، السادس عشر الميلادي . وربما لا تكون تلك الأقوال تمثل الحقيقة التاريخية لما للأوروبيين من نظرة الى الاسلام .

وقد ظهرت سلطنة الفور بهذا المظهر الاسلامي ومن ثم بدأت تؤكد ذاتها كقوة دينية اسلامية وسياسية كبرى في السودان وذلك منذ القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر الميلادي ، ومن هنا بدأت تمارس نفوذها وسيادتها على الأقاليم الغربية منها وكان أن بسطت نفوذها على كردفان حيث ضمت الى السلطنة الفورية .

وقد بلغت دارفور أقصى اتساع لها في عهد السلطان (محمد تيراب بن أحمد) ١١٨٠ - ١٢٠٢ هـ / ١٧٦٨ - ١٧٨٧ م ، إذ استطاع ذلك السلطان أن يوقع هزيمة قاسية بجيش العبدلاب ، وقد بلغت حدود الدولة أقصى اتساع لها فقد كان حدها من الشمال بئر النطرون في الصحراء الكبرى وفي الجنوب بحر الغزال وفي الشرق نهر النيل وفي الغرب واداي .

كما أن مكانتها الاسلامية قد ازدادت كقوة سياسية في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد بن أحمد ١٢٠٢ - ١٢١٧ هـ / ١٧٨٧ - ١٨٠٢ هـ فقد انتقل الى عاصمته الفاشر واتصل بالسلطان العثماني في القسطنطينية واعترف بسيادته ومنحه لقب الرشيد ، ومن ثم خلصت البلاد من كل آثار العزلة وبدأت تمارس علاقاتها التجارية والسياسية والثقافية مع العديد من البلاد الاسلامية وقد كان هذا الاتصال اتصالا وثيقا ولذا فقد امتد نفوذ السلطنة الى واداي في عهد السلطان محمد الفضل الذي هزم سلطان واداي وحمله أسيرا الى الفاشر . ولو قدر لهذه السلطنة أن تمارس نفوذها السياسي لتوسعت أكثر ولاستطاعت أن تنتزع كردفان وغيرها من المناطق المجاورة حيث كانت تملك جيشا تستخدم الأسلحة الحديثة ولكن التوسع المصري في السودان وانتزاعه

دارفور في آخر عام ١٨٧٥ م في عهد السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن بن الفضل الذي قتله الزبير باشا قد ساعد على القضاء على البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة .

وقد شجع سلاطين هذه البلاد الحركة العلمية الاسلامية بكافة السبل وأنشأوا المساجد واستقدموا العلماء والاعداق عليهم واحاطتهم بنوع من الرعاية والتكريم ، حيث كان النهج الاسلامي هو طريقهم منذ تولى عرش السلطنة السلطان « سليمان سولون » حتى عصر السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن الفضل آخر سلاطين دارفور .

ومن هنا ساهمت سلطنة دارفور كما ساهمت سلطنة الفونج وامارة الكنوز وامارة العمري في اثراء الحركة العربية الاسلامية وفي طبع البلاد بالطابع العربي وفي نقل السودان تلك النقلة الاسلامية العربية بانتشار العقيدة الاسلامية واللسان انعربي وبذلك قدر للسودان أن يقوم بدوره العربي الاسلامي في القارة الافريقية .

كما شاركت كل هذه الامارات والسلطنات امارة تغلي الاسلامية التي كانت تقع في المنطقة الواقعة غرب النيل الأبيض وجنوب كردفان وهي منطقة جبلية تتخللها الوديان ، وتشير الروايات الى أنه منذ القرن الثالث عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي شهدت منطقة تغلي وفود بعض القبائل العربية التي كانت من قبائل الجعليين العربية والتي تنسب الى جد كبير اسمه ابراهيم الذي لقب بالجعل وتنسبه الروايات الى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد استطاع أحد أبناء الأسرة الجعلية الذي تطلق عليه المراجع محمد الجعلي الوصول الى تغلي وتزوج ابنة زعيم تغلي . حيث أنجب ابنا أطلق عليه المصادر أبو جريدة وقد ورث هذا عرش تغلي ولذا يعتبر هو المؤسس لأسرة الجعليين في تغلي بتولى (أبو جريدة بن محمد الجعلي) عرش السلطنة حيث عمل على نشر الدين الاسلامي على نطاق واسع نظرا للاستقرار المكثف للقبائل العربية المهاجرة من الشمال ومن الغرب ومن الشرق حيث كانت تلك المنطقة منطقة التقاء القبائل المهاجرة من الأطراف المختلفة وقد لعبت

سلطنة تقلى دورا كبيرا فى الميدان الاجتماعى والثقافى فى السودان ، ذلك لأن وسيلتها الى نشر الاسلام لم تكن بالدعوة والترحال ودعوة الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ، بل كان انتشار الاسلام يتم بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى عن طريق المصاهرة مع الشعوب المحلية ثم اندماج هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازداد التيار الاسلامى عمقا بمضى الزمن .

وكان اهتمام زعماء تقلى بنشر الاسلام سببا فى وصول العديد من الفقهاء والمتصوفة الى بلادهم ، وقد كانت هذه الزعامة الثقيلة فى موقع هام بالنسبة لسلطنة سنار وسلطنة الفور ، بعد أن بدأت سلطنة الفور فى ذلك الوقت فى الدخول فى منافسة سلطنة سنار فى التحكم فى الطرق التجارية ومحاولة اجتذاب التجارة الى الفاشر وقد خضعت تقلى لنفوذ سنار ، لكن بالرغم من ذلك دخلوا فى صلات ودية مع سلاطين دارفور ، وقد صارت تقلى تمارس أعمالها كدولة مستقلة فكانت تشارك فى ارسال المحمل الى الحجاز ولم تعارض سنار فى ذلك .

ويعتبر السلطان محمد بن قىلى أبو قرون (١٠٧٣ - ١١١٧ هـ / ١٦٦٨ - ١٧٠٢ م) من أقوى سلاطين البيت الحاكم اذ استطاع أن يؤسس عاصمته فى مدينة « نسي » التى بقيت عاصمة البيت الحاكم فترة طويلة من الزمن ومن هنا فان الطابع الاسلامى قد ساد أنحاء السلطنة لأن السلاطين عملوا على تطبيق الشريعة الاسلامية فى كل الأمور ، فكان أن شدد العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة رجالهم الى تقلى ، كما أن السلاطين عملوا على دفع حركة المد الاسلامى .

وارتبطت تقلى بالعديد من الأقطار العربية والاسلامية المجاورة بعلاقات سياسية وثقافية واقتصادية وطيدة الا أن علاقاتها مع دارفور كانت أكثر مما مع غيرها من الدول والأقطار الأخرى نظرا لحرص سلاطين دارفور على امتداد سلطانهم الى منطقة حوض النيل .

كما ارتبطت بعلاقات وثيقة مع مصر حيث الأزهر الشريف لى
يدرس أبناء تقلى العلوم الاسلامية ، الا أن أمرائها لم يصلوا الى المكانة
التي احتلها سلاطين الفور والفونج •

وعند ما دخلت جيوش مصر الى السودان عام ١٨٢١ م استطاعت
تلك القوات أن تقوض سلطان الفونج ومن ثم أرسل محمد على رسالة
الى سلطان تقلى وهو السلطان « عمر بن أبو بكر » يدعو فيه للاعتراف
بسلطان مصر على بلاده تقلى ودخوله فى طاعته حرصا على سلامته
وسلامة بلاده ، لكن السلطان رفض فأرسلت اليه حملة فى عام ١٨٢٧ م
استطاعت أن تدخل العاصمة مما اضطر السلطان الى عقد صلح مع
السلطات المصرية واعترف بالسيادة المصرية بمقتضى معاهدة الصداقة •

وهكذا اشاركت سلطنة تقلى وغيرها من السلطنات الاسلامية الأخرى
فى أن تجعل الاسلام والثقافة العربية فى بلاد السودان يحققان تقدما
فعالا بفضل تلك الأدوار التي لعبتها هذه السلطنة بالمشاركة مع السلطنات
الاسلامية الأخرى التي سبق أن عرضنا لها ، لأنها غيرت وجه السودان
من الوثنية وشبه الوثنية الى الوجه العربى الاسلامى ، ومن هنا ظهر
السودان بوجهه الاسلامى الخالص النقى الذى أصبح طابعه فى وسط
القارة الافريقية •

ومن هنا فانه لا بد من الحديث عن القبائل العربية التي كونت
البنية الأساسية للحياة العربية الاسلامية فى السودان ونقول لقد مرت
هجرة القبائل العربية الى السودان بمراحل تشبه فى بعض النواحي
والوجوه نظائرها فى مصر ، وذلك لأن الهجرات العربية الخالصة أخذت
تندفق بصفة مستمرة فى سهول السودان الواسعة ومن الثابت أن
الهجرات العربية قد تمت منذ عصور ساحقة فى القدم وقبل الفتح
الاسلامى لمصر بفترة طويلة •

ولقد كانت القبائل العربية الجعلية وفروعها ويطونها وعشائرها
وقبائلها المتعددة قد انتشرت على ضفاف النيل فى المنطقة الواقعة بين

دنقلة شمالا والشلال السادس شمال الخرطوم جنوبا وهم مجموعة عدنانية الأصل وهي أكثر القبائل العربية نفوذا وكثرة عددية في السودان يتصل نسبها الى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دخلت هذه المجموعة العربية من الباب الشمالى حيث طاب لها المقام فى تلك المنطقة فيما بين دنقلة شمالا والخرطوم جنوبا .

وقد تفرعت منهم فروع منها الجوابرة ، والركابية الذين ينسبون الى نسل الحسين بن على بن أبى طالب وهم طالبيون كما أن هناك قبائل أخرى مثل الكواهلة والرشايدة تنسب أحيانا الى الجعليين .

كذلك توجد قبائل الأشراف حيث الجعافرة وأيضا الزيانية ، والطالبيون الذين يجتمعون الى ركاب بن غلام الله بن عائد ، والعباسيون تجمعهم قبائل الجعليين .

كما توجد قبيلة السلمية التى تنسب الى أبى بكر الصديق حيث هى القبيلة الوحيدة الذين يسمون أنفسهم أحيانا بالبكرين ، كذلك العمريون الذين دخلوا أيام عبد الرحمن بن عبد الله العمري ، كما توجد أسرة سوار الذهب وهى أسرة ترجع نسبها من جهة أبيه الى العباس ومن جهة أمه الى الحسين بن على بن أبى طالب .

كما يوجد فى منطقة بوهين جماعة الفادنية ونسبهم الى محمد ابن الحنفية ، كذلك من قبائل قریش البطاحين ويلتقون فى نسبهم مع الجعليين ومن القبائل التى تمت الى قریش قبيلة كنانة بن خزيمة .

كذلك توجد جهيئة وفروعها فى البطون والعشائر والقبائل ، حيث كانوا يشكلون نسبة كبيرة فى جيش العمري الذى قدم السودان فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، ثم تكاثروا وتحالفوا مع ربيعة ثم تنازعوا مع رفاعه . وجهيئة قبائل قحطانية يشكلون ثلاث مجموعات فى السودان هى قبيلة رفاعه واللحيون والعوامرة والخواند والشكرية .

وقد لعب فرع من رفاة هم القواسمة الذين منهم عرب العبدلاب
دورا في السودان حيث هم الذين شاركوا بجهد عظيم مع الفونج في
القضاء على مملكة علوة .

وكذلك توجد مجموعة ثانية من جبهة شاركت بدور هام في اثراء حركة
العروبة والاسلام في السودان هم بنو حامد وبنو جرار ، الزيادية ،
البرعة والشنابلة ، المعالية .

كذلك وجدت قبائل فزاره وهم فروع وبطون كثيرة منهم بنى شمع
وظالم ومسرة ومازن ، وشاكم وسعد ولوذان وغير ذلك وهم قبيلة
قسيسية وربما لهم صلة ببني هلال .

كما أن هناك بعض القبائل والفروع الأخرى التى تنتمى لجبهة
وهى قبائل الدويحية ، السلمية ، البقارة والمحاميد ، الكبابيش ، المغاربة ،
والحمر .

ومن البقارة بنى سليم وقد تآلف البقارة والكبابيش في أحلاف
تجمعت على فترات وتآلفت في بطون عدة أهمها جذام وجبهة والهوارة
وبنو هلال وأحلاف هؤلاء وأولئك بنى فزاره وسليم ولخم وبلى وغيرهم
وبنو هلبة وكذلك بنو هبانه أو الهبانية والحيانية أو بنى حيان كذلك يضاف
الى كل هذه البطون بطن آخر هم الثعالبة الذين يكونون جزء كبيرا من
قبائل البقارة وكذلك المسيرية الذين هم أبناء بيت بنى ثعلبة بن فخذ
ابن طى .

والمسيرية هم المسيرية الزرق والمسيرية الخمر وكذلك أولاد حميد
والخوازمة .

والكبابيش هم أبناء كبش بن حمد الأفزر بن عيسى بن شعبان
ابن الأفزر بن ذبيان بن عبد الله الجهينى ومنها فروع وبطون وعشائر
كثيرة منها أولاد سليمان وأولاد عقبة وكذلك بنو واصل وكذلك يوجد من
الكبابيش بطن رابع هو بنو عطية أو العطوية .

كذلك تضم قبائل السودان العركيون الذين يسكنون فرع الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض وعرك هذا بطن من بطون جهينة وأحلافهم ، ولقد كان للعركيون دور كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان .

ثم إضافة الى هذه القبائل العربية يوجد الهاليون الذين تفرعت منهم فروع و بطون وعشائر وقبائل ويظهر هؤلاء أكثر في غرب السودان وهناك آراء تذكر أن الهالين لهم أثر وسط قبائل البقارة .

وتوجد العديد من الجماعات العربية في غرب السودان تنتسب الى الهالين أو الى أبو زيد والذين منهم قبائل التتجور ، الفور ، الرزيقات ، وهالية البرق ، الزيادية ، وغيرها من القبائل الأخرى التي تنتسب الى ذلك النسب الهالى .

كذلك لعبت قبائل هواره دورها في السودان أيضا بمشاركة القبائل السابقة وهواره يطلق عليهم في السودان الهواوير ، ويعيش جزء منهم في الجزء الشمالى من السودان وكذلك في شمال كردفان في غرب وادى الملك الى صحراء بيوضة ، ومنهم نفر يعيش بالقرب من دنقلة ، وقسم آخر يقيم حاليا في منطقة الأبيض في كردفان حول خمس وأم دليكة وغيرها من الأماكن .

ولقد لعبت قبائل ربيعة أقدم الأدوار العربية في تاريخ السودان حيث سكنوا أرض المعدن وكانوا ضمن من قدم في القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى مع حملة عبد الرحمن بن عبد الله العمرى .

وقد انشق من ربيعة فرع بنى كثر الدولة الذى سكن شمال النوبة وكذلك الكواهلة ومن فروعهم الشغابلة والحسنات ، والكواهلة والعبادة وكانوا من قبائل أرض المعدن وقد اخلطوا منذ القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى بالقبائل العربية التى كانت في تلك المنطقة كالحدارية وغيرهم من أعقاب سبأ ومضر . وقد اتجهوا في زمن متأخر نسبيا الى

جهات عطبرة وخور الفاشر وسنار وواصلت فروع منهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان ومنهم مجموعة تعيش في جبال النوبة •

ويذكر أن قبائل الشايقية نسبت الى شايق الذى هو شقيق غانم جد الجعليين •

وتوجد قبائل الجوامعة والفديات حيث شاركوا الفونج في توسعهم نحو كردفان •

ويعيش الشايقية على ضفتى النيل في نهاية السلال الرابع الى مصب وادى الملوك ، وقد دخلت السودان عن طريق سواكن ومصوع واتجهت غربا وجنوبا في حوض نهو النيل وقد أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان حيث استطاعوا أن يتحدوا سلطنة سنار وكذلك الفونج والعبدلاب وأنه لم يأتى القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن الميلادى الا وكان الشايقية قد تمردوا على التبعية لسلطنة سنار وتطلعوا للشهرة وكان ذلك أحد العوامل الحاسمة في تاريخ السودان •

كذلك يضم السودان مجموعة من القبائل الموزعة بين فزارة والجعليين والذين منهم الرباطاب والجمعية والبديرية والعديات والبطاحين ، اضافة الى الهجرة الحديثة التى قام بها الرشايدة في القرن التاسع عشر الميلادى الثالث عشر الهجرى والذين هاجروا من الحجاز وانتشروا في منطقة ساحل البحر الأحمر الغربى •

وعلى هذا فانه يمكن القول أن القبائل العربية الكثيرة المنتشرة في السودان حاليا سواء الأصول الكبيرة أو البطون أو الفروع والعشائر والقبيلة الصغيرة أمر لا يمكن حصره أو الالمام به بدقة وافية الا من خلال المهتمين بعلم الأجناس ودراسة الأنساب وذلك الأمر يحتاج الى دراسة مفصلة وواسعة قد لا يتسع لها هذا المجال نظرا لأن المجموعات التى ذكرناها ربما تكون قد لعبت دورا بارزا في تاريخ الاسلام وانتشاره على نطاق واسع في السودان وكذلك في سبيل تعريب ذلك الوطن لكى

يكون السودان حصن من حصون العروبة والاسلام في القارة
الأفريقية .

ولم يتسع النطاق في تلك الدراسة لدارسة كل فرع وبطون وعشائر
وبدئات كل قبيلة ، حيث أنه يوجد مثلاً لقبيلة الجعليين ما يزيد عن
خمسة عشر عشيرة رئيسية أخرى تنتمي للمجموعة الجعلية لم يرد ذكرها
وهي التي تندرج تحت اسم القبائل العباسية .

إضافة الى العديد من الفروع والبطون للقبائل الأخرى كجهينة
وربيعة والهلالية والأشراف القرشيون ولقد اختلطت كل هذه القبائل
العربية بالعناصر المحلية وكانت درجة الاختلاط من القوة والمتعة بحيث
صار العرب يتخذون من القبائل التي يعاشرونها غونا وحليفا لهم على من
يعاديهم من القبائل الأخرى ومن هنا قويت العروبة بتلاحمهم مع سكان
السودان بتلك الصورة التي تدل على أن العرب استطاعوا حمل لواء
العروبة والاسلام في كل هذه المناطق التي انتشروا فيها .

ولقد ساهمت البيئة الاجتماعية خير أسهام في تعميق حركة الهجرة
العربية الى أنحاء عديدة في السودان ولعل تغير البيئة الاجتماعية
من خلال المصاهرة هو الذي أفاد القبائل العربية وشجعها على الانتشار
وصولا الى المناطق الجنوبية حيث اختلطوا بالشلك والنوير والدينكا
والقبائل النيلية وسكان الغابات الاستوائية كما خالطوا سكان الجبال في
النوبة ، حيث كان النظام الاجتماعي قد ساعد على سرعة امتزاج العناصر
العربية بالسودان وجعل العرب يملكون ناصية الأمور السياسية في تلك
البلاد .

وقد مكنهم ذلك التحكم السياسي والتفوق الاجتماعي أن يعملوا
على انتشار الاسلام وانتشار الثقافة العربية الاسلامية الذي ساهم
الاسلام وحضارته وثقافته واللسان العربي وعلومه المختلفة على ظهور
تلك الملامح الثقافية العربية التي شاركت فيها كل العوامل لصبغ
السودان بالصبغة العربية الاسلامية .

ومن هنا ظهرت الثقافة العربية الاسلامية بصفة عامة على أثر تلك الهجرات العربية وحركة القبائل العربية المختلفة خلال العصور التاريخية المتلاحقة ، ولا جدال في أن الهجرات العربية التي حدثت قبل الاسلام لم تكن بتلك الصورة والفاعلية التي حدثت بعد ظهور أنوار الدعوة الاسلامية ، ذلك لأن تلك التأثيرات الحضارية والثقافية العربية الى أرض السودان قبل الاسلام قد اندثرت بظهور الاسلام .

ولقد كان للهجرة الواسعة التي لا تزال آثارها الثقافية العربية الاسلامية خالدة في السودان قد نتجت عن اختلاط العرب بالسكان المحليين اختلاطا كاملا اكتسبوا من خلاله العروبة والثقافة ذلك لأن هذا الاختلاط هو الذي وسع من مفهوم العروبة على أرض السودان وساعد على انتشارها في المناطق الجنوبية والذين تفهموا ثقافتها وشعروا أنهم جزء من حضارتها لولا الأعمال التبشيرية والاستعمارية التي حالت دون ذلك الاندماج والتفهم والانصهار لا سيما في منطقة الجنوب التي حالت القوى الاستعمارية دون نشر الاسلام واللغة العربية بها .

ولقد لعبت تلك القبائل التي عرضنا لها في الفصل السادس دورا كبيرا في نشر الاسلام والنفوذ في أرض السودان الا أنه بمرور الزمن بدأت الصبغة العربية تأخذ مجراها في صبغ السودان بتلك الصبغة الثقافية الاسلامية .

ومن هنا اختلطت المؤثرات الاسلامية بالمؤثرات المحلية وظهر طابع محلي من ألوان الحضارة الاسلامية حيث كان انتشار الاسلام بين هذه الشعوب ايذانا ببروزها فجأة في دنيا الاسلام وايذانا باتخاذها مظهرا اسلاميا واضحا وذلك بعد انتشار هذه الهجرات العربية الخالصة . التي اختلطت بالسكان المحليين ونشرت في السودان اللغة العربية والدم العربي والدين الاسلامي والثقافة العربية وطبعت السودان بالطابع العربي الواضح والمؤثر والفعال .

وقد كان لهذا الدور أثره في ظهور مآثر الحضارة الاسلامية :
على أنه لم تكن القبائل العربية الاسلامية وحدها هي الرائدة في نشر
الثقافة العربية الاسلامية في السودان ، بل كان قد وفد الى البلاد قوم
من العرب من بقايا الجيوش المحاربة الهاربين من الضغط السياسى أو من
الدعاة الذين كان لهم الفضل في نشر التعاليم الاسلامية التى ذاعت في
السودان ، بل وصلت حتى المديرية الجنوبية الاستوائية ، وفى تعميق
مفاهيمها الاسلامية .

وقد كانت هذه الثقافة التى يشهدها السودان ثقافة عربية اسلامية
خالصة في جوهرها ومظهرها ومقوماتها الأساسية لأنه لم تداخلها أية
مظاهر سودانية على الاطلاق ، ذلك لأن أرض السودان لم تشهد ثقافة
قديمة ذات جذور حضارية عميقة تستطيع أن تؤثر في الثقافة الوافدة .

ومن هنا فان الثقافة العربية الاسلامية لم تتأثر بأية تقاليد محلية
انما بدأت اسلامية عربية خالصة لم تخالطها أدنى ثقافة الا بعض العادات
والتقاليد والأعراف التى هذبها الاسلام وتخلص مما فيها مما لا يمت
للالسلام بصلة حيث كانت ذات أبعاد وثنية وشبه وثنية .

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن اللغة العربية قد دخلتها بعض
المؤثرات من اللغات المحلية من النوبية والكردفانية والفورية والبجاوية
والنيلية الا أن ذلك كان من القلة وليس من الكثرة بحيث ضاع أثره .

وليس هناك شك في أن التآلف الروحى الذى ولدته وحدة الشعائر
الاسلامية بين جميع هذه الشعوب التى سكنت تلك الأماكن لها أثر بعيد
في حياة الشعب السودانى .

وقد ساهمت مصر بدور فعال في الحركة الثقافية العربية الاسلامية
حيث كانت مصر قد اكتمل نضجها الثقافى والحضارى حيث شهد القرن
التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى حركة ثقافية وفكرية وعلمية
وحضارية كانت مصر في ذلك القرن هي الموجه لحركة التيار الفكرى
الاسلامى على مستوى العالم الاسلامى أجمع ومن هنا كان على السودان

أن يستفيد من كل هذه الظروف المعاصرة والنسائدة من جارتها في الشمال والتي أمدته بالجزء الأعظم من مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية .

ولقد سادت المؤثرات العربية الإسلامية السودان على نطاق واسع استجابة لظهور السلطنات الإسلامية والامارات التي ظهرت في السودان والتي أشبرنا إليها في الباب الخامس من ذلك البحث .

وقد كان اتصال سلاطين وأمراء تلك السلطنات المختلفة في العالم العربي الإسلامي وبصفة خاصة بمصر حيث الأزهر الشريف من العوامل الهامة التي ساعدت على ظهور الملامح الثقافية العربية الإسلامية وكانت هناك عدة مصادر أو مغذيات غدت السودان بتلك المؤثرات العلمية والفقهية والصوفية الإسلامية والتي تفاعلت جميعها بكل عطائاتها لكي يكون ذلك التراث الإسلامي المؤثر في الحركة الثقافية والإسلامية .

ولقد كان النبع المصري الإسلامي يشكل حجر الزاوية في حركة التطور الإسلامي ، أن لم يكن العمود الفقري لهذا التطور الإسلامي والثقافي والحضاري ، إذ نجد سلاطين الفونج والفور ومشايخ العبدلاب وتقلي قد اتصلوا برجال الأزهر وعلمائه وأرسلوا طلابهم للتزود من ذلك الزاد الفكري والعلمي الذي يعيب منه طلاب العالم الإسلامي ، ثم عاد هؤلاء الطلاب بعد أن نالوا درجة الاجازة كل في تخصصه لكي يغير هذا وجه التعليم والثقافة على أسس علمية صحيحة وكذلك رحل العديد من العلماء المصريين إلى السودان حيث طاب لهم المقام بين اخوانهم في جنوب السودان وبذلك يمكن القول أن مصر وعلمائها ومعاهدها هي التي غرست البذرة الأولى للثقافة العربية الإسلامية حيث كان القسم الشمالي من الوادي له كل المؤثرات الفكرية الإسلامية حيث ساهم الأزهر بدور لا ينكره أحد حيث أفرد أروقة لأبناء السودان كرواق سنار ودارفور ، ومن هنا استمرت هذه الصلات متصلة غير منقطعة طوال العصور التاريخية منذ العصر الإسلامي حتى عصرنا الحاضر .

ومن هنا فقد ساهمت مصر في اثراء الحركة الإسلامية الثقافية مساهمة فعالة في بذر بذور هذه الثقافة ومتابعة نموها واشتداد عودها

حتى استطاعت أن تصبأ السودان بالصبغة العربية الاسلامية ليساهم
السودان بدوره في القارة الافريقية .

وكما اتصل السودان بمصر فان اتصاله بالحجاز كان أوثق من
الناحية الدينية نظرا لوجود الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة
المنورة حيث كان السودانيين يرحلون الى هذه الأماكن وذلك للحج
والزيارة وكذلك للعلاقات الاقتصادية ، حيث ساعد ذلك على ازدياد
الروابط العلمية والثقافية ، ذلك لأن الحجاز يعد من أهم مجارى الثقافة
العربية الدينية في السودان .

وقد كان لدور الحجاز في عصر الفونج والفور وتلقى أبعد الأثر
وأشدّها خطرا في الحياة الدينية الثقافية وخاصة الطرق الصوفية ، كذلك
رحل العديد من علماء السودان الى الحجاز لأداء فريضة الحج بالإضافة
الى عملهم على تلقى العلم على يد رجال الدين والفقهاء في مكة والمدينة
ثم العودة الى السودان ، بل أن العديد من علماء الاسلام الحجازيين
ومختلف الجنسيات الاسلامية قد رحلوا الى السودان صحبة بعض
حجاج السودان الذين كانوا يحاولون اقناع هؤلاء العلماء الذين يتواجدون
في مكة المكرمة أو المدينة المنورة بالرحيل الى السودان وذلك عملا على
نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل تلك المناطق حيث كانت قبائل كثيرة
لا تزال على الوثنية ولم تعرف طريقها للاسلام اضافة الى تعميق المفاهيم
الاسلامية والقاء الدروس في العلوم الاسلامية والقيام بتحفيظ القرآن
الكريم .

ولقد وفد رجال الطرق الصوفية من الحجاز الى السودان حيث
اتخذوا هذه الطرق أسلوبا لنشر الدعوة الاسلامية حيث ساهمت بدورها
في نشر الاسلام على نطاق واسع .

كذلك ساهمت بلاد المغرب العربي وبلاد غرب القارة الأفريقية
(برنور كانم — مال سبنغى) بدور مشارك مع مصر والحجاز في اثراء
الحركة الثقافية في السودان لا سيما بعد رحيل العديد من العلماء المغاربة

والأندلسيين من غرب أفريقيا لا سيما في الجزء الغربي من السودان حيث كرددان ودارفور وهكذا أدت الاتصالات والاحتكاكات الثقافية الى رحيل العلماء ورجال الدين والدعاة والحجاج من بلاد المغرب العربي بعد نكسة الأندلس الى دارفور وكردفان •

وهكذا ساهمت الموجة الجنوبية القادمة عبر بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية في اثراء الحركة الاسلامية ، اضافة الى ما لعبه الدور الحجازي نظرا للرباط الروحي الذي شد أبناء السودان الى تلك المناطق وكل ذلك ساعد على تعميق المفاهيم والعلوم الاسلامية •

كذلك لعب جنوب الجزيرة العربية حيث اليمن وحضرموت بما شارك فيه بعض العلماء في ذلك الجزء من الوطن الاسلامي في اثراء الحركة الثقافية في السودان ، حيث قدم من اليمن في القرن الثامن الهجري • الرابع عشر الميلادي الشيخ (غلام الله بن عائد اليمنى) الذي قام بتدريس العلوم الاسلامية وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم اللغة العربية وبناء المساجد التي كانت تتخذ كأماكن للعبادة ونشر العلوم الاسلامية وتحفيظ القرآن الكريم ، حيث طاب الاستقرار له ولبعض العلماء العديدين الذين قدموا فيما بعد من حضرموت صاحبة بعضهم البعض أو بعض القوافل التجارية أو الحجاج وقد يكون الدور الذي تركه علماء جنوب الجزيرة العربية في السودان دور محدود لا يصل الى نفس الأدوار الذي لعبته المصادر والمنابع الأخرى التي غدت السودان بالغذاء الروحي والفكري الاسلامي •

وان كان ذلك لا ينكر دور القبائل العربية المهاجرة لأن المنابع العلمية والفقهية والصوفية كانت تأتي دائما من خارج السودان أو على الأقل قبل أن تتكون الطبقة العلمية السودانية •

كذلك شارك علماء الخلافة العباسية أو ما يمكن أن يطلق عليهم تجاوزا علماء الطرق البغداديين تلك المنابع السابقة في اثراء الحركة العلمية والفكرية والصوفية في السودان نظرا لقدوم بعض العلماء من

تلك الديار لا سيما الشيخ ناج الدين البهاري البغدادي الذي أدخل الطريقة الصوفية القادرية الى السودان وكان لهذه الطريقة دورها في نشر الاسلام في السودان حيث تكاثر عدد مريديها وأقطابها وازداد عدد من أخذوا تعاليم الطريقة القادرية .

وكما ساهمت تلك المنابع في ظهور الحركة الاسلامية الثقافية ، فان أهل دارفور اتصلوا بتونس وذهب كثيرا من طلابها الى كانو في بلاد الهوسا وتمبكتو في سنغاي .

واتصلت كل السلطنات والامارات الاسلامية بمراكز العلم في العالم الاسلامي . ومن هنا فان كل هذه العوامل قد أثرت في طبيعة الحياة الثقافية والعلمية والصوفية في السودان .

واذا كان قد قدر للثقافة الاسلامية في السودان أن تنمو وتردهر فان الفضل في ذلك يرجع الى قيام العلماء الذين دخلوا الى السودان والى طلاب السودان الذين رحلوا الى مصادر العلم والثقافة في العالم الاسلامي حيث قامت على أكتافهم معالم تلك الحضارة والثقافة العربية الاسلامية .

كما قامت كل من سنار والدامر والفاشر وديار الشايقية وغيرها من القبائل المنتشرة في السودان بدور في تدريس العلوم الاسلامية والثقافة العربية ، كما شارك الجعليين ، الشايقية في القيام بدور عظيم في تلك الأدوار الثقافية حيث ظهرت المراكز الاسلامية الثقافية السودانية مما جعل مدينة مكدينة الدامر مثالا تكون على كعبة الجعليين للثقافة العربية الاسلامية .

ومن هنا ظهرت تلك الثقافة العربية الاسلامية وازدهرت ومن ثم بدأت تؤتي ثمارها في عصر أسرة الفونج والفور وتقلي ، حيث تعتبر هذه السلطنات من أهم الفترات الثقافية الاسلامية في السودان .

ومن ثم أخذت دراسة العلوم الإسلامية والعربية تأخذ طابعها العلمي في أرض السودان حيث أقبل الشعب السوداني على دراسة علوم القرآن الكريم والتفسير والفقه والحديث والتصوف الذي ظهر في السودان إلى جانب العلوم النقلية والعقلية .

وهكذا ظهرت الحركة العلمية المزدهرة وظهرت المعاهد العلمية السودانية والكتاتيب وازدادت سمعة العلماء السودانيين حيث وفد الطلاب مثلاً من غرب أفريقيا ودارفور وكردفان وسنار إلى مدينة الدامر ، وكيف توافد العلماء ورجال الدين إلى تلك المدينة ، حيث أخذ رجال الدين يشرحون للناس أمور دينهم وأصولها مبينين لهم ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية بما ورثوه من عادات وتقاليد وثنية وشبه وثنية .

ولقد كان هؤلاء الدعاة ورجال الدين والفقهاء والذين قدموا من مصر والحجاز والمغرب والعراق وبلاد غرب أفريقيا خليطاً من الفقهاء والمتصوفة ، إلا أن الطابع العلمي كان هو الغالب على الوافدين من مصر ، بينما طابع الحجاز كان يغلب عليه طابع الصوفية وقد ساعد المغرب في إثراء كل من الأثرين السابقين .

كذلك شاركت مدينة الفاشر بعد أن أصبحت العاصمة والمركز الثقافي الإسلامي في غرب السودان المدن السابقة بحيث لا يقل دورها عن دور سنار ودنقلة والدامر .

وكان المسجد والكتاب والمدرسة والخلاوة من المراكز الإسلامية العلمية والثقافية التي لعبت دورها في إثراء الحركة العلمية الإسلامية ، حيث كان التعليم في هذه المراكز التعليمية يتم أولاً عن طريق تحفيظ القرآن الكريم وكان الفقه وعلومه هي المادة التي تلى القرآن الكريم في الأهمية ثم يلي الفقه علم الفرائض أو علم التوحيد .

وقد كان التصوف شائعاً علماً وعملاً في السودان وكان معظم العلماء صوفية وللصوفية أدب خاص وأوراد ومن أجل ذلك كانت دروس

الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى في المساجد والخلوى فقد انتشرت الطرق الصوفية في السودان كله من ذلك العهد حيث عملت تلك الطرق على التقرب بين القبائل والأجناس .

ولقد كان لشيوع هذه الثقافة الصوفية وغلبتها على كل العلوم أبعد الأثر في مستقبل الثقافة الدينية في السودان ، ذلك لأن هؤلاء المتصوفة قد أولوا عناية شديدة لما يسمى بعلم الباطن وكانوا يعتقدون أنه هو العلم الحقيقي وفي نفس الوقت فإن عنايتهم بعلم الظاهر لم تكن شديدة .

وفي واقع الأمر فإن الثقافة الدينية العلمية قد استهوت قلة من السودانيين ، بل إن الأغلبية قد انخرط في سلك الصوفية .

وفي تاريخ الحركة الإسلامية الثقافية في السودان نجد أن عدد كبير من الفقهاء قد جمعوا بين علمي الظاهر والباطن وصاروا من مؤيدي الطرق الصوفية وبهذا التلاحح وضعت النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية في السودان وقد خضع انتشار الإسلام في السودان خضوعاً كاملاً للجو الصوفي والمنتشر في العالم الإسلامي بعد أن كتب له النصر في صراعه الطويل مع أهل السنة .

كذلك بجانب الدراسات الإسلامية العلمية وانتشار الطرق الصوفية نشطت حركة الدراسات العربية والأدبية ، حيث ظهر علماء الدراسات العربية اللغوية ، الذين كان لهم شأن كبير في نشر علوم اللغة كالنحو والب صرف والبلاغة والعروض وعلوم البيان والمنطق والذين كانوا يدرسون هذه العلوم اللغوية وغيرها من العلوم ذات الصلة الوثيقة باللغة العربية بجانب العلوم الإسلامية ومن هنا كانت الدراسات اللغوية والأدبية وثيقة الصلة بالدراسات الإسلامية وعلوم الدين مما ساعد على تهيئة المناخ المناسب والملائم لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في شتى الفروع والعلوم المختلفة

لذا فاننا نجد أن دراسة علوم الأدب واللغة والتاريخ نشأت في السودان كما نشأت في البلاد الاسلامية الأخرى بالدرجة الأولى على أيدي رجال الدين حيث بفضلهم انتشرت هذه العلوم .

كذلك فان الثقافة العربية الاسلامية قد وصلت الى جنوب السودان ذلك لأن الصلة الطبيعية التي فرضتها ظروف بعض القبائل مثل البقارة الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالقبائل النيلية أثرها في بث بعض المؤثرات العربية في داخل بيئة الغابة وكذلك اتصال قبائل بنى سليم بالشك خاصة عند مدينة كاكا اذ لهم الفضل في نشر الثقافة العربية الاسلامية غربى النيل الأبيض الى مدى أبعد مما بلغت شرق ذلك النهر كذلك اتصال عرب الرزيقات بقبائل الدنكا عند بحر العرب .

كذلك ترك التجار العرب آثارهم الثقافية الاسلامية في جنوبى السودان بحيث أتيج لهؤلاء التجار العرب وأبناء السودان الشمالى الاختلاط المباشر بهذه العناصر الزنجية بل والاستقرار والتوطن والانصهار بالزواج من الزنجيات .

وقد نتج عن ذلك الاختلاط صبغ بعض المجموعات بالصبغة العربية الاسلامية وكذلك تم التأثير الاسلامى الثقافى فى المرتفعات جنوبى دارفور .

ومن هنا فقد تركت الحياة الثقافية العربية الاسلامية بصماتها الواضحة فى كل أنحاء السودان فى الجبال والوديان والغابات الاستوائية وكل المناطق كان التأثير الاسلامى الثقافى واضحاً كل الوضوح بحيث أصبح أهالى تلك المناطق يتحدثون اللغة العربية بطلاقة ، بل أن حياتهم تأثرت بالحياة العربية الاسلامية فى انتشار الثقافة والعلوم الاسلامية واللغة العربية بحيث أصبحت صورة مماثلة للقوى الاسلامية الثقافية فى شمال السودان .

وعلى هذا الأساس فقد عمت العلوم العربية الاسلامية كل أرجاء السودان الواسعة وذلك للدور الهام الذى قامت به فئات المتعلمين من

أبناء الشعب السوداني حيث تمثلت جوانب العلوم العربية الاسلامية
وذلك دليل قوى على وجود حياة علمية اسلامية سودانية راقية •

وأنه لولا أعمال القوى الاستعمارية والتبشيرية في جنوب السودان
لكانت الثقافة العربية الاسلامية قد تركت مؤثراتها القوية والفعالة في
تلك الربوع الجنوبية •

ولكن المخططات الاستعمارية والتبشيرية حالت دون المد الاسلامي
ولغته العربية بحيث كان له الغلبة في ذلك المضمار •

ومن ذلك ارتفعت صيحة تنادى بنشر اللغة العربية صاحبة الثقافة
العربية الاسلامية في جنوب السودان لكي يكون لها دورها في وحدة
السودان الشاملة وللقضاء على كل مخلفات الآثار الاستعمارية ، ذلك
لأن تعميق تلك المفاهيم العربية صاحبة الثقافة الاسلامية انما يعود
بدرجة الأولى في تأثيره على أن يحيا الفكر والأدب والثقافة في هذه
انبلاد بأقاليمها المتعددة ، الا من خلال احياء اللغة العربية لغة القرآن
الكريم • ونشر هذه اللغة يؤدي الى دراسة القرآن الكريم ومن ثم
انتشار المفاهيم والمعايير العربية الاسلامية التي تكسب السودان جميعه
ذلك الوجه العربي الاسلامي في قلب القارة الأفريقية •

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

(١) المصادر :

- ١ - النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الكندى المصرى ،
ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م .
- نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور ، يدار الكتب المصرية
رقم ٥٤٩ معارف عامة .
- ٢ - ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد عبد الله : تحفة النظار فى غرائب
الأمصار وعجائب الأسفار ، ٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ٣ - ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير الكتانى ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م :
رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- ٤ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : العبرودبوان المبتدا والخبر ،
القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .
- ٥ - ابن شداد ، القاضى بهاء الدين ت : ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م النوادر
السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ .
- ٦ - اليلوى ، أبو محمد عبد الله اليلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق
محمد كرد على ، دمشق ، ١٩٣٩ م .
- ٧ - ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٤ أجزاء ، القاهرة ،
١٣١٤ هـ .
- ٨ - ابن عبد الظاهر : محيى الدين أبو محمد بن عبد الظاهر ، ت ٦٩٢ هـ
١٢٩٢ م ، الألفاظ الخفية فى السيرة الشريفة السلطانية الملكية
الأشرفية ، ليبزج ، ١٩٠٢ م .

٩ - أبو شامة : شهاب الدين بن اسماعيل الشافعى ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٨ م
كتاب الروضين فى اخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد ،
القاهرة ، ١٩٦٢ م .

١٠ - المسعودى : أبو الحسن بن على ت ٣٤٦ هـ ، التنبية والشراف ،
ليدن ، ١٨٩٤ م .

١١ - محمد ود ضيف الله محمد الجعلى : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء
الصالحين والشعراء فى السودان ، القاهرة ، ١٢٢٤ هـ .

١٢ - المقرئى : تقى الدين بن على المقرئى ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، ١٢٧ .

١٣ - المقرئى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق
عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

١٤ - المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ،
القاهرة ١٩٣٤ م .

١٥ - كاتب الثبونة ، أحمد بن الحاج أبو على : مخطوط كاتب الثبونة فى
السلطنة والإدارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصلى عبد الجليل .

١٦ - ابن عبد الحكيم : كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدين ، ١٩٢٠ م .

١٧ - البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .

١٨ - ابن تبرى بردى ، أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة فى تاريخ
ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٠ م .

١٩ - التونسى ، محمد بن عمر : تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب
والسودان ، تحقيق خليل عساكر ، مصطفى مسعد ، القاهرة ،
١٩٥٦ م .

٢٠ - السيوطى : حبيب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محيى
الدين عبد الحميد ، ٢ جزء ، القاهرة ١٩٥٩ م .

- ٢١ — ابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨ م .
٢٢ — الادريسي : المغرب واط السودان ومصر والأندلس ، ليدن ، ١٨٩٦ م
٢٣ — اليعقوبى ، احمد : كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٢ م .

(٢) المراجع العربية :

- ١ — احمد لطفى السيد : نبائل العرب فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .
٢ — احمد سويلم العمرى : الافريقيون والعرب ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
٣ — احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٦ ،
القاهرة ، ١٩٨٣ م .
٤ — أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ، القاهرة ،
١٩٦٢ م .
٥ — أحمد عبد الرحيم نصر : تاريخ العبدلاب ، الخرطوم ، ١٩٦٩ م .
٦ — ابراهيم صالح بن يونس : تاريخ الاسلام وحياة العرب فى امبراطورية
كاتم — بونو — الخرطوم ، ١٩٧٠ م .
٧ — ابراهيم النعمة : الاسلام فى افريقيا الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
٨ — انعام الله خان : تقويم العالم الاسلامى ، كراتشى ، ١٩٦٤ م .
٩ — السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا ، القاهرة ،
١٩٧٩ م .
١٠ — جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
١١ — جمال الدين الرمادى : دراسات فى الأدب السودانى ، القاهرة ، د.ت
١٢ — جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

- ١٣— حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ١٤— حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ١٥— الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ١٦— الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ السودان ووادى النيل ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .
- ١٧— شوقى عطا الله الجمل ، تاريخ السودان وادى النيل ، ٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ١٨— شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ١٩— عباس مصطفى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
- ٢٠— عباس مصطفى عمار : وحدة وادى النيل ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٢١— عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ٢٢— عبد العزيز عيزى المجيد : التربية فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .
- ٢٣— عبد الحميد يونس : الهلالية فى الأدب الشعبى والتاريخ ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ٢٤— عبد المجيد عابدين : قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى ، الخرطوم ، ١٩٧٢ م .
- ٢٥— عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

- ٢٦— عبد المجيد عابدين : صور من وحدة الفكر في افريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٢٧— عبده بدوى : مدن افريقية ، القاهرة ، د.ت .
- ٢٨— عبده بدوى : السود والحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- ٢٩— عبد الله حسين : السودان في التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .
- ٣٠— عوض عبد الهادي العطا : تاريخ كردفان السياسى فى المهديّة ، الخرطوم ، ١٩٧٣ م .
- ٣١— سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- ٣٢— محمد ابراهيم ابو سليم : تاريخ الخرطوم ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ٣٣— محمد سليمان : دور الأزهر فى السودان ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .
- ٣٤— محمد عبد العزيز اسحق : نهضة افريقيا ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٣٥— محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٣٦— محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات البشرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ٣٧— محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ٣٨— محمد عبد الغنى سعودى : الاتصالات العربية الافريقية فى العصور القديمة (فصل) معهد البحوث العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .
- ٣٩— محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن : الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر ، الخرطوم ، ١٩٧٢ م .

٤٠- محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الافريقية في العصور الوسطى (فصل) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

٤١- محمد محمود الصياد ، محمد عبد الغنى سعودي : السودان ، دراسة في الوضع الكياني البشرى والبناء الاقتصادي ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٤٢- زاهر رياض : مصر وافريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

٤٣- مصطفى محمد سعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٤٤- مكي شببكة : السودان عبر القرون ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٤٥- مكي شببكة : مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٤٦- مكي شببكة : السودان عبر قرن ، الخرطوم ، ١٩٦٤ م .

٤٧- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية في افريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٤٨- نعيم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٤٩- يوسف فضل حسن : مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

(٣) المراجع العربية (المترجمة) :

- ١ — أرنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
- ٢ — بوركهارت : جون لويس : رحلات بوركهارت في بلاد النسوبة والسودان ، ترجمة مؤاد اندراوس ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ٣ — ديشان هوير : الديانات في افريقيا السوداء ، ترجمة احمد صادق حمدي ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ٤ — ستودارد ، لوشروب ، حاضر العالم الاسلامي ، تعليق شكيب ارسلان ترجمة ، عجاج بويهس ، القاهرة ، ١٩٤٣ م .
- ٥ — رولاند ، اوليفر ، جون فيج : موجز تاريخ افريقيا ، ترجمة دولت صادق ، ١٩٦٥ م .
- ٦ — جوليان ، شارل اندريه : تاريخ افريقيا ، ترجمة طلعت اباظة ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ٧ — ترمنجهام ، س.ج : الاسلام في شرق افريقيا : ترجمة محمد عاطف النواوي ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٨ — الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الرياض ، ١٣٩٨ هـ .
- ٩ — محمد عمر بشير : جنوب السودان ، ترجمة اسعد حليم ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

({) الدوريات :

- ١ — زاهر رياض : اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى ، مجلة كلية آداب القاهرة ، مايو ١٩٥٨ م .
- ٢ — شريف محمد شريف : توطن العناصر الافريقية الغربية فى السودان ، مجلة كلية آداب القاهرة ، ديسمبر ١٩٦٢ م .
- ٣ — شريف محمد شريف : مدينة عطبرة بالسودان ، مجلة الدراسات الافريقية ، القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٤ — محمد محمد امين : العبدلاب وسقوط مملكة علوة ، مجلة الدراسات الافريقية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- ٥ — مصطفى محمد سعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، مجلة آداب القاهرة ، ١٩٦٧ ، عدد ١٣ .
- ٦ — مصطفى محمد سعد : سلطنة دارفور ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ٢١ ، القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٧ — يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية للهجرة العربية الى السودان ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨ — عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الهجرات العربية حول بحيرة تشاد ، مجلة العرب ، الرياض ، شوال ١٣٩٨ هـ .

(٥) الرسائل الجامعية :

- ١ — حسن محمد الفاتح قريب الله : التصوف في السودان الى نهاية عصر الفونج ، ماجستير ، كلية الآداب جامعة الخرطوم ، ١٩٦٥ م .
- ٢ — راجية محمد عفت : الثقافة العربية في شرق افريقيا : دكتوراه ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، د.ت .
- ٣ — زين العابدين السراج : دولة كاتم الاسلامية ، ماجستير ، كلية آداب القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- ٤ — ابو بكر على : الثقافة العربية في نيجيريا ، دكتوراه ، كلية الآداب — جامعة القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ٥ — سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى ، ماجستير ، كلية آداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٦ — شوقي عبيد القوى حبيب : العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية في العصر المملوكي ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

- ٧ — عبد الرازق عبد المجيد سليم : العلاقات بين مصر والنوبة في العصر الفاطمي ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، ١٩٧٨ م .
- ٨ — عبد الفتاح مقلد الفنيمى : سلطنة البرنو الاسلامية ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- ٩ — عطية القوصى : بنو كنز ، ماجستير ، كلية الآداب — جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ١٠ — محمود محمد على الحويرى : أسوان في العصور الوسطى ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ١١ — محبى الدين خليل : لغة البقارة في غرب السودان ، دكتوراه ، آداب القاهرة ، ذات .
- ١٢ — نوال على محمد عبد العزيز : العرب في شرق افريقيا في القرن الثامن الميلادى حتى تدخل البرتغاليين في القرن الخامس عشر الميلادى ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية — جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ م .

المراجع الاجنبية

- 1 — Arkell, A. J., History of the Sudan. London, 1961.
- 2 — Barbour, K. M., The Republic of the Sudan. 1961.
- 3 — Cooley W. D. The Negro Land of the Arabs. Landon, 1891.
- 4 — Gesse, R., Seven Years in the Sudan. London, 1882.
- 5 — GrawFord, G. S., The Fung Kingdom of Senner. 1951.
- 6 — Greenberg, J., The Influence of Islam on Sudan Religion, N. Y., 1946.
- 7 — Loncpool, : A History of Egypt in the Middle Ages. Longon, 1901.
- 8 — Lewis, I. M., : Islam in Tropical Africa. London, 1969.
- 9 — Halt, P. M. : History of Islam. 2 vol.Cambridge. 1970.
- 10 — Hamilton, J. A., The Anglo Egyptian Sudan. London, 1935.
- 11 — Hogdkin, T. : The Kingdoms of Western Sudan. London, 1963.
- 12 — Macmichael, H A. : History of the Arbs in the Suan London, 1967

- 13 — Macmichael, H. A. : The tribes of Northern and central Kordofan. Cambridge, 1917.
- 14 — Macmichael, H. A., The Coming of the Arabs in the Sudan 1935.
- 15 — Mandour El Mahadi, : A short History of the Sudan. London, 1965.
- 16 — Nadler, L. : Funy origins S. N. R. vol. 14.
- 17 — Poul, A. : A History of the Bija Tribes of the Sudari, London, 1971.
- 18 — Polime, R. Travels in Kordofan, London, 1844.
- 19 — Shinnie, P. L., Medieval Nubia. ,Khartoum, 1954
- 20 — Toynbee, A. J., Between Niger and Nile, New York, 1466.
- 21 — Trimingham, J. S , : Islam in the Sudan. London, 1949.
- 22 — Trimingham, J. S. : A History of Islam in West Africa. London, 1462.
- 23 — Yusuf Fadel Hassan. : The Arbs and Eastern Sudan. Edinbrough, 1967.

فهرس المحتويات

الصفحة

٥	الاهـداء
٧	التصدير
٩	التهـيد
١١	المقدمة

الباب الاول

١٥	معاير الاسلام الى السودان
١٧	المعبر الأول : برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء
١٩	المعبر الثاني : البحر الأحمر
١٩	المعبر الثالث : باب المندب
٢٢	المعبر الرابع : المعبر المصرى الى السودان
٢٤	المعبر الخامس : بلاد المغرب

الباب الثانى

٢٧	الهجرات العربية الى السودان — الهجرات العربية قبيل الاسلام — الهجرات العربية بعد فتح مصر — الهجرة العربية بعد مرحلة الأحلاف إلعربية فى مصر
----	--------	--

الباب الثالث

٤١	الفتح الاسلامى لمصر والعلاقة مع السودان
٤٦	انتشار الاسلام فى السودان
	كثافة الهجرة العربية
٥٨	الدولة الطولونية والعلاقة مع السودان
٦٤	العلاقات فى عهد الاخشبيين
٦٨	الخلافة الفاطمية والعلاقة مع النوبة
٧٤	الأيوبيون وبلاد النوبة
٨٠	العصر المملوكى والنوبة الاسلامية

الباب الرابع

١٠١	الممالك المسيحية وانتشار الاسلام
١٠٣	مملكة المقرّة وعاصمتها دنقلة
١٠٩	مملكة علوة وعاصمتها سوبا
١١٧	سقوط مملكة علوة وانتشار الاسلام

الباب الخامس

١٢١	السلطنات والامارات الاسلامية
١٢٢	الامارة العمرية الاسلامية (وزعامة شنقير)
١٣١	امارة بنى كنز العربية
١٤٦	سلطنة الفونج الاسانمية

الصفحة

١٥٤	مشيخة العبدلاب العربية
١٧٢	سلطنة الفور الاسلامية
١٩٠	امارة تقلى الاسلامية

الباب السادس

٢٠٩	القبائل العربية في السودان
٢١٠	الجعليون — فروعهم — البطون — العشائر — القبائل
٢١٦	الأشراف — فروعهم — البطون — العشائر — القبائل
٢٢٠	جهينة — فروعهم — انبطون — العشائر — القبائل
٢٣٢	الهلاليون — فروعهم — البطون — العشائر — القبائل
٢٣٥	الهوارة — فروعهم — البطون — العشائر — القبائل
٢٣٨	ربيعة — فروعهم — البطون — العشائر — القبائل
٢٥٢	الهجرات العربية المتأخرة — الرشيدة — قبائل عربية اخرى

الباب السابع

٢٦١	مآثر الثقافة العربية الاسلامية
٢٦٢	الهجرة العربية ودورها في الصبغة العربية الاسلامية
٢٧٠	الدور المصري الاسلامى
٢٧٧	دور الحجاز في اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية
٢٨٠	دور المغرب وغرب افريقيا
٢٨٤	دور جنوب الجزيرة العربية
٢٨٦	دور علماء الخلافة العباسية في بغداد

الصفحة

٢٨٩	دور المركز الاسلامى السودانى ، سنار ، الفاشر ، الدامر ...
٢٩١	ديار الشايقية — الجعليين
	دور المؤسسات الاسلامى ، المسجد ، الكتاب ، الخلوة ،
	المدرسة ، الفقهاء ورجال الدين ، الطرق الصوفىة وانتشارها
٢٩٦	فى السودان
٣٠١	الثقافة الاسلامى وانتشارها فى الجنوب وكل انحاء السودان...
٣٠٤	الطرق الصوفىة وقلة الانباج العلمى الاسلامى
٣٠٩	الخاتمة
٣٥٣	المصادر والمراجع العزىة
٣٦٠	المراجع الأجنبىة
٣٦٣	فهرست المحتويات

رقم الايداع بدار الكتب القومية

٨٥/٥٥٨٥

شركة دار الاشعاع للطباعة

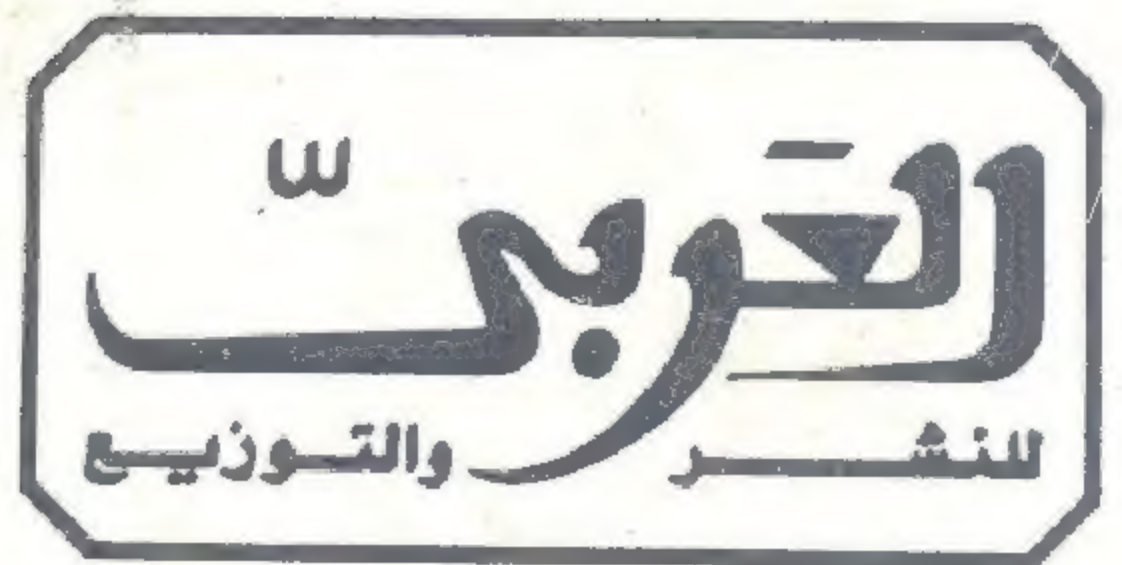
١٤ ش عبد الحميد السيدة زينب القاهرة

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0298434

تصميمه الغلاف عمر الفيومي



٦٠ شارع القصر العيني - امام روز اليوسف - القاهرة
٥٤٧٤٨٢ - ٥٤٧٥٦٦